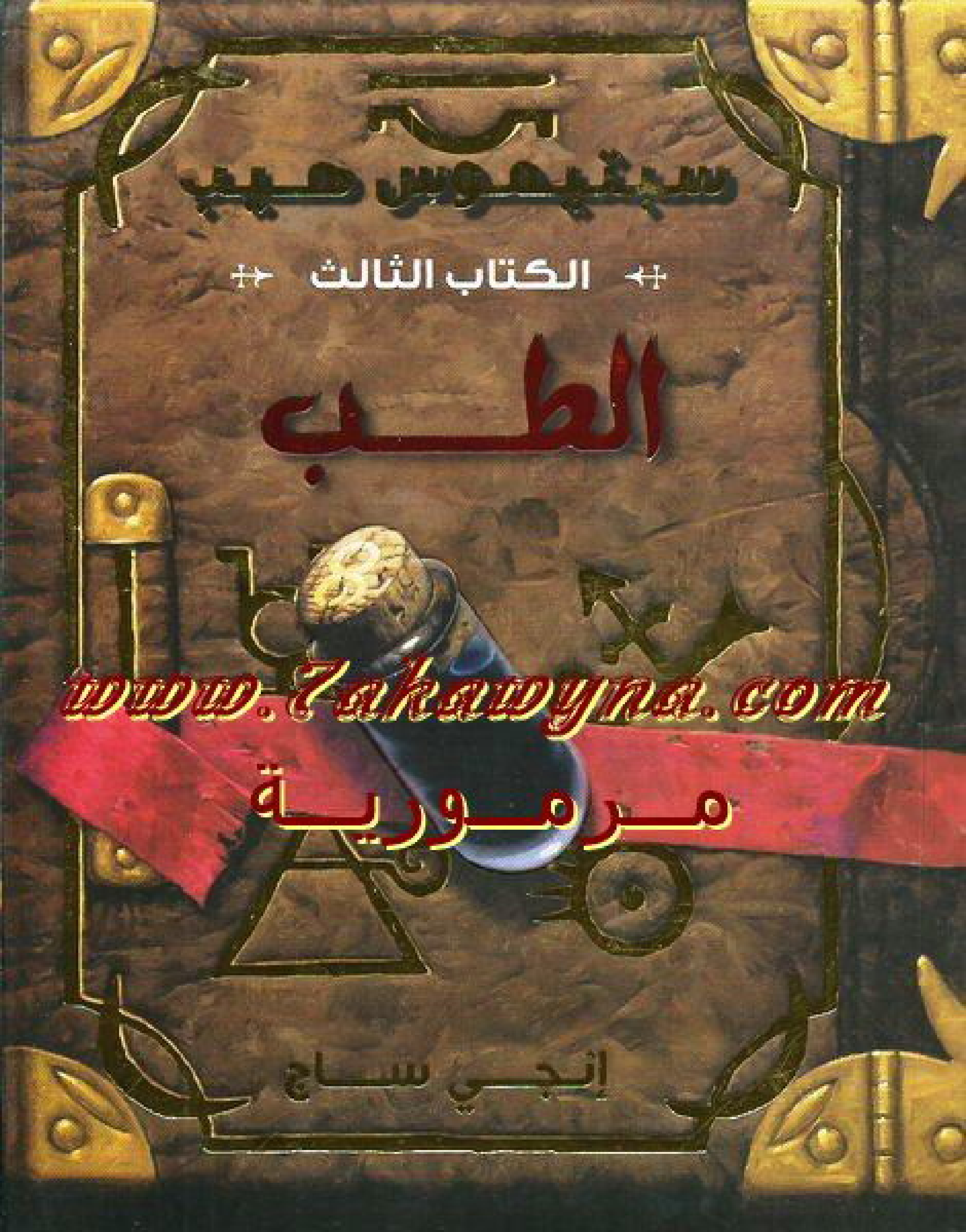

سبتيموس هيب
الكتاب الثالث
الطب
www.7akawyna.com
مرمورية
إنجي ساج

سبتيموس هيب

الكتاب الثالث

ملحمة تفعمها العجائب والغرائب والتعاويذ السحرية والمفاجآت، وعالم فريد ثري بالتفاصيل المدهشة، تدعوك لتدخله، ولن ترغب في مغادرته أبدًا!!

صدر منها:

1- السحر
2- الطيران
3- الطب
4- الرحلة

www.nahdetmisr.com

سبتيموس هيب

الكتاب الثالث

الطب

سبتيموس هيب

الكتاب الثالث

الطب

إنجي ساج

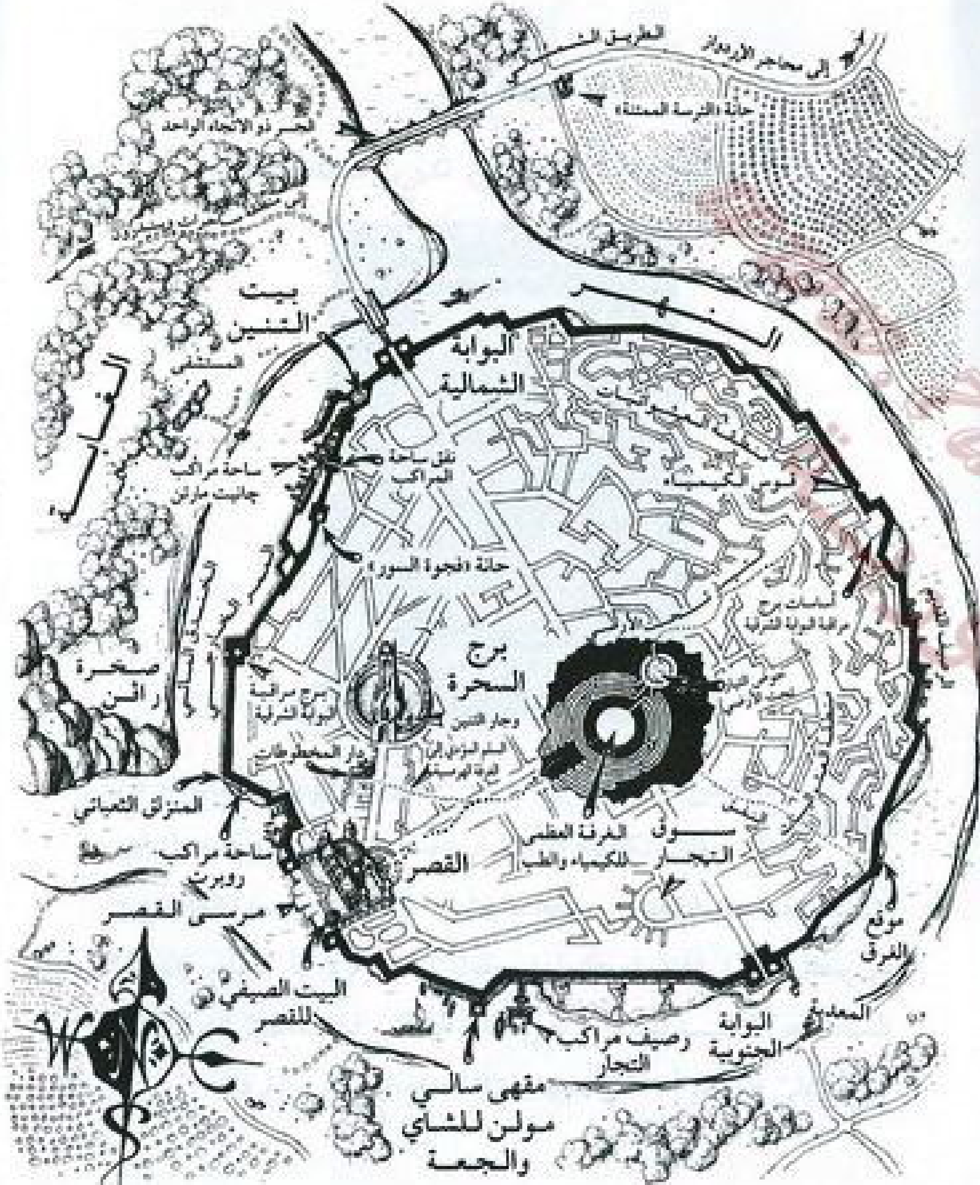
رسوم مارك زوج

دار نهضة مصر للنشر

إلى رودري
الكيميائي الخاص بي
مع حبي وتقديري

محتوى الكتاب

الطب



(تم نقل البرج وإعادة بنائه، بناءً على تعليمات الملكة داتشيت الثالثة)

القلعة

تمهيد:
البورتريه المعلق في السندرة



يقف سايلاس هيب وروبرت جرينج - حارس البوابة الشمالية - في ركن مظلم تكسوه الأتربة في سندرة القصر، وأمامهما باب صغير لغرفة **محكمة الغلق**، ويستعد سايلاس - وهو أحد السحرة العاديين - **لأن يبطل مفعول الغلق المحكم** لها. ويقول: «كما ترى يا جرينج، إن هذا المكان هو الأنسب لفيشي؛ فهي بهذا الشكل لن يمكنها الفرار أبدًا، كل ما عليّ فعله هو أن **أغلق عليها إغلاقًا محكمًا** في هذه الغرفة».

لكن جرينج توجس خيفة، فحتى هو يعلم أن التصرف الأمثل حيالَ الغرف **محكمة الغلق** في أي سندرة هو تركها على حالها **باختامها**: «أنا غير مقتنع بهذا الكلام يا سايلاس. إن الأمر يبدو مريبًا. وعلى أية حال، ليس معنى أن الحظ حالفك وعثرت على مستعمرة جديدة من الفيش أسفل الألواح الخشبية للأرض هنا في السندرة - أن الفيش لن تترك المكان».

فيرد عليه سايلاس، متشبثًا بصندوقه الذي تسكنه مجموعة الفيش الثمينة التي عثر عليها توًا: «بل إنها سوف تمكث هنا رغمًا عنها إذا كان المكان **محكم الغلق**. وأنت لا تقول هذا الكلام الغريب إلا لعلمك بأنك لن تستطيع أن تغري مجموعتي الجديدة هذه وتجعلها تهرب مني».

«على فكرة، أنا لم أغرِ الفرقة الأخيرة يا سايلاس هيب. لقد جاءت هي بمحض إرادتها، ولم يكن في وسعي شيء».

يتجاهل سايلاس كلام جرينج؛ فهو يحاول أن يتذكر الآن كيف يقوم **بإبطال مفعول الغلق المحكم**.

يأخذ جرينج في الدق بقدمه على الأرض بنفاد صبر، ثم يقول: «هيا، أسرع يا سايلاس. فهناك بوابة أنا مسئول عنها، ولا بد أن أعود. كما أن لوسي أحوالها غريبة جدًا هذه الأيام، ولا أريد أن أتركها وحدها لمدة طويلة».

يغمض سايلاس عينيه؛ حتى يفكر على نحو أفضل. وبصوت خفيض حتى لا يسمع جرينج ما يقول، يرتل **تعويذة الغلق** ثلاث مرات وينهيها بتعويذة **إبطال المفعول**، ثم يفتح عينيه.. ولكن لم يحدث شيء.

فيقول له جرينج: «اسمع، أنا ذاهب الآن. فأنا لست تحت أمرك. فبعضنا لديه أعمال يباشرها».

وفجأة، وبصوت مدوٍّ، ينفتح باب **الغرفة المحكمة الغلق** معلنًا انتصار سايلاس «أرأيت؟ فأنا لا ألعب هنا، أنا ساحر يا جرينج.. أووف! ما هذا؟»؛ فالغرفة تهب منها دفقة هواء بارد كالثلج، وتنبعث منها رائحة مكتومة، مارة سريعًا بسايلاس وجرينج وهي تسحب معها أنفاسهما وتتركهما في نوبة سعال.

يقول جرينج مرتجفًا: «ما هذا البرد؟». لكن سايلاس لا يرد عليه؛ فهو الآن داخل الغرفة التي **أبطل مفعول غلقها**، يحاول أن يقرر أفضل مكان يترك فيه مستعمرة «فيشه». ولأن جرينج يقوده الفضول، فإنه يلج الغرفة مترددًا. إنها لغرفة صغيرة، أكبر قليلًا من الدولاب. وفيما عدا الضوء الصادر عن شمعة سايلاس، يخيم عليها ظلام حالك، بما أن نافذتها الوحيدة مسدودة بالطوب. إنها لا تزيد على كونها فراغًا خاليًا، أرضيته مكسوة بألواح خشبية متربة، وحوائطه خالية، وطلاؤها مشقق. لكنها - كما يلاحظ جرينج فجأة - ليست خالية تمامًا؛ إذ إن هناك، وسط الظلال المعتمة، لوحة زيتية بالحجم الطبيعي لإحدى الملكات، تستند إلى الحائط الأقصى.

ينظر سايلاس إلى البورتريه، إنه يستطيع الجزم بأنها لوحة زيتية مرسومة بمهارة لملكة من ملكات القصر حكمت منذ زمن بعيد جدًا. يستطيع الجزم بأن اللوحة قديمة؛ لأن الملكة ترتدي (التاج الأصلي)، وهو ذلك التاج الذي فُقد منذ قرون طويلة مضت. وتميزت الملكة بأنف حاد مدبب،

وشعر مصفف بتسريحة الضفائر الملفوفة حول الأُذنين كأنهما زوجان من أغطية الأذن الواقية من البرد. يتعلق بملابسها قرد الأي أي - وهو كائن صغير بشع المنظر له وجه جرذاني وحوافر حادة وذيل ثعباني طويل. وبعينيه الحمراوين المستديرتين يحدق إلى سايلاس كأنه سينقضُّ من الصورة ويعضه بسنه الطويلة والوحيدة ذات الطرف الحاد المدبب. تبدو الملكة وكأنها هي أيضًا تنظر خارج اللوحة، لكن بوجه يكسوه تعبير متغطرس مستنكر. فرأسها مرفوعٌ، ينتصب فوق ياقة عالية مكشكشة أسفل ذقنها، ويعكس الضوء الصادر عن شمعة سايلاس عينيها الثاقبتين اللتين بدا عليهما كأنهما تلاحقان سايلاس وجرينج أينما اتجها.

يرتعد جرينج من فرط الخوف ويقول: «لن يروقني أن أجد نفسي وجهًا لوجه أمامها وأنا وحدي في ليلة مظلمة».

يوافق سايلاس جرينج الرأي؛ فهو أيضًا لن يروقه أن يجد نفسه وجهًا لوجه مع هذه الملكة في ليلة من الليالي المظلمة، كما أن فيشه الثمينة أيضًا لن يروقها ذلك، فيقول لجرينج: «لا بد أن تترك الملكة هذا المكان. لن أدعها تزعج مستعمرة فيشي التي لم تبدأ اللعب بعد».

لكن ما لا يعلمه سايلاس هو أن الملكة كانت بالفعل قد تركت الغرفة. فما إن أبطل سايلاس **الغلق المحكم** للغرفة، حتى خرج شبحا الملكة إيثلدريدا وكائنها من اللوحة، وفتحا الباب، وبأنفين مرفوعين عاليًا، خرجا يسيران بخطوات سريعة وصغيرة - بعد أن مرَّا أمام سايلاس وجرينج مباشرة. لم تولِ الملكة وكائن الأي أي الرجُلين اهتمامًا؛ إذ إن لديهما الآن أمورًا أهم يباشرانها.. فأخيرًا وبعد طول انتظار تحررا.

I

سنوري سنوريلسن



وجهت *سنوري سنوريلسن مركبها التجاري على امتداد المياه الهادئة للنهر نحو القلعة..* كان الوقت عصر يوم خريفي يغلفه الضباب، وشعرت سنوري أخيرًا بالارتياح بعد أن تجاوزت بمركبها المياه العاصفة عند الميناء التي كانت تشهد حركة مد وجزر قوية.. ولقد انخفضت سرعة الريح، لكن كان هناك ما يكفي من النسمات التي تسمح بدفع القلْع الضخم لمركب سنوري - والذي يُطلق عليه ألفرون نسبة إلى اسم والدتها، مالكة المركب - بالقدر الذي يمكنها من إدارة الدفة بأمان حول صخرة راڤن، والتوجه إلى رصيف المراكب المجاور مباشرة لمقهى سالي مولن للشاي والجعة.

كان اثنان من الصيادين الشباب، لا تتجاوز سنهما سن سنوري بكثير، قد عادا لتوهما من رحلة صيد لمدة يوم تكللت بصيد وافر من سمك الرنجة، وقد غمرتهما السعادة أن تمكنا من التقاط الحبال الثقيلة المصنوعة من خيوط القنب التي ألقتها سنوري من مركبها، مع استعدادها لإرسائه. ورغبة منهما في استعراض مهاراتهما، ربطا الحبال حول قائمين كبيرين، وأمّنا رسو الألفرون، كما أسعدهما كثيرًا بعد ذلك أن أخذا يغدقان على سنوري بكل أنواع النصائح عن كيفية إنزال القلاع وأفضل طريقة لتخزين الحبال، إلا أن سنوري تجاهلت كل هذه النصائح، ويعود ذلك جزئيًا إلى أنها كانت لا تكاد تفهم كلامهما، لكن السبب الأساسي أنه لا أحد يُملي على سنوري سنوريلسن ما تفعله - لا أحد على الإطلاق، ولا حتى والدتها - بل بالأخص والدتها.

كانت سنوري - وهي شابة فارعة الطول بالنسبة لسنها - فتاة نحيلة كالعود، لكنها قوية البنية على نحو مثير للدهش. وبسهولة المتمرس الذي قضى أسبوعين يبحر بمفرده، أنزلت سنوري قلع المركب، ولفّت الطيات الكبيرة لقماشه الثقيل، ثم رفعت الحبال ولفتها بدقة وأمنت ذراع الدفة، ثم قامت - مع إدراكها لمراقبة الصيادين لها - بإغلاق باب فتحة المركب الذي يفتح على المخزن المكدس ببالات ثقيلة من الأقمشة الصوفية، وأجولة من البهارات الحريفة، وبراميل ضخمة من السمك المملح، وبعض الأحذية الطويلة المصنوعة من جلد حيوان الرنة، والتي تتسم بالأناقة. وأخيرًا - مع تجاهلها مزيدًا من العروض بالمساعدة - دفعت سنوري لوح المعبر الخشبي من المركب وعبرته

نازلةً إلى البر، تاركة أولر - قطها البرتقالي الصغير ذا الذيل الأسود الطرف - يتجول خلسةً على ظهر المركب ويمنع الجرذان من الاقتراب.

بعد أن مكثت سنوري ما يزيد على أسبوعين في عرض البحر - كانت تتوق لأن تطأ قدماها مرة أخرى أرضًا يابسة صلبة، لكن بعد أن بدأت تسير على امتداد الرصيف بدا لها وكأنها لا تزال تترنح على متن الألفرون؛ حيث كان الرصيف يتحرك أسفل قدميها، تمامًا كما كان يفعل مركبها القديم في المياه. أما الصيادان اللذان كان من المفترض أن يكون كل منهما في ذلك الوقت قد عاد إلى بيته ووالدته المحترمة - فكانا يجلسان على صف من أواني الكابوريا الخالية، وصاح أحدهما قائلًا: «مساء الخير يا آنسة».

لكن سنوري تجاهلته، وواصلت طريقها إلى آخر الرصيف، ثم سلكت الطريق الرئيسي المؤدي إلى عوامة ضخمة حديثة الإنشاء، أقيم عليها مقهى عامر مزدهر. كان المقهى عبارة عن مبنى من الأخشاب مشيد على أحدث طراز، يتكون من طابقين، وله نوافذ طويلة منخفضة تطل على النهر. بدا المقهى مرحبًا وسط طقس بداية الليل البارد وصدر ضوء أصفر دافئ، ألقته المصابيح الزيتية التي تتدلى من السقف في الداخل. ولم تصدق سنوري مع عبورها المعبر الخشبي المؤدي إلى العوامة أنها أخيرًا وصلت؛ وصلت إلى مقهى سالي مولن للشاي والجعة ذائع الصيت الذي طالما سمعت عنه. وبمزيج من الإثارة والتوتر، دفعت سنوري الباب المزدوج للمقهى، وكادت تسقط على صف طويل من دلاء إطفاء الحريق المليئة بالرمال والمياه.

كان الجو في مقهى سالي مولن يعمُّه، وبصفة دائمة، طنين الثرثرة والحوارات الودود، لكن ما إن وطئت سنوري بقدميها عتبة المقهى، حتى توقف الطنين فجأة، وكأن هناك من أوقفه بزرٍّ. وبحركة شبه جماعية، وضع الزبائن كئوسهم على الطاولات وأخذوا يحدقون إلى هذه الشابة الأجنبية التي ترتدي العباءة المميزة للرابطة الهنزية؛ وهي الرابطة التي ينتمي إليها كل تجار الشمال. ومع شعور سنوري باحمرار وجنتيها خجلًا، ومع رغبتها العارمة في عدم حدوث ذلك واصلت تقدمها نحو المائدة الطويلة، عازمةً على أن تطلب قطعة من كعك الشعير الذي تشتهر به سالي ونصف قدح من جعة الربيع المخصوصة اللذين طالما سمعت عنهما.

خرجت سالي مولن من المطبخ، بهيئتها القصيرة الممتلئة، وبوجه يعلوه قدرٌ متساوٍ من النمش وذرات دقيق الشعير، وما إن وقع بصرها على العباءة ذات اللون الأحمر القاتم التي يتميز بها تجار الشمال، ورباط الرأس الجلدي النمطي الخاص بهم حتى قطبت جبينها، وقالت بنبرة حادة: «أنا لا أقدم طلبات لتجار الشمال هنا».

بدا على سنوري الارتباك؛ إذ لم تكن واثقة إذا ما كانت بالفعل فهمت كلام سالي، رغم إدراكها أن سالي لم تكن مرحبة بها.

قالت سالي، بعد أن رأت أن سنوري لم تُبدِ ما يشير إلى أنها في طريقها للمغادرة: «لقد رأيتِ اللافتة المعلقة على الباب في الخارج. وهي تقول إنه لا يُسمح بدخول تجار الشمال. وأنتِ إذن غير مرحب بكِ هنا، ليس في مقهاي على الأقل».

فصاح أحد الزبائن قائلًا: «ما هي إلا شابة صغيرة يا سالي، امنحي الفتاة فرصة».

وارتفع همس يوافق هذا الرأي صدر عن بقية الزبائن، فألقت سالي مولن نظرة أخرى إلى سنوري - مدققة فيها هذه المرة - ورَقَّ التعبير الحاد الذي كان يعلو وجهها. صحيح أنها ليست سوى فتاة شابة، تبلغ من العمر على أقصى التقديرات ستة عشر عامًا، هكذا قالت سالي في سرها.. كانت الفتاة تتميز بنفس الشعر الأشقر الفاتح والوجه الشاحب المألوفين لدى تجار الشمال، ولها نفس العينين الزرقاوين شبه الشفافتين اللتين تميزان معظمهم، لكنهما خلتا من تلك النظرة القاسية التي تذكرتها سالي مولن، والتي صاحبتها رجفة سرت في جسدها.

قالت سالي متراجعة عن رأيها: «في الحقيقة، أعتقد أن الظلام بدأ يحل الآن في الخارج، ولست أنا من يطرد فتاة شابة لتخرج في ظلام الليل بمفردها. ماذا تطلبين إذن يا آنسة؟».

ردت سنوري متلعثمة: «سوف... سوف يطلب»، بدأت تكافح لتتذكر قواعد اللغة - أهي سوف يطلب أم سوف أطلب؟ - ثم قالت: «سوف أطلب قطعة من كعك الشعير الفاخر الذي تشتهرين به ونصف قدح من جعة الربيع المخصوصة، لو سمحتِ».

فعلق أحد الزبائن قائلًا: «تريد مشروب الربيع المخصوص، ما رأيكم في هذا؟ يا لها من فتاة جريئة!».

قالت سالي وهي توبخه: «اسكت يا توم.. خيرًا لك يا آنسة أن تجربي مشروب الربيع العادي أولًا». ثم سكبت سالي الجعة في قدح كبير من

الخزف الصيني، ودفعته عبر المائدة الطويلة نحو الفتاة. أخذت سنوري رشفة بتردد، وعلى الفور علت وجهها علامات الاشمئزاز والنفور، وهو ما لم يُدهش سالي؛ فاستساغة مشروب الربيع أمر يُكتسب مع الوقت، ومعظم الشباب ينفرون من مذاقه؛ حتى سالي نفسها كانت ترى فيما مضى أن مذاقه كريه. ومن ثم، سكبت سالي كوبًا من عصير الليمون بالعسل لسنوري، ووضعته على صينية مع قطعة كبيرة من كعك الشعير، فقد بدا لها أن الفتاة في حاجة إلى وجبة دسمة تسمن من الجوع. وقدمت سنوري - لدهش سالي - عملة فلورين فضية كاملة لتدفع حسابها، وأعادت لها سالي بقية الحساب في صورة كومة كبيرة من البنسات، ثم ذهبت سنوري لتجلس إلى مائدة خالية بجوار النافذة، وأخذت تنظر إلى مياه النهر التي بدأ يتسلل إليها الظلام مع دخول الليل.

وعادت الثرثرة تملأ الأجواء في المقهى من جديد، فتنفست سنوري الصُعداء. كان حضورها إلى مقهى سالي مولن بمفردها أصعب ما قامت به في حياتها؛ أصعب حتى من إبحارها وحدها لأول مرة في عرض البحر بالألفرون؛ وأصعب من مهمة شراء كل تلك البضائع المخزنة الآن في مخزن المركب، والتي اشترتها بالنقود التي ادخرتها على مدار سنوات طويلة؛ وأصعب بكثير من اجتياز بحر الشمال العظيم الذي يفصل بين أرض تجار الشمال والأرض التي يقع فيها مقهى سالي مولن للشاي والجعة. لكنها في نهاية الأمر نجحت في كل ذلك؛ فسنوري سنوريلسن تتبع نهج أبيها، وليس ثمة من يستطيع أن يمنعها.. ولا حتى والدتها.

وفي وقت لاحق من هذا المساء، عادت سنوري إلى الألفرون، فقابلها أولر في هيئته الليلية، وأطلق مواءً طويلًا بصوت خفيض؛ ترحيبًا بحضور سيدته، ثم تابع خطاها على امتداد ظهر المركب. ومع شعور سنوري بفرط الامتلاء من كعك الشعير لدرجة أنها لا تكاد تستطيع أن تتحرك، فقد جلست في مكانها المفضل عند مقدمة المركب، وأخذت تربت على ظهر أولر الليلي الذي تحول إلى نمر أسود كسواد الليل، له عينان خضراوان في اخضرار البحر، وذيل برتقالي الطرف.

غمر سنوري إحساس مفرط بالحماس والإثارة إلى الحد الذي منعها من النوم، وجلست بذراع تتدلى باسترخاء على فروة أولر الدافئة والناعمة كالحرير، وراحت تنظر بعيدًا عبر الامتداد الشاسع للنهر حتى وصل بصرها إلى شواطئ أراضي الحقول على الضفة المقابلة. ومع اشتداد برودة طقس الليل بعد فترة، تلحفت سنوري بقطعة قماش من عينات الصوف التي تخطط لبيعها - وبسعر جيد - في «سوق التجار» الذي سيحل موعده بعد أسبوعين. كانت تقبع على «حجرها» باتزان خريطة للقلعة، توضح طريق الوصول إلى السوق، وعلى ظهر الخريطة دونت تعليمات مفصلة توضح طريقة الحصول على ترخيص لتأجير كشك تعرض فيه بضاعتها، كما توضح كل صغيرة وكبيرة عن القواعد والقوانين الخاصة بعمليات البيع والشراء. أضاءت سنوري المصباح الزيتي الذي جلبته من قمرتها الصغيرة في الأسفل، وبدأت تقرأ هذه القواعد والقوانين. سكنت الرياح الآن، وتوقفت الأمطار الخفيفة التي كانت تتساقط في بداية الليل؛ فبات الجو صحوًا وصافيًا، وأخذت سنوري

تشتم الهواء الذي بدت رائحته مختلفة وغريبة تمامًا عن رائحة هواء البلاد التي جاءت منها.

ومع تقدم ساعات الليل، بدأت مجموعات صغيرة من زبائن مقهى سالي ينصرفون تباعًا، إلى أن رأت سنوري بعد منتصف الليل مباشرة سالي وهي تطفئ المصابيح الزيتية وتغلق باب المقهى بالمزلاج. ابتسمت سنوري بسعادة؛ فالنهر بات الآن ملكًا لها وحدها، وحدها هي وأولر والألفرون. ومع تأرجح المركب برفق مع حركة مياه المد، شعرت سنوري بتسلل النوم إلى جفونها، فنحت جانبًا القائمة المملة المرهقة التي تشير إلى الأوزان والمقاييس المسموح بها، ثم أحكمت حولها قطعة الصوف متلحفةً بها، وأخذت تحملق وتمعن النظر عبر امتداد النهر للمرة الأخيرة قبل أن تنزل إلى قمرتها - وهنالك رأته؛ رأت مركبًا طويلًا شاحبًا يحيط به بريق يميل إلى الاخضرار، وكان ينعطف عند صخرة راڤن. جلست سنوري في سكون تام وراقبت المركب وهو يتقدم في طريقه ببطء وصمت في مسار يتوسط النهر، مقتربًا بسرعة ثابتة في اتجاه الألفرون.. ومع اقتراب المركب أكثر فأكثر، رأته وقد أخذ يتلألأ في نور القمر، وإذا برجفة تسري في أعماقها؛ فقد علمت سنوربلسن - وهي رائية للأرواح - ما الذي تراه بالتحديد أمامها؛ إنه مركب شبحي. أطلقت سنوري صفارة انبهار هامسة، وهي ترى رأي العين لأول مرة مركبًا بهذا الشكل. لقد اعتادت أن ترى حطام مراكب صيد قديمة يدير دفاتها أشباح ربابنتها الغرقى، تبحث بلا أمل عن مرسى آمن، كما اعتادت أن ترى كل حين وآخر شبح سفينة طويلة لأحد المحاربين، تعود مجترة

جراحها بعد معركة ضارية، بل إنها رأت ذات مرة السفينة الشبحية الشاهقة لأحد التجار الأثرياء، وكانت الكنوز تنسكب من فتحة على أحد جانبيها، لكن ما لم تره قط من قبل هو المراكب الملكية - وهي ترى الآن مركبًا ملكيًا شبحيًا كاملًا وعلى متنه شبح ملكته.

وقفت سنوري على قدميها، وأخرجت نظارتها الروحية التي أعطتها إياها السيدة الحكيمة التي تعيش في القصر الثلجي، وركزتها على المركب الشبحي الذي ينجرف مرورًا بها في صمت، يدفعه للأمام ثمانية مجاديف شبحية، كان ظهر المركب يصطف بأعلام ترفرف وسط رياح سكنت منذ زمن بعيد؛ وكان المركب مطليًا بأشكال حلزونية من الذهب والفضة، ومغطى بظُلة حمراء فاخرة، معلقة على أعمدة مزخرفة بالذهب. وكانت تجلس أسفل الظلة هيئة معتدلة طويلة القامة، تنظر إلى الأمام بثبات، ويستند ذقنها المدبب فوق ياقة مكشكشة منشّاة، ويتوج رأسها تاج بسيط، وتصفف شعرها طبقًا لإحدى الصيحات القديمة؛ بضفيرتين ملفوفتين بإحكام حول أذنيها. كان يجلس إلى جوارها كائن صغير جسمه يكاد يخلو من الفرو، ظنت سنوري أنه كلب قبيح للغاية، إلى أن رأت ذيله الطويل الذي يشبه الثعبان ملتفًا حول أحد الأعمدة الذهبية. راقبت سنوري المركب الشبحي وهو ينجرف مرورًا بمركبها، وانتابتها رجفة مع تسلل برد قارس إلى جسمها؛ فقد كان ثمة شيء مختلف يخص شاغلي المركب؛ شيء جعلهما يبدوان بهيئة حقيقية ملموسة.

نحّت سنوري نظارتها جانبًا، ونزلت من فتحة المركب إلى قمرتها، تاركةً أولر يحرس ظهر المركب، ثم علقت مصباحها في خطاف في سقف

القمرة، فأشاع فيها الضوء الأصفر الهادئ جوًا مريحًا ودافئًا. كانت القمرة تشغل حيزًا صغيرًا من المركب، فمعظم مساحة المركب - لأنه مركب تجاري - يشغلها المخزن. لكن سنوري رغم ذلك تحب قمرتها هذه، والتي كانت مبطنة بألواح خشبية تفوح منها رائحة زكية تميز أشجار التفاح، والتي كان والدها أولاف قد جلبها ذات يوم إلى البيت ليهديها إلى والدتها، وأعدها إعدادًا جميلًا، بما أن والدها كان نجارًا موهوبًا. ولقد بُني عند ميمنة القمرة سرير مبيت في الحائط، يمكن استخدامه كدكة طوال اليوم. وهناك أسفل السرير دواليب تتميز بدقة صناعتها، تخزن فيها سنوري كل أغراض القمرة، ويعلو السرير رف طويل، تضع عليه جداولها الملفوفة. أما على الجانب الآخر من القمرة فقد وُضعت مائدة يمكن رفعها وإسنادها إلى الحائط، بالإضافة إلى مساحة تشغلها أدراج مصنوعة من أخشاب أشجار التفاح، وموقد حديدي تمتد منه لأعلى مدخنة تنفذ من سقف القمرة. فتحت سنوري باب الموقد فانكشف وهج أحمر باهت لجذوة نار أوشكت على الانطفاء.

ومع تسلل النوم إلى جفون سنوري، صعدت على سريرها في الجدار، وسحبت غطاءها الصغير المصنوع من جلد حيوان الرنة، ثم انكمشت في نفسها التماسًا للدفء في هذه الليلة قارسة البرودة.. ابتسمت سنوري بسعادة؛ لقد كان يومًا جميلًا - فيما عدا مشهد الملكة الشبحية - لكن كان هناك شبح واحد فقط هو الذي تريد سنوري أن تراه؛ هو شبح أولاف سنوريلسن.

2
سوق التجار



في *صباح اليوم التالي، استيقظت سنوري مبكرًا بوجه مشرق*، وكان أولر - وقد عاد إلى هيئته النهارية قطًا برتقاليًا هزيلًا بذيل أسود الطرف - يتناول جُرذًا في وجبة الإفطار. كانت سنوري قد نسيت كل شيء عن المركب الملكي الشبحي، وعندما تذكرته أثناء تناولها سمك الرنجة المخلل وخبز الجاودار الأسمر في إفطارها، قررت بداخلها أن الموضوع برمته لم يكن إلا حلمًا.

أخرجت سنوري حقيبة العينات من المخزن، ورفعتها على كتفيها، ثم انطلقت تعبر المعبر الخشبي لتخرج إلى ضوء شمس الصباح، شاعرة بالسعادة والحماس؛ فقد أحبت هذه البلاد الغريبة التي جاءت إليها؛ أحبت مياه النهر الخضراء المتدفقة ببطء في مساره؛ وأحبت رائحة أوراق أشجار الخريف؛ ورائحة دخان الأخشاب المعلقة في الأجواء، كما بهرتها

الأسوار الباسقة التي تحيط بالقلعة وترتفع عاليًا أمامها، والتي يعيش خلفها عالم آخر جديد تمامًا عليها، تريد أن تستكشفه. راحت سنوري تصعد الممر شديد الانحدار المؤدي إلى البوابة الجنوبية وهي تستنشق الهواء بعمق . كان الجو باردًا، لكن شتان بين هذا البرد وبين الصقيع الذي تعلم سنوري أن والدتها تسير فيه الآن عائدة إلى ظلام بيتهم الخشبي الصغير الذي يطل على رصيف للمراكب. هزت سنوري رأسها لتطرد من ذهنها أية أفكار تدور فيه عن والدتها، وواصلت السير صعودًا إلى القلعة.

لاحظت سنوري مع عبورها البوابة الجنوبية متسولًا مسنًا يفترش الأرض، فأخرجت من جيبها جرونًا (أربعة بنسات) - فكما هو معتقد في بلادها، يُعد التصدق على أول متسول يقابله المرء في بلاد غريبة فألًا حسنًا - ودسته في يد المتسول. لكن بعد فوات الأوان؛ إذ إنها أدركت، مع اختراق يدها يد المتسول، أنه متسول شبحي. بدا الاندهاش على الشبح عندما لمسته سنوري، وبمزاج متعكر أن تم **اختراقه**، نهض وسار بعيدًا. توقفت سنوري وأنزلت حقيبتها على الأرض، وما إن نظرت حولها حتى خفق قلبها بشدة؛ فقد كانت القلعة ممتلئة - بل تكتظ عن آخرها - بكل أنواع وأشكال الأشباح التي يمكن أن تخطر على البال، والتي لا تستطيع سنوري، لكونها رائية أرواح، إلا أن تراها - سواء اختار الشبح أن **يظهر** لها أم لا. تُرى، كيف يتسنى لها أن تعثر على والدها وسط كل هذا الزحام؟ وكادت بالفعل تلتف وتعود إلى مركبها، لكنها قالت في سرها إنها جاءت إلى هنا أيضًا للتجارة، وباعتبارها ابنة لتاجر ذائع الصيت، فلسوف تتاجر.

وبدون أن ترفع بصرها لأعلى، ومتجنبة بقدر المستطاع أكبر عدد من الأشباح، سارت سنوري وفقًا لما تشير إليه الخريطة. كانت الخريطة دليلًا جيدًا، وسرعان ما وجدت نفسها تمر عبر المدخل القرميدي المقنطر القديم الذي يؤدي إلى «قصر سوق التجار»، وتوجهت من هناك مباشرة إلى «مكتب التجار» الذي كان عبارة عن كوخ صغير مكشوف، تعلوه لافتة تحمل الكلمات التالية: **الرابطة الهنزية والتجارة الشمالية المتحدة**.. كان يفترش المكتب من الداخل مائدة طويلة منصوبة، وميزانان مرفق بهما مجموعة متنوعة من الأوزان والمكاييل، ودفتر كبير، وتاجرٌ مسنٌ وَهَنَ العظمُ منه، يجلس إلى المائدة وقد أخذ يحصي النقود الموجودة في صندوق نقود حديدي ضخم. وفجأة، شعرت سنوري بتوتر أشبه بالتوتر الذي شعرت به عند دخولها مقهى سالي مولن؛ فقد حانت اللحظة التي لا بد أن تثبت فيها أن من حقها أن تعمل بالتجارة، ومن حقها أن تنتمي إلى الرابطة. ازدردت سنوري لعابها، ثم رفعت رأسها ودخلت الكوخ.

لم يرفع الرجل المسنُّ بصره لينظر إليها، وواصل عد العملات الغريبة التي لم تعتدها سنوري بعد وهي: البنس والجروت والفلورين ونصف الكراون والكراون. تنحنحت سنوري عدة مرات، ومع ذلك لم يرفع الرجل بصره إليها. بعد عدة دقائق، كانت سنوري قد نفد صبرها، فقالت له: «لو سمحت..» واصل الرجل العد بصوت مسموع، دون أن يرفع عينيه عن العملات: «أربعمائة وخمسة وعشرون، أربعمائة وستة وعشرون

..ولم يكن أمام سنوري خيار آخر سوى الانتظار. وبعد خمس دقائق، تحدث الرجل وقال: «ألف .. نعم يا آنسة، ماذا تطلبين ؟».

وضعت سنوري «كراون» على المائدة، وقالت بطلاقة - بعد أن تدربت لأيام على مواجهة هذه اللحظة: «أود الحصول على تصريح يسمح لي بالتجارة».

نظر الرجل المسن إلى الفتاة الواقفة أمامه بردائها الصوفي الأحمر المميز لتجار الشمال، وابتسم لها ابتسامة ساخرة كأن ما نطقت به هو ضرب من الحماقة، وقال: «آسف يا آنسة، لا بد أن تكوني أولًا عضوة في الرابطة».

فهمت سنوري كلام الرجل بوضوح، وردت قائلة: «أنا بالفعل عضوة في الرابطة». وقبل أن يتسنى له أن يعترض، كانت سنوري قد أخرجت ورقة إثبات عضويتها، ووضعت أمامه ورقة الرق الملفوفة بشريطتها الحمراء المختومة بقطعة كبيرة من الشمع الأحمر. فأخرج الرجل ببطء شديد جدًا نظارته، وكأنه يداعب سنوري ويمزح معها، وراح يهز رأسه متعجبًا من الجراءة المستفزة التي يتسم بها شباب اليوم، وببطء بدأ يقرأ ورقة الرق التي أعطتها له. وبينما كان الرجل يُجري أصبعه على السطور، تبدل التعبير الذي كان يعلو وجهه إلى الاندهاش، وبعد أن انتهى من القراءة رفع ورقة الرق نحو الضوء؛ بحثًا عما قد يشير إلى أن الورقة مزورة.

لكن الورقة لم تكن كذلك، وكانت سنوري تعلم ذلك، وكذلك علم الرجل المسن الذي قال لها: «إن هذا مخالف تمامًا للتقاليد».

«مخالف للتقاليد؟!».

«نعم، مخالف تمامًا؛ فليس من المعتاد أن ينقل الآباء أوراق إثبات عضويتهم إلى بناتهم».

«حقًا؟».

«لكن الأوراق تبدو سليمة». وتنهد الرجل، ثم انحنى أسفل المائدة على مضض، وأخرج رزمة من الرخص، ثم قال لها وهو يدفع بقلم نحوها: «وقِّعي هنا». وقعت سنوري باسمها، وختم الرجل الرخصة وكأنها تفوهت بكلام وقح وفظ للغاية.

ثم دفع الرخصة على المائدة نحو سنوري، وقال لها: «الكشك رقم واحد؛ إذ إنك بكرت بالحضور، فأنت أول من حضر حتى الآن. إن السوق يبدأ مع فجر يوم الجمعة الذي يلي يوم الجمعة القادم بأسبوعين. آخر يوم في السوق سيوافق ليلة الاحتفال بعيد منتصف الشتاء، ولا بد من إزالة كل الأغراض بحلول الظلام، وكذلك لا بد من التخلص من كل المخلفات ونقلها إلى مقلب قمامة البلدية بحلول منتصف الليل. مطلوب منك إذن كراون واحد». وأخذ الرجل الكراون الذي وضعته سنوري على المائدة، وألقاه في صندوق آخر من صناديق النقود، فحط في القاع وهو يرن رنة جوفاء.

أخذت سنوري الرخصة، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة؛ لقد نجحت؛ لقد أصبحت الآن تاجرة تعمل بترخيص، تمامًا مثل والدها.

ثم قال لها الرجل: «خذي عيناتك واذهبي بها إلى السقيفة الموجودة هناك، واتركيها كي يتم فحص جودتها ويمكنك أن تعودي غدًا لاستعادتها».

ومن ثم، تركت سنوري الحقيبة الثقيلة في صندوق العينات خارج السقيفة، ومع إحساسها بأنها باتت خفيفة كالريشة، خرجت من ساحة السوق وهي ترقص، فاصطدمت بفتاة ترتدي رداء أحمر ذا حافة ذهبية. كانت الفتاة ذات شعر طويل داكن اللون، يتوج رأسها طوق ذهبي كأنه تاج. ووقف إلى جوارها شبح يرتدي عباءة أرجوانية، وعكست عيناه الخضراوان تعبيرًا ودودًا، وقد عقد شعره الرمادي من الخلف على هيئة ذيل حصان. حاولت سنوري ألا تنظر إلى بقع الدم التي تعلو سطح عباءته أسفل منطقة القلب مباشرة؛ حيث إن التحديق إلى العلامة التي تشير للطريقة التي دخل بها الشبح عالم الأشباح تُعد من الأمور التي لا تتسم باللياقة والأدب.

قالت الفتاة ذات الرداء الأحمر لسنوري: «أخ! أنا آسفة، لم أكن منتبهة».

ردت سنوري: «بل أنا من يجب عليه الاعتذار». وابتسمت بدورها إلى الفتاة، ثم واصلت السير عائدة إلى الألفرون، وهي تتعجب في نفسها؛ فقد سمعت أن للقصر أميرة، لكن هذه الفتاة لا يمكن أبدًا أن تكـون هـي الأمـيرة، مـع تجولها كسائر الناس في الأنحاء هكذا بهذه البساطة!

أما الفتاة – التي كانت بالفعل هي الأميرة – فقد واصلت طريقها إلى القصر في رفقة الشبح ذي العباءة الأرجوانية.

قال الشبح: «إنها رائية للأرواح».

«عمن تتحدث؟».

«عن تلك الشابة التاجرة. فأنا لم أظهر أمامها، ومع ذلك تمكنت من رؤيتي. إنني لم أقابل أيًا من هؤلاء الرائين للأرواح من قبل. إنهم فئة من البشر نادرة الوجود، وهم موجودون فقط في بلاد الليالي الطويلة»، ثم انتابت الشبح رجفة، وقال: «إنها تخيفني».

ضحكت الأميرة وقالت: «أنت غريب فعلًا يا ألثر، فأنا أراهن أنك أنت الذي يخيف الناس طيلة الوقت».

رد الشبح بسخط قائلًا: «أنا لا أُخيف أحدًا.. أو... أو بالأصح أنا لا أفعل ذلك إلا عندما أريد».

وخلال الأيام القليلة التالية، ظهرت بوادر طقس الخريف، وهبت الرياح الشمالية التي راحت تُسقط أوراق الشجر وتسوقها زاحفةً على امتداد الشوارع، كما ازدادت برودة الطقس، وبدأ الناس يلاحظون قصر طول النهار وتسلل الظلام في وقت مبكر من اليوم.

لكن بالنسبة لسنوري سنوريلسن بدا الطقس جميلًا، ولقد قضت نهار تلك الأيام متجولةً في أنحاء القلعة، تستكشف طرقها، الرئيسية منها والجانبية، وهي تنظر باندهاش في نوافذ كل تلك المحال الصغيرة الباهرة، المحمية أسفل الأسقف المقنطرة في منطقة العشوائيات، حتى إنها راحت تشتري سلعًا غريبة وتافهة. وعندما رأت برج السحرة بارتفاعه الشاهق، أخذت تحملق فيه برهبة، ولمحت ما بدا لها أنها ساحرة عظمى متسلطة إلى أبعد الحدود، وأذهلها هذا الكم الهائل من السماد الذي يحتفظ به السحرة في فنائهم، كما انضمت إلى الزحام الذي كان يراقب الساعة القديمة في «ساحة تجار الجوخ» التي كانت تدق الثانية عشرة

ظهرًا، وأخذت تضحك من منظر التعبيرات المضحكة التي كانت تؤديها الاثنتا عشرة شخصية المصنوعة من الصفيح، مع خروجها من خلف الساعة وهي تمشي الهوينى. وفي يوم آخر، سارت في «طريق السحرة»، وقامت بجولة شاهدت فيها أقدم المطابع، ثم أطلت من خلال قضبان سور القصر على مبنى القصر القديم الجميل الذي بدا أصغر مما كانت تتوقع. حتى إنها تحدثت مع شبح عجوز اسمها جودرون تحرس بوابة القصر، وتعرفت جودرون إلى فلاحة زميلة لها في عالم الأشباح، رغم القرون السبعة التي تفرق بينهما.

لكن الشبح الوحيد الذي كانت سنوري تأمل أن تراه أثناء جولاتها ظل يتملص منها. وعلى الرغم من أنها لا تعرف من شكله إلا الصورة التي تحتفظ بها والدتها بجانب سريرها - فقد كانت واثقة من أنها ستتعرف إليه لو رأته، لكن رغم مواصلة سنوري تفحُّص جماهير الأشباح الغفيرة التي تجوب الأنحاء، لم تلمح أي أثر لوالدها.

وفي ساعة متأخرة من عصر أحد الأيام، بعد جولة استكشافية قامت بها سنوري لبعض الحارات المظلمة التي تقع خلف منطقة العشوائيات، والتي يأوي إليها العديد من التجار للإقامة، حدث ما أفزعها؛ كانت الشمس حينها قد أوشكت على المغيب، وكانت سنوري قد اشترت لتوها كشافًا صغيرًا يُحمل يدويًا من محل «مايبزي سمولز» للكشافات. وبينما كانت تسير عائدةً على امتداد حارة الممر الضيق، قاصدة البوابة الجنوبية، خالجها شعور مزعج بأن هناك من يتبعها، لكنها كلما التفتت تنظر وراءها، لم تكن ترى شيئًا.. وفجأة، سمعت وَقْع خطوات تنطلق

بسرعة وراءها، وما إن التفتت حتى رأت ما أثار الفزع في قلبها؛ لقد رأت زوجًا من العيون المستديرة الحمراء وسنًّا وحيدة طويلة ومدببة، تتلألأ في ضوء كشافها الصغير. وما إن لمحت العينان شعلة الكشاف حتى ذابتا في ضوء الشفق، ولم تر لهما سنوري أثرًا بعد ذلك. فقالت في سرها إن ما رأته لم يكن سوى عيني جُرذ، لكن لم يكد يمضي وقت بعد ذلك، بينما كانت تغذُّ في السير بخطوات مسرعة تُخرجها إلى الطريق الرئيسي، إلا وكانت قد سمعت صرخة مدوية قادمة من حارة الممر الضيق، فقد جازف شخص بالمرور في الحارة بلا كشاف ولم يحالفه الحظ.

وجدت سنوري نفسها مهزوزة، وفي حاجة إلى صحبة آدمية، ومن ثم تناولت عشاءها تلك الليلة في مقهى سالي مولن، ولقد استقبلتها سالي بودٍّ وترحاب، فكما قالت سالي لصديقتها سارة هيب: «لا يمكن لوم هذه الفتاة الشابة لمجرد أنها لسوء حظها أصبحت تاجرة من تجار الشمال، كما أني أعتقد أنهم ليسوا جميعًا بهذا السوء، وأنت لو قابلتِها يا سارة لن تملكي إلا أن تعجبي بها، لقد أبحرت الفتاة بذلك المركب الكبير بمفردها تمامًا. أنا بالفعل لا أدري كيف فعلت ذلك. وأنا التي كنت أعتبر دائمًا أن الإبحار بموريل مهمة صعبة».

كان المقهى في ذلك المساء خاليًا على نحو غريب، وكانت سنوري هي الزبونة الوحيدة. قدمت لها سالي قطعة إضافية من كعك الشعير وجلست إلى جوارها، ثم قالت لها شاكيةً: «إن هذا المرض الغامض يلحق بأعمالنا أضرارًا بالغة. فما عاد أحد يجرؤ اليوم على البقاء في الخارج بعد سقوط الظلام حتى وإن قلتِ لهم إن الجرذان بمجرد أن ترى

شعلة المصباح ستنطلق جريًا بعيدًا عنهم بمسافة ميل، وكل ما عليهم أن يفعلوه إذن هو أن يحملوا كشافات معهم في الطريق. فلا أحد يصدق ذلك، والجميع مصابون بالفزع»، ثم هزت سالي رأسها بكآبة وقالت: «إن هذه الجرذان تستهدف الكاحل، وهي تنطلق بسرعة البرق. وعضة واحدة منها تقود إلى الهلاك».

كانت سنوري تتابع بشيء من الصعوبة سيل كلام سالي المتدفق سريعًا، ثم قالت ملتقطة آخر الجملة: «الهلاك؟».

أومأت لها سالي برأسها وقالت: «أي أن الشخص يكون شبه ميت حينها، والمسألة مسألة وقت فقط. فأنت لا تشعرين بشيء بعد العضة لبعض الوقت، ثم ما يلبث أن ينتشر في جسمك بعد ذلك طفح جلدي أحمر وتشعري فجأة بدوار.. وما إن تفيقي حتى تدركي أن جسمك مطروح أرضًا وروحك تحلق مع الجنيات».

سألتها سنوري: «الجنيات؟».

«نعم».. هكذا ردت سالي وهي تهب واقفة على قدميها، بعد أن رأت بسعادة زبونة تدخل المقهى.

كانت الزبونة طويلة القامة، شعرها جعد وقصير، وتضم عباءتها حول جسمها. لم تتمكن سنوري من رؤية وجهها بوضوح، لكن كان يبدو عليها الغضب، كما أفصحت الطريقة التي كانت تقف بها. دار حديث هامس بين المرأة وسالي، ثم رحلت المرأة بعد ذلك بنفس السرعة التي حضرت بها.

عادت سالي لتنضم إلى سنوري وجلست على مقعدها المطل على النهر بابتسامة علت وجهها، وقالت، وسط ارتباك سنوري: «مصائب قوم عند قوم فوائد. هذه السيدة التي حضرت توًا هي چيرالدين؛ إنها امرأة غريبة، وهي دائمًا تذكرني بشخص ما، رغم أني لا أعرف من هو. المهم، جاءت لتسألني إذا ما كان من الممكن أن يتقابل خانقو الجرذان هنا قبل أن ينطلقوا - يا للهول! - لخنق الجرذان».

سألتها سنوري: «خنق الجرذان؟».

«أقصد صيد الجرذان؛ فهم يعتقدون أنهم إذا تخلصوا من كل الجرذان، فسوف يقضون على المرض الغامض أيضًا، وهو ما يبدو لي منطقيًا. على أية حال أنا سعيدة جدًا، فهذا هو ما يحتاج إليه المقهى الآن، مجموعة ضخمة من الجوعى والعطشى من قتلة الجرذان».

لكن لم يدلف إلى المقهى أحد بعد أن خرجت چيرالدين ذات الشعر الجعد، وسرعان ما بدأت سالي ترفع الدكك على الموائد مصدرةً ضجيجًا وهمت لتمسح الأرض. فهمت سنوري الرسالة، فأقرأتها السلام كي ترحل.

ردت عليها سالي بنبرة مبتهجة: «تصبحين على خير يا عزيزتي. ولا تتسكعي في الطريق الآن، اتفقنا؟».

لم يكن في نية سنوري أن تتسكع في الطريق، وعادت جريًا إلى الألفرون، وقد غمرتها السعادة عندما رأت أولر الليلي وهو يطوف خلسة على ظهر المركب بحثًا عن فريسة. انسحبت سنوري إلى قمرتها، تاركة حراسة المركب لأولر، ثم أغلقت فتحة القمرة بالمزلاج، وتركت المصباح الزيتي مشتعلًا طوال الليل.

3

زائرة غير مرحب بها



في *تلك الليلة، بينما كانت سنوري سنوريلسن تغلق باب قمرتها بالمتاريس*، كانت چينا وسارة وسايلاس هيب ينتهون من عشائهم في القصر. وعلى الرغم من أن سارة كانت تفضل كثيرًا لو أنهم تناولوا العشاء في أحد مطابخ القصر الصغيرة، فقد تنازلت عن هذه الفكرة من فترة طويلة تحت ضغط من الطاهية التي كانت تصر على أن الأسرة الملكية لا يمكن - بأي حال من الأحوال - أن تتناول الطعام في المطابخ. لا، لا يمكن، ولا حتى في يوم هادئ وممطر كما هو الحال اليوم - والذي كان

يوافق يوم الأربعاء - تحت أي ظرف، مادامت هي الطاهية - «وهذا أمر لا رجعة فيه يا سيدة هيب».

وهكذا، جلست ثلاث هيئات في قاعة طعام القصر الشاسعة، معزولة بعيدًا في آخر مائدة تمتد طويلًا، وسط بحر من الشموع، بينما كانت الكتل الخشبية تشتعل في المدفأة خلفها وهي تدمدم وتلفظ لهبًا، ومن حين لآخر تُسقط شررًا على المعطف الشائك شبه البالي الذي يرتديه كلب ضخم كان مستلقيًا على الأرض وهو يغط وينخر أمام النار، لكن الكلب الذئبي ماكسي لم يلحظ أيًا من كل هذا الشرر. وكانت تحوم بجوار الكلب خادمة العشاء، سعيدة بدفء المكان، وإن كانت تتوق لأن ينتهي العشاء، وتبتعد عن الروائح المنبعثة من احتراق أطراف شعر الكلب - وما هو أسوأ من ذلك - التي كانت تملأ الأجواء حول ماكسي.

لكن العشاء امتد طويلًا. فسارة هيب، والدة چينا بالتبني - أي والدة الأميرة ووريثة القلعة - كان لديها الكثير تريد أن تتحدث فيه. «في الحقيقة، أنا لا أريدك أن تتركي القصر بالمرة يا چينا، هذا أمر. فهناك شيء شرير في الخارج يواصل العض في الناس ويصيبهم بـ «المرض الغامض». ولسوف تمكثين هنا في الأمان إلى أن يتم القبض على ذلك الذي يتسبب في هذا المرض أيًا كان».

«لكن سبتيموس...».

«ليس هناك لكن. أنا لا يعنيني أن سبتيموس يريد منك أن تنظفي مكان تنينه المقزز هذا رغم أن الأمر، في رأيي، سيكون أفضل بكثير لو

قلصتم عدد مرات التنظيف هذه – هل رأيت الحالة المزرية هناك بجوار النهر؟ لا أفهم ما الذي يدور في رأس بيلي بوت، لا بد أن أكوام روث التنين قد بلغ ارتفاعها الآن عشرة أقدام على الأقل. إنني في السابق كنت أستمتع بالسير بجوار النهر، أما الآن...».

ردت جينا قائلة: «ليس ما يهمني يا أمي هو الخروج للتنظيف مكان لافظ اللهب، أنا لا يهمني هذا على الإطلاق، لكن لا بد أن أذهب لرؤية المركب التنينية كل يوم».

قالت لها سارة: «أنا متأكدة من أن المركب التنينية ستستطيع أن تتصرف بدونك. وهي على أية حال لا يبدو عليها أنها تشعر بوجودك أصلًا».

«بل تشعر يا أمي. أنا متأكدة من ذلك. ومن الصعب عليها أن تستيقظ لتجد نفسها وحيدة، دون أن تجد أحدًا إلى جوارها لأيام وأيام..».

ردت سارة بحدة: «هذا أفضل من أن تجد نفسها بدون أحد إلى جوارها بعد ذلك أبدًا. لن تخرجي إلى أن ننتهي من موضوع المرض الغامض هذا».

فقال سايلاس بنبرة أهدأ: «ألا تعتقدين أنك تحملين الأمور أكثر مما ينبغي يا سارة؟».

لكن ما كان هذا هو رأي سارة، فردت عليه قائلة: «أنا لا أسمي فتح أبواب المستشفى لاستقبال كل هؤلاء المصابين – تحميلًا للأمور أكثر مما ينبغي يا سايلاس».

«ماذا قلت؟ ذلك المبنى القديم القذر؟ أنا مندهش أنه لا يزال قائمًا حتى الآن».

«ليس هناك بد من ذلك يا سايلاس. فهناك العديد من المرضى الآن وليس لديهم مكان آخر يلجئون إليه. وهو ما كان ينبغي عليك أن تلاحظه لولا أنك تقضي وقتًا أطول من اللازم في السندرة تمارس فيه ألعابك التافهة..».

«إن لعبة الفيش المتحركة ليست تافهة يا سارة. وأنا الآن عثرت على ما يُعد أفضل مستعمرة «فيش» في القلعة – ليتك كنت رأيت وجه جرينج عندما أخبرته بذلك – وأنا لن أترك «الفيش» تفلت مني. إنها لن تستطيع الخروج من غرفة **محكمة الغلق** إذا حدث أن انتابتها إحدى هذه الحالات التي تدفعها إلى ترك المكان على عجل».

تنهدت سارة. فمنذ أن انتقلوا إلى القصر، ترك سايلاس من الناحية العملية وظيفته كساحر عادي يكتسب قوته يومًا بيوم، وأخذ يشغل وقته في ممارسة هوايات متوالية – كان آخرها لعبة الفيش المتحركة التي استمرت معه لمدة أطول من غيرها، وهو ما أثار انزعاجها، ثم قالت سارة وهي توبخه: «أنت تعلم أني لا أرى أن المضي في فتح غرف **محكمة الغلق** يا سايلاس فكرة صائبة؛ فهذه الغرف عادة ما تكون **محكمة الغلق** لأسباب بعينها، لاسيما عندما تكون الغرفة مخبأة في سندرة. لقد أثرنا هذا الموضوع في جمعية الأعشاب الشهر الماضي».

رد سايلاس بنبرة جارحة: «وماذا يعلم هؤلاء الأعضاء عن المسائل المتعلقة بالسحرة يا سارة؟ لا شيء بالطبع، هه؟».

«جميل يا سايلاس. على أية حال، أعتقد أنك في الوقت الراهن ستكون في مأمن ببقائك في السندرة مع مستعمرة فيشك».

رد سايلاس قائلًا: «فعلًا.. هل لا يزال هناك المزيد من هذه الفطائر؟».

«لا، لقد أكلت أنت آخر قطعة»، ثم تلا ذلك صمت يشوبه التوتر، ووسط هذا الصمت، كانت چينا واثقة من أنها تسمع جلبة تأتي من بعيد.

فسألتهما: «هل تسمعان هذه الأصوات؟» ثم نهضت ونظرت من إحدى النوافذ الطويلة التي تطل على الجزء الأمامي من القصر. كان في وسع چينا أن ترى حتى آخر الممر العريض الذي كان مضاء بالمصابيح الزيتية كالمعتاد، وامتد بصرها خلال بوابات القصر الضخمة التي تغلق مساءً. لكن مع تجاوزها الجانب الآخر من البوابات، رأت حشدًا من السوقة الذين أخذوا يصيحون، وهم يدقون ويطرقون بأغطية صناديق القمامة، ويصيحون قائلين: «الجرذان.. الجرذان، الجرذان، أمسكوا الجرذان.. الجرذان، الجرذان، اقتلوا الجرذان!».

انضمت سارة إلى چينا لدى النافذة، وقالت: «إنهم قتلة الجرذان. لا أعلم ما الذي جاء بهم إلى هنا».

رد سايلاس بفم ممتلئ بفطيرة التفاح: «إنهم يبحثون عن الجرذان على ما أعتقد. إنها تنتشر في جميع الأنحاء. أظن أنه كان هناك واحد منها في الحساء هذه الليلة».

بدأت هتافات قتلة الجرذان تتسارع وتيرتها وهم يرددون: «حاصروها.. حاصروهـــا، اضربوهـــا.. اضربوهـــا، اضربوهـــا، حاصروهـــا.. حاصروهـــا، اضربوها.. اضربوها.. اضربوها!».

قالت چينا: «مسكينة تلك الجرذان».

قالت سارة: «على أية حال، ليست الجرذان هي التي تنشر المرض الغامض. لقد كنت أساعد في المستشفى أمس، وآثار العضات التي

رأيتها هي بلا شك ليست بفعل جرذان؛ فالجرذان لديها أكثر من سن.. ياه! انظروا! إنهم منطلقون الآن في الشارع المؤدي إلى سكن الخدم، يا للهول!».

وعند ذلك، راحت الخادمة تباشر عملها بغاية الهمة والنشاط. فلملمت الأطباق، ثم صارعت سايلاس لتأخذ من قبضة يده آخر قطعة من فطيرة التفاح. وأخيرًا، خرجت على عجل من الغرفة. ثم سُمع بعد ذلك صوت اصطدام؛ إذ كانت تسقط الأطباق من ماسورة القمامة إلى المطابخ في الأسفل. وعلى الفور، انطلقت كالصاروخ إلى سكنها لتطمئن على بيرسي؛ جُرذها الأليف الذي تربيه.

لم يستمر العشاء طويلًا بعد ذلك، ثم توجهت سارة وسايلاس إلى غرفة جلوس سارة الصغيرة في الجزء الخلفي من القصر؛ حيث كان لدى سارة كتاب تريد أن تكمل قراءته، بينما انشغل سايلاس في كتابة كتيب بعنوان «أهم عشر نصائح للعبة الفيش المتحركة»، والتي كان يضع عليه آمالًا كبيرة.

أما چينا فقررت أن تنسحب إلى غرفتها لتقرأ فهي تحب أن تنفرد بنفسها، كما تعشق التجول في أنحاء القصر لا سيما في المساء عندما تلقي الشموع ظلالًا ممتدة عبر الطرقات ويكون العديد من الأشباح (القدماء) قد استيقظوا من نومهم. ففي المساء، يزول عن القصر الإحساس بأنه مكان خالٍ كما هو حاله أثناء النهار، ويتحول من جديد إلى مكان هادف يعج بالحركة، وتختار معظم أشباح (القدماء) أن تظهر لچينا، ويُسعدها غاية السعادة فرصة التحدث مع الأميرة، رغم أن العديد

منها لا يتذكر أصلًا أي أميرة، كما أن چينا بدورها تستمتع بثرثرتها مع هذه الأشباح، حتى بعد أن اكتشفت بعد فترة وجيزة أن كل شبح يميل لأن يكرر نفس الحديث كل مساء، وسرعان ما باتت تحفظ معظم هذه الحوارات عن ظهر قلب.

صعدت چينا على مهل السلم الفسيح المؤدي إلى الرواق الذي يمتد أعلى البهو، وتوقفت للتحدث مع شبح مربية أميرتين، تقضي معظم الليالي تجوب الطرقات بحثًا عن هاتين الأميرتين اللتين تتولى مسئولية رعايتهما.

قالت المربية، والتي يعتريها القلق بشكل دائم: «عمتِ مساءً أيتها الأميرة إيزميرالدا».

أجابتها چينا التي كفَّت منذ زمن – بعد أن يئست – عن إخبارها بأن اسمها چينا وليس إيزميرالدا: «مساء الخير يا ماري».

قالت المربية: «لقد أسعدني كثيرًا أنك ما زلتِ سالمة وبخير».

ردت چينا قائلة: «أشكرك يا ماري».

ثم قالت المربية كما اعتادت أن تقول دائمًا: «تَوَخَّي الحذر يا عزيزتي».

فردت چينا كالمعتاد: «نعم، سوف أفعل» وواصلت طريقها بعد ذلك، ثم انعطفت من الرواق إلى دهليز عريض مضاء بالشموع، ينتهي بالباب المزدوج الطويل الذي يفتح على غرفتها.

«مساء الخير يا سير هيروارد»، هكذا حيت چينا الحارس (القديم) لغرف النوم الملكية، وهو شبح مشعث وباهت جدًّا، قبع في موقع حراسته

هذا منذ ثمانمائة عام أو يزيد، ولا ينوي أن يتقاعد، ولقد فقد ذراعه وأجزاء عديدة من درعه؛ حيث جاء دخوله إلى عالم الأشباح بسبب خوضه واحدة من آخر المعارك البرية التي كانت تنشب بين القلعة والميناء. وقد كان أحد الأشباح المفضلة لدى چينا، وحراسته لها تبعث في نفسها إحساسًا بالأمان؛ كما أن هذا الفارس (القديم) يتمتع بحس فكاهي، ويميل لإلقاء الدعابات، وهو على غير عادة (القدماء) يتمكن بشكل أو بآخر من عدم تكرار نفسه كثيرًا.

«مساء الخير أيتها الأميرة الحسناء، إليك دعابة جديدة: ما الفارق بين الفيل وثمرة الموز؟».

ابتسمت چينا وقالت: «لا أعلم، فما هو إذن الفارق بين الفيل وثمرة الموز؟».

«بما أنك لا تعلمين فلن أستطيع أن أرسلك لتتسوقي لي. ها ها!».

«ياه! إنها نكتة ظريفة جدًا. ها ها!».

«أسعدني أنها أعجبتك، ولقد ظننت بالفعل أنها قد تعجبك. تصبحين على خير أيتها الأميرة». وأحنى لها سير هيروارد رأسه بعجالة، ثم وقف في وضع انتباه، سعيدًا باستئناف حراسته.

دفعت چينا الباب وقالت له وهي تنسحب إلى غرفتها: «تصبح على خير يا سير هيروارد».

لقد احتاجت چينا في أول الأمر لبعض الوقت حتى تعتاد غرفتها الشاسعة في القصر، بعد أن كانت تنام في دولاب لعشر سنوات، لكنها باتت الآن تحب هذه الغرفة، لا سيما في المساء. كانت الغرفة تمتد طولًا

وعرضًا، ولها أربع نوافذ طويلة تطل على حدائق القصر، يتسلل إليها ضوء الشمس في النصف الثاني من النهار. لكن لأن الليلة كانت ليلة خريف باردة، أسدلت جينا الستائر المخملية الحمراء فوق النوافذ، وفي التو كانت الغرفة قد امتلأت بظلال عميقة، ثم توجهت إلى المدفأة الحجرية الضخمة التي تجاور سريرها ذا القوائم الأربعة، وأشعلت النار في الكتل الخشبية الضخمة المكومة في المدفأة باستخدام **تعويذة إشعال النيران** التي أعطاها إياها سبتيموس في عيد ميلادها الأخير.. وبينما بدأ الضوء الدافئ الصادر عن شعلات النيران المتراقصة يملأ الغرفة حتى جلست جينا على سريرها، وتلحفت بلحافها الريشي، ثم أخذت كتاب التاريخ المفضل لديها، وهو «تاريخ قلعتنا».

ومع استغراق جينا في كتابها، لم تلحظ انبثاق شبح امرأة نحيلة طويلة القامة من خلف الستائر الثقيلة المتدلية حول سريرها. وقف شبح المرأة في سكون تام، محدقًا إلى جينا بعينيه الخرزيتين البراقتين بنظرة يعلوها تعبير مستنكر. ارتجفت جينا من البرد القارس المفاجئ الذي صاحب انبثاق الشبح، وسحبت اللحاف ولفته بمزيد من الإحكام حول جسمها، بدون أن ترفع عينيها عن الكتاب.

وفجأة، اخترق الأجواء صوت ذو نبرة عالية من خلف كتفي جينا قائلًا: «لو كنت مكانك لما أوليت قراءة كل تلك التفاهات عن الرابطة الهنزية كل هذا العناء». انتفضت جينا فزعة كالقط الذي شبت فيه النار، وسقط منها الكتاب، ولما أصبحت على وشك أن تصيح لتنادي سير هيروارد، إذا بيد باردة كالثلج تطبق على فمها. أرسلت لمسة الشبح لفم

جينا هواء قارس البرودة امتد إلى رئتيها، واجتاحتها نوبة من السعال. لم يبد على الشبح أي انزعاج، ورفع الكتاب ثم وضعه بجانب المكان الذي تجلس فيه جينا التي كانت تحاول أن تلتقط أنفاسها.

ثم قال الشبح بلهجة آمرة: «ارجعي إلى الفصل الثالث عشر أيتها الحفيدة. لا داعي لإهدار وقتك في القراءة عن تجار عاديين ليسوا سوى أفراد من عامة الناس. فالتاريخ الوحيد الذي يستحق قراءته هو تاريخ الملوك والملكات – ومن الأفضل أن يقتصر ذلك على تاريخ الملكات. سوف تعثرين على تاريخي في الصفحة رقم مائتين وعشرين. والفصل فيه سرد لا بأس به عن فترة حكمي، رغم أنه يذكر.. إحم.. مسألة أو مسألتين خلافيتين، بما أن الذي كتبه هو واحد من عامة الناس، فما الذي يمكن أن يتوقعه المرء من مثل هؤلاء غير ذلك؟».

انخفضت أخيرًا حدة سعال جينا بالقدر الذي سمح لها بأن تلقي نظرة مدققة على زائرتها غير المرحب بها. إنها بالفعل شبح ملكة، وهي ملكة قديمة أيضًا، علمت جينا ذلك من الصيحة القديمة لثوبها، ومن ياقتها المكشكشة المنشّاة التي ترتديها حول عنقها. وقف شبح الملكة الذي يبدو شبحًا حقيقيًا وملموسًا رغم قدمه – بهيئة مستقيمة ومعتدلة. كان شعر الملكة الرمادي مشدودًا للخلف في ضفيرتين ملفوفتين ومثبتتين حول أذنيها البارزتين، واعتمرت تاجًا بسيطًا من الذهب الخالص، وكانت عيناها البنفسجيتان مثبتتين على جينا تحدقان إليها بنظرة يعلوها تعبير مستنكر جعل جينا على الفور تشعر بأنها اقترفت ذنبًا ما.

قالت جينا متمتمة: «ممم... من أنت؟».

دقت الملكة بقدميها على الأرض بنفاد صبر، وقالت: «الفصل الثالث عشر أيتها الحفيدة. ارجعي إلى الفصل الثالث عشر كما قلت لك منذ قليل.. لا بد أن تتعلمي الإنصات. كل الملكات لا بد أن يتعلمن الإنصات».

كان من الصعب على چينا أن تتخيل أن هذه الملكة كانت تنصت لأي شخص أيًا كان، لكنها لم تتفوه بكلمة. وما أزعجها أن شبح الملكة ناداها بحفيدتي. ولمرتين. حتمًا أن هذا الشبح لا يمكن أن يكون شبح جدتها! فسألت چينا الملكة، على أمل أن تكون قد أخطأت في سماع الكلمة: «لكن، لماذا تواصلين مناداتي بلقب حفيدتي؟».

«لأني جدة والدة والدة والدة والدة والدة والدة والدة والدة والدة والدة والدة والدة والدتك. لكنك اختصارًا يمكنك أن تناديني بجدتي».

ردت چينا وقد تملكها الذعر: «جدتي!».

«بالطبع، فهذا هو أنسب لقب، فأنا لا أتوقع منك أن تناديني بكامل لقبي».

فسألتها چينا: «وما لقبك بالكامل؟».

تنهد شبح الملكة بنفاد صبر، وشعرت چينا بأنفاس الملكة الباردة كالثلج تجعد شعرها، ثم قال شبح الملكة بنبرة حادة: «الفصل الثالث عشر. لن أكرر كلامي مرة أخرى. من الواضح أنني جئت في الوقت المناسب تمامًا، فأنت في حاجة ماسة للإرشاد. إن والدتك ستحاسب كثيرًا على إهمالها في تعليمك الأصول الملكية والعادات الحميدة».

ردت چينا بسخط معترضة على هذه الإهانة: «إن أمي معلمة عظيمة.. إنها لم تهمل في أي شيء».

«أمي.. أمي.. من هي أمك هذه؟» وتمكنت الملكة بشكل أو بآخر من أن تكسو وجهها بتعبيرين اثنين في آنٍ واحد، أحدهما مستنكر والآخر حائر. بل لقد أتقنت الملكة في واقع الأمر على مدار القرون فن مزج هذا التعبير المستنكر بكل التعبيرات الأخرى الممكنة التي يمكن أن تكسو الوجوه، إلى أن أصبح من المستحيل عليها الآن، حتى وإن أرادت، أن تفك هذا الاشتباك. لكن الملكة لا تريد أصلًا أن تفك هذا الاشتباك؛ فهي سعيدة هكذا باستنكارها هذا، ولا تريد تغييره .

ردت چينا بغضب: «أمي هي أمي، أقصد والدتي».

فسألها شبح الملكة، ناظرًا إليها بنظرة متعالية: «وما اسم والدتك بعد إذنك ؟».

ردت چينا بغضب: «هذا ليس من شأنك».

«أهي سارة هيب؟».

رفضت چينا أن ترد عليها، وأخذت تحدق إلى شبح الملكة بغضب، متمنية في سرها أن يتركها ويرحل.

«لا، أنا لن أتركك وأرحل يا حفيدتي. فأنا لديَّ مسئولية لا بد أن أضطلع بها. وكلانا يعلم أن تلك المرأة التي اسمها سارة هيب ليست هي والدتك الحقيقية».

قالت چينا متمتمة: «إنها كذلك بالنسبة لي».

«إنك تنظرين إلى الأمور دون أي تقدير للعواقب يا حفيدتي. الحقيقة هي أن والدتك الحقيقية، أو بالأحرى شبحها، يجلس في البرج الصغير ويُهمل في تعليمك الأصول الملكية؛ مما يجعلك تبدين أقرب إلى خادمة تنتمي إلى الطبقات الدنيا منها إلى الأميرات الملكيات. يا للعار! عار يندى له الجبين! وأنا عازمة على تدارك هذا العار لصالح قلعتي وقصري البائسين اللذين تدنى بهما الحال إلى هذا الحد».

ردت چينا معترضة: «إن القلعة ليست ملكك ولا القصر أيضًا».

«هذا هو ما تخطئين في فهمه يا حفيدتي. فقد كان ذلك ملكي من قبل وسرعان ما سوف يعود إليَّ».

«لكن...».

«لا تقاطعيني. سوف أتركك الآن، لقد مر وقت على موعد نومك».

ردت چينا بسخط: «لا، ليس بعد».

«في أيامي، كانت كل الأميرات يأوين إلى فراشهن في الساعة السادسة مساءً إلى أن يحين اعتلاؤهن العرش. وأنا عن نفسي كنت آوي إلى فراشي في الساعة السادسة مساء كل يوم حتى سن الخامسة والثلاثين، ولم يضرني ذلك يومًا في أي شيء».

نظرت چينا إلى شبح الملكة باندهاش. وفجأة ابتسمت وهي تفكر في مدى الارتياح الذي كان يغمر - ولا شك - جميع من كان حولها في القصر طوال تلك السنوات مع اقتراب الساعة من السادسة مساءً.

قالت الملكة، بعد أن فسرت ابتسامة چينا تفسيرًا خطأً: «حسنًا، لقد بدأتِ تعقلين أخيرًا يا حفيدتي. سوف أتركك الآن لتنامي؛ حيث إن

لديَّ أمورًا مهمة لا بد أن أباشرها. سوف آراكِ غدًا. يمكنك أن تقبليني الآن قبل إخلادك إلى النوم».

ومن فرط الرعب الذي بدا على چينا، تراجعت الملكة خطوة إلى الوراء، وقالت: «حسنًا، يبدو أنك لم تألفي بعدُ جدتك العزيزة. تصبحين على خير يا حفيدتي».

لكن چينا لم ترد عليها.

«لقد قلت تصبحين على خير يا حفيدتي. لن أتركك حتى تقولي لي تصبحين على خير».

خيَّم صمت يشوبه التوتر على الغرفة إلى أن قررت چينا أنها ما عادت تحتمل النظر إلى أنف شبح الملكة المدبب أكثر من ذلك، فقالت ببرود: «تصبحين على خير».

قال شبح الملكة مصححًا: «تصبحين على خير يا جدتي».

ردت چينا، بينما كان شبح الملكة - ولسعادتها - قد بدأ يتلاشى: «لن أناديك أبدًا بجدتي».

سُمع صوت شبح الملكة بنبرته العالية يقول: «بل سوف تفعلين.. سوف تفعلين».

أخذت چينا وسادة، بغضب، وألقتها جهة الصوت، لكن من دون جدوى؛ إذ كان شبح الملكة قد اختفى. وعملًا بنصيحة العمة زيلدا، بدأت چينا تعد إلى عشرة ببطء بالغ حتى هدأت، ثم أخذت كتاب «تاريخ قلعتنا» وبسرعة، قلبت الصفحات الصفراء إلى أن وصلت إلى الفصل الثالث عشر. كان عنوان الفصل «الملكة إيتلدريدا البشعة».

4
حانة «فجوة السور»



في *الوقت الذي جلست فيه جينا تقرأ الفصل الثالث عشر من الكتاب،* كانت مارشا الساحرة العظمى قد باغتت تلميذها سبتيموس هيب، وهو يقرأ في أوراق ما كان من المفترض أن يطلع عليها. وكانت مارشا أوفرستراند، الساحرة العظمى للقلعة، قد صرعها مؤقتًا شجار اندلع بين براد القهوة والموقد في مطبخها. وبعد أن تملكها الغضب، قررت أن تتركهما في شجارهما، وتذهب هي لتطمئن على تلميذها، فوجدته في المكتبة الهرمية مستغرقًا وسط كومة من النصوص القديمة البالية.

فسألته مطالبة بتفسير: «ما هذا الذي تفعله بالضبط يا سبتيموس؟».

انتفض سبتيموس وهبَّ واقفًا على قدميه كما لو كان مذنبًا، وبسرعة دس الأوراق أسفل الكتاب الذي كان من المفترض أنه يقرأ فيه الآن، وقال: «لا شيء».

قالت مارشا بحدة: «وهذا هو بالتحديد ما كنت أظن أنك تفعله، لا شيء»، ثم أخذت تتفحص تلميذها بنظراتها، محاولةً - بدون أن تنجح تمامًا - أن تحتفظ بمظهرها الحاد. كانت عينا سبتيموس الخضراوان الذكيتان تعلوهما نظرة اندهاش، وكان شعره الذهبي الجعد مشبكًا بالطريقة التي تعرف منها مارشا أنه أخذ يلف فيه من فرط التركيز، فقالت له: «أحب أن أذكرك - في حال إن كانت ذاكرتك قد خانتك - أنه من المفترض أنك تراجع الآن دروسك استعدادًا لامتحان الممارسة العملية للتنبؤ الذي ستخوضه غدًا، لا أن تقرأ في كل هذا الكلام الفارغ الذي مضى عليه خمسمائة عام».

رد سبتيموس معترضًا: «هذا ليس كلامًا فارغًا. إنه...».

قاطعته مارشا: «أنا أعلم تمامًا ما هذا الذي تقرؤه. وقد قلت لك من قبل إن علوم الكيمياء كلام فارغ، وليست إلا مضيعة للوقت. لا فارق بينها وبين أن تذهب لتغلي جواربك متوقعًا أنها ستتحول إلى ذهب».

رد سبتيموس معترضًا: «لكنني لا أقرأ في الكيمياء، بل في الطب».

قالت مارشا: «لا فارق.. أظن أنك تقرأ لمارسيلوس باي، أليس كذلك؟».

«بلى، إنه رائع فعلًا».

«وهو حتمًا غير مناسب لك يا سبتيموس»، ثم مدت مارشا يدها تحت الكتاب الذي دس سبتيموس الأوراق أسفله في عجالة - وهو كتاب مبادئ وممارسات التنبؤ الأولى - وسحبت رزمة من الأوراق الصفراء البالية ذات الحبر الباهت، وقالت: «على أية حال، هذه ليست إلا ملاحظاته».

«أعلم، خسارة أن الكتاب اختفى».

«هـمم.. لقد كان من المفترض أن تكون نائمًا الآن. فأمامك يوم طويل غدًا، يبدأ مبكرًا، لا تتأخر ثانية واحدة بعد الساعة السابعة وسبع دقائق صباحًا، مفهوم؟».

فأومأ لها سبتيموس برأسه.

«إذن، هيا إلى سريرك الآن».

«لكن يا مارشا...».

«لكن ماذا؟».

«أنا بالفعل مهتم **بالطب**، ومارسيلوس كان يمارسه على أفضل وجه، وكان لديه كل أنواع الأدوية والعلاجات المفيدة، كما أنه كان يعلم كل شيء عن الأسباب التي تجعلنا نمرض. هل تعتقدين أنني أستطيع أن أدرس في هذا المجال؟».

ردت مارشا قائلة: «لا، أنت لستَ في حاجة إلى ذلك يا سبتيموس. فالسحر يستطيع أن يقوم بكل شيء يقوم به الطب».

قال سبتيموس معاندًا: «لكنه لا يستطيع رغم ذلك أن يعالج المرض الغامض المنتشر الآن».

زمت مارشا شفتيها، فلم يكن سبتيموس أول من أشار إلى ذلك، ثم قالت بإصرار: «سوف ينجح. سوف ينجح. إن الموضوع يحتاج إلى مباشرة مني فحسب - ما هذا الصوت؟»؛ كان هناك صوت تكسير مدوٍّ قادم من المطبخ الذي يقع أسفل هذا الطابق بطابقين، فانطلقت مارشا على الفور.

تنهد سبتيموس، ثم وضع أوراق مارسيلوس في الصندوق القديم الذي عثر عليه في ركن مترب، وأطفأ الشمعة، ثم نزل إلى فراشه في الطابق الأسفل.

لم يتمكن سبتيموس من النوم جيدًا هذه الليلة. فعلى مدار هذا الأسبوع، ظل يراوده نفس الحلم المزعج الذي تدور أحداثه حول الامتحان، وهذه الليلة لم تكن استثناء. كان يحلم بأن الامتحان قد فاته، وأخذت مارشا تطارده، ثم سقط في مدخنة سرمدية تمتد بلا نهاية.. وظل يحاول التشبث بجدران المدخنة ليوقف سقوطه، لكنه ظل يسقط.. ويسقط.. ويسقط.

سمع سبتيموس صوتًا مألوفًا يتردد صداه متجرفًا للأسفل في المدخنة يقول له: «أكنت تتعارك مع البطاطين يا سبتيموس؟ يبدو عليك أنك خسرت»، ثم واصل الصوت حديثه وهو يضحك ضحكة خافتة ويقول: «ليس من الحكمة أن تتشاجر مع زوج من البطاطين أيها الفتى، لو بطانية واحدة ربما، لكن بطانيتان سوف تتحالفان ضدك.. إنها شريرة تلك البطاطين».

أجبر سبتيموس نفسه على الخروج من الحلم، واعتدل جالسًا وهو يشهق من هواء الخريف البارد الذي صاحب دخول ألثر ميلا من النافذة.

سأله ألثر وقد بدا عليه القلق: «أأنت بخير؟»، ثم استقر على سرير سبتيموس في جلسة مريحة.

«أيييين.. أنا؟» هكذا همهم سبتيموس وهو يركز بصعوبة على الهيئة الشفافة قليلًا لألثر ميلا، الساحر الأعظم السابق، كثير التردد على برج السحرة. لم تكن رؤية ألثر بذات صعوبة رؤية بعض الأشباح الأقدم الموجودة في القلعة، لكن عباءته الأرجوانية الباهتة في المساء تميل لأن يمتزج لونها مع البيئة حولها، ولعتامة الضوء في الغرفة كان من الصعب رؤية بقع الدم البنية التي تعلو قلب الشبح، والتي يجد سبتيموس نفسه دائمًا منساقًا للنظر إليها، مهما حاول ألا يفعل. كانت عينا ألثر الخضراوان القديمتان تحملان تعبيرًا هادئًا وطيبًا، بينما كانتا تمعنان النظر في التلميذ المفضل لديه.

قال ألثر مستفسرًا: «نفس الحلم المزعج؟».

رد سبتيموس مقرًا: «آه، نعم».

فسأله ألثر: «هل تذكرت هذه المرة أن تستخدم **الوصفة السحرية للطيران**؟».

«في الحقيقة لا. ربما المرة القادمة. وإن كنت أتمنى ألا تكون هناك مرة قادمة. إنه حلم بشع». وانتابت سبتيموس رجفة، ثم سحب إحدى البطاطين العنيدة حتى ذقنه.

قال ألثر، مستغرقًا في التفكير، مع ارتفاعه فوق الوسادة محلقًا مادًا جسمه بأنين شبحي: «هممم.. إن الأحلام في حقيقة الأمر تأتينا لأسباب. وهي أحيانًا تخبرنا بأشياء تحتاج أن نعلمها.. ما رأيك؟ لقد فكرت أنك قد تحب أن تقوم برحلة قصيرة إلى مكان ليس ببعيد عن هنا».

تثاءب سبتيموس، ثم سأله والنعاس لا يزال يملأ عينيه: «لكن ماذا عن مارشا؟».

قال ألثر: «لقد انتابت مارشا إحدى نوبات صداعها. أنا لا أفهم ما الذي يزعجها إلى هذا الحد من براد القهوة المشاكس. لو كنت مكانها لتخلصت منه، لقد ذهبت لتنام الآن، فلا داعي لإزعاجها، وسوف نعود قبل أن تلاحظ غيابنا».

لم يرغب سبتيموس العودة إلى النوم فيراوده نفس الحلم مرة أخرى. فنزل من على السرير وارتدى رداءه الصوفي الأخضر الخاص بالتلامذة، والذي كان مطويًا بعناية على طرف سريره، تمامًا كما تعلَّم أن يفعل مع زيه الرسمي كل ليلة في جيش الشباب على مدار السنوات العشر الأولى من حياته، وأخيرًا ربط حزامه الفضي الخاص أيضًا بالتلامذة.

ثم سأله ألثر: «جاهز؟».

رد عليه سبتيموس قائلًا: «جاهز»، ثم توجه نحو النافذة التي تسبب ألثر في فتحها عندما حضر. صعد سبتيموس إلى إفريز النافذة الخشبي العريض، ووقف عليه وسط النافذة المفتوحة، ثم نظر للأسفل من هذا الارتفاع الشديد الذي يبلغ واحدًا وعشرين طابقًا، وهو شيء ما كان يحلم أن يقدم عليه منذ بضعة شهور مضت؛ نظرًا لخوفه الشديد من

الارتفاعات، لكنه الآن تخلص من هذا الخوف، والسبب في ذلك يمسكه في يده بإحكام؛ إنه **الوصفة السحرية للطيران**.

وبحرص شديد، أخذ سبتيموس السهم الذهبي الصغير المرفق به الجناحان الفضيان الرقيقان، وأمسكه بين سبابة وإبهام يده اليمنى، ثم سأل ألثر الذي كان يحوم في الهواء أمامه ويحاول بذهن شارد أن يقوم بلفة خلفية: «إلى أين نحن ذاهبان؟».

رد عليه ألثر وهو مقلوب رأسًا على عقب: «إلى حانة فجوة السور. إنه مكان لطيف. لا شك أني حدثتك عنه من قبل».

فقال سبتيموس معترضًا: «إنها حانة. وأنا أصغر كثيرًا من أن أوجد في مثل هذه الأماكن، كما أن مارشا تقول إن الحانات أوكار».

رد ألثر قائلًا: «لا تشغل بالك بما تقوله مارشا عن الحانات؛ فمارشا لديها نظرية غريبة بأن الناس يذهبون إلى الحانات كي يتحدثوا عنها من خلف ظهرها. ولقد قلت لها إن الناس لديهم أشياء أهم كثيرًا من الكلام عنها – كأسعار الأسماك على سبيل المثال – لكنها لا تريد أن تصدق ذلك».

لف ألثر لفة محورية في الهواء ثم اعتدل بحيث أصبح يحوم مواجهًا سبتيموس. نظر الشبح إلى الهيئة الصغيرة للفتى الواقف على عتبة النافذة، بشعره الجعد الذي تطيره رياح تدور على الدوام حول قمة برج السحرة، وبعينيه الخضراوين اللتين تشعان **سحرًا** مع ارتفاع حرارة **الوصفة السحرية للطيران** في يده. وعلى الرغم من أن ألثر ظل يساعد سبتيموس على ممارسة **فن الطيران** خلال الأشهر الثلاثة الماضية – منذ أن عثر

سبتيموس على **الوصفة السحرية للطيران**– فلا يزال يداهمه حتى الآن إحساس خاطف بالخوف وهو يرى الفتى واقفًا على حافة شديدة الانحدار.

قال سبتيموس، وصوته يكاد يتلاشى في الهواء مع هبة ريح فجائية: «سوف أتبعك».

«ماذا قلت؟».

«سوف أتبعك يا ألثر، تمام؟».

«تمام. وإن كنت سأراقبك أولًا في بداية انطلاقك؛ حتى أطمئن فقط أنك بخير وتحلق بثبات».

لم يعترض سبتيموس؛ فهو يحب وجود ألثر معه، ولقد أسعدته نصائح ألثر جدًا لمرة أو مرتين في الأيام الأولى التي كان يتعلم فيها **الطيران**، لاسيما في تلك المرة المزعجة التي كاد يصطدم فيها بسقف «دار المخطوطات». وكان سبتيموس حينها يستعرض أمام صديقه بيتل، لكن ألثر تمكن في آخر لحظة من التسبب في إحداث تيار هواء صاعد فجائي، وأنزل سبتيموس بسلام في الفناء الخلفي للدار، ولم يذكر بعد ذلك قط موضوع هذا الاستعراض.

بدأت **الوصفة السحرية للطيران** تسخن في قبضة سبتيموس. لقد حان إذن وقت الانطلاق. واندفع سبتيموس وسط الظلام بعدما أخذ نفسًا عميقًا. ولوهلة، شعر بقوة الجاذبية وهي تسحبه نحو الأرض. ثم حدثت الخطوة التي يعشقها؛ إذ توقف انجرافه للأسفل وأصبح حرًا، حرًا كالطيور، يستطيع أن يطير ويحلق عاليًا ويدور في حلقات ويلف لفات

محورية في هواء الليل، تدعمه **الوصفة السحرية للطيران** وتحمله بأمان. وما إن بدأت **الوصفة السحرية** تؤدي عملها حتى شعر ألثر بالارتياح، وانطلق أمام سبتيموس، باسطًا ذراعيه كأنهما جناحا نسر يحلق منسابًا، بينما كان سبتيموس يحلق خلفه، لكن في مسار غير منتظم، يحاول أن يجرب حركاته الجديدة للتحليق منسابًا على جانب واحد من الجسم في مسارات متعرجة.

وصل ألثر وسبتيموس إلى حانة «فجوة السور» يصحبهما صوت ارتطام بالأرض - أو بالأحرى سبتيموس هو الذي ارتطم، فألثر كان قد انطلق كالريح مخترقًا الجدار، تاركًا سبتيموس في الخارج يستخدم إحدى هذه الحركات الانسيابية الملتفة في مسارات متعرجة ليطبقها عمليًا ثم يهبط مرتطمًا وسط الشجيرات القائمة أمام الواجهة المتداعية للحانة.

خرج ألثر بعد عدة دقائق ليجد سبتيموس يرفع نفسه عن الأرض للخروج من وسط الشجيرات، فقال له معتذرًا: «أنا آسف يا سبتيموس. فقد رأيت توًا أولاف سنوريلسن المسن. إنه رجل لطيف من تجار الشمال، ولم يتسنَّ له قطُّ العودة إلى بيته ليرى الرضيع الذي رُزق به، وهو أمر يحزنه للغاية؛ مما يجعله يواصل ذكر ذلك إلى حد الإزعاج أحيانًا، لكنه شبح طيب. وأنا دائمًا أنصحه بالخروج من هنا والتجول في أنحاء القلعة، لكن ليس هناك في الواقع أماكن عديدة يستطيع أن يذهب إليها فيما عدا (سوق التجار) وحانة (الترسة الممتنة)؛ ولذا ينتهي به الأمر دائمًا إلى جلوسه محدقًا إلى جعته».

نفض سبتيموس بعض أوراق الشجر التي علقت بعباءته، وأعاد **الوصفة السحرية للطيران** لحزامه، ثم بدأ يتفحص مدخل حانة «فجوة السور». لم تبدُ له حانةً، بل أقرب إلى كومة من الأحجار التي تم التخلص منها بتكويمها عند قاعدة سور القلعة. ولم تكن هناك لافتة تعلو الباب، بل في واقع الأمر لم يكن هناك أساسًا باب، ولم تكن هناك تلك النوافذ المضيئة المألوفة التي يعلوها البخار كما اعتاد سبتيموس أن يرى؛ لأن الحانة ليس لها نوافذ أيضًا. وبينما كان سبتيموس يتساءل في سره عما إذا كان ألثر يداعبه بمزحة معقدة، مرت بهما راهبة شبحية.

قالت الراهبة بلهجتها الناعمة: «مساء الخير يا ألثر».

رد عليها ألثر مبتسمًا: «مساء الخير أيتها الأخت برناديت». لوحت له الراهبة تغازله، ثم اختفت مخترقة كومة الأحجار. حضر في أعقابها مباشرة فارس بذراع معلقة في رباط يتدلى من عنقه، وقام بربط حصانه الأعرج في قائم غير مرئي، ثم سار بتثاقل بين الشجيرات التي خلص سبتيموس نفسه منها توًا.

قال ألثر لسبتيموس مع استغراقه في التفكير، وهو يومئ برأسه إيماءة ودود للفارس: «على ما يبدو، إن الليلة مزدحمة، فلدينا عدد لا بأس به من الزوار».

رد سبتيموس قائلًا: «لكنهم... لكنهم أشباح».

رد ألثر قائلًا: «بالطبع أشباح. وهذه هي فكرة الحانة أساسًا. فأي شبح هنا موضع ترحيب، أما غير الأشباح فهم لا يدخلون إلا بدعوات فقط. ولعلمك، فإن الحصول على دعوة ليس يسيرًا. فلا بد أن يدعوك شبحان

على الأقل. صحيح أن الحانة يتسلل إليها بعض المتطفلين غريبي الأطوار على مدار السنين، لكنَّ المكان لا يزال محتفظًا بسريته».

وصل الآن ثلاثة سحرة عظماء من «القدماء» هيئتهم باهتة، وانحشروا في المدخل بينما كانوا يحاولون أن يقرروا من منهم سيتقدمهم في الدخول. أومأ سبتيموس لهم برأسه، ثم سأل ألثر: «إذن، من هذا الشخص الآخر الذي دعاني الليلة؟».

لم يرد ألثر على سؤاله؛ لانشغاله بمراقبة السحرة الثلاثة بعد أن قرروا أن يدخلوا معًا دون أن يسبق أحدهم الآخر، وصاحبهم على إثر ذلك كثير من أصوات القهقهة المجلجلة، ثمّ قال له: «هيا يا فتى، اتبعني». واختفى ألثر مخترقًا السور، ثم ظهر من جديد وهو يقول له بنفاد صبر: «هيا يا سبتيموس، يُستحسن ألا نترك الملكة إيثلدريدا تنتظرنا طويلًا».

«لكن أنا»..

«ما عليك إلا أن تحشر نفسك وراء الشجيرات وتتسلل من خلف كومة الأحجار، وسوف تجد طريق الدخول بعد ذلك».

شق سبتيموس طريقه بصعوبة بين الشجيرات، وتمكن - مع تحسس الطريق بمعاونة ضوء خاتمه التنيني الذي يضعه في سبابته اليمنى - من أن يعثر على ممر ضيق خلف الأحجار، أخذه متوغلًا في مكان فسيح منخفض السقف، يختبئ في سور القلعة نفسه - وهو حانة «فجوة السور».

تملك سبتيموس الدهش؛ فما سبق له أن رأى من قبل كل هذه الأعداد الغفيرة من الأشباح محتشدة في مكان واحد. لقد اعتاد سبتيموس رؤيتها في أنحاء القلعة، بما أنه ظل يُعد دائمًا من نوعية هؤلاء

الفتية مرهفي الحس الذين تحب الأشباح أن **تظهر** لهم، كما أنه لاحظ منذ أن ارتدى العباءة الخضراء الخاصة بتلامذة السحرة العظماء أن ذلك يدعو مزيدًا من الأشباح لأن **تظهر** له. لكن كان هناك شيء في جو الاسترخاء والفتور الذي يعم الحانة هنا - بالإضافة إلى واقع أنه في صحبة ألثر، أحد المترددين المشهورين على الحانة - أدى إلى أن معظم الأشباح سمحت له بأن يراها. وكان المنظر باهرًا وبديعًا؛ كانت هناك أشباح للسحرة العظماء المألوفين، جميعها في زي أرجواني مع اختلاف أشكال العباءات التي تعكس تطور الصيحات على مدار السنين، وقد اعتاد سبتيموس أن يراها في أنحاء القصر وبرج السحرة. وكما كان هناك أعداد مذهلة من الملكات والأميرات أيضًا، كانت هناك أشباح أخرى لم يعتد سبتيموس رؤيتها، وهي أشباح لفرسان وخدمهم، وأشباح لمزارعين وزوجاتهم، وأشباح لبحارة وتجار، وكتبة وطلاب علم، وأشباح من عابري السبيل ومن السمكرية المتجولين، وأشباح من كل الفئات التي سكنت القلعة منذ آلاف السنين، وكانت جميعها تحمل في أياديها أقداح حانة «فجوة السور»، كانت قد أُعطيت لها في الزيارة الأولى، وما احتاجت قط لإعادة ملئها بعد ذلك.

عمت الأجواء همهمة شبحية هادئة؛ حيث إن الأحاديث والحوارات التي بدأت منذ سنوات طويلة مضت لا تزال سارية بأسلوبها غير المتعجل، لكن في ركن بعيد من الحانة سمعت شخصية ملكية وَقْع الخطوات المترددة لفتى من الأحياء تشق طريقها وسط الضجيج

والضوضاء. نهضت الملكة من على مقعدها بجانب النار، وسرت وسط الحشد، فأفسح لها الطريق باحترام سيلٌ من الأشباح.

قالت الملكة إيثلدريدا: «سبتيموس هيب. تأخرت خمس دقائق ونصفًا. لكن لا بأس، فأنا أنتظر منذ خمسمائة عام، اتبعني».

5
الملكة إيثلدريدا



سرعان ما وجد سبتيموس نفسه يجلس إلى *مائدة طويلة في الركن البعيد من الحانة محشورًا بين الشبحين*. لم يكن هذا ما توقعه قطعًا عندما أوى إلى الفراش هذا المساء، لكن بعد عمله لثمانية عشر شهرًا تلميذًا لمارشا، تعلم ألا يتوقع أي شيء - فيما عدا كل ما هو غير متوقع.

وعلى الرغم من أن سبتيموس كان يعلم أنه في واقع الأمر ليس محشورًا بين ألثر والملكة إيثلدريدا- فإن هذا الإحساس بالانحشار لم يفارقه طوال فترة جلوسه بينهما، وحاول ألا يلمس أيًا منهما.. لكن رغم ذلك لم يكن في وسعه أن يطرد من ذهنه

إحساسه بأن مرفق الملكة إيثلدريدا المدبب يلتصق به. فتزحزح مبتعدًا بعض الشيء عن إيثلدريدا، بما أن اختراق الأشباح يُعد تصرفًا يتسم بأقصى درجات الفظاظة، وحدثه هاجس في نفسه بأن الملكة إيثلدريدا لن تسكت لو حدث لها ذلك بل إنها في واقع الأمر لم تكف حتى الآن عن إصدار تعليقاتها المعترضة حول معظم ما يدور حولها، وظلت جالسة بشموخ بهيئة منتصبة، وقد ثبتت عينيها البنفسجيتين الداكنتين بنظراتهما الحادة على سبتيموس مع منحها إياه شرف الاستفادة من رأيها وهي تقول له: «إن المكان هنا مليء بالدهماء والرعاع أيها التلميذ، مليء عن آخره. انظر إلى عابر السبيل هذا وهو يغط أسفل المائدة. إنه مكان بشع، بشع تمامًا. وأنا دون محالة سوف يكون لي شأن آخر حيال ذلك. انظر إلى سلوك هؤلاء الملكات الشابات - إنه غير لائق على الإطلاق، انطلقت صرخة طويلة مجلجلة من مائدة أربع ملكات شابات (كلهن رحلن أثناء الوضع). فزمت الملكة إيثلدريدا شفتيها، وقالت: «أنا لا أعلم كيف تجرأ ألثر ميلا وجاء بك إلى هذا المكان! في أيامي، لم يكن مسموحًا لتلميذ الساحر الأعظم بالخروج بدون حارس من السحرة، وإن خرج فلا يخرج إلا قاصدًا القصر في عمل رسمي. كما أن فتى في مثل سنك من المفترض أن يكون الآن قد أوى إلى فراشه، لا أن يخرج ويعربد في أوكار الرذيلة».

لم ينزعج سبتيموس من كلام الملكة إيثلدريدا؛ إذ إنها ذكرته بعض الشيء بمارشا، لكن ألثر بدا عليه التوتر، ورد عليها بتجهم قائلًا: «لعلك يا صاحبة الجلالة تتذكرين أنه بناء على رغبتك - وكانت الكلمة التي

استخدمتها حينها هي كلمة أمر - أني ذهبت لأوقظ هذا التلميذ الشاب وجئت به إليك. ولقد قلتِ لي إن لديك موضوعًا في غاية الأهمية مرتبطًا به - وإنها لمسألة حياة أو موت - ورفضتِ الإفصاح عن أي شيء. وأنت بنفسك أصررت على حضوره إلى الحانة هنا. وأنا أؤكد لك أن السيدة مارشا أوفرستراند لا تسمح في المعتاد لتلميذها بالتردد على الحانات في المساء، ولا في أي وقت آخر من اليوم أصلًا».

حبس سبتيموس أنفاسه؛ ترى، كيف ترد الملكة على هذا الكلام؟

لم تتفوه الملكة إيثلدريدا بكلمة واحدة لوهلة، ثم انحنت نحو سبتيموس الذي شعر بزفير بارد كالثلج يضرب وجنته بينما كانت تهمس في أذنه قائلة: «مارسيلوس باي، عند المنزلق الثعباني، في منتصف الليل، لا بد أن تحضر». وبهذه الكلمات، قامت الملكة من على الدكة وكأنها تنهض من على كرسي عرشها، وسحبت ذيل عباءتها خلفها مهفهفًا، ثم سارت بشموخ، ورأسها مرفوع، متوجهة إلى المدفأة، ثم توارت عن الأنظار.

غمغم ألثر قائلًا: «بحق السماء..».

ثم همهم سبتيموس، وقد تحمَّس بشدة: «مارسيلوس باي؟».

كانت هناك راهبتان قد جاءتا وجلستا في مكان الملكة إيثلدريدا، ثم نظرت إحداهما بارتياب إلى سبتيموس وهمست له قائلة: «لا تنطق بهذا الاسم باستخفاف أيها الفتى».

لم ينطق سبتيموس بكلمة واحدة أخرى بعد ذلك، ولكن ظلت الأفكار تطن في رأسه؛ تُرى، لماذا يريد شبح مارسيلوس باي أن يقابله،

وهو ليس إلا مجرد تلميذ من الطبقات الدنيا؟ ففي نهاية الأمر، لم يسبق لأحد أن قابل شبح مارسيلوس من قبل. ربما.. ثم ارتجف جسمه من هذه الفكرة.. ربما كان الشبح يراقبه وهو يقرأ ملاحظاته عصر ذلك اليوم وقرر أن **يظهر** له. لكن لماذا اختار «المنزلق الثعباني»؟ ولماذا في منتصف الليل؟

لاحظ ألثر التعبير الذي علا وجه سبتيموس، فهمس له قائلًا: «ماذا قالت لك؟».

هز سبتيموس رأسه، لا يريد أن يزعج الراهبتين مرة أخرى.

انتاب ألثر فجأة القلق، ثم تنهد وقال: «هيا بنا يا سبتيموس، دعنا نذهب من هنا الآن»، ثم نهض وتبعه سبتيموس الذي مر بين الراهبتين بحرص شديد؛ حتى لا يخترقهما. وكان ألثر قد خالجه إحساس غير مريح بسبب ظهور الملكة إيثلدريدا المفاجئ؛ فلا أحد من قبل سبق له أن رأى شبح الملكة في أنحاء القصر، صحيح أنه ليس مستغربًا ظهور واختفاء الأشباح، لا سيما الأشباح القديمة التي كثيرًا ما تستغرق في النوم على مقاعدها ولا تستيقظ إلا بعد سنوات طويلة، لكن أن يقرر شبح الظهور بعد كل هذه القرون منذ دخوله إلى عالم الأشباح فهذا أمر لم يسبق له أن صادفه قط من قبل. لقد بدا له ذلك غريبًا جدًّا، كما أن هناك شيئًا يتسم بالغرابة في إيثلدريدا، هكذا قال ألثر في سره. وتمنى الآن لو لم يحضر سبتيموس لمقابلتها.

تابع سبتيموس بحرص خطى ألثر، وشق طريقه متوجهًا إلى منفذ الخروج الذي كان بالفعل عبارة عن فجوة في السور، رأى منها الآن نور

القمر متلألئًا في السماء. هدأت الثرثرة الشبحية مع تسلل تلميذ الساحرة العظمى الحي من بين هذا الحشد المتنوع من الأشباح. تراجعت بعض الأشباح للوراء لتفسح الطريق لسبتيموس حتى يمر، ثم واصلت أحاديثها، وكفت بعض الأشباح الأخرى عن الكلام وسط الحديث وتابعت خروجه بعيون شبحية باهتة. وكانت بعض الوجوه قد ارتسم عليها تعبير الاشتياق الممزوج بالحزن، مع تذكر أصحابها كيف كانت حياتهم عندما كانوا أحياء في الحادية عشرة من أعمارهم؛ وبعض الأشباح الأخرى بدت غامضة، وغارقة في حياتها الشبحية، تنظر إلى الأحياء باعتبارهم كائنات غريبة، لا صلة لهم بها، لكن ولا شبح واحد من بين كل هذه الأشباح **اخترقها** سبتيموس بينما كان يتحسس الطريق حولها. وأخيرًا، شق سبتيموس طريقه في عجالة بين الشجيرات وبات خارج الحانة، يعتريه إحساس بالارتياح.

ثم سأله ألثر مجددًا: «ماذا قالت لك؟» وكان الشبح والفتى يسيران الآن في طريق مختصر يمر بساحة تجار الجوخ وهو فناء صغير تحتشد حوله مجموعة من البيوت القديمة، تسكنها أسر تعمل في مجال الأقمشة. كانت هناك بعض الشموع التي تضيء نوافذ المتاجر التي تعرض مجموعة غريبة من الستائر وبواقي الأقمشة، لكن الأبواب كانت مغلقة بالمفاتيح والمزاليج، وكانت الساحة غارقة في السكون، حتى إن سبتيموس كان في وسعه أن يسمع دقات ساعة تجار الجوخ العظمى وهي تدق من برجها الذي يعلو البيت الواقع في وسط المكان.

رد سبتيموس عليه بينما كانت ساعة تجار الجوخ قد بدأت تدق العاشرة، وجرسها المتناهي في الصغر يتردد صدى دقاته في الساحة (بلينج.. بلينج.. بلينج): «لقد قالت لي أن أذهب لمقابلة مارسيلوس باي في المنزلق الثعباني الليلة».

وما إن توقفت دقات الساعة حتى كانت الوجوه الكوميدية المصنوعة من الصفيح التي تظهر على التوالي قد أدت استعراضها، وعادت إلى مواقعها داخل الساعة واحدة تلو الأخرى، قال ألثر بحزم: «بالطبع لن تفعل شيئًا كهذا. إنها مختلة عقليًا يا سبتيموس، إنها مختلة عقليًا بكل ما في هذه الكلمة من معنى. وأنا نفسي لم أر من قبل شبح مارسيلوس باي. المشكلة أن بعض الأشباح كل حين ينتابها وهم جنون العظمة. وهذا يحدث كثيرًا مع الأشباح الملكية؛ فهذه الأشباح تعتقد أنها تستطيع أن تؤثر على حياة الأحياء وتصنع أحداثًا، تمامًا كما كانت معتادة أثناء حياتها. وبالطبع، لا يزيد تأثير ما تفعله هذه الأشباح على كونها تصم نفسها بالإزعاج. والمشكلة أنه يكاد يكون من المستحيل التخلص منها. وأفضل شيء هو تجاهلها، على أمل أن ترحل بعيدًا. وهذا هو بالضبط ما يجب أن تفعله أيها الفتى. أعتقد أنك تعلم من هو باي هذا، أليس كذلك؟».

قال سبتيموس: «بلى».

فأومأ ألثر بإعجاب، وقال: «هذا هو ما كنت أتوقعه. من المفيد لك أن تقرأ في هذا الموضوع، وإن كان خيرًا لك ألا تدع مارشا تعلم بذلك. إنها لا ترتاح مع علوم الكيمياء».

تنهد سبتيموس وقال: «أعلم ذلك».

قال ألثر: «إن مارسيلوس لم يكن مجرد كيميائي، بل كان طبيبًا ماهرًا أيضًا. خسارة أننا فقدنا بعض الحقائق التي توصل إليها في وقته، كان من الممكن أن نستخدمها الآن».

كان ألثر وسبتيموس يسيران الآن بخطى سريعة في الطريق الجانبي - المعروف بـ «شارع الخطوط البنية» - الذي سيأخذهما إلى طريق السحرة. وكان «شارع الخطوط البنية» شارعًا جانبيًا ضيقًا تكتنفه شرفات مرتفعة على كلا جانبيه، تستخدم لتجفيف الغزل والنسيج. أظلمت هذه الشرفات وخيم عليها السكون في هذا الوقت من المساء، وانبعثت منها رائحة صبغة خانقة مزعجة ظلت عالقة في الهواء الراكد. ومن فرط انشغال سبتيموس بسد أنفه والتنفس عبر فمه لم يسمع على مقربة منهما صوت مخالب تخرفش وسن حادة مدببة تطقطق، انطلقت نحوهما استعدادًا للعض.

ولم يلحظ سبتيموس ولا ألثر انبثاق عينين حمراوين من البالوعة، وهما ترمشان ثم تتراجعان بعد أن رأتا الضوء الصادر عن عمود الإنارة الفضي القائم أمام العقار رقم ثلاثة عشر في طريق السحرة، لكنهما كليهما سمعا صوتًا أعلى وأكثر إصرارًا؛ صوت خطوات أقدام مسرعة يتردد صداها بين جدران الشارع الجانبي ويتجه نحوهما.

نظر ألثر إلى سبتيموس وأشار له إلى فتحة صغيرة تتوسط شرفتين. وفي لحظة، كان هو وسبتيموس قد اختبأ في الظلال، يُنصتان لوَقع الأقدام الآخذة في الاقتراب.

همس ألثر قائلًا: «غالبًا سيكون نشالًا لا ينوي خيرًا. من الأفضل له ألا يحاول أن يقدم على شيء، فمزاجي متعكر الليلة».

لم يعلق سبتيموس على كلام ألثر؛ إذ إن وقع الخطوات بدأ يتباطأ، وبدا مترددًا مع اقترابه من الفتحة التي يختبئ فيها ألثر وسبتيموس، ثم توقف الصوت تمامًا.

وفجأة، قفز سبتيموس للخارج، ملقيًا الرعب في قلب ألثر.

وهنالك، صرخت سارة هيب صرخة تخرق الآذان، وسقطت سلتها من يدها مصطدمة بالأرض. فتبعثرت الزجاجات والبرطمانات التي كانت في السلة، وتدحرجت في شتى الاتجاهات.

قال سبتيموس: «أمي! لا تفزعي، إنه أنا وألثر».

حدقت سارة إليهما لا تصدق نفسها، ثم قالت: «بحق السماء، ماذا تفعلان هنا؟ ما هذا يا سبتيموس، لقد كدت تصيبني بنوبة قلبية، وما هذا الذي يفعله ألثر باصطحابك هكذا إلى هذه الحارات المخيفة في هذا الوقت من الليل؟».

رد عليها سبتيموس مفسرًا، وهو يلملم الزجاجات والبرطمانات ويضعها في سلتها: «لا تقلقي يا أمي. نحن في طريق العودة الآن. فلم نذهب إلا إلى حانة فجوة السور».

بدا الذعر على سارة وقالت: «حانة؟ ألثر أخذك إلى حانة؟ وفي المساء؟ ألثر» – ووجهت هنا كلامها إلى الشبح الذي خرج على الفور محلقًا من المكان الذي كان يختبئ فيه، وقد بدا عليه الهم والبؤس من هذه الليلة التي تسير فيها الأمور من السيئ إلى الأسوأ – «ألثر، ما هذا

الذي تفعله؟ ومع وجود هذا المرض الغامض الذي ينتشر بهذا الشكل؟».

تنهد ألثر وقال: «سوف أشرح لك ذلك غدًا يا سارة. وإن كان لا بد أن أسألك أنا نفس السؤال، فما الذي تفعلينه أنت هنا بالجري هكذا في حارة خلفية ومعك كل هذه الجرعات؟».

لم ترد سارة عليه؛ إذ كانت منشغلة بتفحص زجاجات الجرعات لتتبين إذا ما كان أيٌّ منها قد انكسر، ثم قالت لسبتيموس وهو يناولها آخر زجاجة: «أشكرك يا سبتيموس».

فسألها سبتيموس: «لكن إلى أين أنت ذاهبة يا أمي؟».

ردت سارة وقد بدا عليها فجأة كأنها اصطدمت بأرض الواقع بعد أن كانت تحلق للحظات في السماء: «ذاهبة؟ يا للهول! لسوف أتأخر هكذا. لا أريد أن أجعل نكو ينتظرني طويلًا».

فسألها سبتيموس في حيرة: «نكو؟».

قال ألثر: «سارة، ما الذي يحدث؟».

«لقد استُدعيت للتوجه إلى المستشفى يا ألثر. لا بد أن الجُرذ الرسول الذي وصلني كان آخر الجرذان الرسل المتبقية في القلعة. لقد استقبل المستشفى أعدادًا هائلة من المصابين وما عاد في وسعهم التعامل معهم. وسوف يجدف بي نكو إلى هناك. والآن، لا بد أن أذهب فورًا».

قال ألثر: «لن تذهبي بمفردك، سوف نأتي معك».

بدا على سارة أنها على وشك الاعتراض، ثم عدلت عن رأيها وقالت: «أشكرك يا ألثر. أنا.. ياه! بحق السماء، ثم انطلقت منها صرخة، وهمست تقول وهي تشير في اتجاه الظلام: «انظرا!».

نظر سبتيموس، في أول الأمر لم ير شيئًا، ثم رأى ما رأته سارة بعد أن جال ببصره المكان – رأى العينين الحمراوين تتقدمان نحوهم، وتراوغان من جانب إلى آخر. لأول وهلة، ظن سبتيموس أنهما عينا جُرذ، لكن كان هناك شيء، في وضع العينين في الرأس، بينما كانتا تنظران للأمام، جعلهما تبدوان مختلفتين عن عيون الجرذان. وبسرعة، أخرج سبتيموس من جيبه حصاة، وألقاها والتف في حركة محورية وسط الظلام متجهًا نحو النقطتين الحمراوين. ثم انطلقت صرخة مدوية، تبعتها خشخشة أوراق شجر، وتوارت العينان عن الأنظار وسط ظلام الليل.

قال ألثر: «هيا يا سارة، دعينا نوصلك الآن إلى ساحة المراكب».

* * *

وقف نكو ينتظر قلقًا بجانب زورق تجديف مربوط في رصيف المراكب بساحة مراكب چانيت مارتن. وكانت چانيت قد عينت نكو مؤخرًا تلميذًا مستجدًا، وبات الآن ينام في كوخ صغير خلف كوخ چانيت المتداعي.. ومنذ ساعة، كان نكو قد ألقى بجسده المنهك على فراشه بعد يوم طويل قضاه يساعد روبرت جرينج في إصلاح ذراع دفة مركب الشحن الضخم الخاص بالميناء، وما كاد يستغرق في النوم حتى استيقظ فزعًا على

صوت طرقات ملحة على نافذته، وكان ذلك الطارق هو الجرذ الرسول الذي أرسلته له سارة هيب.

وبسرعة، عثر نكو على زورق التجديف الذي تستخدمه چانيت أحيانًا في نقل الأفراد عبر النهر، وتسبب للأسف في إيقاظ چانيت التي تستطيع – حتى وإن كانت نائمة – أن تسمع أي صوت غير مألوف في ساحة مراكبها. وما إن أوت چانيت إلى فراشها مرة أخرى وقد أخذت تتذمر، إذا بها تستيقظ من جديد على خشخشة زجاجات سارة مع اهتزازها في السلة أثناء عبورها ساحة المراكب بخطوات مسرعة.

ساعد سبتيموس أخاه نكو في تثبيت الزورق إلى أن صعدت سارة متنه، ثم قال له وهو ينظر بريبة إلى امتداد الخندق المائي الذي يتوغل عرضًا وعمقًا قبالة ساحة المراكب، إلى أن وصل بصره إلى الأضواء شبه المعتمة للمستشفى التي تكاد تخفيها الأشجار الخارجية للغاية: «تأكد من أن أمي وصلت بسلام إلى المستشفى، اتفقنا؟»؛ إذ إن السير مساءً من مرسى المراكب على الضفة الأخرى إلى المستشفى يُعد محفوفًا بالمخاطر.

قال نكو رافعًا المجدافين الطويلين، منتظرًا أن تستقر سارة على متن الزورق: «هذا هو بالطبع ما سوف أفعله».

قال ألثر لسبتيموس: «لا تقلق، سوف أحرس سارة حتى باب المستشفى. لا يزال بإمكاني أن أتخلص من حيوانات الولڤرين إذا كنت مضطرًا لذلك. وإن كنت سأضطر لأن ألتف من عند البوابة الشمالية، لكني سوف أكون هناك في انتظارها».

قال نكو وهو يدفع الزورق في الماء بعيدًا عن مرسى ساحة المراكب: «سوف أراك بعد عودتي يا سِب».

ثم سمع سبتيموس أمه توبخ نكو وتقول له: «لا، لن تستطيع أن تراه لدى عودتك، فسبتيموس سوف يعود مباشرة إلى مارشا».

وبينما كان سبتيموس يراقب ألثر وهو يحلق نحو البوابة الشمالية، غمره شعور رائع بالحرية والابتهاج؛ إنه يستطيع أن يذهب إلى أي مكان، ويفعل أي شيء، فليس ثمة من يستطيع أن يمنعه. وهو وإن كان ينبغي عليه أن يعود إلى برج السحرة، فهو لا يشعر بالنعاس الآن. كان يشعر بالتوتر والأرق، وكأن أحداث الليلة بشكل أو بآخر لم تنته، ثم أيقن فجأة سبب هذا الإحساس، لقد تذكر كلمات الملكة إيثلدريدا وهي تقول له: «مارسيلوس باي، عند المنزلق الثعباني، في منتصف الليل، لا بد أن تحضر».

وفجأة، أدرك سبتيموس لماذا طلبت منه الملكة إيثلدريدا أن يقابل شبح مارسيلوس باي؛ كي يعطيه تركيبة الدواء المضاد للمرض الغامض.

كانت الساعة لا تزال العاشرة والنصف تقريبًا، وما زال أمامه وقت كافٍ كي يصل إلى المنزلق الثعباني قبل منتصف الليل.

6

الممر الخارجي



قرر سبتيموس *أن يستخدم الممر الخارجي الممتد بطول أسوار القلعة*؛ تحسبًا لأن تكون مارشا قد دعاها داعٍ فجأة إلى مأمورية سحرية، أو ما إلى ذلك منَ المأموريات المزعجة، فيجد نفسه لحظة العثرة مصطدمًا بها. وبحماس متزايد، بدأ يشق طريقه عبر ساحة المراكب، مع حرصه على ألا يصدر أي صوت قد يُزعج جانيت. وسرعان ما كان قد وصل إلى جسم مركب نهري قديم مقلوب رأسًا على عقب، وبعد أن انحشر خلفه وجد ضالته؛ ألا وهي السلم شديد الانحدار الذي يصعد إلى الممر الخارجي.

كان الممر الخارجي هذا عبارة عن كورنيش ضيق متداع، يرتفع عن سطح مياه الخندق المائي الداكنة ببضعة أقدام قليلة فقط، وهو لم يُشيد كي يكون ممرًا، بل كان في الأصل الحافة الممتدة التي تبدأ عند نقطة انتهاء الأساسات الضخمة لأسوار القلعة وبداية الأسوار الأقل سُمكًا التي بُنيت بكتل صخرية قُطعت بأحجام أصغر وأشكال أكثر دقة. وعندما كان سبتيموس مجندًا في جيش الشباب، كان كثيرٌ من الفتية الأكبر سنًا ينطلقون جريًا على امتداد هذا الممر الخارجي لإثبات جرأتهم، لكن لم تكن هذه المغامرة من الأمور التي ود سبتيموس يومًا الاشتراك فيها حتى اليوم . أما الآن، ومع إحساسه بالثقة بالنفس بعد عام ونصف العام من العمل تلميذًا للساحرة العظمى، ومع علمه أنه لو حدث وسقط لأمكنه على الفور أن يستخدم **وصفته السحرية للطيران**، كان من السهل عليه أن يصعد إلى الممر.

كان الممر أضيق مما توقع، وسار سبتيموس ببطء، وهو ينقل قدمًا أمام الأخرى متحسسًا الطريق على الأحجار المتقلقلة. وكان ممتنًا بالطبع لنور البدر الآخذ في الأفول، والذي كان ينير ماء الخندق المائي، ملقيًا بنوره على الأحجار الباهتة لجدران القلعة، فسهل عليه رؤية طريقه بوضوح. كان الجو هادئًا في الجهة المحمية من الرياح الشرقية، على الرغم من أن سبتيموس كان يرى إلى بعيد في الغابة هامات الأشجار تتمايل يمينًا ويسارًا، كان الطريق بجانب المياه ساكنًا وهادئًا.

وبعيدًا عند الضفة الأخرى للخندق المائي، القريبة من الغابة قربًا مخيفًا، كانت أضواء المستشفى تتراقص يمينًا ويسارًا مع حركة أغصان

الأشجار الحدودية للغابة أمام صف طويل من النوافذ المتناهية في الصغر والمضاءة بالشموع. توقف سبتيموس عن السير، وراقب تقدم مصباح سارة هيب في طريقه بسرعة ثابتة على امتداد عرض الخندق المائي، بينما كان نكو يجدف باتجاه ضفة الغابة. بدا المصباح نقطة ضوئية متناهية في الصغر مقارنة بالامتداد الشاسع للأشجار المعتمة على الضفة المقابلة من النهر، وأمل أن يكون ألثر في انتظارهما لدى وصولهما إلى ضفة الغابة.

بعد عدة دقائق، وصل ضوء المصباح إلى الضفة البعيدة، ورأى سبتيموس هيئة ألثر يضيئها بريق المصباح. وبعد أن اطمأنَّ على والدته، واصل السير، ثم سرعان ما أخذه انحناء سور القلعة بعيدًا عن ناحية المستشفى، ورأى أمامه الممر الخارجي ممتدًا طويلًا وخاليًا. اندهش سبتيموس بعض الشيء؛ لأنه لم يرَ حتى الآن أية لافتة تشير إلى المنزلق الثعباني، كما أنه لم يكن يدرك أن سور القلعة تكثر فيه الانحناءات إلى هذا الحد، بما أنه اعتاد استخدام الطريق المباشر إلى المنزلق. لكن رغم ذلك همَّ بالسير بخطوات سريعة، تحفزه فكرة إمكانية التحدث إلى مارسيلوس باي.

ومع مواصلة سبتيموس السير بسرعة أبطأ مما كان يتمنى، لكثرة الانبعاجات التي تعترض سطح الطريق، شعر ببرودة تهب عليه من جهة الخندق المائي، واشتم رائحة رطوبة مزعجة تنبعث من المياه مع تدفقها البطيء، وراحت طبقة رقيقة من الضباب تتكون مباشرة فوق سطح الخندق المائي، ثم ازداد سمكها بينما كان سبتيموس يراقب تكونها،

إلى أن أخفت تمامًا سطح المياه أسفلها. صاحب تكون الضباب هدوء ناعم، لا يخترقه إلا كل حين وآخر صفير الريح عند هامات الأشجار التي تقع عند أطراف الغابة.

بدأ حماس سبتيموس لمقابلة مارسيلوس باي يفتر، لكنه أخذ يسير، فما عاد الآن أمامه أي خيار آخر؛ إذ ازداد الممر الخارجي ضيقًا إلى الحد الذي يجعله معرضًا للخطر لو حاول الالتفات في الاتجاه المعاكس. وبعد أن زلت قدمه مرتين على بعض الأحجار المتقلقلة، وكاد يسقط في الخندق المائي، كان قد قرر في سره أنه تهور عندما فكر في استخدام الممر الخارجي. فتوقف، واستند إلى السور محاولًا الاحتفاظ بتوازنه، ثم أخذ يبحث في حزام التلامذة الذي يرتديه عن **الوصفة السحرية للطيران** فانحشرت يده في الجيب الصغير الذي يحتفظ فيه **بالوصفة السحرية**. وبينما كان يحاول جاهدًا أن يُخرج يده من جيب الحزام، وجد نفسه يتكفئ للأمام. وفي حالة من الهلع، أمسك بقوة في الأحجار خلفه، وتمكن بصعوبة من أن يستعيد توازنه ويقف من جديد.

وفي ذلك الوقت، أدرك سبتيموس تمامًا أن اتخاذه طريق الممر الخارجي خطأ يتصف بالحمق والغباء، لكنه أرغم نفسه على توجيه تركيزه إلى الطريق أمامه، وحاول ألا يلتفت إلى الأفكار التي فرضت نفسها عليه بقوة وإصرار، وأخذت تشتت انتباهه، وكانت كالتالي:

فراشه الدافئ والمريح الذي ينتظره فوق قمة برج السحرة.

صفير الريح عند قمم الأشجار

لماذا يبدو غريبًا بهذا الشكل؟

فراشه

هل تأتي حيوانات الولفرين إلى أسوار القلعة في المساء؟

هل تستطيع حيوانات الولفرين السباحة؟

إنها تستطيع، أليس كذلك؟

فراشه

لماذا يبدو الضباب غريبًا بهذا الشكل؟

ترُى، ماذا يوجد أسفل الضباب؟

هل حيوانات الولفرين تحب السباحة على وجه الخصوص أسفل الضباب؟

فراشه

لكن، ألم تذكر كتابات مارسيلوس أنه عثر على سر الحياة الأبدية؟

وماذا لو اتضح أن مارسيلوس ليس مجرد شبح عادي؟

وماذا لو كان رجلًا حيًا عمره خمسمائة عام؟

ألن يكون في هذه الحالة عبارة عن هيكل عظمي رق جلده تمامًا؟

لمَ لم يفكر في كل هذه العواقب من قبل؟

وهنالك، غطت وجه القمر سحابة سوداء ثقيلة ضخمة، أغرقت سبتيموس في الظلام فوقف متسمرًا في مكانه، وخفقات قلبه تدوي كالطبل في رأسه، واستند بشدة إلى السور. وبعد أن اعتادت عيناه هذا الظلام، وجد نفسه لا يزال يستطيع أن يرى هامات أشجار الغابة، لكن لسبب لم يفهمه، لا يمكنه رؤية قدميه، مهما حدق بهما. ثم أدرك السبب؛ إنه الضباب الذي ارتفع حتى غطى حذاءه الطويل، وبإمكانه أن

يشتم رائحة الرطوبة المنبعثة منه. كان الخاتم التنيني الذي يضعه في سبابته اليمنى يبرق بضوئه الأصفر الهادئ المطمئن، لكنه خلعه من أصبعه ووضعه في جيبه؛ إذ بدا فجأة سطوع الخاتم وكأنما يعلن: «ها أنا صيد سهل أمامكم، جاهز ومستسلم لكم».

وبعد نحو نصف ساعة – رغم أن سبتيموس كان واثقًا أنها مدة استغرقت ثلاث ليالٍ متوالية قضاها تحت تأثير **تعويذة معكوسة** – سمع خطوات أقدام خلفه. توقف سبتيموس وقد بلغ قلبه حنجرته، لكنه لم يجرؤ على الالتفات وراءه خشية السقوط في الخندق المائي. واصلت الخطوات اقترابها منه، فأخذ سبتيموس يسير مرة أخرى، هو يتقدم بخطوات متعثرة على امتداد الممر، وينظر حوله وسط الظلام، يتلهف لأن يرى المنزلق الثعباني، لكن السحب السوداء الثقيلة ظلت تتوافد وتتكتل، وظل وجه القمر مختبئًا خلفها.

بدت خطوات الأقدام وراءه خفيفة ورشيقة في حركتها، وأدرك سبتيموس أنها سرعان ما سوف تلحقه؛ لأنه مع كل خطوتين يخطوهما، كان هذا **الشيء** – وهو لا يساوره أدنى شك أنها خطوات **شيء** – يخطو ثلاث خطوات.. وباستماتة، حاول سبتيموس الإسراع، لكن الخطوات ظلت تقترب منه أكثر فأكثر.

وفجأة، سمع صوتًا وراءه: «هسس.. هسس..» إنه صوت **الشيء** وقد أخذ يفح تجاهه ويفح. لا بد أنه **شبح رأس أفعى**.. أو ربما كان أحد كائنات المأجوج، فهذه الكائنات أحيانًا تفح، أليس كذلك؟ ربما كان أحد كائنات المأجوج التي كانت تتبع دومدانيال وقد تخلف عنه، ربما كان

هذا الكائن يعيش داخل أسوار القلعة الآن ويخرج ليلًا عندما يقرر شخص أحمق أن يقوم بجولة غبية على امتداد الممر الخارجي.

ثم فحَّ الصوت فحيحًا عاليًا في أذنه مباشرة: «هسسس!» انتفض سبتيموس من فرط فزعه، وهنالك زلت قدمه اليمنى من على الممر الضيق المتداعي، وانزلق نحو المياه، وهو يتشبث، بهلع، بالأحجار مع انزلاقه. وما إن لمس الزوج الأيمن لحذائه الطويل سطح الخندق المائي، وكان على وشك أن يسقط بكامل جسمه في المياه، حتى أمسكه شيء من عباءته.

7

المنزلق الثعباني



وقال صوت بنبرة *ساخطة*: «هل لك أن تكف للحظة عن الحركة وتبقى ساكنًا؟ فسوف تُسقطني معك في الخندق المائي إن لم تتوخَّ الحذر».

«مممماذا قللللتِ؟» هكذا قال سبتيموس وهو يشهق، متسائلًا في سره لماذا يتظاهر هذا **الشيء** بأنه فتاة. فصوت الأشياء عمومًا نبرته خفيضة ومهددة، تجعل الدم يتجمد في العروق، ولا يشبه صوت الفتيات. لا بد أن هذا **الشيء** التبست عليه الأمور. وقال

سبتيموس في سره لعله يكون **شيئًا** شابًا، لا يزال في مقتبل العمر، ويحمل في نفسه بريق أمل، و**الشيء** الشاب قد يسهل إقناعه بأن يتركه لحال سبيله. وهكذا، قرر سبتيموس أن يواجه هذا الذي يمسك به بكل هذا الإحكام، أيًا كان هو. وبينما بدأ يصارع حتى يمكنه الالتفات وراءه، وجد نفسه قد رُفع إلى الممر الخارجي.

قالت له لوسي جرينج، وهي تلهث بعد أن رفعته: «أيها الفتى الأحمق، من حسن حظك أني لم أتركك تسقط، رغم أنك تستحق ذلك».

وبعد إحساس سبتيموس بالارتياح، وجد نفسه فجأة خائر القوى ومهزوزًا، ثم قال: «لوسي! ما الذي تفعلينه هنا؟».

ردت لوسي قائلة: «وأنا أيضًا أود أن أسألك نفس السؤال: ما الذي تفعله هنا أيها الفتى التلميذ؟».

قال سبتيموس وهو عاجز عن الحركة: «في الواقع أنني شعرت فحسب بالحاجة للتجول في الهواء الطلق».

قالت لوسي متمتمة: «يا لها من جولة غريبة! لقد كان بوسعك أن تفكر في أماكن أفضل كثيرًا تتجول فيها. إذن، هيا تحرك الآن وواصل جولتك، أم أنك ستبيت هنا هذه الليلة؟ أتمنى ألا يكون ذلك هو ما ستفعله لأنك تسد الطريق عليَّ وأنا أمامي أمور لا بد أن أنجزها».

ومع انتفاء البدائل، واصل سبتيموس طريقه، وهو يتحسس خطواته ببطء على امتداد الممر، ثم جاء من ورائه صوت لوسي التي نفد صبرها وهي تقول له: «سحقًا، ألا تستطيع أن تسرع قليلًا؟ سوف نستغرق الليل بطوله لو واصلنا السير بهذه السرعة».

«أنا أتحرك بأقصى سرعة ممكنة. لكن ما سبب تعجلك بهذا الشكل؟ وإلى أين أنت ذاهبة؟ أخخخخ!». لقد زلت قدمه، لكن لوسي أمسكته ودفعته للأمام لينطلق سائرًا مرة أخرى وكأنه لعبة بزنبرك.

ثم ردت عليه قائلة: «هذا ليس من شأنك. ولا من شأن أحد. لقد ازداد عرض الممر الآن، يمكنك أن تسرع قليلًا، أم أن لك رأيًا آخر؟».

ولسعادة سبتيموس، بدأت قدماه تجدان موطئًا لهما أكثر صلابةً مع ازدياد عرض الممر، ثم سألها: «لقد سرت من قبل في هذا الطريق، أليس كذلك؟».

ردت لوسي قائلة: «ربما. ألك أن تسرع قليلًا؟».

«لا، لا أستطيع»، ثم سألها بنبرة تشوبها الريبة: «إذن، ما الذي دفعك إلى استخدام هذا الممر الخارجي؟ هل لأنك لا تريدين أن يعرف جرينج - أعني والدك - إلى أين أنت ذاهبة؟».

ردت لوسي بنبرة متعالية: «ليس من شأنك أن تسأل ما الذي أفعله، أو إلى أين أنا ذاهبة! هل لك أن تسرع فحسب الآن؟».

فسألها سبتيموس، وقد بدأ عامدًا يبطئ من سرعته: «لماذا؟ لماذا لا تريدين أن يعلم جرينج إلى أين أنت ذاهبة؟».

«يا إلهي! أنت مزعج.. لقد فهمت الآن لماذا يقول عنك سايمون إنك...»، وسكتت لوسي في منتصف الجملة، لكن بعد فوات الأوان.

وهنالك توقف سبتيموس، واصطدمت به لوسي، ثم قال لها: «أنت ستقابلين سايمون، أليس كذلك؟».

«ما هذا الذي فعلته؟ لقد كدت تسقطنا في الخندق المائي».

كرر سبتيموس كلامه قائلًا: «أنت بالفعل ستقابلين سايمون، أليس كذلك؟ وهذا هو الذي جعلك تسلكين هذا الطريق؛ حتى لا يراك أحد. أنت تعلمين مكانه، أليس كذلك؟».

ردت لوسي بتجهم: «نعم، والآن واصل السير، أم لديك اعتراض؟».

قال سبتيموس معاندًا، لا يريد أن يبرح مكانه: «لن أتحرك من مكاني حتى تقولي لي أين سايمون».

ردت لوسي عليه تبادله العناد: «إذن، سنمكث الليل بطوله هنا».

ووقفت لوسي وسبتيموس يوليان ظهريهما لسور القلعة الممتد عاليًا خلفهما وسط ظلام الليل، لا أحد منهما يريد أن يتراجع عن موقفه. واستمر ذلك لدقائق إلى أن سمعا من على مسافة خلفهما صوت اشتباك، تلا ذلك صوت حجر يتحرك من مكانه وصوت سقوطه في المياه وغطسه في هدوء.

همست لوسي بصوت أجش: «كما ترى، إن المكان هنا ليس آمنًا. إن الأشياء تستخدم هذا الممر، لقد رأيتها من قبل. دعنا نصل الآن إلى المنزلق الثعباني، وسوف نتحدث حينها، اتفقنا؟».

احتاج سبتيموس إلى بعض الإقناع، ثم قال أخيرًا: «موافق».

بعد عشر دقائق، كان سبتيموس ولوسي قد نجحا في اجتياز منطقة بالغة الخطورة أسفل برج مراقبة البوابة الشرقية، واقتربا من المنزلق الثعباني، وإذا بسبتيموس يتوقف فجأة، بعد أن اصطدم حذاء لوسي الطويل بكعب حذائه الطويل أيضًا، فهمس قائلًا: «أوه!».

فهمست لوسي بضجر قائلة: «ياه! كُف عن هذا التوتر».

رد سبتيموس هامسًا: «لقد خُيل إليّ أني رأيت ضوءًا عند المنزلق».

قالت لوسي هامسة: «حسنًا، على الأقل سيمكننا أن نرى الطريق».

وما إن بدأ سبتيموس يواصل السير حتى سمع صوت طرطشة بعد بضع ثوانٍ، ورأى الضوء يختفي. وكاد أن يتوقف من جديد، لكنه قال في سره إنه من الأفضل ألا يفعل، ثم قال للوسي هامسًا: «أسمعت صوت الطرطشة؟».

«لا. لكنك سوف تسمع صوت طرطشة سقوط فتى مزعج في المياه خلال دقيقة واحدة إن لم تكف عن هذه الثرثرة يا سبتيموس»، ثم وخزته في ظهره وخزة قوية وقالت: «والآن، أسرع».

وانطلق سبتيموس مسرعًا وهو يقول في سره كم أنه محظوظ أن ليس لديه أخت مزعجة مثل لوسي.

وسرعان ما كان سبتيموس ولوسي ينزلان السلم الحجري الضيق الذي يؤدي إلى المنزلق الثعباني. وبينما كانا ينزلان السلم تسلل إليهما صوت ساعة المحكمة وهي تدق وسط سكون الليل معلنةً الواحدة صباحًا. نظر سبتيموس حوله، وحدث ما كان يتوقعه؛ إذ إنه لم ير أثرًا لمارسيلوس باي.

تثاءب سبتيموس، وشعر فجأة بالإرهاق الشديد، انتقل تثاؤبه إلى لوسي التي ارتعدت من شدة البرد، ثم أخرجت مفتاحًا كبيرًا من أحد جيوبها العديدة، وأحكمت لف عباءتها حول جسمها. خُيل إلى سبتيموس أنه رأى هذه العباءة من قبل، لكنه لم يتذكر أين. فالعباءة، كما قال في سره، تبدو فاخرة أكثر من اللازم بالنسبة للوسي. فأسرة

جرينج ليست ميسورة الحال، ولوسي في المعتاد هي التي تصنع ملابسها بنفسها، وترتدي حذاءً بُنيًا طويلًا متينًا يبدو أكبر من قدميها، وتسير به في الأنحاء بخطوات ثقيلة - حتى ضفائرها البنية الطويلة دائمًا ما تربطها بمجموعة من الشرائط الوضيعة من تلك التي تُصنع في المنازل. لكن هذه العباءة ذات اللون الأزرق الداكن التي ترتديها الآن تنسال برشاقة من على كتفيها وتمنحها مظهر الترف والتنعم.

ومع ذلك، كانت لوسي لا تزال ترتدي حذاءها البني الطويل، وسارت، يصاحبها ضجيج خطواتها الثقيلة، إلى باب عريض، يعلم سبتيموس أنه يؤدي إلى السقيفة التي يحتفظ فيها روبرت جرينج، أخو لوسي، بمراكب التجديف التي يؤجرها في الصيف. وبمظهر المعتاد ذلك، فتحت لوسي القُفل، ودفعت الباب ثم اختفت في الداخل، فانطلق سبتيموس جريًا وراءها.

كان الجو مظلمًا داخل سقيفة المراكب، فلبس سبتيموس خاتمه التنيني، وسرعان ما امتلأ المكان بضوء أصفر خافت، ورأى لوسي وهي تجاهد لرفع زورق تجديف على حامل صغير متحرك.

فهمست تقول له، وقد لاحظت أنه تبعها داخل السقيفة: «اخرج من هنا».

فسألها سبتيموس: «أنت ذاهبة لمقابلة سايمون، أليس كذلك؟».

ردت عليه، بينما كانت تحاول أن ترفع على الحامل المتحرك زورق التجديف الذي كان ثقيلًا على نحو مدهش، وقالت: «لا تقحم نفسك فيما لا يعنيك». أمسك سبتيموس الطرف الآخر من الزورق، وتمكنا معًا

بشكل أو بآخر من رفعه على الحامل المتحرك. وبعد أن أمسك سبتيموس مقبض الحامل وراح يساعدها في جر الزورق إلى الخارج، شكرته وهي تلهث قائلة: «شكرًا».

وخرجا من السقيفة وهما يسحبان معًا زورق التجديف المطلي بلون وردي مبهرج على امتداد المنزلق، متوجهين إلى مياه الخندق المتلاطمة، غير مدركين أن هناك هيئة شبحية بأنف مدبب يكسوها تعبير مستنكر تقف في الظلال وتراقبهما. وبينما كان سبتيموس يدفع الحامل المتحرك نحو المياه، ويدفع زورق التجديف بعد ذلك كي يطفو حرًا على سطح المياه، كانت قدما الملكة إيثلدريدا الشبحية تدقان دقات صامتة على الأرض بنفاد صبر.

ناول سبتيموس حبل الزورق إلى لوسي لتمسكه، ثم سحب الحامل المتحرك لأعلى المنزلق، وأعاده وهو يجره إلى مخزن المراكب. ومع مروره أمام شبح الملكة، نظر إليه الشبح محدقًا وهمس قائلًا بصوت خفيض: «إن الدقة في المواعيد أيها الفتى فضيلة، والتأخر عنها رذيلة». لكن سبتيموس لم يسمعها؛ حيث غطى على صوتها صرير عجلات الحامل المتحرك.

عاد سبتيموس إلى لوسي، ثم خيم عليهما صمت أخرق وهو يأخذ الحبل ويبدأ في تثبيت الزورق للوسي كي تصعد متنه. وبعد أن استقرت لوسي على متن الزورق، ولدهشه، نظرت إليه بابتسامة ساخرة، ثم قالت له على مضض، بينما كانت ترفع المقبضين اللذين يشغلان مجدافي روبرت الغريبين: «يبدو أنك في نهاية الأمر لست فتى سيئًا».

لم ينطق سبتيموس بكلمة؛ إذ كانت هناك لمحة في لوسي تذكره بالعمة زيلدا، عمة والده، وقد تعلم سبتيموس أنه لو أراد من العمة زيلدا أن تخبره بشيء، فإن عليه أن يتسلح بالصبر، فعناد العمة زيلدا لا يختلف عن العناد الذي يبدو على لوسي جرينج. ومن ثم، انتظر سبتيموس صابرًا، بعد أن استشعر أن لوسي تفكر في شيء ما.

وفجأة، أفصحت لوسي عما يجيش بصدرها وقالت: «أنا وسايمون كنا على وشك الزواج».

رد سبتيموس قائلًا: «أعلم. فأبي أخبرني بذلك».

قالت لوسي: «لكن لم يُرد أحد لنا أن يتم هذا الزواج. وأنا لا أعلم السبب. هذا ظلم». لم يجد سبتيموس كلمات يرد بها عليها فواصلت قائلة: «والآن، الكل يكره سايمون، وهو لن يستطيع أبدًا أن يعود، وهذا أيضًا في منتهى الظلم».

رد سبتيموس موضحًا لها: «لكنه خطف جينا، كما أنه حاول أن يقتلني ويقتل نكو وجينا، وكاد يدمر المركب التنينية، ناهيك عما فعله في مارشا؛ حيث كاد يُجهز عليها عمليًا بعملية النزع التي قام بها، ثم...».

قاطعته لوسي بنبرة حادة: «حسنًا، حسنًا. لا داعي لذكر كل ذلك».

وخيم عليهما صمت أخرق مرة أخرى، ثم استقر سبتيموس على رأي أنه لن يصل إلى شيء في محاولته لدفع لوسي بأن تفصح له عن المزيد. ومن ثم، كفّ عن تثبيت الزورق ودفعه في مياه الخندق..

وقال لها: «إذا رأيت سايمون، فيمكنك أن تقولي له على لساني إنه ليس موضع ترحيب هاهنا».

أخرجت لوسي لسانها لسبتيموس لتغيظه، ثم أخذت المجدافين وبدأت تجدف بهما. بدا لسبتيموس منظر الزورق غريبًا بما أن هذا النوع من الزوارق يُستخدم في الصيف للهو والترفيه، وبدا منظر لوسي في غير محله وهي على متنه في ليلة خريف ضبابية. قال لها: «رحلة موفقة، أينما كنت ذاهبة».

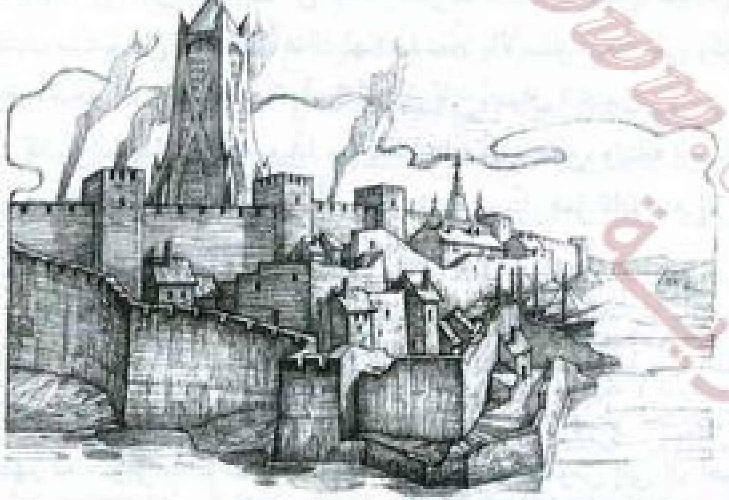
نظرت لوسي للخلف، ثم قالت: «أنا لا أعلم مكان سايمون، لكنه أرسل إليَّ رسالة، وأنا ذاهبة للبحث عنه. هذا هو كل ما في الأمر».

راقب سبتيموس لوسي وهي تجدف مبتعدة بالزورق الوردي إلى أن انعطفت عند المنعطف وتوارت عن الأنظار، ثم وقف لوهلة عند المنزلق يُنصت للصوت الأخرق الصادر عن المجدافين مع انطلاق لوسي في طريقها الذي تصر عليه، نحو النهر.

وحينما استدار سبتيموس عائدًا إلى البرج، إذا به يرى ما لا يصدقه عقل؛ يرى نارًا أسفل سطح المياه.

++ 8 ++

نار أسفل سطح المياه!



لم يكن *ذلك منطقيًا*؛ فكيف يمكن للنار أن تشتعل أسفل سطح المياه؟!

كانت المياه قاتمة، وأخذت شعلة النار تتراقص يمينًا ويسارًا وسط التيارات كما يتراقص لهب الشمعة وسط نسيم الهواء. ومع مراقبة سبتيموس للنار، رآها تتحرك بثبات مبتعدة عن المنزلق، في اتجاه موازٍ وقريب من قاعدة سور القلعة. ولقد بدا لسبتيموس كأن هناك شخصًا

يحمل الشعلة ويسير بها على امتداد قاع الخندق المائي الذي يصل عمقه إلى نحو عشرين قدمًا، وكان الضوء - حسب تقدير سبتيموس - يتحرك على عمق ما يقرب من أربعة عشر قدمًا أسفل سطح المياه، ومع افتتان سبتيموس بفكرة أن هناك لهبًا مشتعلًا بالأسفل، جثا على ركبتيه فوق أحجار المنزلق الباردة، وأخذ يُحدق إلى أعماق الخندق.

كانت الشعلة تنجرف بعيدًا عنه ببطء دون أن تنطفئ، وانتابه إحساس غريب بالحزن مع ابتعادها، وكأنه يفقد شيئًا ثمينًا. فما كان منه إلا أن انحنى للأمام ليلقي نظرة أخيرة على الضوء.

ومن خلفه، انبثق شبح الملكة إيثلدريدا من بين الظلال بابتسامة رقيقة، ارتسمت على فمها. ومن فرط تركيز سبتيموس فيما يراه أسفل سطح المياه، لم يلحظ شبح الملكة، وما كان ليلحظها لو اختارت أن تظهر له - وهو ما لم تفعله بكل تأكيد. تقدم سبتيموس إلى أن أصبح عند حافة المنزلق تمامًا، وانحنى فوق سطح المياه ينظر إليها. ولو كان اقترب من المياه أكثر من ذلك قليلًا لاستطاع حينها أن يرى.. وهنالك، دفعت الملكة إيثلدريدا سبتيموس دفعة عنيفة.

تلا ذلك صوت طرطشة مدوٍّ.. وفجأة، وجد سبتيموس نفسه قد سقط في المياه وبدأ يغطس نحو قاع الخندق المائي، وهو يشهق مذهولًا من شدة البرد. كانت هناك حركة مد، جلبت معها إلى الضفة تيارًا باردًا كالثلج يتدفق من جهة النهر، وكان التيار سريعًا وعنيفًا، وعلى الرغم من أن سبتيموس كان سباحًا ماهرًا، فقد وجد نفسه ينجرف بعيدًا عن المنزلق متجهًا نحو الجزء الأوسط من مياه الخندق.

خرج سبتيموس أخيرًا إلى سطح المياه، وهو يرتجف بشكل لا إرادي. وبدأت ذراعاه وقدماه تفقد قدرتها على الضرب في المياه، وأدرك أن صراعه لا يقتصر فحسب على مقاومة تدفق المياه السريع بل كانت هناك دوامة قوية أسفل قدميه، وكأن هناك من رفع سدادة بالوعة فجأة، فبدأت المياه تدور وتدور حوله وهي تسحبه لأسفل.

وبعد لحظات، اختفى رأس سبتيموس للمرة الثانية أسفل سطح المياه الداكنة، وأخذته الدوامة بسرعة إلى الأعماق.. وفي لحظات، كانت قدماه قد لمستا قاع الخندق المائي. أخذ يصارع حتى تبقى عيناه مفتوحتين في المياه الآسنة، مع إحساسه بأن رئتيه على وشك الانفجار، دفع نفسه لأعلى بعيدًا عن القاع الموحل، وسبح متوجهًا مباشرة نحو بقعة سميكة من الحشائش التي تنمو في الخندق المائي. وبعد لحظات، وجد نفسه ملفوفًا ببعضها وشعر أن آخر ما تبقى لديه من قوة يُسحب منه ثم سقطت غشاوة مظلمة أمام عينيه، وبدأ يفقد وعيه، ومع ذلك خالجه إحساس غريب بأن هناك قبضة باردة كالثلج تمسك ذراعه وتسحبه لأعلى.. وأعلى.. وأعلى، عبر نفق مظلم، متجهة به نحو ضوء ساطع.

تسلل إلى سبتيموس صوت جينا من طرف النفق الآخر وهي تقول له: «أوه يا سِب.. هذا مؤلم!»؛ إذ كان قد أخذ يسعل ويغمغم في هلع ويشهق بجنون محاولًا التقاط أنفاسه.

صدر صوت شبحي منزعج بنبرة حادة: «كفاك إحداثًا لهذه الجلبة أيها الفتى. تولي أمره أنتِ الآن يا حفيدتي، فأنا لا أريد أن أُخترق مرة

أخرى؛ فهذا أمر مزعج للغاية. إن تلامذة اليوم يفتقرون إلى السلوكيات الحميدة».

همست چينا في أذنه: «سِب، سِب، أنت بخير الآن». شعر سبتيموس مع همسها وكأنها ترشده إلى الطريق وسط الظلام وتأخذه - أخيرًا - إلى النور.

وفجأة، جلس سبتيموس مستقيمًا، وأخذ أعمق نفس أخذه في حياته وهو يتأوه: «آآآه» ثم أخذ نفسًا آخر وآخر وآخر.

بدأت چينا تضرب على ظهره ضربات مكتومة قائلة: «سِب، سِب، هل أنت بخير؟ هل تستطيع أن تتنفس الآن؟ هل تستطيع؟».

أخذ سبتيموس مزيدًا من الأنفاس العميقة، وهو لا يزال يتأوه: «آه.. آه.. آه».

«لا تقلق يا سِب، أنت بخير الآن».

«آه..»، ثم ركز سبتيموس بصره وبدأ ينظر حوله، فوجد نفسه جالسًا على أرضية غرفة جلوس صغيرة في الجزء الخلفي من القصر. بدا له جو الغرفة مريحًا ودافئًا؛ كانت هناك نار مشتعلة في المدفأة، وعلى الرف الذي يعلوها مجموعة من الشموع السميكة تنير بضوء ساطع، وأخذ الشمع يقطر منها بثبات على أرضية المدفأة. كانت هذه الغرفة ذات يوم هي الغرفة المفضلة للملكة إيثلدريدا التي كانت تجلس فيها عصر كل يوم في حياتها وتحتسي كوبًا صغيرًا من شراب المِيد، وتقرأ قصصًا عن الفضائل والأخلاق، وقد أصبحت هذه الغرفة الآن غرفة جلوس سارة هيب؛ حيث تجلس فيها هي أيضًا عصرًا، إلا أنها تحتسي مشروبًا من

الأعشاب، وتقرأ القصص الرومانسية التي تعيرها لها صديقتها العزيزة سالي مولن. لم يرق الملكة إيثلدريدا ذوق سارة في فرش الغرفة كما لم ترقها بكل تأكيد هذه الروايات الرومانسية. أما بالنسبة لحالة الفوضى العارمة التي كانت تعم أنحاء الغرفة، فقد اعتبرتها الملكة إيثلدريدا خزيًا وعارًا، لكن ما باليد حيلة؛ فالأشباح لا بُد أن تتحامل على نفسها وتتحمل العادات السيئة للأحياء من البشر.

اكتسى وجه الملكة إيثلدريدا بنفس التعبير المستنكر المعتاد أثناء نظرها إلى سبتيموس المغمور بالمياه؛ فقد جلس سبتيموس وسط بركة من المياه الموحلة، يجفف نفسه بجانب النار، وتنبعث منه رائحة الرطوبة المزعجة التي تُميز مياه الخندق. جلس شبح الملكة على المقعد الوحيد الذي تبقى من زمنها عندما كانت ملكة؛ وهو مقعد خشبي غير مريح بظهر مستقيم كانت سارة هيب قد انتوت أن تتخلص منه. وكان سايلاس قد ترك على المقعد بقايا سندويتش لحم مقدد منذ عدة أيام، فجثمت الملكة إيثلدريدا الآن على الجزء الأعلى منه على نحو يهددها بالسقوط، وقالت وهي تحدق إلى سبتيموس بنظرة قاسية دون أن ترفع عينيها عنه: «أنا على يقين الآن من أنك تعلمت الدرس أيها الفتى».

لفظ سبتيموس من فمه وهو يسعل بعض الأعشاب اللزجة وبصقها على السجادة.

ثم واصلت الملكة إيثلدريدا حديثها قائلة: «إن الالتزام بالمواعيد فضيلة، والتأخر عنها رذيلة.. وداعًا». وهنا، ارتفعت الملكة عدة أقدام فوق المقعد، وهي لا تزال في وضع الجلوس، فعلاها الذهول عندما رأت

سندويتش اللحم المقدد، ثم طافت نحو السقف ونفذت منه، لكن ظلت قدماها المدسوستان في حذاء مليء بالتطريز ومدبب إلى أقصى حد - تتدليان من السقف فوق چينا وسبتيموس للحظات، إلى أن بدأت تتلاشى ببطء حتى اختفت.

همست چينا إلى سبتيموس بعد مرور فترة آمنة على اختفاء الملكة: «أتعتقد أنها رحلت من هنا الآن؟». همَّ سبتيموس بالوقوف ليلقي نظرة متأنية على السقف، لكن لم تحمله قدماه، فسقط مرتطمًا بالأرض ليجد نفسه طريحًا على سجادة ممزقة هي المفضلة لدى سارة. بدا على چينا القلق، وقالت له: «من الأفضل أن تمكث هنا الليلة. سوف أرسل جُرذًا رسولًا يخبر مارشا».

أطلق سبتيموس أنينًا: يا للهول! مارشا، لقد غابت عن ذهنه تمامًا حتى هذه اللحظة. وبعد أن رأى أنه لن يستبعد حينها حضور مارشا إلى القصر في التو واللحظة، تطالبه بتفسير لهذه التصرفات غير المقبولة، قال لچينا: «ربما من الأفضل ألا توقظيها يا چين. كما أنك على أية حال ستكونين محظوظة لو استطعت الحصول على جُرذ رسول الآن. خير لنا أن نخبرها غدًا صباحًا»؛ فتفسير هذه التصرفات غير المقبولة، وكما قال سبتيموس في سره، لن يكون من السهل الإجابة عنها إجابة صحيحة.

ثم سألته چينا: «أتشعر بتحسن يا سِب؟».

وما إن أومأ لها برأسه حتى شعر على التو بأن الغرفة تلف وتدور به، فسألها: «ما الذي حدث يا چين؟ كيف جئت إلى هنا؟».

«لقد وقعت في الخندق المائي يا سِب، أو على الأقل هذا هو ما قالته الملكة إيثلدريدا، وقالت إن الغلطة غلطتك، وإنك تأخرت عن الموعد، وقالت إنك كنت محظوظًا أن تصادف وجودها عند المنزلق فأنقذتك أو انتشلتك - كما قالت - أيًا كان معنى ذلك».

«إحم! لقد درست هذا الموضوع الأسبوع الماضي، ورغم ذلك لا أتذكر عنه شيئًا الآن. ما عاد ذهني يعمل».

«لا أظن ذلك، لا تنسَ أنك كدت تغرق».

«أعلم ذلك، لكنني أريد أن أتذكر. فأحيانًا بعد أن يتعرض المرء للغرق ويتم إنقاذه، يتوقف ذهنه عن العمل بالشكل الصحيح بعد ذلك.. هل تعتقدين أن هذا هو ما حدث لي يا چين؟».

«لا تكن أحمق يا سِب.. إن ذهنك على ما يُرام، كل ما في الأمر أنك تشعر بالإرهاق والبرد».

ثم قال فجأة: «لكن.. نعم.. نعم، تذكرت الآن.. لقد كان ذلك في الطبعة الأخيرة لكتاب دليل الأرواح. تعريف **الانتشال**؛ هو نقل كائن حي بأيادٍ شبحية من أجل ضمان بقاء الكائن على حالته؛ أي حيًا.. قد يتضمن ذلك إبعاد الكائن عن خطر بالغ يهدد حياته، أو قد يتضمن خططًا أطول أمدًا، كضمان عدم مواجهة الكائن خطرًا داهمًا. معظم الحالات المألوفة التي بُلغ عنها تتمثل في دفع الكائن بأيادٍ شبحية بعيدًا عن مسار جواد ينطلق مسرعًا. ولم يتأثر عقله بعد ذلك»، ثم أغمض سبتيموس عينيه وبدا مبتهجًا.

قالت چينا بنبرة رقيقة: «بالطبع ذهنك لم يتأثر. الآن يا سِب بما أنك مغمور بالمياه بهذا الشكل قم لأجلب لك ملابس جافة. استرح أنت إلى أن أطلب الخادمة الليلية».

خرجت چينا على أطراف أصابعها، تاركةً سبتيموس يغفو على السجادة. وكانت الملكة إيثلدريدا في انتظارها خارج الغرفة.

وقالت لها بصوتها ذي النبرة العالية التي تخرق الآذان: «ها أنتِ قد جئت يا حفيدتي».

ردت چينا بانزعاج: «ماذا تريدين؟».

«كيف حال العزيز أخيك بالتبني؟».

«إن أخي بخير، شكرًا. والآن، أتسمحين لي بالمرور؟ أريد أن أحضر له بعض الملابس الجافة».

«إنك تفتقدين السلوكيات الحميدة تمامًا يا حفيدتي، رغم علمك بأنني أنقذت الفتى».

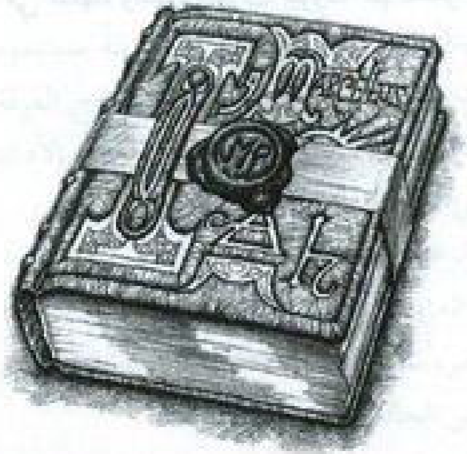
«فعلًا. وشكرًا جزيلًا.. لقد كان ذلك لطيفًا جدًا منك. والآن، هل لك أن تتركيني أمرّ؟»، ثم حاولت چينا أن تنحني وتمر من جانب شبح الملكة، لعدم رغبتها - بأي حال من الأحوال - في أن تجد نفسها **تخترقه**.

«لا، لن أتركك تمرين»، وتقدمت الملكة إيثلدريدا أمامها ثم سدت الطريق عليها. وعلا شبح الملكة ملامح قاسية، ثم قالت: «هناك أمر أريد أن أخبركِ به يا حفيدتي، وأنا أرى أنه خير لك أن تصغي إليّ جيدًا، وإلا سوف تُلحقين بأخيك بالتبني أضرارًا بالغة لو لم تفعلي».

توقفت چينا؛ إذ إنها تدرك تمامًا متى تحمل الأصوات نبرة تهديد. انحنت الملكة للأسفل نحو چينا، فامتلأت الأجواء ببرد عميق، ثم همست لچينا في أذنها، والتي شعرت ببرودة لم تشعر بمثلها قط من قبل.

9

الممارسة العملية للتنبؤ



«**ماذا** *تقصد يا ألثر بأنه قضى ليلة أمس في القصر؟*» هكذا قالت مارشا لألثر في وقت مبكر جدًا من صباح اليوم التالي تطالبه بتفسير لذلك، ثم أردفت قائلة: «وما السبب؟» رد ألثر بنبرة منزعجة قائلًا: «في الحقيقة.. في الحقيقة أن الموضوع معقد بعض الشيء يا مارشا».

قالت مارشا بنبرة حادة: «أليس هذا هو ما يحدث دائمًا يا ألثر؟ ألا تدرك أنه لو لم يعد في الوقت المناسب لفاته امتحان الممارسة العملية للتنبؤ؟».

كانت مارشا جالسة إلى مكتبها في المكتبة الهرمية التي تقع على قمة برج السحرة. وكان جو المكتبة في ضوء أول الصباح مظلمًا وكئيبًا، وأخذت شعلات الشموع القليلة التي أضاءتها مارشا تتمايل يمينًا ويسارًا مع إلقائها - بسخط - أوراق سبتيموس الخاصة بامتحان الممارسة العملية للتنبؤ على المكتب. وانطلق الشرر من عيني مارشا الخضراوين غضبًا بينما كان ألثر يحلق على امتداد أكوام من الكتب وهو ينظر إلى العناوين المفضلة لديه.

«الموقف سيئ جدًا يا ألثر. لقد مكثت طوال نهار أمس كي أعد امتحان الممارسة العملية للتنبؤ ولا بد أن يبدأ سبتيموس الامتحان قبل الساعة 7:07 صباحًا. وأي تأخير عن هذا الموعد سيجعلنا نبدأ الأمر من جديد - رغم أن الامتحان لا يتعدى موضوعات التخاطر والتعرف؛ أي أننا لم ندخل في لب الموضوع تمامًا».

«مهلًا على الفتى يا مارشا، لقد سقط ليلة أمس في الخندق المائي و...».

«ماذا قلت؟».

«لقد سقط في الخندق المائي. أعتقد فعلًا أنه من الأفضل لو أجلت...».

قاطعته مارشا وهي تسأله بريبة: «وما الذي جعله يسقط في الخندق المائي يا ألثر؟».

ورغبة منه في تغيير الموضوع، أخذ ألثر يحوم فوق سرير مارشا، ثم جلس على حافته بشكل ودود وقال وهو يعلم أنه سوف يندم على ذلك:

«في الحقيقة يا مارشا كان ينبغي عليك أن تتنبئي بأن هذا كان سيحدث، وتجدولي هذا الامتحان في وقت لاحق من اليوم».

ردت مارشا بنبرة حادة، بينما كانت تتفحص الأوراق: «إن الموضوع لا يحتمل المداعبة. وفي واقع الأمر، أنت نفسك الذي بات من السهل تمامًا التنبؤ بتصرفاته في الآونة الأخيرة، وهي تصرفات طفولية بكل تأكيد. فقد بت تقضي وقتًا أطول من اللازم في التحليق مع سبتيموس والمنظرة، رغم أنك في هذه السن كان ينبغي عليك أن تدرك الأمور بشكل أفضل. سوف أرسل كاتشبول إلى القصر ليحضر سبتيموس في الحال، وهذا كفيل بأن يوقظه».

قال ألثر معلقًا: «أعتقد أنك سوف تضطرين أولًا إلى أن توقظي كاتشبول نفسه يا مارشا».

«إنه في نوبة الخدمة الليلية يا ألثر. وقد كان متيقظًا طوال الليل».

قال ألثر مستغرقًا في التفكير: «إن كاتشبول هذا له عادات غريبة فعلًا؛ إذ إنه يغط وهو مستيقظ. أتعتقدين أنه يجد ذلك مزعجًا؟»، لم تبالِ مارشا بالرد عليه، ثم قامت من مكتبها ولفَّت عباءتها الأرجوانية حول جسمها، ثم انطلقت خارج المكتبة وهي تستشيط غضبًا، وصفقت الباب خلفها.

خرج ألثر محلقًا من خلال الفتحة التي تؤدي إلى سقف الهرم الذهبي، وأخذ يتجول عند قمة الهرم نفسه. كان جو الصباح الخريفي باردًا، يصاحبه تساقط أمطار خفيفة، وتوارت قاعدة برج السحرة عن الأنظار وسط ضباب أبيض كثيف. وظهرت أسطح بعض البيوت التي

تزيد ارتفاعًا على غيرها مع اختراقها طبقة الضباب البيضاء، لكن معظم القلعة كانت تتوارى أسفلها. وعلى الرغم من أن ألثر، لكونه شبحًا، لا يشعر بالبرد، بدا له وكأن الرياح التي تدور حول قمة برج السحرة ستجعله يرتجف. فارتدى عباءته الأرجوانية الباهتة، ونظر للأسفل إلى المنصة المصنوعة من الفضة الخالصة التي تحيط بالهرم، فلطالما انبهر ألثر بالكتابات الهيروغليفية المحفورة على هذه المنصة، لكنه لم يُقدم قطُ على فك شفرتها، كما لم يُقدم على ذلك أي شخص آخر. ولقد حدث منذ مئات السنين الماضية، أن كان أحد السحرة العظماء على قدر من الشجاعة مكَّنه من تسلق قمة الهرم ونقل هذه الكتابات الهيروغليفية بنسخها على ورقة، والورقة معلقة الآن في المكتبة. وبعد أن أصبح ألثر ساحرًا أعظم، كان كلما نظر إلى هذه الورقة الرمادية القديمة المعلقة في برواز على الحائط، خالجه شعور بدوار رهيب؛ حيث كانت تذكره بالموقف الذي اضطر فيه وهو تلميذ شاب إلى مطاردة سيده دومدانيال حتى المنصة المحفورة عليها هذه الكتابات.

لكن الآن بعد أن أصبح شبحًا، تخلص ألثر من مخاوفه وراح يجرب الوقوف على المنصة على قدم واحدة بالتبادل، ثم ألقى بنفسه من على السطح، وهو يتقلب ويدور في الهواء، وبينما كان يسقط حاول أن يتخيل إحساس المرء أثناء السقوط، كما سقط دومدانيال يومًا، ثم أوقف سقوطه فوق الضباب مباشرة، وانطلق متوجهًا إلى القصر.

كان كاتشبول يرى حلمًا مزعجًا، وكانت أحداث الحلم على وشك أن تزداد سوءًا. وكان كاتشبول يكره نوبات الخدمة الليلية داخل دولاب التعاويذ القديمة الموجود بجانب الباب الفضي الضخم لبرج السحرة، وليست روائح التعاويذ المتعفنة التي تعبئ الدولاب هي التي كانت تزعجه؛ إنما هو الخوف من أن يطلب إليه أحد السحرة الأكبر مقامًا القيام بمهمة ما؛ فكاتشبول ليس سوى ساحر عادي، وهو لم يحرز في عمله تقدمًا ملموسًا بالسرعة التي كان يأملها – ولقد اضطر لأن يخوض امتحانات السحرة العاديين لمرتين ومع ذلك لم ينجح – مما كان يعني أن جميع السحرة المقيمين في البرج باتوا متقدمين عنه. كما أنه بعد سنوات طويلة قضاها كنائب «للصياد» المرعب، بات يكره أن تُملى عليه الأوامر، لاسيما أنه دائمًا على ما يبدو يخفق في تنفيذ المهام التي توكل إليه؛ ولذلك عندما خطت مارشا أوفرستراند داخل دولاب التعاويذ القديمة بسرعة ، ثم طالبته بتفسير يبرر جلوسه هكذا مغمض العينين بلا جدوى مثل الخروف الميت، سقط قلبه. تُرى، ماذا ستطلب إليه الآن؟ وكيف ستتصرف معه عندما تتأزم الأمور – كالمعتاد – ويُخفق في مهمته؟ ثم غمرته السعادة عندما طلبت إليه مارشا الذهاب إلى القصر في الحال، والعودة بتلميذها. حسنًا، فهذه مهمة يمكن أن ينجح فيها، كما أنها ستجعله يخرج من هذا الدولاب الذي ينحشر فيه. والأهم من هذا كله، وكما قال كاتشبول في سره بينما كان منطلقًا جريًا هابطًا الدرجات الرخامية إلى فناء برج السحرة الغارق في الضباب الآن – إن هذا الفتى محدث النعمة القادم من جيش الشباب، والذي أصبح تلميذ

الساحرة العظمى بالتملق – أخيرًا، ولو لمرة واحدة، يقترف خطأ. إنها فرصة ستمنحه متعة كبيرة، هكذا قال في سره وهو يبتسم ابتسامة بلهاء.

مر كاتشبول أمام بناء أشبه بوجار الكلب، بُني من كتل ضخمة من الجرانيت، ويصل ارتفاعه إلى ارتفاع كوخ صغير، وعرضه إلى ضعف هذا الارتفاع. واصطف على الجزء العلوي من الوجار عدد من النوافذ الصغيرة أسفل إفريز السطح مباشرة، الغرض منها التهوية، وتوفير منفذ لشاغله يطل منه على الخارج . وأمام الوجار وجد منحدرًا خشبيًا عريضًا ومتينًا، ينتهي طرفه الأعلى بباب الوجار، وهو من نوع أبواب الإصطبلات المصنوعة من خشب البلوط. كان الباب مغلقًا بإحكام وتمنعه من الحركة ثلاثة قضبان، وقد كتب شخص على الباب بخط دقيق **لافظ اللهب**. ومع مرور كاتشبول مهرولًا من أمام الوجار، اندفع شيء نحو الباب من الداخل، صاحب ذلك صوت انشطار، والتوى القضيب الأوسط التواءً طفيفًا، لكن ليس بالقدر الذي يؤدي إلى فتح الباب. فتلاشت الابتسامة البلهاء التي كانت تعلو وجهه. وعلى الفور، كان قد انطلق كالصاروخ، ولم يبطئ من سرعته إلا عندما وصل إلى منتصف «طريق السحرة»، وتمكن من رؤية ضوء مصابيح القصر تتلألأ وسط الضباب.

بعد أن أرسلت مارشا كاتشبول، توجهت إلى السلم الحلزوني ليقلها إلى جناحها في قمة برج السحرة. ثمة شيء كان يُزعج مارشا؛ فمسألة تغيب سبتيموس عن الامتحان أمر مستغرب عليها تمامًا؛ وبدا لها أن هناك شيئًا غامضًا في الموضوع. كان السلم الحلزوني الذي لا يزال يعمل بوتيرته المسائية، يصعد ببطء كالبريمة نحو قمة برج السحرة،

وبدأت مارشا، والتي لا تكون في أحسن حالاتها في أول الصباح، تشعر بالغثيان مع حركة السلم وانبعاث رائحة اللحم المقدد والعصيدة التي تتداخل وتتنافس مع رائحة البخور المتصاعدة لأعلى قادمةً من البهو في الأسفل. ومع مرور مارشا بالطابق الرابع عشر، واستمرار حيرتها حول موضوع سبتيموس، حدث لها أمر مهم..

فقالت للسلم بنفاد صبر ونبرة حادة: «هيا، أسرع». أخذ السلم كلام مارشا بمعناه الحرفي، وزاد من سرعته إلى ضعف سرعته النهارية، فانطلقت مارشا كالصاروخ مارَّةً بالطوابق المتبقية، وسط دهش ثلاثة من السحرة الأكبر سنًا كانوا قد استيقظوا مبكرًا للانطلاق إلى رحلة صيد. توقف السلم بنفس الحماس الذي أطاع به الأمر السابق، وبحركة متقنة غادرته الساحرة العظمى عند الطابق العشرين، واندفعت من خلال الباب الأرجواني الثقيل الذي يفتح على جناحها. ومن حسن حظ الباب أنه رآها وهي قادمة وفتح نفسه على مصراعيه في الوقت المناسب. وبعد لحظات، كانت مارشا تصعد بأقصى سرعة السلم المؤدي إلى المكتبة الهرمية.

وبعبوس ينم عن القلق، أخذت مارشا تتصفح بسرعة أوراق امتحان الممارسة العملية للتنبؤ، إلى أن عثرت على ما تبحث عنه وهو سلسلة من المعادلات والتفاسير المتداخلة التي أخذتها چيلي دچين، رئيسة كتبة النصوص الهرمسية الجديدة، من كتاب تقويم التنبؤ الشامل. أخذت مارشا الورقة، وأخرجت قلمها المضيء من جيبها، ثم أجرته على

السطور. وبينما كان القلم يتحرك عبر الصفحة، بدأت الأرقام تعيد ترتيب نفسها، ووجدت مارشا نفسها تحدق بها لعدة دقائق، غير مصدقة عينيها.

وفجأة، ألقت القلم من يدها وهرعت إلى الركن الأكثر إظلامًا في المكتبة، وهو الركن الذي يضم الرف المحكم غلقه.. حاولت مارشا ثلاث مرات وهي ترتعد أن تطقطق أصابعها حتى أمكنها أخيرًا أن تفعل ذلك بصوت يكفي لأن يشعل الشمعة الضخمة الموضوعة بجانب الرف. أضاءت الشعلة البابين الفضيين السميكين اللذين يحكمان الغلق على الرف، ولا ينفتحان إلا بلمسة من تميمة أخو التي يتوارثها السحرة العظماء. خلعت مارشا التميمة الذهبية المرصعة باللازورد حول عنقها ووضعتها على شمع الختم الأرجواني الطويل الذي يسد الشق الممتد بين ضلفتي البابين، فتعرَّف الختم التميمة، وتكور الشمع حول نفسه، ثم انفتح الباب على مصراعيه مصدرًا صريرًا. وقد قبع خلف الباب رف مظلم وعميق، انبعثت منه رائحة هواء مكتوم منذ مئات السنين جعل مارشا تعطس.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تفتح فيها مارشا هذا القسم المختوم من المكتبة؛ إذ لم يكن هناك ما يستدعي ذلك من قبل. ولقد بين لها ألثر ذات مرة كيف تفعل ذلك بعدما قرر أنه يريدها أن تخلفه كساحرة عظمى. وهنا، تذكرت مارشا كم كان ألثر يشجعها عندما كانت تلميذته، فشعرت بوخزة من تأنيب الضمير لتعاملها بضيق نفَس مع شبحه إلى هذا الحد.

وبشيء من الحذر، دفعت مارشا ذراعها في الفراغ القابع فيه الرف، فلا أحد يضمن ما قد يكون كامنًا في مكان **مختوم**، أو ما الذي يكون قد نما فيه منذ آخر مرة فُتح فيها الباب.. ومع ذلك، لم يستغرق منها الأمر وقتًا طويلًا لكي تعثر على ما كانت تبحث عنه.. وبإحساس بالارتياح، سحبت مارشا صندوقًا من الذهب، حدقت إليه على ضوء الشمعة، ثم أعادت ختم الباب، وأخذت الصندوق إلى المكتب. وبعد أن أخرجت مفتاحًا صغيرًا من حزام السحرة العظماء الذي ترتديه، فتحت الصندوق وأخرجت منه كتابًا مغلفًا بجلد متحلل. بدا لها الكتاب وهي تقلبه برفق بين يديها، وقد كان يومًا، كتابًا جميلًا.. كان الكتاب الصغير مربوطًا بشريط أحمر باهت ومغلفًا ببقايا هشة من الجلد الناعم، لا يزال يظهر على سطح الغلاف أشكال مرسومة بالذهب - كما هو حال عنوانه.. *أنا مارسيلوس*.. وضعت مارشا الكتاب برفق على المائدة، فتفتت الشريط تمامًا، وغطى يديها تراب أحمر ناعم، ثم سقط على الأرض الختم الأسود الذي كان يثبت طرفي الكتاب، وتدحرج بعيدًا في الظلال. لم تهتم مارشا بتعقب الختم؛ لشغفها - وخوفها أيضًا - بأن تفتح كتاب *أنا مارسيلوس*.

وبقلب سريع الخفقان، رفعت مارشا الغلاف بحذر، ناثرةً في الهواء سحابة من الأتربة انبعثت من الغلاف الجلدي المتحلل.

فعطست مرة أخرى «إتشووو.. إتشووو.. إتشوووو!»، وإذا بها فجأة تصيح قائلة: «سحقًا! سحقًا!»؛ فصفحات الكتاب كانت قد وقعت فريسة للخنافس المرعبة آكلة الورق والتي تسكن المكتبة الهرمية. أخذت

مارشا ملقاطًا طويلًا، وراحت تقلب به الصفحات الهشة المهلهلة صفحة تلو الأخرى، وهي تتفحصها عن قرب بعدسة مكبرة ضخمة. كان كتاب *أنا مارسيلوس* مقسمًا إلى ثلاثة أقسام: الكيمياء و**الطب** وقسم التقويم المتنبئ بالأحداث. كان القسمان الأولان، وجزء كبير من القسم الثالث، تستحيل قراءتها. أخذت مارشا تهز رأسها بأسى وهي تقلب في صفحات الكتاب بسرعة، إلى أن وقعت عيناها على خنفساء ضخمة آكلة للورق مهروسة أسفل بعض الحسابات الفلكية. وبمظهر بدا عليه فرحة الانتصار، رفعت مارشا الخنفساء بالملقاط وأسقطتها في برطمان زجاجي يقبع على المكتب، كان يحتوي في الأساس على مجموعة مهروسة من هذا النوع من الخنافس. ومع تصفح مارشا الآن بقية الأوراق السليمة من قسم التقويم بسرعة أكبر، كانت قد وصلت إلى الصفحات التي تشمل تقويم السنة الحالية. وأخيرًا، بعد أن راحت تتفحص الأبواب الخفية، وترجع كل حين إلى بعض الجداول المرفقة في آخر الكتاب للاستيضاح - والتي كانت تعلوها بقع حبر- عثرت على التاريخ الذي كانت تبحث عنه، وهو يوم الاعتدال الخريفي الذي كانت صفحته مدرجة خارج سياق التسلسل الزمني للصفحات على نحو غريب ثم سحبت قصاصة ورق قديمة مكتوبة بخط عنكبوتي تألفه تمامًا.

وتبدل إحساس مارشا بالحيرة التي تملكتها في أول الأمر إلى إحساس متصاعد بالرعب مع مواصلتها قراءة قصاصة الورق. وبوجه علاه الشحوب، وجسم مهتز، وقفت الساحرة العظمى وهي تترنح، ثم وضعت قصاصة الورق برفق في جيبها، وانطلقت إلى القصر بأقصى سرعة.

IO

غرفة ملابس الملكة



بالعودة *إلى القصر*، في غرفة جلوس سارة هيب الصغيرة، بدأ سبتيموس يتقلب، ثم بدا له أن رأسه يدور بينما كان يفتح عينيه، وأخذ يتساءل في سره أين هو. تسلل ضوء رمادي باهت من خلال ستائر سارة المنقوشة بالورد، وشعر سبتيموس بأن جو الغرفة معبأ برائحة الرطوبة المزعجة التي تميز النهر، وأن هذا الصباح ليس من الأوقات التي يود فيها أن يستيقظ من النوم.

وهنا تثاءبت چينا، والنعاس لا يزال يملأ عينيها، ثم سحبت بطانيتها الكروشيه حتى رأسها، وتمنت في سرها أن ينتهي هذا اليوم بسرعة. فقد خالجها إحساس غريب ينذر بالشؤم، أطبق على قلبها، رغم أنها لا تتذكر السبب، ثم قالت: «صباح الخير يا سپ، كيف حالك اليوم؟».

رد سبتيموس بذهن شارد، وهو يهمهم: «أين... أين أنا؟».

همهمت چينا أيضًا تقول وعيناها لا يزال النعاس يملؤهما: «في... في غرفة جلوس أمي».

«نعم، تذكرت.. الملكة إيثلدريدا..».

وعلى الفور، طردت هذه الكلمات النوم من عيني چينا، بعد أن تذكرت سبب الإحساس المنذر بالشؤم الذي خالجها، وتمنت لو لم تتذكر.

وفجأة، تذكر سبتيموس أمرًا آخر؛ الامتحان. فاعتدل جالسًا، وقد انسابت أطراف خصلات شعره الذهبية، وعلت عينيه الخضراوين البراقتين نظرة قلق، ثم قال: «لا بد أن أذهب الآن يا چين، وإلا فسوف أتأخر عن الامتحان، كنت أعلم أن الأمور سوف تتأزم».

«ماذا تقصد؟».

«امتحان الممارسة العملية للتنبؤ، كنت أعلم ذلك».

«لكن الأمر سينتهي على خير، أليس كذلك؟». ثم اعتدلت جالسة وقالت بابتسامة علت وجهها: «أظن أنك أساسًا نجحت في الامتحان».

رد سبتيموس بنبرة مكتئبة: «لا أعتقد أن الأمور تتم على هذا النحو يا چين، ليس مع مارشا على أية حال.. من الأفضل أن أرحل الآن».

قالت له جينا: «اسمع يا سِب، ليس بوسعك أن تعود الآن، لا بد أن تأتي معي أولًا لترى شيئًا، لقد وعدت».

«وعدتِ؟ ماذا تقصدين بقولك وعدت؟».

لم ترد جينا عليه.. وببطء، وقفت وطوت بطانيتها الكروشيه بعناية. رأى سبتيموس نظرة يملؤها القلق والاكتئاب في عيني جينا، وقرر في سره ألا تدفعه الأمور إلى ما هو أبعد من ذلك، ثم قال لها وهو يخرج على مضضٍ من سريره المؤقت: «حسنًا، لا تقلقي. سوف أذهب معك لأرى ما هذا الذي تريدين مني أن أراه أولًا، ثم أغادر بعد ذلك. ولو قطعت الطريق بالركض السريع فربما لا يفوتني الامتحان».

قالت له جينا: «أشكرك يا سِب».

وبينما كانت جينا وسبتيموس يغلقان باب غرفة جلوس سارة خلفهما، نزل شبح الملكة إيثلدريدا من السقف، وقد بدت على ملامحه الحادة نظرة يملؤها الرضا، ثم جلست الملكة على الأريكة، وأخذت الكتاب الصغير الذي تركته سارة هيب على المائدة بنفور ممزوج بالانبهار وشرعت في قراءة الكتاب الذي كان عنوانه «الحب الحقيقي لا يكذب أبدًا».

شق سبتيموس وجينا طريقهما على امتداد «الممشى الطويل»؛ وهو الممر العريض الذي يمتد بطول القصر كأنه عموده الفقري. كان الممشى مهجورًا في الضوء الخافت لهذا الوقت من الصباح؛ حيث كان خدم القصر منشغلين بأعمالهم في هدوء في أماكن أخرى من القصر، يستعدون ليوم جديد آخر، بينما كانت أشباح القدماء المتنوعة التي

جابت الممشى الطويل ليلًا مستغرقة في سُبات عميق في ضوء أول الصباح، بعضها كان يستند إلى مداخل الأبواب، والبعض الآخر كان يغط برضا وسعادة على الكراسي التي أكلتها العثة. والموزعة هنا وهناك على امتداد الممشى، ليستغلها أولئك الذين يعتبرون رحلة الممشى الطويل أطول من أن يقطعوه في شوط واحد بدون استراحة.

كانت السجادة الحمراء البالية المنبسطة طويلًا التي تغطي الأرض الحجرية القديمة تمتد أمام جينا وسبتيموس كأنها ممر عريض. لطالما أثار هذا الممشى الطويل الإحساس بأنها تسير في طريق سرمدي يمتد إلى ما لا نهاية، رغم أنه يبدو حاليًا أكثر إثارةً وتشويقًا من ذي قبل، منذ عاد والدها ميلو باندا بكل أنواع الكنوز الغريبة التي جلبها من البلاد البعيدة، وملأ بها دواليب العرض والفجوات الغاطسة بعد أن كانت خالية. حتى إن ميلو من فرط سعادته بما أطلق عليه «عملية إعادة البريق إلى القصر»، سرعان ما كان قد انطلق في رحلة أخرى ليعود بمزيد من الكنوز.

وعند مرور جينا وسبتيموس بما تعتبره جينا بأنه الجزء الأغرب من الممشى - وهو المنطقة التي يعرض فيها ميلو بعض الرءوس البشرية التي تُعد بطرق خاصة والتي جلبها من جزر تقع في البحار الجنوبية، سكانها من أكلي لحوم البشر - تباطأ سبتيموس من فرط انبهاره.

فقالت له جينا توبخه: «هيا يا سِب، لا تتباطأ هنا، إن هذا الجزء مرعب فعلًا».

«إنها ليست الرءوس التي تثير الرعب، بل إنها هذه الصورة. أليست هذه هي صورة العجوز إيثلدريدا؟».

كانت اللوحة الزيتية مصورة بالحجم الطبيعي وتهيمن على المكان، وكانت الملكة إيثلدريدا بملامحها الحادة تنظر للأسفل محدقة إلى چينا وسبتيموس بنفس التعبير المألوف الذي يعلو وجهها، والذي جسده الرسام بدقة بالغة، وقد رسم الملكة وهي تقف بغرور وغطرسة أمام خلفية من القصر.

ارتجف جسم چينا، ثم همست تقول وكأن اللوحة تسمعهما: «لقد عثر عليها أبي في غرفة **محكمة الغلق** في السندرة. ولقد أخرجها من الغرفة؛ لأنه قال إنها تخيف مستعمرة فيشه الجديدة. سوف أطلب إليه أن يعيدها إلى مكانها».

رد عليها سبتيموس قائلًا: « كلما عجل ذلك كان أفضل، قبل أن تثير الرعب في هذه الرءوس البشرية».

وخلال دقائق، كان سبتيموس وچينا يقفان أمام غرفة الملكة في الطابق العلوي من البرج الصغير الذي يقع عند نهاية مبنى القصر. كان هناك باب ذهبي طويل مزين بأشكال جميلة مرصعة بالزمرد الأخضر، ويتلألأ وسط حزمة ضوئية تسبح فيها الأتربة يلقيها ضوء أول الصباح. فكت چينا مفتاحًا كبيرًا من الذهب المرصع بالزمرد من حزامها الجلدي الذي ترتديه فوق وشاحها الذهبي. وبحرص، وضعته في ثقب المفتاح الذي يتوسط الباب.

وقف سبتيموس بعيدًا في الخلف، يراقبها وهي تضع المفتاح فيما بدا له أنه حائط أصم تعلوه بعض الشقوق. وهو ما لم يدهشه؛ لعلمه أنه لا يستطيع رؤية باب غرفة الملكة، فما من أحد سوى الذين ينحدرون من نسل الملكة - يستطيع رؤية هذا الباب.

قال سبتيموس: «سأنتظرك هنا».

«لا، لن تنتظر هنا يا سيب، بل ستأتي معي».

اعترض سبتيموس قائلًا: «لكن...» لم ترد چينا عليه؛ وأدارت المفتاح في الثقب، ثم قفزت جانبًا مع سقوط الباب مرتطمًا بالأرض كجسر متحرك، ثم أمسكت يد سبتيموس بقوة ودفعته نحو ما بدا له أنه جدار أصم وصلب.

قاومها سبتيموس وهو يقول لها: «چين، أنت تعلمين أني لا أستطيع الدخول هنا».

«بل تستطيع. أنا أستطيع أن أجعلك تدخل. والآن، لا تترك يدي واتبعني»، ثم جذبت چينا سبتيموس للأمام، فرآها وهي تختفي وسط الجدار إلى أن باتت يدها الممدودة للخارج والممسكة بيده هي كل ما يُرى منها. كان هذا المشهد أغرب ما رآه سبتيموس في حياته، وبشكل تلقائي توقف، غير مرحب بأن يُسحب من خلال جدار، حتى لو كانت من تسحبه هي چينا. لكنه وجد نفسه يُجذب بقوة بيد نفد صبر صاحبتها حتى إن أنفه بات ملتصقًا بالجدار مباشرة - لا، بل إنه بدأ بالفعل يخترق الجدار الآن. وبعد أن جذبته چينا بإصرار مرة أخرى، وجد سبتيموس نفسه فجأة داخل غرفة الملكة.

في أول الأمر، لم يتمكن من رؤية الكثير؛ فالغرفة ليست لها نوافذ، ولا يضيئها سوى ضوء خافت يصدر عن نار المدفأة المشتعلة بالفحم. لكن ما إن اعتادت عينا سبتيموس هذا الضوء في الغرفة حتى تملكه الدهش؛ إذ بدت الغرفة أصغر كثيرًا مما كان بتوقع، بل كانت في واقع الأمر ضيقة، مفروشة بفرش بسيط، لا تحتوي إلا على مقعد واحد مريح وسجادة بالية تفترش الأرض أمام المدفأة، الشيء الوحيد الذي لفت انتباه سبتيموس دولاب قديم مثبت في انحناء الجدار، مكتوب عليه بحروف ذهبية يألفها تمامًا (**جرعات غير مستقرة وسموم خاصة**)، وكان الدولاب نسخة طبق الأصل من الدولاب الموجود بكوخ العمة زيلدا في مستنقعات مرام؛ مما أثار في نفسه اشتياقًا مفاجئًا لسندويتشات الكرنب التي تصنعها العمة زيلدا.

لكن ما لم يكن في وسع سبتيموس أو چينا أن يبصراه هو الهيئة الجالسة على المقعد بجانب النار - وهو شبح لسيدة شابة. التفتت السيدة الشابة إلى زائريها، وأخذت تحملق في چينا بسرور وابتهاج. كانت السيدة تضع على شعرها الداكن الطويل طوقًا ذهبيًا، هو نسخة طبق الأصل من الطوق الذي ترتديه چينا، وترتدي العباءة ذات اللونين الأحمر والذهبي الخاصة بالملكات، يعلو سطحها بقعة دم كبيرة أعلى منطقة القلب. وبعد أن أشبعت السيدة الشابة بصرها من النظر إلى چينا، حولت عينيها إلى سبتيموس، وأخذت تستوعب منظره بملابس التلامذة الخضراء التي يرتديها، وبعينيه الخضراوين، وبالأخص حزام التلامذة

الفضي الذي يرتديه.. وبعد أن أسعدها أن سبتيموس رفيق مناسب لابنتها، عادت تجلس باسترخاء على مقعدها.

همس سبتيموس قائلًا بينما كان ينظر إلى المقعد الذي يبدو خاليًا: «إن المكان يبدو غريبًا هنا».

ردت چينا بصوت خفيض: «أعلم ذلك». وبعد أن تذكرت ما قالته لها إيلدريدا، نظرت حولها في الغرفة، آملةً ولو قليلًا أن ترى شبح والدتها. وخُيل إليها أن هناك بريقًا خافتًا لشيء ما على يد المقعد، لكنها عندما نظرت ثانيةً لم تر شيئًا، وبعد ذلك هزت رأسها حتى تطرد من ذهنها التفكير في والدتها.

ثم قالت لسبتيموس: «هلم».

«إلى أين يا چين؟».

«إلى دولاب العمة زيلدا»، ثم فتحت چينا باب الدولاب وانتظرت سبتيموس.

«ياه! رائع، أتأخذينني لزيارة العمة زيلدا؟».

ردت چينا بنبرة يشوبها شيء من الحدة: «كفاكَ أسئلة يا سِب». فبدا عليه الاندهاش، لكنه رغم ذلك تبعها ودخل الدولاب، ثم أغلقت چينا خلفهما الباب. ابتسمت السيدة الشابة الجالسة على المقعد، سعيدة بأن ترى ابنتها تستخدم «طريق الملكة» لتزور الحارسة في مستنقعات مرام، وقالت والدة چينا في سرها إن ابنتها سوف تصبح ملكة صالحة عندما يحين الوقت المناسب.

لكن ما لم تكن والدة چينا تعلمه هو أن ابنتها لن تذهب إلى مستنقعات مرام، فما إن أغلقت چينا الباب خلف سبتيموس حتى همست له قائلة: «لن نذهب إلى العمة زيلدا».

رد سبتيموس محبطًا: «خسارة»، ثم قال لها: «لمَ تهمسين؟».

«صه! لا أعلم. والآن، ثمة باب مسحور في مكان ما هنا. هل تستطيع أن تراه يا سِيب؟»، فسألها: «ولا تعلمين أيضًا إلى أين نحن ذاهبان؟!».

«لا، هل لك أن تضيء بخاتمك التنيني الأرض؟ فحسب ما أتوقع، سيكون في نفس مكان البابِ المسحور الموجود في دولاب العمة زيلدا».

قال سبتيموس، موجهًا ضوء خاتمه التنيني نحو الأرض: «أنتِ في غاية الغموض اليوم يا چين». كان الباب المسحور الموجود في دولاب الجرعات غير المستقرة والسموم الخاصة بغرفة الملكة بالفعل في نفس مكان الباب المسحور الموجود في دولاب العمة زيلدا. رفعت چينا بحرص حلقة ذهبية سميكة مخفية وجذبتها (الحلقة عند العمة زيلدا مصنوعة من النحاس)، فانفتح الباب المسحور بسهولة وبلا صوت، ونظرت چينا وسبتيموس من خلاله بحذر.

همس سبتيموس قائلًا: «وماذا بعد؟».

ردت چينا: «لا بد أن ننزل في الأسفل الآن».

سألها سبتيموس وقد بدأ يشعر بالانزعاج: «إلى أين؟».

«إلى غرفة ملابس الملكة، إنها الغرفة الموجودة في الأسفل هنا. هل أنزل أنا أولًا؟».

قال سبتيموس: «لا، دعيني أنزل أولًا؛ تحسبًا لأي شيء.. كما أن معي ضوء الخاتم التنيني». انحنى سبتيموس وبدأ ينزل من فتحة الباب المسحور سلمًا كان - خلافًا لسلم العمة زيلدا الخشبي المتقلقل - فاخرًا، درجاته من الفضة ومزخرفة بالتخريم، وقد صنعت أعمدة «الدرابزين» التي تكتنف جانبيه من الخشب الماهوجني. وبعد أن راح سبتيموس ينزل الدرجات بظهره، حيث كان السلم شديد الانحدار وأشبه بسلالم السفن - نادى على چينا، وقال لها: «كل شيء على ما يرام على ما يبدو يا چين».

ظهر حذاء چينا الطويل من فتحة الباب المسحور، وواصل سبتيموس نزول ما تبقى من الدرجات وانتظر چينا. وفي اللحظة التي قفزت فيها چينا الدرجة الأخيرة من الدرجات الفضية ولمست قدماها الأرضية الرخامية الفاخرة، اشتعلت شمعتان فخمتان عند نهاية السلم.

قال سبتيموس منبهرًا: «ياه! إن المكان هنا أجمل من غرفة الطابق الأعلى».

كانت غرفة ملابس الملكة، فضلًا عن أنها جميلة، في واقع الأمر بالغة الثراء، كانت أكبر من الغرفة العلوية؛ حيث إن البرج أكثر اتساعًا في الطابق السفلي هنا. كانت جدران الغرفة مذهبة، وعلى الرغم من أن طلاءها انطفأ مع مرور الزمن، فإنه أخذ يبرق بعمق وثراء في ضوء الشمعدان، وعند الجدار المواجه للسلم الفضي قبع لوح زجاجي قديم عاكس للصورة، يحيط به إطار مزخرف مصنوع من الذهب، لكنه بدا غير صالح للاستخدام حيث انطفأ بريق نسبة كبيرة من رقائق الفضة العاكسة

التي تبطنه، بعد سنوات طويلة قبع فيها اللوح في جو رطب، وكان اللوح داكنًا ولا يُظهر إلا صورة مشوشة لضوء الشمعدان.

واصطفت بطول الجدران خطاطيف فضية، كل خطاف منها يختلف عن الآخر ومصبوب بشكل معقد؛ إذ كان أحدها مصبوبًا على شكل عنق بجعة، وآخر على شكل ثعبان، وآخر على شكل الحروف الأولى لاسمي إحدى الملكات وزوجها اللذين رحلا منذ زمن بعيد. وكانت بعض الخطاطيف خالية، وقد عُلق على أخرى عباءات تعكس صيحات للأزياء التي انتشرت عبر مختلف القرون، لكن كانت جميعها باللونين التقليديين الأحمر والذهبي اللذين ترتديهما دائمًا ملكات القلعة. وما أدهش چينا - رغم أن سبتيموس لم يلحظ ذلك - هو أن جميع العباءات لا تعلوها أية أتربة؛ فقد بدت كلها جديدة ومتألقة كأن خياطي القلعة صنعوها توًا.

وبافتتان، ولولعها بالملابس الفاخرة، راحت چينا تجوب أنحاء الغرفة، وهي تمرر أصابعها على العباءات، وتصيح باندهاش: «إنها في غاية النعومة يا سِب.. ياه! المس هذه العباءة، إن حريرها ناعم جدًا.. انظر إلى هذه الحافة الفرو، إنها أفضل حتى من عباءة مارشا الشتوية، أليس كذلك؟»، ثم رفعت چينا عباءة صوفية رقيقة من على خطاف فضي مرصع بالزمرد وملفوف على شكل حرف (ج)، ووضعتها على كتفيها، كانت العباءة جميلة، وكان ملمسها ناعمًا وكانت تنسال للخلف بانسياب، ولها حافة من الفرو الأحمر الداكن، وبدت مناسبة تمامًا لحجم چينا. لم ترغب چينا في أن تعيدها إلى خطافها الخالي، ففكت مشبكها الذهبي، ووضعتها على جسمها. وقد ذكرتها هذه العباءة بعباءة لوسي جرينج

الزرقاء التي ارتدتها لبعض الوقت منذ فترة ليست ببعيدة، ثم أعطتها بعد ذلك إلى لوسي التي تملكها الكثير من الدهش.

«انظر، إنها تناسبني تمامًا. وكأنها صُنعت من أجلي. وانظر أيضًا إلى الدبوس الذي أهداني إياه نكو، إنه مناسب تمامًا للعباءة»؛ إذ كانت چينا قد شبكت العباءة بدبوسها الذهبي، وهو أيضًا على شكل حرف (ج)، وكان نكو قد اشتراه من تاجر في الميناء وأهداه إياها في عيد ميلادها الأخير.

قال سبتيموس الذي لا يرى في مسألة الملابس والأزياء أي شيء مثير للاهتمام، وقد بدت له غرفة الملابس مثبطة للهمم بعض الشيء: «جميل جدًا يا چين. والآن، أليس في الأفضل أن ترى هذا الشيء الذي جئنا من أجله إلى هنا؟».

انتفضت چينا فجأة مع عودتها إلى أرض الواقع مرة أخرى. فللحظات، كانت قد نسيت كل شيء عن تلك الملكة البائسة إيثلدريدا. وهنا، أشارت إلى اللوح الزجاجي الداكن، وقالت له: «هذا هو ما أردت منك أن تراه. والآن، لا بد أن تنظر فيه. هذا هو ما وعدت به».

بدا على سيبتيموس التحفظ، وقال: «وعدتِ من؟».

همست چينا ببؤس: «الملكة إيثلدريدا. كان ذلك ليلة أمس. لقد انتظرتني خارج الباب».

قال سبتيموس متمتمًا: «ياه! فهمت. لكنَّ هناك أمورًا غريبة قد تحدث عند النظر في الألواح الزجاجية العاكسة، خاصة الأنواع القديمة منها. أعتقد أنه لا ينبغي عليَّ أن أفعل ذلك».

قالت له چينا متوسلة: «أرجوك يا سِب، أرجوك انظر فيه أرجوك».

«لماذا؟». ثم رأى سبتيموس نظرة الهلع في عيني چينا، فقال لها: «چين.. ما الأمر؟».

«لأنك ما لم تفعل، فسوف...».

«فسوف ماذا؟».

ابيض وجه چينا من فرط الذعر، ثم قالت: «فسوف **تعكس الملكة مفعول الانتشال** في منتصف الليل.. سوف تغرق في منتصف الليل هذا المساء».

11

اللوح الزجاجي العاكس



وقف سبتيموس *قلقًا أمام اللوح الزجاجي العاكس*، متجنبًا النظر فيه بأن أخذ يحدق إلى حذائه الطويل؛ فقد تذكر كلام ألثر عندما ذكر له كيف أنه نظر ذات يوم في لوح زجاجي عاكس فرأى **طيفًا ينتظره**؛ ولذلك كان يخشى أن يكون علي وشك أن يرى ما رآه ألثر، ثم سأل چينا قائلًا: «وكيف سيعرف شبح الملكة إذا ما كنت قد نظرت في اللوح الزجاجي أم لا؟».

قالت چينا، وهي تلف بيؤس الحافة الفرو الحمراء لعباءتها الجديدة: «لا أعلم. فأنا لم أسألها. ومن فرط خوفي أن تقوم بعكس مفعول **الانتشال** كان كل ما قلته لها إني سوف أحرص على أن أنفذ ما طلبته مني».

«هل قالت لكِ لماذا يجب أن أفعل ذلك؟».

«لا. وما كانت لتجيبني لو كنت سألتها. لقد كانت نبرتها في غاية... في غاية التهديد. وكان الموقف رهيبًا. لكن، هل تستطيع فعلًا أن تفعل ذلك يا سِب؟ هل تستطيع حقًّا أن تعكس مفعول **الانتشال**؟».

أخذ سبتيموس يحك حذاءه الطويل في الأرضية الرخامية بغضب، ثم قال: «نعم يا چين، إنها حقًّا تستطيع – وفي خلال أربع وعشرين ساعة إذا كانت ماهرة في ذلك وأنا أراهن أنها كذلك بالفعل وأراهن أيضًا أنها فعلت ذلك عدة مرات من قبل – أن تنقذ شخصًا مسكينًا ثم تتخذه أسيرًا لديها حتى يدفع الثمن وينفذ ما تريد».

همهمت چينا قائلة: «إنها بشعة. أنا أكرهها».

قال سبتيموس: «إن مارشا تقول إنه لا ينبغي علينا أن نكره أحدًا. وهي تقول لا تحكم على أحد أبدًا قبل أن تدس قدميك في حذائه وتضع نفسك مكانه».

ردت چينا بابتسامة ممتعضة: «إن مارشا لا تدس قدميها في حذاء أحد إلا إذا كان حذاءً مدببًا مصنوعًا من جلد الأفعى الأرجوانية وله أزرار ذهبية أنيقة».

ضحك سبتيموس ثم خيم عليه الصمت وكذلك چينا؛ لقد شعر كل منهما أن عينيه تنجرفان نحو اللوح الزجاجي العاكس، ولكن لم ينظر إليه

أي منهما. وفجأة، انفجر سبتيموس قائلًا: «سوف أنظر في اللوح الزجاجي الآن يا چين».

قالت چينا مع ارتفاع طبقة صوتها: «الآن؟».

«أجل. حتى تنتهي من هذا الأمر. ففي نهاية الأمر، ليس هو أسوأ ما يمكن أن يحدث! ربما أرى طيفًا أو شيئًا، عجوزًا بشعة المنظر، لكن لن يزيد الأمر على ذلك. فما يراه المرء لا يستطيع أن يضره، أليس كذلك؟».

ردت چينا بنبرة بدت غير مقتنعة: «بلى، على ما أظن..».

«إذن، سوف أنظر في اللوح الزجاجي الآن. اصعدي أنت إلى الدولاب، وسوف ألحق بك بعد لحظات، اتفقنا؟».

ردت چينا معترضة: «لا، لن أتركك وحدك هنا».

«لكن لو كان هناك **طيف ينتظرني**، لا بد من رؤيته، وإلا فسوف **يسكنك** أنت أيضًا. أنا أعرف كيف أتصرف مع **الأطياف**، بينما أنت لا تعرفين».

ردت چينا بتردد قائلة: «لكن...».

قال لها سبتيموس بابتسامة خاطفة: «هيا يا چين، اصعدي، هيا».

وبدأت چينا على مضض تصعد الدرجات الفضية إلى دولاب الجرعات، وما إن أصبحت في أمان خارج غرفة الملابس حتى أخذ سبتيموس نفسًا عميقًا يثبت به عزيمته، ثم نظر في اللوح الزجاجي العاكس.

في أول الأمر لم يرَ شيئًا؛ إذ كان اللوح الزجاجي مظلمًا كأنه بركة مستنقع داكنة. انحنى سبتيموس مقتربًا أكثر من اللوح، متسائلًا في سره:

لماذا لا يستطيع أن يرى انعكاس صورته في اللوح، ومتخيلًا - رغم أنه بذل أقصى ما في وسعه كي لا يفعل - كل أنواع الأشباح البشعة تقف عند كتفيه وتنتظره.

ثم أتاه صوت چينا من الدولاب يقول له: «هل أنت بخير؟ هل نظرت في اللوح الزجاجي؟».

«في الحقيقة.. نعم، أنا أنظر فيه الآن..».

«ما الذي تراه؟».

«لا شيء.. لا شيء.. لا أرى سوى ظلام.. ياه! انتظري.. أنا أرى شيئًا الآن.. أرى شيئًا.. شيئًا غريبًا.. إنه شيخ .. يُحدق إليّ. ويبدو كأنه مندهش».

قالت چينا: «شيخ؟».

«ياه! ما أغرب ذلك!».

قالت چينا بنبرة بدا عليها القلق: «ماذا؟».

«عندما أرفع يدي اليمنى يرفع يده اليمنى هو أيضًا. وإذا عبست يعبس هو أيضًا».

«بنفس الطريقة التي يكون عليها انعكاس صورتك في اللوح الزجاجي؟».

«في الحقيقة نعم، ياه! أنا أعلم الآن ما ذلك؛ إنه لوح زجاجي عاكس يكشف المستقبل. كان هذا النوع من الألواح الزجاجية العاكسة مشهورًا جدًا في الماضي. ولقد اعتادت المهرجانات المتنقلة أن تجلبها معها؛ إنها تكشف لك شكلك قبل أن ترحلي عن الدنيا مباشرة».

جاء صوت چينا يقول: «هذا بشع يا سِب».

«نعم. إنني لا أريد أبدًا أن أبدو بهذا الشكل. يا للهول! ياه! انظري، عندما أخرج لساني، فهو ... ياه!».

«ما الذي حدث؟» وهنا ما عاد في قوس الصبر منزع، فاندفعت چينا نازلة عددًا من درجات السلم، أوصلتها إلى غرفة الملابس في اللحظة التي رأت فيها سبتيموس يرتد للخلف مبتعدًا بسرعة عن اللوح الزجاجي، ثم تزل قدمه على الأرض الرخامية اللامعة ويسقط. وبينما كان يحاول الوقوف والخروج من الغرفة إذا بچينا تصرخ؛ لقد رأت يدي شيخ متغضنتين تخرجان من اللوح الزجاجي العاكس. تمكنت اليدان، بأصابعهما العظمية وأظافرهما الصفراء الطويلة المقوسة، من الوصول إلى رداء سبتيموس، وأمسكتا به مسكة محكمة، ثم حوطتا حزام التلامذة الذي يرتديه، وجرتاه نحو اللوح الزجاجي. وبهلع، حاول سبتيموس التخلص من المخالب المتشبثة به.

وبدأ يصيح قائلًا: «چين! ساعديني يا چـ...» ثم تلا ذلك صمت. واختفى رأس سبتيموس في اللوح الزجاجي كأنه غرق في بحيرة من الحبر.

نزلت چينا بقية الدرجات جريًا وعبرت الغرفة بقدمين تنزلقان على الأرضية الرخامية، وقد تملكها الفزع وهي ترى كتفي سبتيموس تختفيان بسرعة داخل اللوح الزجاجي. قفزت على الفور إلى الأمام وتشبثت بقدميه بقوة، وبدأت تجذبهما بكل ما أوتيت من قوة. ورويدًا رويدًا، بدأ سبتيموس يخرج من اللوح الزجاجي، ظلت چينا متشبثة بقدميه كتشبث

الكلب بعظمته، عازمةً على ألا تترك سبتيموس يفلت من بين يديها بأي حال من الأحوال حتى يتحرر تمامًا. وبدأ رأس سبتيموس خطوة خطوة يتحرر من اللوح الزجاجي، كأنه ينبثق من وسط بركة من البرك السوداء في مستنقعات مرام. ثم التفتَ سبتيموس إلى الخلف وصاح: «احترسي يا جين! لا تدعيه ينال منك!».

رفعت جينا بصرها ونظرت أمامها، وإذا بها ترى وجهًا ظل محفورًا في ذاكرتها طيلة حياتها؛ كان الوجه لشيخ - رجل من القدماء - له أنف ضخم طويل، وعينان غائرتان محدقتان، تنظران إلى جينا في دهش وكأنه يعرفها. كانت تتدلى من أذنيه الكبيرتين القديمتين خصلات شعر بيضاء تميل إلى الاصفرار. أما فمه الذي تبقت فيه ثلاث أسنان أثرية - فكان يرتسم عليه تعبير واحد ينم على شدة التركيز مع محاولته جذب سبتيموس بعيدًا عن جينا. وفجأة، بعد جذبةٍ جبارة كاسحة نجح الشيخ، واخترق سبتيموس اللوح الزجاجي في لمح البصر، تاركًا جينا وحدها في غرفة الملابس، تحدق، وهي لا تصدق نفسها، إلى كل ما تبقى من سبتيموس - وهو حذاؤه البني الطويل الذي تمسكه الآن خاليًا بين يديها.

وبأصابع قدمين متورمة من كثرة الركل في اللوح الزجاجي، وبحلق مجروح من فرط الصراخ كي يُعيد سبتيموس - صعدت جينا السلم منطلقة كالصاروخ، مع تشبثها بقوة في حذاء سبتيموس الطويل. وما إن أصبحت في أمان داخل دولاب الجرعات غير المستقرة والسموم الخاصة حتى صفقت باب الدولاب المسحور، ثم فتحت الدرج السفلي

الموجود أسفل الأرفف الخالية. سمعت جينا ذلك الصوت المعدني الذي باتت تألفه الآن، ثم انتظرت بفارغ الصبر وهي تحاول أن تلتقط أنفاسها، إلى أن تحركَ شيء في الدولاب، واشتمت الرائحة المألوفة لكرنب يُطهى، ودفعت جينا الباب، ثم خرجت من الدولاب إلى كوخ العمة زيلدا.

ارتفع صوت مفعم بالذهول من عند السجادة الموضوعة بجانب النار: «يا للهول!» وانتفض فتى ذو شعر طويل مجدول، يرتدي رداء بنيًّا بسيطًا مربوطًا من عند الخصر بحزام جلدي قديم، وقد بدا عليه الفزع. لكن بعد أن رأى الفتى الذئبي جينا، اطمأن ثم قال: «مرحبًا! ها أنت تعودين مرة أخرى. إنك لا تستطيعين البقاء طويلًا بعيدًا عن هنا، أليس كذلك؟». وبعد أن لاحظ التعبير الذي يكسو وجهها، قال لها: «جينا، ما خطبك؟»، فردت عليه لاهثة، وقد أخذت عن سبتيموس مخاطبة الفتى الذئبي برقمه القديم في جيش الشباب هاتفًا: «كارثة يا 409. أين العمة زيلدا؟ لا بد أن أراها.. حالًا».

لم يجد الفتى الذئبي نفسه في حاجة للبحث عن حجة كي يترك كتاب (مبادئ القراءة عن الجرعات) بجانب النار ويتقدم نحو جينا. لقد فشل في إتقان فن القراءة من فرط الرعب الذي كان يشعر به من معلم القراءة والكتابة في جيش الشباب. ومهما حاول الآن، ورغم صبر العمة زيلدا معه، فما زال لا يرى أي منطق في الطريقة التي تتشابك بها الحروف مع بعضها كي تُشكل كلمات، أو لا تُشكل. رد الفتى الذئبي على جينا قائلًا: «إنها ليست هنا يا جينا. لقد خرجت لتجمع بعض

أعشاب المستنقع وما إلى ذلك. لكن، أليس ذلك هو الحذاء الطويل الذي يرتديه 412؟».

أومأت له چينا برأسها ببؤس وأسى. لقد كانت واثقة بأن العمة زيلدا سيكون لديها مَخرج، لكن الآن.. ثم استندت إلى باب الدولاب، وداهمها إحساس مفاجئ بالإرهاق.

فسألها الفتى الذئبي بهدوء، وقد ارتسمت على عينيه البنيتين الداكنتين نظرة قلق: «هل أستطيع أن أساعدك في شيء؟».

قالت له چينا وهي تكاد تنوح: «لا أعلم..»، ثم سكتت فجأة. لا بد أن تلتزم بالهدوء الآن، هكذا قالت في سرها.. لا بد أن تفكر فيما ينبغي عليها فعله.

فسألها الفتى الذئبي: «لقد وقع 412 في مشكلة، أليس كذلك؟».

أومأت له چينا برأسها ثانية، لا تضمن أنها لن تجهش بالبكاء لو نطقت الآن. وضع الفتى الذئبي ذراعه حول كتفيها ثم قال لها: «إذن، لا بد أن نخرجه من أزمته التي وقع فيها، ما رأيك؟».

فأومأت له چينا برأسها مجددًا.

«سوف أذهب معك، انتظري! فمن الأفضل أن أترك رسالة للعمة زيلدا لأخبرها بمكاني»، ثم هرع الفتى الذئبي إلى مكتب العمة زيلدا الذي بدا منظره مثيرًا للسخرية بعض الشيء بأقدام البط التي تنتهي بها أرجله، وبذراعيه اللتين تساعدان في الأعمال الكتابية، ولقد كانت هذه الإضافات تحية من مارشا أوفرستراند إلى العمة زيلدا. وعلى الرغم من

أن العمة زيلدا تكره هذه الإضافات، فإن الفتى الذئبي تعلم أن يستخدمها لصالحه.

قال الفتى الذئبي للذراعين: «ورقة لو سمحتما». فأخذت اليدان الأخريان اللتان ينتهي بهما الذراعان تعبثان في درج المكتب، ثم أخرجتا قصاصة ورق جعدة، وبسطتاها ووضعتاها بشكل مرتب على المكتب..

ثم قال الفتى الذئبي: «قلم، لو سمحتما».

فأخذت اليد اليمنى قلمًا ذا ريشة من فوق صينية تعلو المكتب، وأمسكته بدقة بالغة، وأخذت تحوم به فوق الورقة.

«والآن اكتبي: عزيزتي العمة زيلدا.. ما خطبك؟ لماذا لا تكتبين؟»

كانت اليد اليسرى تنقر بأصابعها بنفاد صبر على الورقة «آسف. حبر لو سمحت. والآن، اكتبي: عزيزتي العمة زيلدا، أنا وچينا ذهبنا لننقذ 412، مع خالص حبي، 409.. انتظري، أضيفي: مع خالص حب چينا. انتهت الرسالة، شكرًا. شكرًا، كُفّي عن الكتابة الآن. ضعي القلم مكانه. لا، لا داعي لأن تجففي الحبر بالمنشفة، اتركي الرسالة فحسب على المكتب، واحرصي على أن تراها العمة زيلدا»، أعادت اليد القلم إلى مكانه بعناية فائقة، ثم طوت الذراعان بعضهما بغضب، وكأنهما غير راضيتين عن أن تكتبا بضع كلمات قليلة فقط.

قالت چينا مع توجهها إلى باب دولاب الجرعات غير المستقرة والسموم الخاصة: «هيا بنا».

ثم تذكر الفتى الذئبي شيئًا، وقال: «انتظري، سأعود في الحال» ثم توجه مسرعًا نحو المدفأة وأخذ سندويتش الكرنب الذي لم يتناوله بعد.

نظرت چينا للسندويتش بحذر، وقالت له: «أتحب هذه السندويتشات حقًّا؟».

«بالطبع لا، أنا لا أحتملها. لكن 412 يحبها. ففكرت في أنه سيسعده أن يتناول هذا السندويتش».

تنهدت چينا وقالت: «إنه سيحتاج منا لأكثر من ذلك بكثير يا 409».

«اسمعي، سأتبعك، ولتحكي لي أنت الموضوع كله ونحن في الطريق، اتفقنا؟».

*

انبثق الفتى الذئبي وچينا من الدولاب في غرفة الملكة، وقد بدا الفتى الذئبي مكتئبًا؛ فقد حكت له چينا ما حدث. ثم مرًّا بجانب مقعد الملكة، لا يبصران علامات الذهول التي علت وجهها مما طرأ على سبتيموس من تغير مفاجئ، وقد تحول من تلميذ مهندم إلى فتى يميل مظهره إلى البداية. ومع مرور الفتى الذئبي أمام شبح الملكة، أحس بشعر مؤخرة عنقه يقف، فجال حوله ينظر نظرة الحذر والترقب التي تنظر بها الحيوانات، ثم أطلق زمجرة من أعماق حلقه، وهمس قائلًا: «ثمة شيء غريب في المكان يا چينا»، فارتجف جسمها، وقد وترتها الزمجرة غير المألوفة التي انطلقت من الفتى الذئبي، ثم قالت له: «هيا، دعنا نخرج من هنا الآن»، ثم أمسكت يده بشدة، وسحبته من خلال الباب.

وكانت چيلي دچين التي تم اختيارها حديثًا رئيسة كتبة النصوص الهرمسية في انتظارهما خارج الغرفة.

12

چيلي دچين



«الآنسة چيلي دچين!».. هكذا قالت چينا شاهقةً، وقد تملكها الدهش وهي ترى على غير المتوقع عباءة رئيسة كتبة النصوص الهرمسية ذات اللون الأزرق النيلي بوميضها الذهبي الباهر. ولكن، كيف تسنى لچيلي دچين أن تعلم بمكانها؟ ومن أين تأتي للكاتبة معرفة مكان غرفة الملكة؟ فحتى مارشا نفسها لا تعرف ذلك.

قالت چيلي دچين، والتي بدت لاهثةً بعض الشيء: «مرحبًا يا صاحبة الجلالة»، ثم أحنت رأسها باحترام، وأخذت عباءتها الحريرية الجديدة تخشخش مع حركتها.

قالت چينا بغضب: «أرجوكِ لا تناديني بهذا اللقب. ناديني چينا.. چينا فحسب. فأنا لم أصبح الملكة بعد. ولا أود في الأساس أن أكون ملكة. إذن، لقد اتضح أنك إنسانة بشعة، تقومين بأعمال بشعة ضد الجميع. هذا فظيع».

نظرت چيلي دچين إلى چينا بنظرة يملؤها القلق، ولا تدري تحديدًا كيف ترد. لم ترزق رئيسة كتبة النصوص الهرمسية بأبناء، وفيما عدا تلك الفتاة الوقور الناضجة التي كانت تعمل كاتبة في معبد ببلد بعيد منذ بضع سنوات مضت، كانت چينا هي أول فتاة في الحادية عشرة تحدثت إليها چيلي منذ أن كانت هي نفسها في الحادية عشرة من عمرها فقد كرست الآنسة دچين حياتها لعملها وقضت سنوات عمرها ترتحل إلى البلاد البعيدة، وتتعلم الأسرار الغامضة للعلوم بمجالاتها المتنوعة، كما قضت عدة سنوات تبحث عن الأسرار الخفية للقلعة، ولقد أسعدها الآن أن ترى أن أبحاثها لم تذهب هباءً.

قالت چيلي تصحح موقفها: «چينا، إن السيدة مارشا تود أن تقابلك. فتلميذها مفقود، وهي تخشى أن يكون قد أصابه مكروه». ثم حدقت چيلي بابتهاج إلى حذاء سبتيموس الطويل الذي يتدلى من رباطه من يد چينا اليمنى، ثم قالت: «أظن أنني لست مخطئة وهناك بالفعل شيء قد حدث من هذا القبيل».

أومأت لها چينا برأسها في حيرة، وتساءلت في سرها كيف تسنى لمارشا أن تعرف ما الذي حدث، ثم راحت تتشمم الهواء مرة بعد مرة، بعد أن بدا لها أن هناك رائحة غريبة لروث تنين في الأجواء، فراحت

چيلي دچين تتشمم هي أيضًا، ثم فركت فردة حذائها في الأرض بعنف - وهو حذاء أسود نظيف برباط ممتد لأعلى - وبعد أن تفحصت نعل حذائها، فركته من جديد في الأرض.

«وهل سأكون محقة أيضًا أيتها الأميرة لو جاز لي القول بأن هناك لوحًا زجاجيًا عاكسًا في غرفة الملكة؟» ثبتت چيلي دچين عينيها الخضراوين على چينا تنتظر الرد؛ فلدى چيلي كثير من النظريات حول العديد من الأمور، وتحمست وهي ترى أن إحدى نظرياتها قد تكون في سبيلها إلى النجاح.

لم ترد چينا، لكنها لم تكن في حاجة لأن ترد، فعلى الرغم من أن چيلي دچين ليست أفضل من يقرأ تعبيرات الوجوه في القلعة - فإن نظرة الذهول التي بدت على وجه چينا لم يكن ليخطئها أحد.

ثم بدأت رئيسة كتبة النصوص الهرمسية تتحدث وكأنها تلقي محاضرة في قاعة على بعض التلاميذ بطيئي الفهم، قائلة: «ربما أنك لا تعلمين ذلك أيتها الأميرة، لكنني قمت بدراسة مستفيضة عن الألواح الزجاجية الكيميائية.. ونحن لدينا بالفعل عينة من هذا النوع في الغرفة الهرمسية. ولقد رأيت صباح اليوم اضطرابًا على سطح اللوح الزجاجي الموجود لدينا، فأسرعت إلى برج السحرة لأبلغ عن هذا الاضطراب، وهو أمر نحن ملتزمون به وفقًا لميثاقنا، فقابلت السيدة أوڤرستراند أثناء خروجها من البرج، وكانت في حالة يُرثى لها جدًا. ولقد توصلت إلى استنتاجاتي الشخصية، وأنا أطلب منك الآن بكل احترام لو تسمحين

وتوافقين على أن تأتي معي إلى دار المخطوطات»، ثم أردفت قائلة: «كما طلبت أيضًا من السيدة مارشا أن تقابلنا هناك».

كانت مارشا هي آخر من تود چينا أن تراه الآن؛ لعلمها بأنها ستضطر لأن تخبرها بأنها هي التي تسببت في اختفاء سبتيموس. لكن حديث چيلي دچين عن وجود لوح زجاجي آخر في دار المخطوطات أعاد إليها الأمل من جديد. أليس هناك احتمال أن يكون هذا الكهل الذي ظهر من اللوح الزجاجي هو أحد هؤلاء الكتبة غريبي الأطوار الذين يعملون في قبو التعاويذ المرعب والذين اعتاد سبتيموس أن يتحدث عنهم؟ وربما يكون هذا الرجل قد سحب سبتيموس فحسب إلى دار المخطوطات، وربما يكون سبتيموس هناك بالفعل الآن ينتظرها، وسوف يقضي بقية اليوم يحكي لها عما حدث إلى أن ينفد صبرها من الملل! وربما...

ومع تلهف چينا الآن للتوجه إلى دار المخطوطات، تابعت الكاتبة المفعمة بالنشاط ذات العينين البراقتين مع توجهها إلى السلم الضيق الحلزوني. كان الفتى الذئبي طوال ذلك الوقت منزويًا بعيدًا في الظلال، يمتزج مع الخلفية كأنه كائن من كائنات الغابة التي هو منها في صميمه، وتقدم الآن لينضم إليهما، فانتفضت چيلي دهشة. وعندما وصلوا إلى أقدام السلم، فركت چيلي حذاءها مرة أخرى، ثم خرجت من الباب الجانبي للبرج الصغير.

قالت چيلي بفخر، وهي تسير بخطوات واسعة على امتداد الجهة الخلفية للممر الذي يحيط بقاعدة البرج الصغير: «لا أخفي عنكما سرًّا، إن المرء لا يسعه إلا أن يشعر بغاية الرضا والسرور عندما يثبت صحة

نظريته. لقد قلصت عدد المواقع التي قد تشمل غرفة الملكة وحصرتها في موقعين اثنين فقط، أولهما كان هناك»، وأشارت چيلي دچين بيدها نحو البيت الصيفي القديم المقام بجانب النهر، والذي بالكاد يُرى سقفه الذهبي وسط ضباب ضوء أول الصباح، ثم استرسلت قائلة: «بالطبع أيتها الأميرة.. لقد كنت أعلم أن مفتاحك سوف يفتح كلا المكانين، لكن لا شيء غير ذلك بدا منطقيًّا فيما يخص احتمال وجود غرفة الملكة في البيت الصيفي، رغم أني تساءلت بالفعل إذا ما كانت أسطورة الشيطان الأسود المرتبطة بالبيت الصيفي من اختلاق الملكات لإبعاد الناس عنه. لكنني، بالنظر إلى كل المعطيات ووضعها في الاعتبار، اخترت المكان الصحيح بالطبع. هذا أمر مثير لأقصى حد!».

«أمر مثير؟».. هكذا همهمت چينا بصوت خفيض، وهي تتساءل في سرها إذا ما كان اختفاء سبتيموس لا يعدو أن يكون تدريبًا أكاديميًّا تقوم به الكاتبة من باب التسلية.

وبعد أن التفت چيلي دچين حول قاعدة البرج الصغير، يتبعها الفتى الذئبي وچينا، انبثق ثلاثتهم أمام مبنى القصر، ثم انطلقت چيلي عبر البساتين متجهة نحو البوابة، وبينما كانوا يواصلون السير ويخلفون وراءهم آثار أقدام داكنة فوق العشب الندي، واصلت رئيسة كتبة النصوص الهرمسية عرض العديد من النظريات عن الحيوانات الأليفة، فقد وقع في أسرها الآن جمهور قوامه شخصان، وهي ليست على استعداد لأن تتنازل عنه. لكن جمهورها للأسف لم يكن مقدرًا لها؛ فقد كانت چينا في غاية القلق على سبتيموس حتى تسمعها، واستسلم الفتى الذئبي بعد أول

جملة؛ حيث أصابته الطريقة التي كانت چيلي دچين تتحدث بها بصداع في رأسه.

وعلى الرغم من ضآلة حجم چيلي دچين، فقد واصلت السير بخطوات سريعة، وسرعان ما كان ثلاثتهم يشقون طريقهم بعجالة في طريق السحرة الذي بدأ يشهد حركة مرور نشطة. وطريق السحرة واحد من أقدم شوارع القلعة، وهو شارع عريض، مستقيم، يصطف على جانبيه أعمدة إنارة فضية جميلة تحمل مصابيح. وامتد الطريق بدءًا من بوابات القصر عند أحد طرفيه وانتهاء عند القوس العظيم المقام أمام برج السحرة. ولقد بُنيت البيوت والمتاجر التي تمتد على جانبي الطريق بأقدم ما قُطع من أحجار جيرية صفراء من محاجر استُنفدت منذ زمن بعيد. وقد باتت هذه الأحجار بالية، أشكالها غير منتظمة، لكنها تثير في نفس چينا إحساسًا ودودًا يروقها. واصطف على جانبي الطريق أعداد لا حصر لها من المتاجر والمطابع التي تبيع كل أشكال المطبوعات، والأحبار والكتب والكتيبات والأقلام، بالإضافة إلى مجموعة من النظارات والأقراص لعلاج الصداع لهؤلاء الذين يمكثون أوقاتًا طويلة للقراءة في الأماكن المظلمة.

وعندما أطلّ موظفو هذه المتاجر والمطابع من نوافذهم التي تكسوها قطرات الندى، وقرروا ألا يُخرجوا الآن بضائعهم في هذا الجو الرطب، كان أول ما لمحوه هو رئيسة كتبة النصوص الهرمسية وهي تسير بخطوات واسعة في الطريق، وفي صحبتها فتى غريب المنظر له شعر متشابك، والأميرة التي كانت تحمل فردتي حذاء طويل قديم.

بعد أن قطع الثلاثة ثلثي الطريق، توقفوا أمام متجر صغير أرجواني اللون، كدست أمام نوافذه رزم من الأوراق والكتب، من فرط ارتفاعها يستحيل رؤية المتجر من الداخل. كان باب المتجر مكتوبًا عليه رقم 13، والنافذة مكتوبًا عليها **دار المخطوطات السحرية وشركة مراجعة التعاويذ**. وبهيئة يكاد يصل عرضها إلى عرض الباب الضيق، نظرت چيلي دچين إلى چينا والفتى الذئبي بنظرة يملؤها الوقار، ثم قالت لهما بأسلوب يفتقر إلى اللياقة والذوق: «إن دار المخطوطات لا يدخلها أي شخص لم يُقبل كعضو في الطائفة التي تتبع الدار. ومع ذلك، نظرًا لهذه الظروف الصعبة التي نحن بصددها الآن، سوف أستثني الأميرة، الأميرة فقط. وهناك بالفعل ما يفيد احتمال وجود سابقة لذلك؛ لأن لديّ أسبابًا تجعلني أعتقد أنه تم السماح بدخول ملكة من أقدم الملكات إلى الغرفة»، ومع هذه الكلمات انفتح باب دار المخطوطات برنة قصيرة ودخلت چيلي دچين.

سأل الفتى الذئبي چينا: «ماذا كانت تقول؟».

ردت چينا: «لقد قالت إنك لا تستطيع الدخول».

«ياه!».

«أو بالأصح لا تستطيع دخول الغرفة الهرمسية».

«دخول ماذا؟».

«الغرفة الهرمسية. أنا لا أعرف عنها شيئًا، لكن سِب حدثني عنها قليلًا. لقد دخلها من قبل».

قال الفتى الذئبي بابتهاج: «ربما إذن سيكون هناك الآن».

قالت جينا، وهي لا تكاد تجرؤ أن تمني نفسها: «في الحقيقة، أعتقد... أعتقد ذلك».

«ادخلي إذن وألقي نظرة، وأنا سوف أنتظر في الخارج كما قالت، إلى أن تخرجي أنت و412 بعد دقائق، ما رأيك ؟».

قالت جينا بابتسامة عريضة: «يبدو هذا مبشرًا»، ثم تابعت خطى جيلي دجين إلى الداخل.

13

علبة الملاح المستكشف



سمعت جينا مع دخولها مكتب استقبال دار المخطوطات ضجة غريبة تصدر من خلف الباب، تبدو كأنها صرير مختنق لهامستر بائس. تلفتت جينا فرأت هيئة غير واضحة المعالم لفتى ممتلئ بعض الشيء، له خُصلة أمامية من الشعر الأسود، يقف متسمرًا خلف مقبض الباب. فقالت له جينا: «بيتل؟ أهذا أنت؟».

كان الهامستر البائس، والذي كان هو بيتل في واقع الأمر، يمسك بالباب مفتوحًا لرئيسة كتبة النصوص الهرمسية، ورد على جينا بصرير آخر، قررت جينا في سرها أن تعتبره ردًا بالإيجاب.

نظرت چينا نظرة خاطفة حولها في مكتب الاستقبال بشيء من الحذر، لكنها لم تر أثرًا لمارشا، فشعرت بالارتياح.

ثم جاء صوت چيلي دچين من مكان ما من آخر المكتب يقول لها: «من هنا لو سمحتِ يا چينا، فنحن مضطران لأن نواصل عملنا الآن بدون السيدة مارشا». هرعت چينا نحو الصوت وهي تلتف حول مكتب ضخم يقبع عند الطرف البعيد من الغرفة، وانضمت إلى الكاتبة التي كانت تقف عند باب صغير في فاصل نصفه من الخشب ونصفه الآخر من الزجاج. دفعت چيلي الباب، ودخلت چينا خلفها إلى المكتب الداخلي لدار المخطوطات.

كانت الأجواء في المكتب الداخلي يخيم عليها الصمت التام، لا يخترقه سوى صوت خربشة الأقلام، ومن حين لآخر صوت انكسار ريشة كتابة. وانهمك واحد وعشرون كاتبًا في نسخ **الرقيات والأدعية، والتراتيل، والوصفات السحرية، والاستدعاءات، والتعاويذ، وبعض الرسائل الغرامية** أيضًا لهؤلاء الذين يريدون أن يتركوا انطباعًا مؤثرًا على الطرف الآخر. كان كل كاتب يجلس إلى مكتب مرتفع، يعمل وسط رقعة من الضوء الأصفر يلقيها مصباح زيتي من بين الواحد والعشرين مصباحًا المعلقة من حبال طويلة، والتي بدا بعضها باليًا ويتدلى بشكل خطير من السقف المقبب.

أشارت رئيسة كتبة النصوص الهرمسية إلى چينا حتى تتبعها، وسارت چينا على أطراف أصابعها بين الدكك والمكاتب المرتفعة بينما التفت كل كاتب لينظر إليها، متسائلًا في سره ما الذي تفعله الأميرة هنا، ولماذا

تحمل زوجًا قديمًا من الأحذية الطويلة؟ وراقب واحد وعشرون زوجًا من العيون چينا وهي تتبع چيلي دچين وتتوجه إلى الممر الضيق الذي يؤدي إلى الغرفة الهرمسية. تبادلوا نظرات الاندهاش فيما بينهم، وارتفعت بعض الحواجب، لكن لم ينطق أحد بكلمة واحدة. ومع اختفاء چينا عند الركن الأول من الممر، استؤنف صوت خربشة أسنان الأقلام الريشية على الأوراق والرق بوتيرته الطبيعية.

كان الممر الطويل الذي يؤدي إلى الغرفة الهرمسية يلتف حول نفسه سبع مرات؛ لقطع السبيل أمام هروب التعاويذ المارقة أو أي شيء آخر قد يحاول الهرب من الغرفة. ولأن الممر يحجب أيضًا وصول الضوء، واصلت چينا السير خلف صوت خشخشة عباءة چيلي دچين الحريرية، ولم يمضِ وقت حتى كانتا قد دخلتا غرفة صغيرة مستديرة بيضاء اللون، كانت الغرفة من الناحية العملية خالية، وتتوسطها مائدة بسيطة تقبع عليها شمعة مشتعلة، لكن لم تكن الشمعة هي التي استرعت انتباه چينا، بل اللوح الزجاجي العاكس؛ وهو لوح زجاجي طويل وداكن، ويبدو مألوفًا لدرجة مرعبة، وله برواز مزخرف يتناقض مع جدار الغرفة المطلي بغير إتقان.

رأت چيلي دچين أن نظرة الأمل التي كانت تعلو وجه چينا خفتت. فلم يكن هناك أثر لسبتيموس في الغرفة، ولم تر چينا سوى لوح زجاجي آخر، كان آخر ما تود أن تراه.

قالت الكاتبة: «من خلال دراساتي، تبين لي أن أول الألواح الزجاجية العاكسة كان بسيطًا، وفتحاته ذات اتجاه واحد فقط. ومن

خلال حساباتي، يمكنني القول بأن هذا اللوح الزجاجي الذي لدينا هنا من أول النماذج التي صُنعت، ولقد صُنع في نفس الوقت الذي صُنع فيه اللوح الزجاجي الموجود في غرفتك. وأنا أشك في أن هذا اللوح الزجاجي جاء في الأصل من ذلك المكان».

فسألتها چينا، وقد بدأت تنتعش من جديد: «المكان الذي فيه سبتيموس؟».

قالت چيلي: «بالفعل.. أيًا كان هو، ولذا أخبريني، هل يبدو هذا اللوح الزجاجي مثل ذلك الموجود في غرفة الملكة؟».

ردت چينا قائلة: «في الحقيقة لم يكن اللوح الزجاجي في غرفة الملكة بالتحديد».

قالت چيلي وقد بدت مندهشة: «حقًا! أين كان إذن؟»، ثم أخذت قلمًا وكراسة من على المائدة، ووقفت مستعدة لتدوين المعلومات. فلا يبدو أن الموضوع أوشك على الانتهاء.

«لا أستطيع أن أبوح بذلك»، هكذا قالت چينا، متبنية نفس النبرة المتسلطة التي تتحدث بها الكاتبة؛ فقد شعرت بالحنق من هذه الأسئلة المتطفلة - فأسرار غرفة الملكة ليست من شأن رئيسة كتبة النصوص الهرمسية.

علا الغضب وجه چيلي دچين، لكن لم يكن بيدها حيلة.. فقالت بإصرار: «لكن، هل يبدو هذا اللوح الزجاجي مثل اللوح الزجاجي الآخر - أيًا كان مكانه؟».

ردت چينا قائلة: «أعتقد ذلك. أنا لا أستطيع أن أتذكر كل تفاصيل اللوح الزجاجي الآخر. لكن زجاجه هو نفس هذا الزجاج الداكن و... ويثير في النفس هذا الإحساس المرعب ذاته».

قالت چيلي دچين: «هذا لا يوضح الكثير. فاللوح الزجاجي العاكس، إلى حد ما، يعكس توقعاتك أنتِ الشخصية.. وهذا يتوقف على سرعة تأثرك بمثل هذه الأشياء التي تظهر والتي قد تكون أو لا تكون واضحة».

شعرت چينا بشيء مما كان يلمح إليه الفتى الذئبي منذ قليل، وقالت لها: «لم أفهم. ماذا يفعل؟».

ردت چيلي دچين على الفور: «إنه يجعلك ترين ما تتوقعينه».

«ياه!».

جلست الكاتبة إلى المائدة وفتحت درجًا، ثم أخرجت كراسة كبيرة بغلاف من الجلد ورزمة من الورق تصطف بها أرقام مرتبة في جداول، وقلمًا وحبرًا أزرق، ثم قالت دون أن تنظر إلى چينا: «أشكرك يا چينا. سأكتفي بهذه المعلومات. وسأواصل العمل الآن».

انتظرت چينا بصبر لعدة دقائق، وعندما بدا لها أن الكاتبة لن تكف الآن عن الكتابة، سألتها: «إذن.. هل سيعود سبتيموس إلى هنا؟».

رفعت الكاتبة بصرها ونظرت إليها قائلة: «ربما يعود.. وربما لا.. لا أحد يستطيع أن يجزم بشيء».

همهمت چينا بغضب قائلة: «كنت أعتقد أنك تستطيعين».

قالت چيلي دچين بنبرة حادة: «ربما يمكنني الجزم بذلك عندما أنتهي من حساباتي».

سألتها چينا بقلق، مع شعورها بأنها لا تكاد تستطيع أن تنتظر دقيقة واحدة أخرى كي ترى سبتيموس مرة ثانية وتسأله عما حدث: «ومتى سوف تنتهين من حساباتك؟».

ردت الكاتبة قائلة: «في السنة القادمة في نفس هذا الموعد، إذا انتهت الأمور على خير».

«السنة القادمة في نفس هذا الموعد؟».

«هذا إذا انتهت الأمور على خير».

سارت چينا متعكرة المزاج عائدة إلى مكتب الاستقبال. ومع ظهور الأميرة، هبَّ بيتل من على مقعده من خلف المكتب، واحمرت أذناه فجأة، ثم أطلق صريرًا أشبه بصرير الهامستر، وقال: «انتظري!».

قالت چينا بنبرة حادة: «ماذا تريد؟».

«في الحقيقة.. كنت أتساءل...؟».

«ماذا؟».

«هل... هل سبتيموس بخير؟».

ردت چينا قائلة: «لا، إنه ليس بخير».

بدا القلق على عيني بيتل السوداوين، وقال: «هذا هو ما كنت أظنه».

ألقت چينا نظرة خاطفة إليه وقالت: «وكيف عرفت ذلك؟».

هز بيتل كتفيه وقال: «من حذائه الطويل؛ فسبتيموس ليس لديه سوى حذاء طويل واحد، وهو معك الآن».

قالت چينا مع توجهها نحو الباب لتفتحه: «حسنًا، سوف أعيده إليه. أنا لا أعلم كيف يمكن أن أعثر عليه، لكنني سوف أعثر عليه، كما أنني لن أنتظر عامًا بأكمله حتى أفعل».

قال بيتل وقد علت وجهه ابتسامة عريضة: «حسنًا، إذا كان هذا هو كل ما يزعجك، فالأمر بسيط».

«بسيط جدًا! أضحكتني يا بيتل، ها ها!».

ازدرد بيتل لعابه؛ فهو لا يحب أن يُغضب چينا، ثم قال لها: «لا، أنت لم تفهمي قصدي. أنا لا أمزح، بل أقصد فعلًا ما أقوله.. فالعثور عليه سهل - لقد وضع سبتيموس **بصمته** على تنين».

توقفت چينا، ويدها على مقبض الباب، وحدقت إلى بيتل، ثم سألته ببطء، لا تريد أن تمني نفسها بأن بيتل قد يكون لديه الحل الذي لم تعرفه رئيسة كتبة النصوص الهرمسية بعد: «ماذا تقصد بذلك؟».

قال بيتل: «أقصد أن التنين يستطيع دائمًا العثور على **صاحب البصمة**.. كل ما عليك فعله الآن هو توجيه التنين **للقيام بعملية البحث عن صاحب البصمة**، وسوف ينطلق حينها على الفور. مسألة سهلة جدًا. ويمكنك أن تذهبي معه إن أردتِ، بما أنك ملاحته المستكشفة، وسوف تكونين في هذه الحالة **القائم بمقام** سبتيموس»، وهكذا حُلت المشكلة ثم عقد بيتل ذراعيه وبدا مبتهجًا.

«هل أستطيع أن أطلب منك يا بيتل أن تعيد كل ما قلته مرة أخرى ببطء هذه المرة، ممكن؟».

فابتسم بيتل ابتسامة عريضة، وقال لها: «انتظري دقيقة واحدة»، واندفع من الباب ثم اختفى في المكتب الداخلي لدار المخطوطات. وفي اللحظة التي بدأت جينا تتساءل فيها في سرها ماذا حل ببيتل في الداخل، اندفع الباب، وعاد بيتل ومعه علبة صفيح باللونين الأحمر الزاهي والذهبي، ثم مد يده ليناول العلبة لجينا وقال لها: «إنها لكِ».

«لي؟».

«نعم».

قالت له جينا: «ياه! أشكرك»، ثم تلا ذلك صمت، بينما كانت جينا تتفحص العلبة الصفيح وتقرأ على غطائها كلمات مدونة بحروف سميكة بالحبر الأسود **مصنع لوكجاو للطوفي، طوفي مُصنع من أفضل أنواع دبس السكر**، ثم قالت له وهي تحاول جاهدة أن تفتح الغطاء: «أتريد واحدة يا بيتل؟».

«إن ما بداخلها ليس طوفي».

«حقًا؟».

«دعيني أفتحها لك».

ناولته جينا العلبة الصفيح. صارع بيتل العلبة للحظات كي يفتحها، ثم طار الغطاء وانطلقت نافورة لما بدا أنها قطع صغيرة جدًا من الجلد، معظمها إما محترق حرقًا طفيفًا، وإما جعد وإما بالٍ، وتناثر كل ذلك على الأرض، وامتلأت الأجواء برائحة نفاذة لتنين. جثا بيتل على ركبتيه، وهو مرتبك، مورَّد الوجه، وراح يجمع قطع جلد التنين المسلوخ.

ثم تمتم يقول: «كما ترين، إنه ليس طوفي».

ردت جينا توافقه الرأي: «نعم، هذا واضح».

قال بيتل مفسرًا: «إنها قطع خاصة بالملاح المستكشف»، وأخرج قطعة طويلة من الجلد الأخضر، ثم رفعها وهو يقول: «هذه القطعة خاصة **بعملية البحث**». ثم وقعت في يده قطعة حمراء متفحمة، وقال: «وهذه خاصة **بعملية الإشعال**».. وأخيرًا، عثر على ما كان يبحث عنه وهو قصاصة من مادة ورقية زرقاء رقيقة السمك ومطوية لمرات كثيرة – ثم قال بنبرة تعلوها نشوة الانتصار: «وهذه القصاصة خاصة **بالقائم مقام**».

«ياه! أشكرك يا بيتل، هذا لطيف جدًا منك».

ازدادت حمرة وجه بيتل، ثم قال: «لا تشغلي بالك. أقصد... الموضوع أنه منذ أن أصبحتِ الملاحة المستكشفة لسبتيموس في التحليق بلافظ اللهب، أخذت أجمع كل ما أعثر عليه عن الملاحين المستكشفين ووضعته في علبة الطوفي الخاصة بي. وهي العلبة التي أعطتها لي عمتي بمناسبة عيد منتصف الشتاء. أتمنى ألا يزعجك ذلك»، ثم قال بنبرة يشوبها الخجل: «أقصد، أتمنى ألا تظني أن هذا تطفل مني أو أي شيء من هذا القبيل».

«بالطبع لن أظن ذلك.. لقد كنت دائمًا أنوي أن أبحث عن موضوع الملاح المستكشف، لكني لم أفعل.. أعتقد أن سبتيموس كان يعتقد – أقصد أنه يعتقد – أن مهمة الملاح المستكشف تقتصر على قص أظافر أقدام التنين وتنظيف وجاره».

ضحك بيتل، ثم توقف فجأة متذكرًا أن هناك شيئًا خطيرًا تعرض له سبتيموس، وقال: «إذن.. أتودين أن أوضح لك كيف تتم **عملية القائم مقام؟**».

«ماذا قلت؟».

«**عملية القائم بمقام شخص آخر**.. سوف تتيح لك هذه العملية أن تقومي بمقام سبتيموس، وسوف يلبي لافظ اللهب كل ما تطلبينه منه - أو بالأصح، سوف يفعل كل ما كان سيفعله لسبتيموس».

فابتسمت چينا وقالت: «أي أنه لن يفعل كل شيء إذن».

«نعم، ولكنها بداية. ثم يمكنك بعد ذلك أن توجهيه للقيام **بعملية البحث**، وتنطلقي هكذا للبحث عن سبتيموس. عملية سهلة جدًا - أو هكذا هو المفترض. ها هي».. وأخذ بيتل بحرص شديد القطعة الزرقاء الرقيقة من الجلد المسلوخ، وبسطها على المكتب، ثم قال: «إن الموضوع معقد بعض الشيء، لكن أعتقد أن العملية سوف تنجح».

ووجدت چينا نفسها تحدق إلى كمٍّ من الرموز المحيرة، مدونة بخط لولبي متلاصق يلتف نحو ركن محروق، وكلمة معقدة هذه هي لتبسيط الأمور، فما فهمت چينا أساسًا من أين يمكن أن تبدأ قراءتها.

فعرض عليها بيتل مساعدته قائلًا: «يمكنني أن أترجمها لك إن شئتِ».

فأشرق وجه چينا وقالت: «هل تستطيع ذلك فعلًا؟».

ومرة أخرى، اصطبغت أذنا بيتل باللون الأحمر القاتم، وقال لها: «نعم، بالطبع أستطيع. ليست هناك أية مشكلة»، ثم أخرج عدسة مكبرة ضخمة

الحجم من الدرج، ونظر من خلالها بعينين شبه مغمضتين إلى قطعة الجلد، وقال: «إن الموضوع بسيط جدًا، فعلًا؛ أنت تحتاجين فحسب لشيء يمتلكه **صاحب البصمة**».. ثم توقف بيتل ونظر إلى حذاء سبتيموس الطويل واستطرد قائلًا: «وأنتِ.. همم.. أنتِ بالفعل معك ذلك، ثم تضعينه أمام التنين، أقصد أمام لافظ اللهب، ثم تضعين يدك على أنفه، وتحدقين إلى عينيه وتقولين.. اسمعي، سوف أكتب لك كل هذه الخطوات حتى لا تنسيها». وأخرج بيتل من جيبه بطاقة جعدة، وبعد أن أخذ قلمه من المحبرة، كتب سلسلة طويلة من الخطوات بتركيز كبير.

وبامتنان شديد، أخذت چينا البطاقة وقالت له: «أشكرك يا بيتل»، ثم كررت شكرها قائلة: «أشكرك جزيل الشكر».

رد بيتل عليها: «لا تشغلي بالك. أنا تحت أمرك في أي وقت. إلا أني، أقصد أني أتمنى ألا تكرري ذلك في أي وقت آخر. أقصد أني أتمنى أن يكون سبتيموس بخير و... ولو كنت تحتاجين لأي مساعدة...».

قاطعته چينا، وقد بدأت عيناها تدمعان، وقالت له: «أشكرك يا بيتل».. ثم انطلقت جريًا إلى الباب، وفتحته بحركة عنيفة. كان الفتى الذئبي مستندًا إلى النافذة، وقد بدا عليه غاية الملل والضجر. قالت له چينا: «هيا بنا يا 409»، ثم انطلقت جريًا نحو القوس العظيم الذي يقع في نهاية طريق السحرة. وسرعان ما كانت هي والفتى الذئبي قد تواريا عن الأنظار وسط الظلال التي يلقيها المدخل المقنطر المكسو بأحجار اللازورد.

وبالعودة إلى دار المخطوطات، جلس بيتل ومرر يده على جبينه؛ لقد شعر بحرارة تسري في جسده، وعلم أن هذه الحرارة ليس سببها فقط أن

وجهه دائمًا ما تكسوه حمرة كلما رأى چينا. وبينما كان يرجع للوراء وهو جالس على مقعده، شعر بجسمه يتصبب عرقًا باردًا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وبدأت غرفة المكتب تلف وتدور به.

سمع الكتبة في المكتب الداخلي صوت ارتطام مع سقوط بيتل من على مقعده. فهرع فوكسي، ابن رئيس كتبة النصوص الهرمسية السابق الموصوم، إلى المكتب الخارجي ليجد بيتل طريحًا. وكان أول ما لاحظه فوكسي على بيتل علامة لثقب واحد، ينتشر حولها طفح جلدي أحمر ساطع، في الجزء المكشوف بين حذائه الطويل وكساء ساقيه.

صاح فوكسي في جميع الكتبة المذهولين قائلًا: «لقد أصيب بعضة! لقد جاء الدور على بيتل».

14
مارسيلوس باي



يكره *مارسيلوس باي الإصباح،* وإن لم يكن من السهل عليه التمييز بين الصباح والمساء في الأعماق التي يقبع فيها. فسواء كان الوقت صباحًا أو مساءً، هناك دائمًا ضوء أحمر خافت يغمر الطريق القديم الممتد أسفل القلعة؛ إنه ضوء كرات النيران الأبدية التي يعتبرها مارسيلوس الآن أعظم إنجازاته – وأعظمها إفادةً بكل تأكيد.. اصطفت هذه الكرات الزجاجية الضخمة، والتي رصها على امتداد الطريق القديم منذ نحو مائتي عام، بعد أن قرر

أنه ما عاد يحتمل العيش فوق سطح الأرض بين سكان القلعة الأحياء، فالضجيج والسرعة والضوء تملأ الأجواء أكثر من اللازم في القلعة، وما عاد هناك ما يثير اهتمامه بها. ولقد جلس الآن مبللًا، يرتعش بجوار إحدى الكرات الضوئية عند أعتاب المدخنة العظمى، راثيًا لحاله.

علم مارسيلوس أن الوقت الآن في الصباح؛ لأنه خرج ليلة أمس في إحدى جولاته الليلية أسفل سطح مياه الخندق. وهو في هذه الأيام لا يحتاج إلى أن يتنفس إلا كل عشر دقائق أو ما نحو ذلك، ولن يزعجه حتمًا لو لم يتنفس إلا كل ثلاثين دقيقة. وهو يستمتع بإحساس انعدام الوزن أسفل سطح المياه؛ حيث يزيل عنه ذلك – لبعض الوقت – آلام عظامه الهشة، كما أنه يحب التجول في الوحل الناعم، مستمتعًا بجمع العملات الذهبية القديمة التي يلقيها الناس في الخندق لجلب الحظ.

وعندما عاد هذه الليلة، بعد أن حشر نفسه ومر من خلال غرفة من غرف تفتيش الخندق المائي – وهي غرفة طويلة ومهمَلة – أخذ شمعة طويلة، ووضع عليها علامات من الأعلى إلى الأسفل تشير إلى عدد من الساعات، ثم وضع دبوسًا عند العلامة الرابعة؛ لينبهه عند انقضاء هذه الفترة. ليس لأنه كان يخشى أن يستغرق في النوم ويفوته الموعد، فمارسيلوس باي ما عاد ينام الآن – حتى إنه في واقع الأمر لا يتذكر متى كانت آخر مرة نام فيها – لكن ما كان يخشاه فعلًا هو أن ينسى أساسًا هذا الموعد الذي وعد والدته بكل إخلاص بأنه لن يفوته. وأدى تفكير مارسيلوس في والدته إلى أن جعله يكشر تكشيرة أشبه بمن أكل، بدون قصد، قطعة متعفنة من التفاح نمت بداخلها يرقة دودية سمينة؛ فارتجف

جسمه، وانكمش داخل عباءته المهترئة بحثًا عن الدفء. وبعد أن وضع الشمعة في كوب، جلس على الدكة الحجرية الباردة عند أعتاب المدخنة العظمى، وأخذ يراقب الشمعة طوال الليل وهي تحترق، بينما واصلت المعادلات الكيميائية تسللها من وإلى ذهنه بطريقتها المعتادة – العشوائية وغير المجدية.

كانت المدخنة العظمى ترتفع لأعلى فوقه كأنها عمود ضخم من الظلام، وكانت الريح الباردة تدور وتدور بداخلها وهي تعوي، تمامًا كما كانت كائنات مارسيلوس في الماضي تعوي داخل قواريرها كي تخرج منها – ولقد أدرك مارسيلوس الآن كيف كان إحساسها حينها. وبينما كانت الشمعة تحترق وتذوب باطراد، كان مارسيلوس كل حين ينظر بقلق إلى الدبوس ثم يرفع بصره محدقًا إلى سواد المدخنة. ومع اقتراب الشعلة من الدبوس، أخذ يدق بقدميه على الأرض بتوتر، وبدأ يقضم أظافره، وهي عادة قديمة سرعان ما فكر في أنه من الأفضل أن يُقلع عنها؛ لمذاق أظافره المنفر.

وحتى يسرّي مارسيلوس عن نفسه ويلهي ذهنه عما سوف يضطر إلى القيام به، فكر في المغامرة الخطيرة التي خاضها ليلة أمس، فقد مرت سنوات طويلة منذ آخر مرة خرج فيها إلى الهواء الطلق، ولم يكن الأمر أمس سيئًا بالقدر الذي كان يتوقعه، بل كان الجو ملبدًا بالغيوم ومظلمًا، وكان هناك ضباب بهيج كتم معه الأصوات. جلس مارسيلوس لفترة من الوقت عند المنزلق الثعباني وانتظر، لكن والدته كانت مخطئة. فلم يحضر أحد. وهو أمر لم يزعجه كثيرًا؛ لأن المنزلق الثعباني يروقه.

فالمكان يحمل ذكريات جميلة منذ أيام إقامته فيه، في البيت المجاور للبيت الذي تُخزن فيه الآن زوارق التجديف الغبية تلك. كان مارسيلوس يجلس في مكانه القديم بجانب المياه وقد اطمأن إلى أن حصيه الذهبية لا تزال في مكانها. ولقد أسعده أن يرى من جديد بعض القطع الذهبية، حتى وإن كانت تتوارى أسفل طبقة من الوحل وتعلوها خدوش بالغة، أحدثتها – كما يعتقد – تلك الزوارق الغبية. قطب مارسيلوس جبينه، فعندما كان في ريعان شبابه، كان يمتلك مركبًا حقيقيًا، وكان النهر حينها عميقًا، وليس كحاله الآن مع تراكم الطمي فيه وتدفق المياه بكسل. كانت المياه في أيامه سريعة وخطيرة، لكن المراكب في تلك الأيام كانت كبيرة، وعوارضها الرئيسية ثقيلة، تصطف فوقها قلاع ضخمة، وتكسوها أعمال زخرفية جميلة مطلية بالذهب والفضة. وكما قال مارسيلوس في سره إن المراكب حينها كانت مراكب، وكانت الشمس مشرقة على الدوام. إنه لا يتذكر يومًا ممطرًا واحدًا. تنهد ومد ذراعيه أمامه، وهو ينظر بنفور إلى أصابعه الذابلة، وإلى جلده الأشبه بورق الرق المشدود الشفاف، والذي يكسو كل كتلة وكل فجوة في عظامه القديمة، وينظر إلى أظافره السميكة الصفراء التي ما عاد يملك القدرة الآن على تقليمها.

قطب مارسيلوس جبينه مرة أخرى؛ إن منظره حتمًا في غاية النفور. أليس هناك شيء يمكن أن يحرره من ذلك؟ جالت بخاطره لمحة من أمل ضعيف يعود إلى تاريخ قديم، ثم فرت.. ولم يدهشه ذلك؛ فهو في الآونة الأخيرة بات ينسى كل شيء.

وفجأة، سمع رنة مع سقوط الدبوس من الشمعة المشتعلة على الأرض. وبقلق، هبَّ مارسيلوس واقفًا، وبعد أن تحسس المدخنة من الداخل، تشبث بحلقة وألقى بجسمه على سلم حديدي مثبت في الطوب القديم للسطح الداخلي لجدار المدخنة. وكالقرد الممسوخ، بدأ الكيميائي الأخير رحلة التسلق الطويلة من داخل المدخنة العظمى.

استغرق مارسيلوس وقتًا أطول مما كان يتوقع كي يصل إلى قمة المدخنة. وبعد أكثر من ساعة منذ أن بدأ رحلة الصعود، رفع نفسه وهو منهك ويشعر بالوهن، وصعد إلى الإفريز العريض الذي يحيط بقمة المدخنة، ثم جلس بعينين مغمضتين وأنفاس تصفِّر ووجه شاحب محاولًا أن يلتقط أنفاسه؛ أملًا ألا يكون قد تأخر عن الموعد؛ فوالدته سوف تغضب لو تأخر. وبعد عدة دقائق، أجبر مارسيلوس نفسه على أن يفتح عينيه وتمنى لو لم يفعل؛ فضوء شمعته الخافت القادم من عتبة المدخنة في الأسفل جعله يشعر بالدوار والغثيان وهو يفكر في كل هذه المسافة التي تسلقها، ثم ارتعد جسمه وسط الريح التي كانت محملة برطوبة مزعجة، فسحب قدميه أسفل العباءة؛ إذ بدت له أصابع قدميه المشققة وكأنها كتل ثلجية. ربما لا تكون بالفعل – وكما قال مارسيلوس في سره – سوى كتل من الثلج.

وهنالك، سمع مارسيلوس أصواتًا – أصواتًا شابة – يتردد صداها بين جدران المدخنة، رفع الكيميائي الأخير جسمه مصدرًا صريرًا كأنه باب علاه الصدأ ووقف على قدميه، ثم تحرك نحو ما بدا في أول الأمر أنه نافذة قائمة في جدار المدخنة. ومع اقترابه من النافذة، أصبح من الواضح

أنها ليست من النوافذ العادية، بل إنها قريبة الشبه ببركة عميقة، مياهها قاتمة لدرجة لا يمكن أن يتصورها عقل. أخذ مارسيلوس يعبث أسفل عباءته البالية، ثم أخرج قرصًا ذهبيًا كبيرًا، ولمس به جزءًا مسننًا أعلى اللوح الزجاجي، ثم نظر من خلال ظلام أول لوح زجاجي صنعه في حياته، ولوهلة انتابه الاندهاش. وكما لو كان في حلم، رفع يده اليسرى ثم عبس.. وخلال لحظات، أخرج مارسيلوس لسانه، ثم وثب.

وبسرعة أدهشت عظامه الواهنة، ألقى مارسيلوس نفسه نحو اللوح الزجاجي، ومد يده مخترقًا اللوح، فقبضت أصابعه على فراغ خالٍ. راح الكيميائي يسب، فقد أفلت منه. إن ذلك الفتى - ترى ما اسمه؟ - تمكن من الفرار. ثم مد يده مرة أخرى إلى أعماق أبعد داخل اللوح الزجاجي.. ولسعادته، أمسك هذه المرة برداء الفتى. بعد ذلك، كان الأمر سهلًا؛ فقد لف أصابع يديه حول حزام التلميذ. وهو في مثل هذه المواقف تساعده أظافره المقوسة - ثم جذب. لم يستسلم الفتى بسهولة وقاتله، غير أن ذلك كان متوقعًا. أما ما لم يكن متوقعًا فكان هذا الظهور المفاجئ لإيزميرالدا. يبدو أن ذهنه كثيرًا ما يخدعه هذه الأيام. لكن مارسيلوس جذب بكل ما أوتي من قوة، فالأمر بالنسبة له مسألة حياة أو موت. وفجأة، انخلع حذاء الفتى الطويل في يد إيزميرالدا، وهكذا اندفع سبتيموس هيب - نعم، هذا هو اسم الفتى - مخترقًا اللوح الزجاجي.

15
الطريق القديم



حضر سبتيموس مخترقًا *اللوح الزجاجي وهو يقاوم ويقاتل*، ووجه للكيميائي ثلاث لكمات وعدة ركلات، والتي لم تكن ذات جدوى بدون حذائه الطويل، لكنها شفت غليله بعض الشيء. وأخذ سبتيموس بعد ذلك يلف ويتلوى ويصارع.. وفي لحظة من اللحظات، استطاع أن يتحرر من قبضة مارسيلوس الواهنة ويلتف مندفعًا نحو اللوح الزجاجي، ليفاجأ للأسف بأنه يصطدم به وكأنه جدار حجري.

قال له مارسيلوس: «احترس يا سبتيموس»، ثم أمسك مارسيلوس رداء سبتيموس وجذبه بعيدًا عن اللوح الزجاجي، وأردف قائلًا: «ستؤذي نفسك هكذا!»

صاح سبتيموس وهو يلف ويتلوى بهلع: «اتركني، اتركني».

ظل مارسيلوس باي ممسكًا به، وقال له: «اسمع يا سبتيموس، عليك

أن تتوخى الحذر هنا. ولعلمك، إن الطريق إلى الأسفل طويل. وأنت بالطبع لا تريد أن تسقط، أليس كذلك؟».

توقف سبتيموس عند ذكر اسمه، وسأله: «كيف عرفت اسمي؟».

ابتسم مارسيلوس باي – سعيدًا بأنه تذكر اسم الفتى الآن – وقال: «إن لنا ذكريات طويلة معًا أيها التلميذ».

لم يتمكن سبتيموس من تحديد وقع هذا الكلام عليه، لكن ابتسامة ذلك الشيخ المسن هدأت نفسه بعض الشيء، ووقف ساكنًا لوهلة يحاول تقييم الوضع. فهو الآن – على حد علمه – في كهف مظلم مع مسنٍ في أرذل العمر. وكان يمكن أن يكون الموقف أسوأ، لكن على الجانب الآخر، كان يمكن أن يكون أفضل. فابتداءً، كان من الممكن أن يكون معه حذاؤه الطويل. وفجأة، تعثرت قدمه اليمنى عند حافة الإطار المحيط بالمدخنة، وأدرك على الفور أن الموقف كان يمكن أن يكون أفضل من ذلك كثيرًا.

فسأله سبتيموس، وهو يتحسس بقدمه حافة الإطار وقد داهمه بعنف نفس الإحساس المألوف بالدوار: «ما مدى ارتفاعنا هنا؟».

«ليس في وسعي أن أحدد بالضبط أيها التلميذ، لكن ما أعرفه أنني تسلقت مسافة طويلة حتى وصلت؛ ولذلك من الأفضل أن تترك هذا المكان».

هز سبتيموس رأسه وتباعد عنه قائلًا: «لن أذهب إلى أي مكان. ليس معك».

قهقه مارسيلوس قائلًا: «معك حق؛ لأنك – بكل تأكيد – لن تذهب

إلى أي مكان لو أتيت معي. فليس هناك مكان آخر تذهب إليه هنا في الأعلى».

«سأعود من خلال اللوح الزجاجي، سأعود إلى چينا، ولن أذهب معك». وتخلص سبتيموس من قبضة مارسيلوس، ثم ألقى بنفسه على اللوح الزجاجي مرة أخرى، فارتد إلى الخلف وفقد توازنه.

قال مارسيلوس وهو يمسكه مباشرة قبل أن يصل إلى حافة الإطار: «اثبت مكانك. لن تعود أبدًا من خلال اللوح الزجاجي. فأنا من صنعه، ومفتاحه معي أنا فقط».

لم ينطق سبتيموس بكلمة واحدة؛ لقد تملكه رعب شديد خشية أن يكون كلام المسن المقزز صحيحًا. نظر سبتيموس إلى خاتمه التنيني، وعلى الرغم من أنه كان يلمع كالمعتاد ببريقه الأصفر المطمئن، فإنه لم يبث في نفس سبتيموس إحساسًا كاملًا بالأمان.

تحرك مارسيلوس نحو حافة الإطار، ووقف عند الدرجة العليا من السلم، سمع سبتيموس حركة مارسيلوس فرفع خاتمه التنيني ليرى ما الذي يفعله هذا الرجل، فابتسم له مارسيلوس وانكشفت أسنانه الثلاث الطويلة وهي تتلألأ بلون أصفر من اللعاب الذي يكسوها، ثم قال له مارسيلوس: «هيا بنا يا سبتيموس. لقد حان الوقت كي ترى أين ستمكث فترة تلمذتك. ولا داعي لكل هذا العبوس.. ولعلمك، ليس هناك الكثيرون ممن نالوا فرصة التلمذة على يدي».

قال سبتيموس بنبرة الواثق من نفسه أكثر مما كان يشعر به حقيقة:

«تلميذ! أنا لن أكون أبدًا تلميذك، وأنا أساسًا تلميذ، تلميذ الساحرة العظمى وهي سرعان ما سوف تأتي لتعيدني».

رد مارسيلوس: «أشك في ذلك كثيرًا. هيا، لقد حان الوقت الآن لكي تنزل».

قال سبتيموس: «لن أتحرك من هنا».

رد مارسيلوس بنبرة مداهنة: «لا تكن أحمق. سوف تشعر بالبرد والجوع بعد بضعة أيام، ولسوف تتوسل إليّ حينها لكي تنزل. فإما أن تأتي معي وإما ستجد نفسك قد سقطت وتمزقت إربًا إربًا. وهذا أمر غير لطيف، صدقني. والآن هيا بنا».

قال سبتيموس ببساطة: «لا، لن أذهب معك أبدًا».

وللمرة الثانية تنقض مخالب مارسيلوس بسرعة خاطفة لتقبض على رداء سبتيموس وتجره. فوجئ سبتيموس بالقوة التي بدت على المسن وأخذته على حين غرة، ففقد اتزانه وسقط نحو حافة الإطار.. صاح مارسيلوس وقد تملكه خوف مفاجئ من أن تكون غنيمته قصيرة العمر قائلًا: «احترس!».

لكن سبتيموس كان قد تعلم من أحلامه؛ فتشبث **بالوصفة السحرية للطيران** بيده اليسرى، ثم وجه السهم الذهبي القديم - ممسكًا به بين إبهامه وسبابته - في اتجاه قاع المدخنة، وبعد أن أخذ نفسًا عميقًا اندفع وسط ظلام المدخنة.

وبينما راح مارسيلوس يُحدق بفزع إلى تلميذه المرتقب وهو يهوي، رأى بريقًا ذهبيًا لشيء يتذكره تمامًا. وكان قد امتلك هو نفسه يومًا ذلك

الشيء وعشقه كما لم يعشق أي شيء آخر في العالم، باستثناء زوجته العزيزة برودا. فصاح قائلًا: «**الوصفة السحرية!** أنت معك **الوصفة السحرية** الخاصة بي!».

لكن سبتيموس كان قد اختفى، اختفى بعيدًا في أعماق المدخنة..

لم تكن رحلة الطيران هذه سهلة. وعلى الرغم من أن سبتيموس كان يتمرن بشكل منتظم مع ألثر، كانت هذه التمارين تتم دائمًا في أماكن مكشوفة، خلافًا للوضع المقيد داخل المدخنة الذي كان أصعب كثيرًا ومرعبًا أيضًا. لكن سبتيموس سرعان ما اكتشف أن سر التحكم في طيرانه يكمن في محاولة السقوط ببطء بقدر الإمكان. وبعد عدة دقائق، هبط سبتيموس بخفة عند أعتاب المدخنة.

التقط سبتيموس بعض الأنفاس العميقة ونظر حوله، كان خلفه الجدار القرميدي الصلب للمدخنة، لكن كان يمتد أمامه ما أدرك أنه لابد أن يكون نفقًا قديمًا. فالقلعة تضم طبقات متعددة من الأنفاق التي بُنيت في أزمنة مختلفة، ولكن أقدمها الأنفاق المبطنة بالطوب.. ويحتفظ سبتيموس بخريطة للأنفاق المعروفة ويعلقها على حائط غرفته، إلا أن هذا النفق لم يكن مدرجًا في خريطته؛ مما يعني أن هناك نفقًا آخر لا بد أن يضيفه إلى الخريطة لدى عودته - هذا إن عاد!

انبعث من شعلات الكرات الضوئية التي تصطف على كلتا الجهتين من الممر ضوء أحمر شاحب، ملقيةً بظلال تتمايل وتترنح على الجدران. أطلق سبتيموس صفير انبهار هامسًا؛ لا بد أن هذه هي **النار الأبدية** التي صنعها الكيميائي والتي قرأ عنها ولم يصدق قطُّ أنها ممكنة. إحدى هذه

الكرات كانت عند مستوى قدمي سبتيموس، وكان من المستحيل عليه مقاومة إلقاء نظرة أخرى عليها، عن قرب هذه المرة. فانحنى ولمسها. كان زجاجها الأخضر السميك باردًا، حتى عندما ارتفعت الشعلة ولامست يد سبتيموس، وأخذت تتراقص كأنها جرو صغير متحمس يريد لفت الانتباه.

وراح إحساس سبتيموس بالانبهار أدراج الرياح، وعاد إلى أرض الواقع مع صوت اهتزاز السلم؛ إذ إن مارسيلوس، والذي لا يزال بعيدًا عنه في الأعلى، كان قد ألقى بجسده على السلم، وبدأ رحلة النزول الطويلة، وكان السلم يهتز مع كل درجة ينزلها.

وجد سبتيموس نفسه في حالة من الهلع، وأخذ يجري وهو ينزلق ويتزحلق بجوربه الصوفي السميك على امتداد أحجار الأرض الجيرية للطريق القديم، وكان أثناء انطلاقه جريًا يتفحص الجدران الخالية من أية ملامح، بحثًا عما قد يشير إلى وجود مدخل باب أو نفق قد يتيح له فرصة للفرار، إلا أنه لم يجد شيئًا، ولم يكن هناك مفر أو أي مكان يستطيع أن يختبئ فيه عندما يصل المسن إلى سطح الأرض. وسرعان ما سيصل - كما أدرك سبتيموس.

كان الطريق القديم يتعرج في مساره، ويتبع على نحو التقريب مسار طريق الكيمياء القديم الذي يعلوه بمسافة بعيدة. وسرعان ما كان سبتيموس قد التف عند أول انحناء للطريق الذي أخذه، لحسن حظه، بعيدًا عن المنطقة التي توجد فيها المدخنة. وبدأ، وقد أخذ يلهث الآن، يبطئ من سرعته، ويولي مزيدًا من الاهتمام للنظر حوله متفحصًا. ولم

يمض وقت طويل حتى تكلل سعيه بالنجاح برؤية مدخل مقنطر صغير في الجدار يرتفع عن سطح الأرض بعدة أقدام. وفي عجالة، صعد سبتيموس إلى المدخل ووجد نفسه عند أعتاب سلم حلزوني، درجاته قليلة الارتفاع ومكسوة باللازوردي.

ومع إحساسه بالأمل أخيرًا، هرع يصعد الدرجات. كان السلم يلتف وينحني، ويمتد في مسار ثعباني في طريقه لأعلى. وبعد عدة دقائق، أبطأ سبتيموس من سرعته ليلتقط أنفاسه، وأخذ ينصت ليتبين إذا ما كان هناك صوت لوقع أقدام تلاحقه، لكنه، لسعادته، لم يسمع شيئًا. واصل سبتيموس صعوده السلم بسرعة أبطأ الآن، بينما كان خاتمه التنيني يضيء له أحجار اللازورد الممتدة أمامه، دون أن يبدو للسلم نهاية. وما إن أخذ الإحساس بأن الدرجات تصعد وتصعد إلى ما لا نهاية يراود سبتيموس، حتى أخذ يلتف عند آخر انحناء قليل الانحدار ليجد نفسه وجهًا لوجه مع لوح زجاجي آخر، كان اللوح الزجاجي قائمًا عند أعلى السلم ويبدو داكنًا وغامضًا. رأى سبتيموس انعكاسًا باهتًا لصورته، بعينين متسعتين يبدو عليهما الفزع، وتُحدقان إليه فأخذ نفسًا عميقًا وقال في سره إن عليه أن يهدأ.

وداعيًا في سره أن يتجاوب معه سطح اللوح الزجاجي وتخترقه أطراف أصابعه كما فعل اللوح الزجاجي الآخر، دفع سبتيموس يده للأمام محاولًا اختراقه، لكن حدث ما كان يخشاه - فالشيخ المسن كان صادقًا، ولم يسمح له اللوح الزجاجي بالنفاذ من خلاله، وبدا صُلبًا كالصخر. وباستماتة، ألقى سبتيموس بنفسه على اللوح الزجاجي مرة أخرى، وأخذ

يدفع فيه بكل ما أوتي من قوة. لكن اللوح الزجاجي كان راسخًا، وظل صامدًا. وعلى الرغم من علم سبتيموس بعدم جدوى ما يفعله ظل عاجزًا عن التوقف، وأخذ يطرق عليه بقبضتيه، إلى أن تورمت يداه وأوجعته ذراعاه. وعلى الجانب الآخر من اللوح الزجاجي، رفعت جيلي دجين بصرها عن كراسة ملاحظاتها وابتسمت؛ فنجاح المرء في حساباته يشعره دومًا بالرضا والسعادة. رصت جيلي أقلامها في صف منظم، ثم طوت أوراقها، وفي عجالة انطلقت إلى القصر.

وجه سبتيموس ركلة يائسة أخيرة إلى اللوح الزجاجي وأصاب أصبع قدمه. ومع إحساسه الرهيب بأنه على وشك البكاء، نزل السلم بقدمين منطلقتين كالصاروخ كأنه في سباق. كان النزول أسهل، وسرعان ما رأى المدخل المقنطر، وخلفه في النفق بريق الكرات الزجاجية للنيران الأبدية. لكن عندما قفز سبتيموس من المدخل المقنطر، إذا به يسمع صوت مارسيلوس يقول: «تلاقينا في التوقيت المناسب أيها التلميذ». وتردد صدى صوت الشيخ بنبرته المرتعشة على امتداد النفق، مع تقدم صاحبه نحو سبتيموس مترنحًا قائلًا: «لقد أوشكنا على الوصول إلى مقصدنا».

استنتج سبتيموس من الثقة التي بدت على صوت الشيخ أنه وقع في الفخ، لكن تبقى له أمر واحد يستطيع أن يقوم به ويؤخر لبعض الوقت سقوطه في قبضة هذا الشيخ.. فمد يده إلى حزامه ليأخذ منه **الوصفة السحرية للطيران**، لكنه لم يعثر عليها.

انطلق سبتيموس راكضًا بسرعة فائقة، فصاح متعقبه البطيء الذي يأبى أن يستسلم: «ليس هناك أي مكان يمكنك الركض فيه». ومع التفاف سبتيموس عند الانحناء الأخير للنفق، علم أن الشيخ صدق في قوله؛ إذ إنه وصل الآن إلى النهاية. فالطريق كان مسدودًا بمصراعي باب ذهبي طويل. واكتنف الباب كرتان زجاجيتان ضخمتان تشتعل داخلهما **النار الأبدية**، فجلس سبتيموس بين الكرتين وراقب شعلتيهما وهما تتراقصان وتتمايلان نحوه كأنهما تلتقيان صديقًا حميمًا، فما عاد في وسعه الآن أن يذهب إلى أبعد من ذلك، ولا يملك إلا أن يُنصت إلى وقْع الخطوات التي أوشكت على التوقف مع تقدمها بثبات نحوه.

قال الشيخ وهو يزفر، ويبتسم ابتسامته التي تكشف عن أسنانه الأثرية: «ما رأيك أيها التلميذ؟ أعتقد أنك كنت تحمل هذه معك».. ولوح له **بالوصفة السحرية للطيران** يستفزه، ثم واصل قائلًا: «لا بد على المرء أن يكون دائم اليقظة والانتباه حتى يحافظ على **الوصفة السحرية للطيران**؛ فهي دائمة الهرب ويسعدها أن تخدع هؤلاء الذين يظنون أنهم يمتلكونها.. لكن يبدو الآن أنها عادت إلى حوزتي من جديد».

قال سبتيموس بتجهم: «**إن الوصفة السحرية للطيران** ليست ملكًا لأحد».

ضحك الشيخ قائلًا: «إجابة لا بأس بها أيها التلميذ، وهي بالفعل صحيحة. أرى أننا سنعمل معًا بشكل جيد.. أهنئك.. فقد نجحت في امتحان الدخول. لقد عثرت على المدخل.. ها ها! إنها دعابة صغيرة. يا تُرى، أين وضعت **المفتاح**؟».

تملك سبتيموس الهلع، والتف ليجري، لكن يد مارسيلوس المتمرسة سبقته، والتفت مخالبها العظمية حول حزام التلامذة الذي يرتديه وسحبته من جديد. أخرج الشيخ القرص الذهبي، وهو يتنفس بالكاد بعد كل ما بذله من مجهود، ووضعه في أسنان مستديرة في مركز مصراعي الباب الذهبي، ثم سحب سبتيموس بعيدًا وهو يقول: «ارجع للخلف أيها التلميذ، فما نقوم به الآن عمل خطير».

وانفتح الباب على مصراعيه ببطء، ليظهر خلفه صورة تعكس ظلامًا عميقًا. أخذ سبتيموس يُحدق لما يراه أمامه، غير قادر على فهمه. كان هناك شابٌ معلق وسط الظلام، شعره داكن جعد يرتدي عباءة باللونين الأسود والأحمر، مطرزة بقرص ذهبي يبدو أشبه بالقرص الذي يمسكه الشيخ في يده. وكان التعبير الذي يعلو وجه الشاب غريبًا يمتزج فيه الفزع بالترقب.

وبنظرة ملؤها الشوق، لعلم مارسيلوس أنه يقف وجهًا لوجه مع ما لن يستطيع أبدًا أن يكونه من جديد – إذ كان يقف أمام صورته عندما كان شابًا في الثلاثين من عمره – دفع سبتيموس وأرسله زاحفًا نحو السواد الثلجي.

وبصمت، انغلق الباب الكبير واختفى سبتيموس خلفه.

16

القصر الخالي



في *الوقت الذي دُفع فيه سبتيموس من خلال الباب الذهبي الضخم*، كان جرينج، حارس البوابة الشمالية، يعبر الجسر الخشبي المنخفض الذي يؤدي إلى القصر.

قال جرينج لهيلدا جارد، الساحرة العادية، التي كانت نوبتها هذا الصباح لحراسة الباب: «صباح الخير يا آنسة».

ردت هيلدا جارد قائلة: «صباح الخير يا سيد جرينج».

قال جرينج مندهشًا: «ياه! أنت تعرفين اسمي؟!».

«بالطبع، فالجميع يعرفون حارس البوابة الشمالية. أي خدمة يا سيد جرينج؟».

«في الحقيقة، إن الموضوع حساس ولا أستطيع التأخر؛ نظرًا لأني تركت السيدة جرينج في حراسة البوابة، وهي متعكرة المزاج بعض الشيء، كما أنها في أحسن الأحوال لا تحب عدَّ النقود؛ ولذلك لا بد أن أعود فورًا، و...».

فقاطعته هيلدا جارد متسائلة: «أنا في خدمتك، ماذا في وسعي أن أقدمه لك إذن؟».

«في الحقيقة لقد جئت لمقابلة سايلاس هيب، إذا لم يكن لديك مانع».

«لا، ليس لديَّ أي مانع يا سيد جرينج. لو سمحت تفضل بالجلوس هناك، ولسوف أرسل رسولًا يبحث عنه». وتوجهت هيلدا جارد إلى الممشى الطويل، ثم دقت جرسًا فضيًا صغيرًا يقبع على صندوق زينة قديم من خشب الأبنوس، وتردد صدى الرنين على امتداد الطرقة الخالية.

شعر جرينج بشيء من الهيبة من القصر، وكان من الصعب عليه أن يصدق أن سايلاس هيب يقطن هنا. نظر جرينج نحو الجهة التي أشارت إليها هيلدا جارد والتي كانت تصطف بها كراسي رقيقة مذهبة، مقاعدها الصغيرة مكسوة بالقطيفة الحمراء، وقرر أنها تبدو غير مريحة، ومن ثم توجه إلى الركن الأكثر ظلامًا من البهو، لمح فيه - خلسةً - مقعدًا مريحًا، يكاد يكون مخفيًا، ويجلس عليه، بدون أن يراه جرينج الشبح القديم

لجودريك؛ الحارس السابق لبوابة القصر، يغفو بسلام. وإذا بصوت هيلدا جارد يتردد صداه فجأة بنبرة حادة قائلًا: «لا، لا تجلس على هذا المقعد يا سيد جرينج!».

وعلى الفور، هب جرينج الذي كان على وشك الجلوس، واقفًا وكأن هناك شيئًا عضه.

ثم قالت هيلدا جارد وهي تشرح له: «ثمة شخص يجلس على هذا المقعد».

ولأن جرينج لم يسبق له قطُّ أن رأى أشباحًا، وليس في نيته أن يراها الآن، هز رأسه ببؤس. فما يُقال عن القصر إذن يبدو صحيحًا؛ إنهم جميعًا مصابون بلوثة عقلية هنا. وهو ما يفسر لماذا يناسب هذا القصر سايلاس هيب تمامًا.

استراح جرينج أخيرًا عندما حضر سايلاس يجر ماكسي وراءه. كان سايلاس متوترًا بعض الشيء، وأسعده أن يجد حجة للتهرب من مارشا؛ فقد تركها تبحث في أنحاء القصر عن سبتيموس الذي تخلف فيما يبدو عن الامتحان، وهو ما أثار إعجابه.. فأخيرًا، بدأ ابنه يهدأ ويستقر وصار في واقع الأمر فتى طبيعيًا.

هب جرينج كأنه كلب من كلاب الصيد ينقض على أرنب، وسأل سايلاس: «أين هو؟».

أجابه سايلاس قائلًا: «لن تبدأ أنت أيضًا يا جرينج. لقد قلت توًّا لمارشا إنني لا أعرف مكانه. على أية حال، هذا تصرف طبيعي جدًا. وأنا شخصيًا، لا ألوم الفتى لأنه تخلف عن ذلك الامتحان الغريب».

فسأله جرينج مذهولًا: «أي امتحان؟».

«في الحقيقة أنه ليس من الامتحانات التي أتذكر أني خضتها، هذا بكل تأكيد. ولا أعتقد أنه من الامتحانات المهمة. وعلى أية حال، ما الذي تريده أنت منه؟ هل كان يلعب لعبة (الجري وراء الدجاج) عند الجسر الخشبي؟ فهذا هو ما يفعله الفتيان بالنسبة لك»، ثم قهقه سايلاس قهقهة ودودًا، وهو يتذكر تلك الأيام التي كان يجري فيها هو ومجموعة من أصدقائه على الجسر المتحرك أثناء رفعه، ويتبارون في القفز في آخر لحظة دون السقوط في الخندق المائي.

«دجاج؟» هكذا رد عليه جرينج الذي خالجه ذلك الإحساس المعتاد بأنه يعيش في كوكب آخر غير كوكب سايلاس، ثم واصل قائلًا: «هل هذا هو ما يفعله سايمون الآن، يجري وراء الدجاج؟ وإن كان ذلك - لعلمك - لن يدهشني. إنه سيتسبب في الأزمات أينما ذهب هذا الفتى».

والآن، سايلاس هو الذي بدا عليه الذهول، وسأل جرينج قائلًا: «سايمون؟ ألعاب؟».

لكن جرينج لن يخدعه أحد، فرد قائلًا: «اسمع يا هيب، كل ما أريده هو معرفة مكان سايمون».

رد سايلاس بحدة: «أليس هذا هو ما نريده جميعًا؟».

«حسنًا. إن ابني روبرت سوف يلاحقه، بكل تأكيد. إنه مرتبط جدًا بأخته الصغيرة، ولقد هربت الفتاة من البيت من جديد مع هذا الفتى التافه عديم النفع..».

قال سايلاس الذي بدأ يشارك جرينج في رأيه في أن ابنه الأكبر تافه عديم النفع: «هربت مع سايمون؟ كيف؟».

«أنا لا أعلم كيف فعلت هذا. ولو كنت أعلم كيف لمنعتها».

قال سايلاس الذي سئم من إلقاء اللوم عليه بسبب أفعال سايمون الأثمة: «إذن، أنا آسف يا جرينج. لكنني لا أعلم شيئًا عن مكان سايمون. وأنا آسف أن ابنتك لوسي لا تزال متورطة معه، إنها فتاة طيبة».

رد جرينج، وقد انقشعت ثورة غضبه وهدأ الآن: «فعلًا، إنها فتاة طيبة».

ثم وقف جرينج وسايلاس لوهلة في بهو القصر على نحو أخرق. وأخيرًا، قال جرينج: «إذن، سوف أذهب أنا الآن. ضع ابنتك چينا نصب عينيك؛ إذ ربما يكون سايمون هذا موجودًا في الأنحاء هنا».

قال سايلاس: «چينا.. ما أغرب ذلك! فأنا لم ألمحها هذا الصباح..».

«حقًّا؟ لو كنت مكانك لخرجت أبحث عنها. سوف أذهب أنا الآن. أراك لاحقًا في المباراة القادمة، إن شئت ذلك.. ويمكنني أن أقرضك مجموعة من الفيش».

رد سايلاس منتشيًا: «لا، شكرًا، فلديَّ مجموعتي الخاصة بي»، ثم تذكر تعليمات سارة، وقال: «اسمع، لماذا لا تأتي أنت ونلعب معًا هنا؟ من باب التغيير».

رد جرينج قائلًا: «أنا أحضر إلى القصر مرتين في يوم واحد؟ هذا كثير»، ثم قهقه بصوت خافت وقال: «أشكرك يا سايلاس».

سار سايلاس مع جرينج إلى باب القصر، ثم قال له جرينج: «أراك لاحقًا إذن». وبعد لحظة تفكير، قال: «على فكرة، نحن ليس لدينا دجاج عند الجسر المتحرك، ولا دجاجة واحدة».

رد عليه سايلاس بنبرة ملطفة: «نعم، بالطبع ليس لديكم أي دجاج هناك»، ثم لوح له مودعًا، وانطلق بعد ذلك هو وماكسي يبحثان عن چينا.

لم يحالف الحظ سايلاس في العثور على چينا، وكذلك كان الحال مع مارشا التي سارت على امتداد الممشى الطويل مع ألثر الذي كان يتبعها كظلها، وراحت تفتح آخر وراء آخر، وهي تصيح قائلة: «سبتيموس.. چينا!»، ثم تصفق كل مرة الباب صفقة مدوية، إلى أن نفد صبر ألثر وفاض به الكيل.

وقال لها: «ثمة شيء غريبٌ يحدث في القصر هنا».

«أنت محق تمامًا يا ألثر.. سبتيموس، چينا؟».. طراخ!

«الغريب أن چينا أيضًا ليست موجودة في أي مكان».

«فعلًا، هذا غريب جدًا.. سبتيموس، چينا؟».. طراخ!

«حسنًا يا مارشا. سوف أتركك أنا الآن لبعض الوقت. فهناك شخص أريد أن أتحدث معه في هذا الموضوع».

«إن الكلام لن يفيد في شيء يا ألثر. لقد سئمت من كثرة ما قالته تلك البائسة رئيسة كتبة النصوص الهرمسية صباح اليوم وأفقدتني صوابي - كلها مهاترات لا بد أن أعثر على سبتيموس الآن.. سبتيموس، چينا؟».. طراخ!

ترك ألثر مارشا مع الأبواب وحلق هو على امتداد الممشى الطويل، وعندما وصل إلى نهايته دخل محلقًا إلى البرج الصغير الذي يقع عند الركن الشرقي من القصر، وحلق لأعلى وهو يلف مع دوران السلم الحلزوني، ثم وقف ساكنًا لفترة من الوقت عند المنبسط العلوي للسلم، يسترجع فيها أفكاره. بدا ألثر متوترًا بعض الشيء، وراح ينظف عباءته،

وهو ما لم يُحدث بالطبع أي فارق بالنسبة لمظهره، ثم هندم لحيته. وأخيرًا أخذ نفسًا عميقًا.. وبطريقة محترمة، على غير عادته، تقدم وهو يسير بخطوات بطيئة، مخترقًا جدار غرفة الملكة.

انتفضت الملكة فزعةً، فقال لها ألثر، بطريقة أقرب إلى الرسمية، بعد أن أحنى لها رأسه انحناءة قصيرة: «أستميحك عذرًا يا جلالة الملكة».

ردت الملكة وقد ارتسمت على وجهها شبه ابتسامة: «لعلي أفعل ذلك يا ألثر إذا قلت لي ما الذي جاء بك إلى هنا. وبحق السماء، لا تنادني بجلالة الملكة، سيريز فحسب، ممكن؟ فأنا الآن لست سوى روح مثلك، وما عدت أملك لقب جلالة الملكة يا ألثر»، ثم تنهدت.

فسألها ألثر قائلًا: «كنت أتساءل يا سيريز إذا ما كنتِ قد رأيت ابنتك هذا الصباح؟».

فابتسمت ابتسامة تفيض بالحب والحنان، وردت قائلة: «نعم، لقد رأيتها بالفعل».

«إذن، لقد ذهبت إلى زيلدا، أليس كذلك؟».

«أنت تعرف أيضًا عن موضوع طريق الملكة يا ألثر؟ لم يعد الأمر الآن سرًا كما كان».

«إن سرك مصون، اطمئني. تُرى، هل أخذت چينا تلميذ الساحرة العظمى معها؟».

«لقد كان معها. يبدو فتى لطيفًا. يا إلهي! أنت كالمعتاد تعرف كل شيء، وهذا هو ما كان يجعلني دائما مبهورة بك، كان يبدو عليك أنك تفهم.. تفهم كل شيء».

«أي أنها أخذت معها سبتيموس؟ إذن هذا يفسر الأمر. أشكرك يا سيريز. سوف أذهب لمارشا قبل أن تقود الجميع إلى الجنون».

قالت الملكة بنبرة حالمة: «العزيزة مارشا، إنها فعلًا عزيزة جدًا عليَّ؛ فهي التي أنقذت حبيبتي چينا كما تعلم».

قال ألثر: «نعم»، ثم خيم عليهما صمت لوهلة، وقد أخذ كل منهما يتذكر يوم دخوله عالم الأشباح، إلى أن هز ألثر رأسه ليوقظ نفسه من أحلام يقظته، وقال: «سوف أذهب الآن، أشكرك».

التف ألثر ليرحل، ثم توقف وقال: «في رأيي يا سيريز، من الأفضل لك أن تحاولي الخروج أكثر من ذلك.. أنت تضرين نفسك بحبسها هنا طوال الوقت في البرج، كما يمكنك أن تفكري أيضًا في الظهور لابنتك چينا. أنا أعلم أنه قرار مصيري، لكن...».

قالت الملكة بنبرة يشوبها شيء من الحدة: «سوف أظهر لها في الوقت المناسب يا ألثر. فمن المهم أن تستكشف الأميرات الأمور بأنفسهن كي يُثبتن أنهن جديرات بأن يصبحن ملكات – تمامًا كما فعلت أنا. وإلى أن يحين ذلك الوقت وتصبح چينا ملكة، سأظل أنا هنا لأحرس طريق الملكة من أي سوء، كما فعلت أمي من أجلي، وكما ستفعل چينا من أجل ابنتها».

«بحق السماء يا سيريز، هذه أمور لا تزال بعيدة، آمل ذلك».

«وأنا أيضًا آمل ذلك، لكن لا بد للمرء أن يكون متيقظًا ومتنبهًا بشكل دائم. وداعًا يا ألثر. إلى اللقاء».. وسرت الملكة مرة أخرى إلى مقعدها بجانب النار التي لا تنطفئ أبدًا، وعلم ألثر أنه لا بد أن يغادر؛ فحلق مخترقًا الجدار، يصاحبه إحساس غامض بالانزعاج، لكنه لم يدرك إلا فيما بعد سبب ذلك، وهو أن الملكة لم تجب عن أسئلته بأي إجابة مباشرة.

ذهب ألثر ليبحث عن مارشا، ويقول لها أن تكف عن صفق الأبواب؛ لأن چينا أخذت سبتيموس لزيارة العمة زيلدا. فوجدها تجادل السير هيروارد خارج غرفة چينا.

كانت مارشا تقول للشبح بغضب: «إذا لم تفسح لي الطريق أيها السير هيروارد فسأضطر لأن أخترقك كي أدخل الغرفة.. تأكد أنني سأفعل ذلك».

هز الفارس المسن رأسه بأسف، وقال: «أنا بالفعل آسف جدًا أيتها الساحرة العظمى، لكن الأميرة أمرتني بشكل واضح بألا أترك أحدًا يدخل غرفتها؛ ممّا يعني للأسف أن هذا يشملك أنت أيضًا. ما كنت لأتمنى ذلك، لكن...».

«كفاك تخريفًا يا سير هيروارد، إنني أحتاج إلى أن أتحدث إليها بشكل عاجل. والآن افسح لي الطريق!».

صاح السير هيروارد متألمًا بعد أن تلقى وكزةً من الطرف المدبب لحذاء مارشا المصنوع من جلد الأفعى الأرجوانية مخترقًا مشط قدمه المدرع: «آي».

قال ألثر بنبرة حادة: «مارشا، مارشا، لا داعي لكل ذلك. إن السير هيروارد يقوم بعمله على أكمل وجه. إن جينا ليست في غرفتها، لقد أخذت سبتيموس إلى العمة زيلدا».

توقفت مارشا فجأة، بينما لا تزال قدمها تطأ قدم السير هيروارد، وصاحت: «ماذا قلت؟». سحب الفارس قدمه بعيدًا، ثم أخرج سيفه، ورفعه عبر الباب، ثم نظر لمارشا نظرة ذابلة.

تراجعت مارشا بعيدًا عن الشبح، وقالت: «لكن... لكن بحق السماء، ما الذي جعلها تصحب سبتيموس لزيارة العمة زيلدا؟ ألثر، إن الموقف مرعب، فلابد ألا يبتعد سبتيموس عني اليوم، إنه مُعرض لخطر كبير. أما بالنسبة لجينا فأنت تعرف مثلي تمامًا أنها لا بد أن تبقى في القلعة. وقد يتعرضان لأي شيء وهما يقطعان كل هذا الطريق عبر المستنقعات. كيف يسمحان لأنفسهما بأن يتصرفا بهذا الشكل؟».

نظر ألثر إلى السير هيروارد غير واثق إذا ما كان ينبغي عليه أن يتحدث بما سيتحدث به أمامه أم لا، لكن الشبح، من باب الدبلوماسية، كان يُحدق للأسفل نحو قدميه. فالسير هيروارد يعلم تمامًا متى عليه أن ينزوي جانبًا.. ومع ذلك، أخذ ألثر مارشا من مرفقها وقادها بعيدًا عن الشبح، ولاحظ ألثر بأسى بينما كانا يسيران في الطرقة أن مارشا كانت ترتجف.

وما إن تأكد من أنهما في مأمن من أي أذن قد تسترق السمع حتى قال لها: «في الحقيقة، إنهما لم يذهبا عن طريق المستنقعات يا مارشا. هناك طريق آخر». وشعر ألثر بأن كلامه بدا أخرق. وعلى الرغم من أن طريق الملكة سر تحتفظ به الملكات وأنسالهن، فإنه حدث منذ سنوات عديدة مضت، عندما كان هو الساحر الأعظم، أن عثر بالمصادفة على الطريق في كوخ الحارسة عندما كان يبحث عن الحارسة السابقة للعمة زيلدا – بيتي كراكل؛ إذ كانت بيتي قد تركت حينها الطريق مفتوحًا. ولدهش ألثر، وجد نفسه في غرفة الملكة في صحبة الملكة ماتيلدا؛ جدة سيريز المرعبة. وسرعان ما أخذ بعد ذلك طريق العودة، لكن ليس قبل أن تنتزع الملكة ماتيلدا منه وعدًا صارمًا بألا يبوح أبدًا بسر هذا الطريق.

«لكن الذهاب عن طريق الميناء ليس أقل خطرًا يا ألثر».

«إنهما لم يذهبا أيضًا عن طريق الميناء؛ هناك طريق أسرع – وأكثر أمانًا – من هذه الطرق».

كانت مارشا تعرف معلمها القديم تمام المعرفة، وتدرك متى يخفي عنها شيئًا، فسألته: «أنت تعرف شيئًا، أليس كذلك؟ أنت تعرف شيئًا وتخفيه عني».

فأومأ لها ألثر برأسه وقال: «أنا آسف يا مارشا، لكني وعدت بألا أبوح. إنه سر من أسرار الملكات».

قالت مارشا: «لكن من الواضح أنه ليس سرًا مخفيًا على سبتيموس».

رد ألثر قائلًا: «صحيح، لكن سبتيموس يبدو مختلفًا».

ردت مارشا، مع ارتفاع نبرة صوتها إلى ما بدا لألثر على نحو أثار ريبته أنه نوع من الهلع: «هذه هي المشكلة يا ألثر، إنه بالفعل مختلف. إنه مختلف لدرجة أنه ترك لي رسالة منذ خمسمائة عام».

١٧
أشباح القصر



راقب *السير هيروارد* بسعادة غامرة مارشا وألثر وهما ينطلقان بعيدًا في الطرقة العريضة، وينعطفان يمينًا في نهاية الطرقة ثم يتواريان عن الأنظار.

ومن خلف باب غرفة چينا، رفع شبح آخر – لكنه أكثر إزعاجًا إلى حد بعيد – أذنه التي كان يتنصت بها، وقد ارتسمت على فمه الرفيع ابتسامة. إذن، لقد هربت الأميرة الشابة إلى مستنقعات مرام مع التلميذ. وعلى ما يبدو، لم تنفذ ما وعدت به. لسوف تدفع ثمن ذلك غاليًا، كما أن التلميذ عليه أن يعرف أنه لن يفلت منها هو أيضًا.

وبسرعة، عبر شبح الملكة إيثلدريدا الغرفة متوجهًا إلى صندوق صغير غير متقن الصنع، تحتفظ فيه چينا بكل كنوزها. تفحص الشبح الصندوق من الخارج بإمعان، **وعمل على** فتح غطائه بدون صوت. وبعد أن عبثت إيثلدريدا بأصبع عظمي طويل وسط ممتلكات چينا، عثرت على ما كانت تبحث عنه، وفعلت شيئًا لا يستطيع أي شبح أن يفعله - لقد أخذت ذلك الشيء، وهو عبارة عن كرة فضية صغيرة مكتوب عليها حرفا (أ. ط) - ودسته في جيبها. وبابتسامة ذات مغزى عميق، اخترق شبح الملكة إيثلدريدا جدار الغرفة **مجتازًا** السير هيروارد الذي كثيرًا ما يستغله الآخرون.

كان شبح الملكة سيريز يوحي تمامًا لمن يراه بأنه يغفو في مقعده بجانب المدفأة؛ ولذلك عندما تسللت الملكة إيثلدريدا متوجهة إلى دولاب الجرعات، اندهشت تمامًا عندما وجدت الطريق أمامها مسدودًا من قِبل إحدى سليلاتها الحاسمات.

قالت سيريز ببرود لإيثلدريدا: «غير مسموح لك بالمرور».

«لا تكوني حمقاء أيتها الفتاة. فإن من حقي تمامًا أن أسير في طريق الملكة، وهو ما سأفعله الآن. ابتعدي عن طريقي».

«لا، لن أبتعد».

«بل سوف تبتعدين!» وتقدمت إيثلدريدا الغاضبة باندفاع للأمام. فشهقت سيريز - لا لمجرد الذهول من أنها اختُرقت، بل من الإحساس غير المتوقع الذي خالجها بأن هيئة إيثلدريدا بدت هيئة حقيقية ملموسة -

ثم تغلبت على ذلك في اللحظة المناسبة، وتمكنت من أن **تتسبب** في إغلاق باب الجرعات غلقًا محكمًا.

قالت إيثلدريدا بنبرة حادة وهي **تتسبب** في إعادة فتح الباب: «هذه اللعبة يمكن أن يلعبها شخصان».

ردت سيريز وهي **تتسبب** في غلق الباب: «لكنَّ واحدًا منهما فقط هو من سيربح».

قالت إيثلدريدا وهي **تتسبب** في فتح الباب مرة أخرى: «بالفعل أيتها الفتاة، وأنا سعيدة أنك تزنين الأمور».

قالت سيريز بإصرار وهي **تتسبب** في غلق الباب من جديد: «أنا مصرة على حماية ابنتي، لن تمنعيني من ذلك»، وقبل أن تتمكن إيثلدريدا من الثأر، بدأت سيريز تدور في حركة محورية بسرعة أخذت تتزايد أكثر فأكثر مثل الريح الدوامة، فأثارت الهواء في البرج وأخذ يلف معها، إلى أن سحبت دوامة الهواء إيثلدريدا رغمًا عنها، وجعلتها تدور حول الغرفة المستديرة كأنها ورقة من أشجار الخريف تعبث بها الريح.

ثم صاحت سيريز قائلة: «ارحلي!» وعند هذا، وجدت الملكة إيثلدريدا نفسها تُدفع من الغرفة، ومن البرج، ثم عبر البساتين في اتجاه النهر، لتهبط أخيرًا على إحدى أكوام روث التنين الخاصة ببيلي بوت، والتي كان قد رتبها كلها بعناية. وبغضب، وقفت إيثلدريدا على قدميها وابتعدت عن كومة الروث، ثم حلقت بكل غرور وغطرسة نحو ضفة النهر؛ حيث كان المركب الملكي الشبحي ينتظرها هناك.

وبهامة مرفوعة، وبدون التفاف للخلف، عبرت الملكة إيثلدريدا المعبر الخشبي. وبينما كانت تتخذ مجلسها في مكانها على المنصة، بدأ المركب الشبحي يتحرك. وفي صمت، تحرك المركب بانسياب على سطح الماء مبتعدًا عن حدائق القصر، وتوجه إلى عرض النهر، ومن هناك بدأ ينجرف في اتجاه تيار الماء، **مخترقًا** حصارًا من مجموعة من المراكب التي - لسبب ما - بدت أن النيران شبت فيها. تأففت الملكة إيثلدريدا في سرها لغياب النظام والقوانين في القلعة، وواست نفسها بأن كل هذا لن يدوم طويلًا - فهي ستقوم بإصلاح كل ذلك.

وبابتسامة رضا وسعادة، جلست الملكة إيثلدريدا متكئة حتى تستمتع برحلتها. فكما قال شبح الملكة في سره - هناك أكثر من طريق للوصول إلى كوخ الحارسة.

كان ألثر، في اللحظات التي دُفعت فيها الملكة إيثلدريدا من البرج الجانبي، يقود مارشا نزولًا من السلم الخلفي الطويل الذي يؤدي إلى الممشى الطويل، ويقول لها: «ماذا كنت تقصدين يا مارشا بقولك إن سبتيموس كتب لك رسالة منذ نحو خمسمائة عام؟».

«هذا الصباح يا ألثر، فتحت الرف **المختوم محكم الغلق**».

«ماذا فعلت؟».

«لقد علمتني ذات مرة كيف أفعل ذلك، ألا تتذكر؟ فقد كان هناك شيء لا بد أن أراه».

«لا تقولي إنه كتاب *أنا مارسيلوس*؟» وكان ألثر خلال نصف الساعة الأخير يزداد شحوبًا، وبدا الآن بعد هذا الكلام كما لو كان طيفًا.

أومأت له مارشا برأسها.

«فتحت كتاب *أنا مارسيلوس*؟ لكنه **محكم الغلق** منذ الفترة التي سبقت فترة تجمد الأنفاق».

«أعلم ذلك، أعلم، لكنها مجازفة كان لا بد أن أقوم بها. لقد رأيت... لقد رأيت شيئًا في حسابات چيلي دچين بشأن امتحان سبتيموس في الممارسة العملية للتنبؤ».

قال ألثر: «هيه! هذه السيدة لا تكف عن حساب أي شيء. لقد باغتُها أمس وهي تحسب النسبة المئوية لعدد المرات التي ارتدت فيها حذاءها الجديد. كانت تريد أن تعرف بالضبط كم سيعمر معها».

«إن هذا لا يدهشني يا ألثر. وهي تدفعني أنا شخصيًا إلى الجنون. كان من المفترض أن أكون اليوم في دار المخطوطات لأستمع إلى نظرياتها المملة المرهقة. يا له من عبث!».

قال ألثر: «مارشا، ماذا وجدت بالتحديد في كتاب *أنا مارسيلوس*؟».

ردت مارشا قائلة: «لقد وجدت...»، ثم توقفت مع اختناق صوتها وهي تقول: «يا للهول! كان ذلك بشعًا!».

فسألها ألثر برفق: «ماذا وجدتِ؟».

«وجدتُ رسالة من سبتيموس. والرسالة كانت موجهة إليّ».

«مارشا، هل أنت متأكدة؟».

«نعم، أنت تعلم كيف يوقِّع سبتيموس دائمًا باسمه بتلك النهاية المعقدة – أعتقد أن المقصود منها رقم سبعة؟».

قال ألثر: «نعم، إنه أمر مفتعل جدًّا، لكن الشباب هذه الأيام يوقعون بأغرب التوقيعات. آمل بالفعل أن يستقر على صيغة توقيع عملية أكثر من ذلك عندما يكبر».

«فليوقع بأغرب التوقيعات التي يريدها يا ألثر. فليوقع اسمه بمربى الفراولة وهو واقف على رأسه – أنا لا يهمني ذلك. لكنني أخشى أننا لن نستطيع أن نراه وهو يكبر.. ليس في زمننا على أية حال».

التزم ألثر الصمت؛ لقد كان في حالة من الذهول، فهو يعلم أن مارشا ليست ممن يبالغون في الأمور. وصمتت مارشا كذلك؛ فقد أدركت توًّا أن ما تفوهت به قد يكون بالفعل صحيحًا.

ثم سألها ألثر بهدوء: «ماذا كان مضمون الرسالة؟» وكان ألثر ومارشا قد وصلا إلى نهاية السلم وتوقفا وسط ظلام المدخل الذي كان ستاره منسدلًا، ثم اخترق مَنْوَر السلم فوقهما للحظات صوت عاصف لمطر بارد، وارتجفت مارشا بينما كانت تُخرج من عباءتها قصاصة ورق قديمة هشة جدًّا. وبحرص شديد، حيث إن الورقة بدت وكأنها ستتحول إلى كومة من التراب، بسطت مارشا القصاصة، ونظرت إليها بعينين شبه مغمضتين وسط الضوء الخافت، ثم قرأت بصوت مسموع ما كتبه سبتيموس منذ كل تلك السنوات الماضية.

عزيزتي مارشا..

*أعلم أنك ستجدين هذه الرسالة يومًا ما لأنني عندما لم أعد، علمتُ أنك تبحثين في كل مكان في المكتبة وبين كل الأمور المتعلقة بالكيمياء الموجودة فيها. أنا لم أرَ من قبل كتاب مارسيلوس في المكتبة، لكنني أراهن أنك تعلمين مكانه. لعله يكون على ذلك الرف **المغلق عليه غلقًا محكمًا**. أتمنى أن تعثري عليه بسرعة بعد اختفائي حتى تخففي من وطأة قلقك عليَّ وحتى يمكنك أن تخبري الجميع بمكاني. سأضع الرسالة في قسم تقويم التنبؤ بالأحداث المستقبلية من كتاب مارسيلوس.*

إنه يكتبه لزماننا الحالي – أقصد لزمانكم، فزمانكم لم يعد هو زمني بعد الآن. وسوف أضع الرسالة في اليوم الذي رحلت فيه حتى يمكنك العثور عليها. أتمنى ألا تلتهمها الخنافس آكلة الورق.

أريد أن أشكرك حيث إني بالفعل أحببت عملي كتلميذ لكِ وكنت أتمنى لو دام ذلك، لكنني الآن تلميذ مارسيلوس باي. لا تقلقي لأن الأمر ليس بهذا السوء، لكنني أفتقدكم جميعًا وإذا تصادف وتمكنتِ من أن تأتي لتأخذيني (وإن كنت لا أعلم كيف يمكن أن تفعلي ذلك) فسوف أكون في غاية السعادة.

لا بد أن أذهب الآن، فمارسيلوس قادم.

لقد حضرت إلى هنا عن طريق لوح زجاجي عاكس.

وسوف تحكي لكم جينا عن ذلك.

مع حبي

سبتيموس xxx

تنهد ألثر قائلًا: «يا للهول!».

18

وجار التنين



كانت جينا و*الفتى الذئبي* خارج وجار *لافظ اللهب*، وعلى الرغم من أن الوجار بُني منذ شهرين فقط، فقد بدا بابه متهالكًا، وظهرت على سطحه بعض الشقوق الخطيرة التي تم إصلاحها بروابط معدنية.

قالت جينا للفتى الذئبي: «أمسك أنت بطرف القضيب وسأمسك أنا بالطرف الآخر. إن هذه القضبان ثقيلة جدًا. وكان سِب... كان سِب دائمًا ما يستعين بأحد لرفعها، وغالبًا ما كان ذلك الشخص هو أنا».

كان الباب مدججًا بثلاثة قضبان حديدية، وكان القضيب الأعلى هو الذي توشك چينا والفتى الذئبي أن يرفعاه الآن.

لم يكن يروق سبتيموس حبس لافظ اللهب في المساء، لكنه كان مجبرًا للخضوع في نهاية الأمر بعد أن رفض وفد من السحرة ترك جناح مارشا إلى أن يتم اتخاذ إجراء حاسم في هذا الشأن. فلافظ اللهب حتى ذلك الوقت كان يُسمح له بالبقاء طليقًا في فناء برج السحرة، إلا أن فكرة الجمع بين تنين شاب يتسم بالجموح مع أكوام من روثه ترتفع فيها الكومة الواحدة إلى قدمين* - أدت للكثير من الأزمات. وسرعان ما أصبح من النادر ألا يجد أحد السحرة نفسه في وقت متأخر من الليل لا يخترق إحدى هذه الأكوام ويفقد فردة حذائه فيها، أو لا يتعرض لما هو أسوأ من ذلك؛ إذ قد يسقط برأسه في الكومة ويضطر لأن يأتي من يسحبه منها، كما أن لافظ اللهب نما لديه حب خاص لمذاق العباءات الصوفية الزرقاء التي يرتديها السحرة العاديون، وكان أكثر ما يستمتع به التنين هو الخوض في مطاردة خاطفة في أنحاء الفناء، يلاحق فيها عباءة تبدو لذيذة المذاق تفتح شهيته.

كان وجار التنين يترجرج مع صوت غطيطه، فلافظ اللهب الذي صار الآن تنينًا شابًا في سن تعادل سن المراهقة لدى الإنسان، بدأ في الآونة الأخيرة يواصل النوم حتى وقت متأخر من الصباح، لكنه استيقظ عندما كان الفتى الذئبي وچينا يرفعان القضيب ويضعانه بحرص على الأرض، ضرب ذيل التنين في عوارض السقف مصطدمًا به بعنف، وتردد في الأجواء صوت انشطار مدوٍّ لخشب يتشقق. قفز الفتى الذئبي للوراء

فزِعًا، لكن چينا التي سبق لها أن سمعت من وجار التنين ما هو أسوأ من ذلك، وقفت ثابتة على الأرض.

قال الفتى الذئبي وقد بدا عليه شيء من الخجل: «آسف يا چينا. لم أكن أتوقع ذلك.. دعيني أرفع لك القضيبين الآخرين». ولدهش چينا، رفع الفتى الذئبي بمفرده القضيب الأوسط الملتوي التواءً شديدًا بالإضافة إلى القضيب السفلي، وألقاهما على الأرض مصدرين قعقعة، وجاوبهما من داخل الوجار صوت اصطدام نتيجة ضربة قام بها ذيل لافظ اللهب بحماس، في انتظار الخروج.

لم يعد أمام چينا الآن لإخراج التنين من الوجار إلا أن تفتح قُفل الباب، فذهبت وأحضرت المفتاح الضخم المعلق على الخطاف وأدخلته في الثقب النحاسي الكبير، ثم قالت للفتى الذئبي: «إن الباب يفتح للخارج فاحترس حتى لا يسحقك مع خروج لافظ اللهب، وأبعد قدميك أيضًا عن الطريق؛ لأنه يحب أن يطأ على أصابع الأقدام. كان سِب دائمًا ما يقول.. أقصد سِب دائمًا يقول إنه يفعل ذلك بدون قصد، لكني أظن أن لافظ اللهب يتعمد ذلك. إنه يظن أنها لعبة؛ فهو يحب الطريقة التي يقفز بها الشخص على قدم واحدة وهو يصيح ويمسك قدمه المصابة».

ثم أدارت چينا المفتاح، فانفتح الباب بعنف واندفع لافظ اللهب إلى الخارج بعنق ممدود للأمام كي يلتقط نسيم هواء الصباح البارد، في صحبة قعقعة مخالبه مع نزوله المنحدر. وعند أسفله، توقف التنين الشاب ونظر حوله كمن هو في حيرة من أمره، ثم أمال رأسه جانبًا، وبلمحة من الحزن، جلس مستقرًا بهدوء على غير عادته.

موضوع **القائم مقام**، لكنه فكر في أن يجرب مهاراته التي تعلمها عندما كان يعيش مع حيوانات الولڤرين في الغابة.

ومن ثم، جلس على بعد نحو عشرة أقدام من لافظ اللهب.. وبتعمد تام، ثبت نظراته على التنين، يريده أن يظل هادئًا وساكنًا. لمح لافظ اللهب نظرات الفتى الذئبي، وعلى الفور حوَّل بصره لاتجاه آخر، لكن هذه النظرة كانت كافية؛ إذ علم التنين أنه **مراقَب**، فأخذ يتحرك بانزعاج، لكن بدون أن يتزحزح من مكانه. وهكذا، جلس لافظ اللهب على غير المعتاد ساكنًا تحت رذاذ المطر، آملًا أن يظهر **صاحب البصمة** سريعًا، ويضع حدًا لهذا المزعج ذي القدمين الذي لا يكف عن التحديق به.

وأخيرًا، تأكدت چينا أنها حفظت كلمات **عملية القائم مقام**، فأخذت حذاء سبتيموس الطويل ووضعته عند أرجل لافظ اللهب. بدأ لافظ اللهب - الذي كان لا يزال ساكنًا - يتشمم الحذاء الطويل، ثم رجع برأسه للخلف، وزفر زفيرًا طويلًا ساخنًا جعل الفتى الذئبي يشعر بالغثيان، بما أنه غير معتاد رائحة أنفاس التنين التي يمكن وصفها بأنها مزيج من رائحة المطاط المحترق والجوارب القديمة المتعفنة، مع لمسة من الرائحة المنبعثة من أقفاص حيوانات هامستر في أمس الحاجة للتنظيف.

وقفت چينا على أطراف أصابعها، ووضعت يدها على أنف لافظ اللهب، ثم قالت له: «انظر إليَّ يا لافظ اللهب». فنظر إلى أرجله، ثم إلى السماء، ثم إلى مخالبه، وبعد أن أدار رأسه للخلف، وجد طرف ذيله فجأة مثيرًا جدًا للاهتمام. فقالت له چينا مرة أخرى بإصرار: «لافظ اللهب، انظر إليَّ إذا سمحتَ».

كان هناك شيءٌ في نبرة صوت چينا لفت انتباه التنين؛ فأمال رأسه إلى أحد الجوانب ونظر إليها.. واصلت چينا تثبيت يديها على أنفه المبلل اللزج. كانت يداها ترتعشان؛ إذ كانت هذه هي فرصتها الوحيدة للعثور على سبتيموس، والتي تتوقف تمامًا على لافظ اللهب الذي لا يُصنف من بين أكثر الكائنات التي يمكن الاعتماد عليها. نظر لافظ اللهب إلى چينا بحذر، وتساءل في سره: هل جلبت معها إفطاره؟

ظلت چينا مسيطرة على نظرات لافظ اللهب، ثم أخذت نفسًا عميقًا، وبدأت تقول له ببطء: «لافظ اللهب، انظر إليَّ وسوف أقول لك الأمور الخمسة التي لا بد أن تفهمها؛ أولًا: بنية صادقة، أقول لك إن **صاحب البصمة** مفقود» فأمال التنين رأسه إلى جانب، وتمنى ألا يكون إفطاره عصيدة مرة أخرى.

«الأمر الثاني: يا لافظ اللهب، بنية صادقة، أحضرت لك هذا الشيء الذي هو ملك **صاحب البصمة**». أغمض لافظ اللهب عينيه، وقرر في سره أنه لو تناول دجاجتين الآن فسيكون هذا ممتعًا جدًا.

قالت چينا بنبرة حادة: «افتح عينيك يا لافظ اللهب». ففتحهما.. لكن، لمَ كل هذه الجلبة؟

«الأمر الثالث: يا لافظ اللهب، بنية صادقة، أقول لك إني ملاحتك المستكشفة». قال لافظ اللهب في سره إنه لا يمانع في أن يشمل إفطاره الدجاج والعصيدة معًا، والأفضل أن يكون كل ذلك ممزوجًا بدلو واحدة كبيرة.

«الأمر الرابع: يا لافظ اللهب، بنية صادقة، أطلب منك أن تقبل أن أكون القائم مقام **صاحب البصمة**». تساءل لافظ اللهب في سره إذا ما كان من الممكن أن يشمل إفطاره ثلاث دجاجات وعصيدة، بما أن الإفطار قد تأخر.

«الأمر الخامس: يا لافظ اللهب، بنية صادقة، أتوسل إليك أن تعثر على **صاحب البصمة** الأصلي، عن طريق النار والماء والتراب والهواء، أينما كان»، وظلت چينا تثبت بصرها عليه لثلاث عشرة ثانية، وهي المدة المطلوبة، ثم حول التنين وجهه إلى مكان آخر. تساءل لافظ اللهب في سره إذا ما كان لا بد أن يعثر على سبتيموس قبل الإفطار أم بعده، وتمنى أن يكون ذلك بعد الإفطار، ثم رفع حذاء سبتيموس الطويل والتهمه.

صاحت چينا: «*لافظ اللهب.. أعد الحذاء!*» ثم أمسكت بقوة برباط الحذاء الطويل الذي بدأ يختفي بسرعة وسحبته. فجذب لافظ اللهب رأسه إلى الخلف، فهو يحب لعبة الشد والجذب، وهذه المباراة تبدو مشوقة، كما أنه دائمًا ما كان يرى أن حذاء سبتيموس سيكون لذيذ المذاق لو تناوله. تشبثت چينا بقوة في الرباط، ثم سمعت صوت طقطقة، لتجد نفسها بعد ذلك لا تمسك إلا بطرف رباط مبلل ومنسل. وابتلع هكذا لافظ اللهب طعامه، ثم تجشأ بسعادة ورضا وفجأة قفز في دهش.

ففي هذه اللحظة، بدأت أصوات قعقعة ودق وطرق، تملأ الأجواء خارج القوس العظيم يصاحبها بعض الصيحات والصرخات، تعلوها نبرة تهديد. انتفض الفتى الذئبي ووقف على قدميه؛ فهو لا يحب الأصوات

الفجائية؛ إذ إنها تذكره كثيرًا بنداءات الإيقاظ التي كانت تتم في منتصف الليل في جيش الشباب.

قالت چينا: «إنه صوت قتلة الجرذان، لا بد أنهم عثروا على جُرذ. يا له من مسكين! لا أمل له في النجاة الآن. أليس هناك ما ينشغل به الناس بما هو أفضل من الانطلاق في أنحاء القلعة طوال اليوم، والدق والطرق بأغطية صناديق القمامة، وقتل الجرذان؟!».

ارتفع صوت الضجيج أكثر الآن، وراح قتلة الجرذان يرددون نشيدهم قائلين: «الجرذان، الجرذان.. امسكوا الجرذان.. الجرذان، الجرذان.. اقتلوا الجرذان! حاصروها، حاصروها، اضربوها، اضربوها، اضربوها!» كان الصوت يتردد صداه في فناء برج السحرة، وعلى الفور فتح العديد من السحرة النوافذ ليتبينوا سبب هذه الجلبة، ثم انبثقت مجموعة من الدهماء من قتلة الجرذان من أسفل القوس العظيم في صحبة صياح مدوٍّ، منطلقين إلى فناء برج السحرة في أعقاب فريستهم التي كانت تشمل جُرذين بائسين منطلقين بأقصى سرعة، وكان أحدهما يسحب الآخر.

لم تعلم چينا السبب الذي جعل الجُرذين يتوجهان إلى وجار التنين، لكنهما انطلقا بسرعة عبر الفناء، متجاهلين الأمان النسبي الذي توفره لهما البئر وكذلك بالوعتان من السهل السقوط فيهما، ثم مرًّا مسرعين من بين أرجل لافظ اللهب، وانطلقا بسرعة فائقة يصعدان المنحدر الذي يتقدم وجار التنين، ثم اندفعا في أعماق القش الذي يغطي أرضية الوجار الذي تنبعث منه رائحة نفاذة.

وفي لحظة، كان قتلة الجرذان يحاصرون الوجار، وهم يدقون بأغطية صناديق القمامة وينشدون. تخر لافظ اللهب برعب فليس هناك تنين واحدٌ يحب أن يُحاصر، خاصة إن كان من يحاصرونه هم مجموعة من الرعاع الذين أخذوا يدقون ويصرخون، كما أن التنانين لديها آذانٌ موسيقية وتستمتع بأرقى أنواع الموسيقى، بدءًا من الكلاسيكية إلى أبسط الأغاني؛ حتى إن كثيرًا من الأديرة المنعزلة أدهشها أن تجد تنينًا يظهر في الأنحاء بانتظام من أجل الاستماع إلى تراتيل الميلاد الليلية. ولافظ اللهب ليس استثناء؛ لقد أوذيت أذناه المرهفتان الآن بصوت الدق والطرق، فضلًا عن أن إنشاد الرعاع لم يكن أيضًا متناغمًا. فالتفت التنين وهو يزأر في اتجاه قتلة الجرذان، ونفث في وجوههم بأنفاسه الملتهبة.

في مثل هذه الحالات، يستسلم معظم الناس، وقد فر بالفعل بعض المتطفلين الذين حضروا للتو من باب الضحك والمرح، لكن مجموعة قتلة الجرذان لم تغادر المكان. فلم يفلت من بين أيديهم جرذٌ واحدٌ من قبل، وهم لا ينوون أن يبدءوا إعلان فشلهم الآن.

تملك چينا الغضب، وصاحت قائلة: «كيف تجرءون على ذلك؟ كيف تجرءون على الدخول هنا تلاحقون جُرذين بائسين وترهبون تنينًا شابًا، كيف تجرءون على ذلك؟». وهنالك، خفتت حدة الضوضاء، مع التوقف المفاجئ لأصوات الدق والطرق بأغطية صناديق القمامة التي كان يقوم بها قتلة الجرذان الذين لم يلحظوا وجود الأميرة في غمرة حماسهم، وتلاشت أصوات الإنشاد واستبدل بها صمت يشوبه الخجل.

ثم تقدم قائد قتلة الجرذان، وهو شابٌ جادٌ يحمل شارةً مرسومًا عليها صورة جُرذ مخيف بأنياب صفراء تسيل منها الدماء، وقال: «نحن نقوم بواجبنا المدني أيتها الأميرة. إن الجرذان كائنات قذرة، وتنشر الأمراض».

وعند هذه الكلمات، ضحكت چينا، وقالت: «هذا كلام فارغ. إنها نظيفة مثلي ومثلك تمامًا. كما أن البشر هم من ينقلون الأمراض وليس الجرذان».

قال الشاب: «نحن نسعى لتغيير الأوضاع أيتها الأميرة. إن المرض الغامض الذي ينتشر في القلعة الآن كانت الجرذان هي التي جلبته. ولا بد أن نقضي عليها».

قالت چينا وهي تهز رأسها غير مصدقة نفسها: «هذا جنون! أنتم تلاحقون الجرذان؛ لأنكم تحبون قتل الحيوانات التي لا تستطيع أن تدافع عن نفسها.. هذا بشع!».

ثم جاء صوت ضئيل من آخر المجموعة يقول: «كان من الأجدر بك أن تكوني ممتنة لنا».

قالت چينا وقد لمحت نبرة التهديد في صوت المتحدث: «لماذا؟».

«لأن البعض يقولون إنك أنت التي جلبت المرض الغامض أيتها الأميرة».

ردت چينا في ذهول: «أنا؟».

«إنهم يقولون إن المرض الغامض جاء مع المركب التنينية، كما يقولون: ليت المركب المتحولة تُركت في قاع الخندق المائي حيث

كانت» صاحب هذا الكلام همهمة موافقة من النصف الخلفي من المجموعة، لكن لا أحد من القريبين من چينا تجرأ ونطق بكلمة.

خيم الصمت على چينا من فرط الذهول، وهو ما اعتبره قتلة الجرذان موافقةً على اجتياحهم وجار التنين فصعدوا محتشدين على المنحدر، وفي لمح البصر كانوا يفتشون وسط القش، بحثًا عن الجُرذين. وانهزمت چينا والفتى الذئبي أمام كل هذه الأعداد، ووقف كل منهما لا يملك من أمر نفسه شيئًا – لكن لافظ اللهب قرر غير ذلك. فمع مرور قتلة الجرذان متزاحمين أمامه، لف ذيله بغضب وأرسل صاحب الصوت الهزيل طائرًا ليحط على كومة من روث التنين خلف الوجار. وبصوت طقطقة مدوية مع تمدد جلد التنين الصلب – والذي صاحبه انبعاث رائحة عرق مكتومة – بسط لافظ اللهب جناحيه ورفعهما عاليًا في الهواء، مظللًا على الوجار. توقف قتلة الجرذان عن مطاردة الجُرذين، وأخذوا يراقبون في دهش لافظ اللهب وهو يحني رأسه نحو چينا، وكأنه يدعوها للجلوس مكان سبتيموس – مباشرة خلف عنقه بين كتفيه.

ومع خشيتها من أن يغير لافظ اللهب رأيه في أي لحظة، تسلقت چينا صاعدة إلى مكان سبتيموس ورفعت الفتى الذئبي خلفها في مكان الملاح المستكشف الذي تجلس هي فيه عادة. وبعد أن ذكّرت چينا نفسها بتعليمات ألثر لسبتيموس أثناء **رحلة طيران سبتيموس الأولى**، ركلت لافظ اللهب ركلتين على جانبه الأيمن، ونجحت الركلات؛ إذ بدأ يضرب بجناحيه ببطء، مرة ومرتين، وفي الضربة الثالثة شعرت چينا بأن عضلاته تشد وتبرز بينما كان يرتفع لعدة بوصات فوق سطح الأرض، مع

احتفاظه بثبات جسمه وتحكمه في نفسه وسط الفراغ المحدود لفناء برج السحرة. وبينما كان لافظ اللهب يحوم للحظات قصيرة ويستعد لانطلاقة سريعة، صدرت صيحة من أحد قتلة الجرذان وهو يقول: «ها هما الجُرذان، اقبضوا عليهما!».

وهكذا، ارتفع لافظ اللهب عن سطح الأرض، حاملًا معه عددًا من الركاب، يزيد على العدد الذي كان يتوقعه؛ إذ كان هناك جرذان مذعوران يتعلقان في شوكة طرف ذيله.

19
قتلة الجرذان



اصطكت *أسنان الجُرذين* *من فرط خوفهما مع ارتفاع لافظ اللهب فوق فناء برج السحرة*، وسط صرخات الاستياء والاستنكار التي أطلقها قتلة الجرذان في الأسفل. لم تلتفت چينا كثيرًا لهذه الأصوات من شدة تركيزها في تذكر كل ما تعرفه عن

طريقة الطيران بالتنين، ولكن كان هناك صوت واحد يعلو هذا الصخب، يقول: «إنها متآمرة معهما. ألم أقل لكم؟ إنها هي وتلك المركب التنينية التي جلبتها هما السبب. هيا أيها الفتيان»، وعلى الرغم من أن الصوت كان لامرأة نحيلة طويلة القامة، فقد كان معظم قتلة الجرذان أساسًا من الرجال والفتية، ثم استرسل صوت المرأة قائلًا: «هيا بنا، فلنذهب ونُغرق المركب وننتهِ من هذا الأمر»، وجاء الرد بالموافقة في صورة صياح انطلق من بقية القتلة.

ارتفع لافظ اللهب أكثر الآن، ورأت چينا والفتى الذئبي الرعاع وهم ينبثقون من أسفل القوس العظيم ويسيرون على امتداد الحارة الضيقة التي تؤدي إلى ساحة المراكب. ومن أسفل التنين، كان الجرذان يترنحان بشكل خطير.

كان الجُرذ الأقصر والأكثر امتلاءً يتشبث بكعبي الجُرذ الأضخم الذي يتعلق بذيل التنين، والذي شهق قائلًا: «داوني.. إن مخالبك تقتلني.. هل لا بد أن تتشبثي بي بكل هذه القوة؟».

«أوتظن أني أفعل ذلك من باب التسلية يا ستانلي؟ هل لديك اقتراح آخر أستطيع أن أفعله؟ هل تريد أن أرفع يدي عنك وألقى حتفي على يد هؤلاء الشياطين في الأسفل؟ أهذا ما تريده؟».

«أي.. بالطبع لا يا عزيزتي، لا تكوني حمقاء. كنت أتساءل فقط لو كان من الممكن أن تخففي من إحكام قبضتك عليّ. لقد فقدت الإحساس بأرجلي».

انقض لافظ اللهب للأسفل مع هبوطه إلى منسوب منخفض فوق مجموعة الرعاع، فصوب أحدهم غطاء من أغطية صناديق القمامة مباشرة نحو التنين فانطلق الغطاء في حركة انسيابية سريعة في اتجاه الجُرذين وهو يدور في الهواء كأنه منشار دوار يطير في الجو. أغمض ستانلي عينيه. لقد قُضي الأمر، هكذا قال في سره. يا لها من طريقة يلقى بها جُرذ حتفه، برحيله عن الدنيا هكذا عن طريق غطاء صندوق قمامة طائر!

لكن لافظ اللهب رأى القذيفة منطلقة نحوهم، وأثمرت تمارين الإفلات التي كان سبتيموس يمرنه عليها طوال الأسابيع القليلة الماضية - والتي كان يكرهها - وكانت تشمل تفادي تصويبات بيتل نحوه بكل ما يمكن التصويب به. وهكذا، وكأي محترف متمرّس، تجنب لافظ اللهب الغطاء، وبحسبة موفقة ضرب الغطاء بذيله ضربة قوية.

صاحت داوني: «يا للهول! ستانلي، إننا سنموووت..»، وشعر الفتى الذئبي الذي كان يحس بالغثيان الشديد - بالتعاطف مع داوني.

قادت چينا لافظ اللهب بأقصى سرعة إلى ساحة المراكب، وتجاوزوا قتلة الجرذان.. وهنا، أدركت چينا أن أمامهم نحو خمس دقائق حتى تصل مجموعة الرعاع إلى ساحة المراكب؛ أي خمس دقائق فقط لكي تهبط بلافظ اللهب، وتصل إلى بيت التنين، وتقوم بشكل أو بآخر بتأمين المركب.

لم يُسعد چانيت مارتن - بأي حال من الأحوال - أن ترى لافظ اللهب متجهًا نحو ساحة مراكبها، ولقد انتهى الأمر آخر مرة ظهر فيها التنين في ساحتها إلى كارثة فعلية، وكانت الكارثة كالمعتاد بسبب أسرة

هيب. وها هو ذا التنين الآن يعود من جديد، ومما لا شك فيه أنه سوف يكون على متنه أحد أفراد قبيلة هيب. حاولت چانيت، مع تحليق لافظ اللهب على مستوى منخفض الآن متوجهًا نحو ساحة المراكب - أن توجهه نحو بقعة خالية، شغلها في الآونة الأخيرة المركب التابع للميناء، والذي أطلقته چانيت وروبرت جرينج في المياه مؤخرًا. لكن لافظ اللهب تجاهل چانيت؛ فهو لا يروقه أن يلوح له الناس بالأذرع صائحين فيه وهم يقولون له: «من هنا، من هنا.. يا للهول! الشفرات والمثاقب، ما هذا الذي يفعله هذا الكائن الغبي؟».

وحلق التنين فوق رأس چانيت مباشرة، متجنبًا بالكاد الاصطدام بها، وهبط على غرفة قيادة سفينة صيد قديمة كانت في حالة حرجة. وإن كانت غرفة القيادة هذه تتحمل بالكاد أن يهبط عليها طائر من طيور النورس شذ عن سربه، فهي بلا جدال لن تستطيع أن تصمد أمام تنين يبلغ وزنه تحديدًا وزن 764 طائرًا من هذه الطيور. وبصوت انشقاق مدوٍّ، دُمِّرت غرفة القيادة، ووجد لافظ اللهب نفسه هو وركابه قد هبطوا على بركة من المياه الراكدة داخل جسم سفينة الصيد.

صاحت چينا وهي تركل لافظ اللهب ركلة قوية في جانبه الأيمن: «ارتفع يا لافظ اللهب، ارتفع!» مع كثير من الصرير القادم من طرف ذيله، رفرف لافظ اللهب بصعوبة بجناحيه، وتسلق بمخالبه وخرج من جسم السفينة على نحو مخجل، ليهبط بعد ذلك بجانبها.

قالت چانيت معترضة بعد أن وصلت لاهثةً بجانب الحطام: «انظروا ماذا فعلتم! كنا سنتمكن من إصلاحها، وروبرت كان على وشك البدء في العمل فيها غدًا. انظروا إلى حالتها الآن!».

قالت چينا وهي تنزل منزلقة من على عنق لافظ اللهب: «أنا آسفة يا چانيت. أنا بالفعل آسفة. لكن قتلة الجرذان في طريقهم إلى هنا لتدمير المركب التنينية».

«بحق السماء، ما السبب؟ إنها ليست جُرذًا».

ردت چينا باقتضاب: «أعلم ذلك»، وبعد أن تركت الفتى الذئبي يتولى أمر لافظ اللهب، انطلقت هي جريًا نحو بيت التنين.

فانطلقت چانيت في أعقابها، وهي تنادي عليها: «چينا.. چينا!» لكن چينا لم تتوقف. وبدا على چانيت الانزعاج؛ إذ لم يرقها ما يلوح في الأفق. ورغم أن چانيت لم تنبهر بمعنى الكلمة عندما ظهرت المركب التنينية التي نصفها مركب ونصفها الآخر تنين أنثى في أنصاف الليل منذ عدة شهور- فإنها باتت تعتبر نفسها مسئولة عن المركب التنينية الآن بعد أن انضمت إلى ساحة مراكبها، ولا أحد يمكن أن يعبث بمراكبها، خاصة إن كانوا مجموعة من الرعاع يطلقون على أنفسهم قتلة الجرذان؛ فچانيت تحب الجرذان.

قالت چانيت لروبرت جرينج الذي كان منشغلًا في قطع بعض الأخشاب، تريده أن يتربص بقتلة الجرذان: «روبرت، خذ معك أكبر عدد ممكن تستطيع أن تحشده من عمال الساحة وأغلقوا أبواب النفق. سدوه بالقضبان. بسرعة!» ترك روبرت جرينج الأخشاب التي كان يقطعها،

وذهب على الفور ينفذ طلب چانيت؛ فهو يعلم تمامًا متى تكون چانيت جادة.

كانت المركب التنينية قابعة عند نهاية الممر المائي الذي كان حتى وقت قريب مجرد مجرى مائي نهايته مسدودة، يمتد بمحاذاة أحد جوانب ساحة المراكب، والذي كان ينتهي في السابق بالواجهة الصخرية الصماء شديدة الانحدار لسور القلعة. وقد ظلت چانيت منذ أن أسست ساحة المراكب تتساءل في سرها عن أهمية هذا الممر، ولم تكتشف ذلك إلا منذ ثلاثة أشهر فقط؛ فقد استيقظت ذات ليلة في منتصف الليل لتكتشف وجود كهف ضخم يتوغل في سور القلعة نفسه بعد أن انفتح مدخله عند النهاية المسدودة للممر المائي. والأغرب من ذلك، أنه لم يكن مجرد كهف قديم، بل اتضح أنه بهو هائل الارتفاع مكسو بأحجار اللازوردي، تعلوه كتابات هيروغليفية ذهبية. وعلى الرغم من أن چانيت لم تستسغ ثراء المكان كثيرًا، ورأت أن المكان برمته يبدو مُقبضًا بعض الشيء، كان من المستحيل عليها ألا تنبهر به. وهي لا تظن أن هناك ساحة مراكب على وجه الأرض تضم على سطحها مثل هذا المكان - أو مثل هذه المركب - وهو ما يجعلها تشعر بالفخر.

ومما كان يُحبط چانيت أنه على الرغم من قيامها هي وروبرت ونكو بإصلاح المركب التنينية على أكمل وجه - بحيث لا يمكن بأي حال ملاحظة أنه قد سبق لها أن ضُربت **بصاعقتين رعديتين** وتمزقت في أعماق القناة - فلا يزال الكائن الحي نفسه فاقد الوعي. وهو يقبع الآن في بيت التنين، رأسه مطروح على الرخام البارد الذي يكسو الممشى

الجانبي للبيت، وعيناه الخضراوان الكبيرتان مغمضتان، ويتنفس ببطء وهدوء. أما ذيله فقد وضعته جانيت ونكو بحرص على إفريز رخامي ممتد عند آخر بيت التنين، والذيل ملفوف بدقة ونظام كأنه حبل أخضر ضخم، ولم يتحرك منذ أن تم لفه.

هزت ساحة المراكب قعقعة مدوية عندما كان روبرت يرفع القضيب ويثبته في مكانه بعرض باب النفق. وبعد لحظات، انطلقت أصوات أخرى أكثر دويًا لقعقعة ودق وطرق. فقتلة الجرذان رأوا في اللحظة التي وصلوا فيها الأبواب تُغلق أمامهم.

قالت جانيت وهي تلحق بچينا: «أنا لن أترك مجموعة الرعاع المنفلتة هذه يدخلون هنا ويحطمون مراكبي». ثم شقت جانيت وچينا طريقهما وهما تنحشران مرورًا من حول كومة ضخمة من الأخشاب ترتفع عاليًا وتستند إلى سور القلعة، ثم انطلقتا جريًا على امتداد ممر ضيق بين مركبين لهما صَوارٍ مرتفعة وفي حاجة لتجهيزات جديدة، وسرعان ما كانتا قد وصلتا إلى مدخل بيت التنين. ومع الصياح الغاضب وأصوات الطرق والقرع على أبواب ساحة المراكب، والتي كان يتردد صداها عبر الساحة، دخلت چينا وجانيت إلى سكون ظلال بيت التنين.

كانت المركب التنينية مطروحة في سكون، وكان رأسها الضخم ممددًا على السجادة الفارسية الوحيدة التي تمتلكها جانيت، والتي تحمل بعض علامات الحروق المتفحمة، وتفترش الممشى الرخامي الممتد على جانب بيت التنين. جثت چينا على ركبتيها ووضعت يدها على رأس أنثى التنين، لكنها لم تتحرك كالمعتاد. كان قشرها الأملس

باردًا، ولم تتحرك عيناها الزمرديتان أسفل جفنيها السميكين بلونهما الأخضر الداكن عندما ربتت چينا عليها.

وقفت جانيت في الخلف تراقب چينا.. فرغم ما تتعرضان له الآن، لم تود جانيت أن تقطع ما يدور بين چينا والمركب التنينية. لقد اعتادت جانيت مثل هذه الأوقات التي تنفرد فيها چينا بالتنين، لكنها عمومًا كانت تبتعد عن طريقهما؛ لشعورها بأن اقترابها أكثر من اللازم في هذه اللحظات سيعتبر تطفلًا منها. وكانت جانيت تلاحظ في السابق أن ساحة المراكب كثيرًا ما يخيم عليها الصمت عندما تضع چينا يدها على التنين، إلا أن هذا لم يحدث اليوم. وامتلأت الأجواء بأصوات الطرق المنتظم مع دك قتلة الجرذان باب ساحة المراكب، وتساءلت جانيت في سرها ما هذا الذي تفعله چينا وهي تهدر الوقت هكذا في التربيت على رأس التنين في الوقت الذي كان ينبغي عليهما فيه أن تُعدا أي شكل من أشكال المتاريس أمام بيت التنين. لكنها لم تنطق بكلمة؛ إذ إنها خلال الشهور الماضية تولَّد لديها إحساس بالهيبة والاحترام تجاه چينا لإصرارها على إيقاظ التنين.

وفجأة، هبت چينا واقفةً، وعيناها تبرقان من فرط الحماس، وهي تقول: «أعتقد أني سمعتها».

سألتها جانيت التي كان انتباهها منصرفًا إلى بعض ألفاظ السباب المبتكر الذي كان روبرت جرينج يسب به قتلة الجرذان: «ماذا قلتِ؟».

«التنين».. كان صوتها ضعيفًا جدًا، لكنني سمعتها بكل تأكيد. لا بد أن نحكم غلق بيت التنين».

قالت چانيت بنبرة حادة، وقد انتابها القلق الآن بعد أن أدركت أن مجموعة الرعاع لن ترحل، ولن تكتفي على الأرجح بتحطيم المركب التنينية فحسب: «وكيف إذن سيتسنى لنا أن نفعل ذلك؟».

ردت چينا قائلة: «بنفس الطريقة التي انفتح بها البيت.. **بالنار**.. **نار التنين**»، ثم بُهت وجهها بعد أن تذكرت، وقالت: «لكن لافظ اللهب لا يستطيع أن يلفظ **نارًا**».

قالت چانيت، والتي كانت قد سمعت قصة فقس التنين بأكملها من نكو: «بل يستطيع. لقد فعل ذلك يوم فقسه».

«إنها لم تكن سوى نار بسيطة، وكل التنانين تفعل ذلك عند الفقس».

بدأ صوت تشقق الأخشاب يتردد صداه في ساحة المراكب.

فقالت چانيت بأسلوبها الواقعي: «لقد أوشكوا أن يدخلوا. ليس أمامنا وقت. سوف أستأذن منك الآن، سأذهب لأحضر فأسي. فإن كانوا يبحثون عن المتاعب، فسوف أريهم ما هي المتاعب».

وعلمت چينا أنه ليس أمامها خيار آخر؛ فلا بد أن تجعل لافظ اللهب **يضرم نارًا**.. ومن ثم، أخرجت علبة الطوفي من جيب ردائها، ثم فتحتها وأخرجت منها قطعة جلد التنين الحمراء. وما إن بسطت چينا قطعة الجلد، حتى تملكها الاندهاش والانزعاج؛ إذ لم تجد غير الكلمة التالية: **أضرم**.. فكيف يمكن أن يكون ذلك كافيًا؟

لكنها علمت أنها لا بد أن تحاول. فهرعت عائدة إلى لافظ اللهب.

وقالت للفتى الذئبي، وهي تلهث وتتسلق ظهر التنين: «معذرة يا 409». فبدأ الفتى الذئبي هو أيضًا يتسلق صعودًا فوق ظهره لكن چينا

قالت له لحسن حظه: «لا بد أن أفعل ذلك بمفردي. لا بد أن أجعل لافظ اللهب يلفظ **نارًا**».

التقطت أذنا لافظ اللهب كلمة **نار**! الآن! لكن ماذا عن الإفطار؟

ثم جاء صوت صياح من خلف باب ساحة المراكب، وسُمع صوت روبرت جرينج وهو يصيح قائلًا: «إذا كنتم تبحثون عن جرذان يا ماتي فستجدونها هنا، لكنها سوف تكون جرذانًا ضخمة تحمل فئوسًا. هيا، أروني ماذا أنتم فاعلون؟!» وعلى الفور، قامت مجموعة قتلة الجرذان، وكأنهم يردون على دعوة روبرت جرينج الكريمة، بتوجيه دفعة قوية إلى الباب. تلا ذلك صوت مدوٍّ لأخشاب تتشقق، واندفع الرعاع داخل الساحة. اندلع على إثر ذلك ضجيج هائل مع تشوب معركة عند البوابة. وخاض روبرت وچانيت والمساعدون في الساحة معركة حامية الوطيس وبدا أن النصر حليفهم، لكنَّ عددًا قليلًا من قتلة الجرذان تمكنوا من المراوغة وتجنب سيل الضربات التي كانت توجه إليهم.

وبقيادة المرأة النحيلة طويلة القامة، تمكن هذا العدد القليل من الإفلات من غمار المعركة، وتوجهوا وهم يلوحون مهددين بمجموعة مختارة من الأسلحة المؤقتة، نحو بيت التنين صائحين: «اقبضوا على التنين، اقتلوا التنين، اقتلوها، اقتلوها، اقتلوها!».

20

نـــار وبـحـث



كانت چينا ولافظ اللهب محمولين جوًّا الآن.

ومع توجه فرقة قتلة الجرذان – التي أفلتت – لعبور ساحة المراكب أسفلهما، وجهت چينا لافظ اللهب نحو اللوح الذهبي الصغير المثبت فوق القنطرة التي تعلو مدخل بيت التنين. حلق لافظ اللهب بمهارة رائعة، وكان جناحاه يضربان في الهواء ببطء وبتحكم شديد، وتجاوب التنين تمامًا مع كل أوامر چينا. وسرعان ما كان قد ارتفع إلى مستوى اللوح الذهبي وأخذ يحوم أمامه بفطنة وثبات، وكأنه يفهم بالتحديد ما الذي تريده منه چينا. بدا القرص الذهبي باهتًا أمامه وسط برودة ورطوبة الجو، لكن قتلة الجرذان كانوا منطلقين الآن جريًا في

الأسفل في صف واحد بين السفينتين ذواتي الصواري المرتفعة عاليًا، ولقد أوشكوا أن يصلوا إلى بيت التنين.

صاحت چينا بأعلى صوتها قائلة للتنين: «**أضرم.. أضرم.. أضرم!**».

لكن شيئًا لم يحدث.. ومع خشية چينا أن يكون المطلوب منها أكثر من كلمة **أضرم**، تملكها الذعر وهي ترى المرأة النحيلة طويلة القامة تنبثق من بين السفينتين المرتفعتين عاليًا، وتلوح مهددة بلوح خشبي ضخم تبرز منه أسنان مسامير، وكانت متوجهة نحو رأس المركب التنينية النائم.

«أرجوك يا لافظ اللهب، أرجوك **أضرم!**».

وهنالك، شعرت چينا برجفة تسري في جسد لافظ اللهب. ومن أعماق التنين ظهرت بوادر زئير جوفي. بدأ الزئير من أعماق معدته النارية، وأخذ يستجمع قواه، ثم انطلق مندفعًا بقوة عبر صمام النار متوجهًا إلى قصبة التنين الهوائية السميكة الضخمة. شعرت چينا بموجات صوت الزئير تتدفق عبر عنقه لأعلى، ثم سعل لافظ اللهب الذي بدا كأنه بوغت، وبشكل تلقائي توهج أنفه، وعلى الفور انطلق منه دفق غازي هائل.

صاحت چينا بأعلى صوتها: «**أضرم!**». وبصفير مدوٍّ، **أضرم الغاز نارًا**، واندفعت شعلة اللهب للأمام، لتغلف القرص الذهبي بالنيران، وفي لحظة مرعبة تملك چينا الذعر خشية أن يتسبب اللهب في ذوبان القرص الذهبي؛ إذ بدأ القرص يبرق ويتلألأ حتى بدا أنه كاد يصل إلى درجة السيولة والتوهج بالضوء الأحمر، ثم سمعت چينا من بعيد في الأسفل قتلة الجرذان وهم يطلقون صيحة اندهاش هائلة، فنظرت إليهم في الأسفل

لتتبين إذا ما كانوا قد وصلوا إلى المركب التنينية، ولدهشها لم ترَ سوى الامتداد الهائل لأحجار سور القلعة على كلا الجانبين.

لقد فعلها لافظ اللهب! واختفى بيت التنين وكأنه لم يكن.. ومرة أخرى، أصبح **محكم الغلق** في بطن سور القلعة كما كان منذ أيام حتب رع.

ألقت جينا ذراعيها حول عنق التنين، والذي كان ساخنًا؛ ساخنًا لدرجة يكاد يستحيل معها لمسه، لكنها لم تبالِ، وقالت له: «أشكرك يا لافظ اللهب. أشكرك. أنا لن أتبرم أبدًا أبدًا بعد اليوم من قص أظافر أرجلك. هذا وعد». نخر لافظ اللهب، ولفظ المزيد من الغازات سريعة الاشتعال، وانطلقت نافورة أخرى من النيران، انطلق على إثرها قتلة الجرذان بحثًا عن مأوى، كما اشتعلت النيران في كومة من زوارق التجديف كان روبرت جرينج قد أتى بها لإصلاحها.

عادت جينا ولافظ اللهب محلقيْن إلى سفينة الصيد المدمرة، وقادت جينا لافظ اللهب للنزول بجانب ما تبقى من حطام السفينة، ثم انتظر التنين، مع احتفاظه بجناحيه مبسوطيْن، استعدادًا لانطلاق سريع، إلى أن صعد الفتى الذئبي وجلس في مكانه خلف جينا.

وهنالك، سمعت جينا صوتًا مألوفًا قادمًا من عند قدمها اليسرى يقول: «بعد إذنك يا صاحبة الجلالة، هل من الممكن أن تتزحزحي قليلًا حتى أستطيع أنا وداوني أن نحشر أنفسنا خلفك؟».

علمت جينا لمن هذا الصوت الذي يبدو أن صاحبه يظهر دائمًا في أكثر الأوقات غير المتوقعة. فنظرت للأسفل، وكما توقعت، رأت ستانلي؛

الجُرذ الرسول السابق، ثم العضو في جهاز المخابرات، والهارب حاليًا من قتلة الجرذان.

انحنت جينا لتساعده في الصعود على ظهر التنين، وهي تقول له: «هيا بسرعة يا ستانلي، قبل أن يراك قتلة الجرذان».

وعلى الفور، قال الجُرذ الصغير الممتلئ الذي كان في صحبة ستانلي: «لن أصعد مرة أخرى على هذا الشيء».

«لكن يا داوني يا عزيزتي، هذه هي فرصتنا الوحيدة».

وفجأة، تغير الصخب المنطلق من قتلة الجرذان.

وقال الصوت المجلجل للسيدة النحيلة: «إنها هناك، إنها هي التي فعلت ذلك. ولا بد أن تُحاسَب الآن».

فبدأ الإنشاد يتردَّد: «الآن، الآن، الآن! الآن، الآن، الآن!».

قال الفتى الذئبي: «إنهم قادمون من هذا الطريق. بسرعة يا جينا، اتركي الجُرذين إن كانا لا يريدان الذهاب معنا. لا بد أن نغادر هذا المكان على الفور».

مدت جينا يدها لتمسك رِجل ستانلي.

فصاحت داوني قائلة: «لا تتركني يا ستانلي!»، ثم انطلقت في قفزة رائعة وأمسكت ستانلي من كاحله وجذبته للأسفل.

«داوني، اتركي رجلي!».

لكن جينا على الفور كانت قد رفعت الجُرذين المتشاجرين، كل جُرذ منهما بيد، ووضعتهما بشكل آمن خلفها بين فقرتين من فقرات العمود

الفقري للتنين، خلف بعضهما. وفي لحظات، كان لافظ اللهب طائرًا، يتبعه وابل من أغطية صناديق القمامة ولوح خشبي شرير تبرز منه أسنان مسامير.

وعلى ارتفاع مائتي قدم فوق سطح الأرض، كان الشجار مستمرًا، وكانت داوني تقول: «أعتقد أنك تدرك الآن أنك كدت تتسبب في موتنا يا ستانلي».

«أنا؟ أنا كدت أتسبب في موتنا؟ كلام خطير هذا الذي تتحدثين به. فلو كنت سمعت كلامك يا داوني، وإن كان هذا بعد إذنك هو ما يحدث دائمًا، لكنا الآن مخنوقين ومعلقين على لائحة التسجيل».

«أنت أحيانًا يا ستانلي تقول كلامًا في منتهى القسوة. إن أمي كانت محقة».

«لا داعي لإقحام والدتك في الموضوع الآن يا داوني. لا داعي على الإطلاق».

قالت جينا بنبرة مرحة محاولةً أن تغير الموضوع: «لطيف جدًا أن التأم الشمل بينكما مرة أخرى».

وبهذه الكلمات، خيم الصمت على الجُرذين على غير المعتاد.

استغلت جينا هذا الصمت، وناولت للفتى الذئبي علبة الملاح، وقالت له: «هل يمكنك أن تُخرج من العلبة الـ... إحم.. القطعة الخضراء؟ وهي مكتوب عليها **البحث**؛ فهذه هي القطعة التي أريدها حتى أجعل لافظ اللهب يبحث عن سبتيموس».

فسألها الفتى الذئبي في هلع: «البحث؟ وكيف تُكتب هذه الكلمة؟».

فتهجت له جينا أحرف الكلمة وهي تصيح بصوت أعلى من صوت ضربات جناحي التنين قائلة: «ا- ل- ب- ح- ث. إنها أحرف كبيرة مكتوبة باللون الأسود. لا يمكن أن تفوتك».

فهمهم في سره قائلًا: «بل ممكن»، ثم صاح من جديد وهو يقول: «لكن، كيف يبدو حرف الثاء؟».

«كطبق يعلوه ثلاث نقط! ثاء مثل ثعبان، فهمت؟».

قادت جينا لافظ اللهب بحيث يظل متبعًا في تحليقه أسوار القلعة، وقررت أن تحلق به في مسار دائري، إلى أن تتقن **عملية البحث**. وإن كان هذا القرار حجة أيضًا كي تشاهد القلعة التي بهرها منظرها وهي ممتدة بعيدًا في الأسفل كأنها خريطة يتحرك النمل ببطء في أنحائها، وهو منظر ذكّرها بخريطة عزيزة عليها جدًا أهداها إياها سايمون في أحد أعياد منتصف الشتاء. وكانت تُظهر كل أسطح مباني القلعة، وأشجارها، وحدائقها، وحاراتها، وممراتها الخفية السرية، حتى إن جينا تساءلت في سرها، بينما كان لافظ اللهب يُحلق بتروٍّ نحو القاعدة القديمة للجرذان الرسل في برج مراقبة البوابة الشرقية، عمّا لو كان للرسام الذي رسم الخريطة تنينٌ خاصٌ به، من فرط التشابه بين الخريطة والمنظر الممتد أسفلها الآن.

كان الفتى الذئبي يواجه مشكلة العثور على قطعة الجلد الخاصة **بعملية البحث**. فكأن وضعه الآن، وكما قال في سره، وهو على ارتفاع مئات الأقدام من فوق سطح الأرض، وشعوره بالغثيان، والمحاولات التي يبذلها حتى لا يسقط من فوق ظهر التنين، لا ينقصه إلا أن ينظر في

الأحرف كذلك، كما أن تحليق لافظ اللهب لم يكن مما يمكن وصفه بالتحليق الانسيابي؛ فمع كل ضربة من ضربات جناحيه للأسفل، كان يهب على الفتى الذئبي هواء تنبعث منه رائحة التنين، وكان التنين بهذه الضربات ينطلق لأعلى كالصاروخ، فيظل بعدها معلقًا في الهواء لعدة ثوانٍ إلى أن يرفع جناحيه لأعلى، فتهب دفعة أخرى من الهواء تنبعث منها رائحة قادمة من أسفل جناحيه ثم يهبط ثانية، ولم يوفر ذلك كله بالطبع المناخ المناسب للبحث عن حرف ثعباني كحرف الثاء.

وبينما كان الفتى الذئبي يعبث في العلبة الصفيح، محاولًا ألا يفقد أي قطعة من قطع جلد التنين الثمينة، جالت بخاطره فكرة فسرت له سبب تعثره في العثور على كلمة **البحث**، وصاح يقول لچينا وهو مقطب الجبين: «لكن ليست كل أنواع الثعابين تبدأ بحرف الثاء، أليس كذلك؟ فهناك الأفاعي، والحيات، والأصلات...».

نظرت چينا وراءها، ورأت نظرة الحيرة على وجه الفتى الذئبي، فقاطعته: «اسمع، سأقول لك فكرة، لمَ لا تناولني كل القطع الخضراء فحسب؟».

وهنالك صاح الفتى الذئبي بنبرة انتصار بينما كان جناحا التنين ينقبضان للأسفل: «فهمت! لقد كان سبب حيرتي.. أخ!» - إذ انقبض جناحا التنين لأعلى - ثم واصل الفتى الذئبي قائلًا: «.. إن هناك طبقًا واحدًا فوقه ثلاث نقط على هذه القطعة. في حين أن بقية القطع.. أف» - وانقبض جناحا التنين للأسفل». لا تحتوى على أية أطباق فوقها هذه النقط الثلاث. فلا بد إذن أن هذه هي القطعة المطلوبة، هاهي. أف» -

وانقبض الجناحان لأعلى ثانية - «ها هي». وناول چينا قطعة مشققة من الجلد الأخضر مكتوبًا على وجهها **ابحث وسوف تجدني**.

قالت چينا: «رائع!» ثم قرأت بصوت مسموع الكلمات المكتوبة على قطعة جلد التنين وهي ممسكة بها بقوة؛ حتى لا تطير منها - وقد بدت لها القراءة من فوق ظهر التنين صعبة وكأنها تقرأ وهي منطلقة على متن زحلوقة وكانت الكلمات تقول:

«أيها التنين المخلص ابحث عن الشخص
الذي وضع بصمته عليك.
اجعل مهمة البحث هذه تبين لك في ذهنك
الطريق إلى صاحب البصمة - واعثر عليه من فضلك!».

وعلى الفور، انحنى لافظ اللهب جهة اليمين. وباغتت هذه الحركة چينا التي كانت قد رفعت كلتا يديها من على فقرات لافظ اللهب أثناء القراءة، وفي لحظة رهيبة كانت قد انزلقت في لمح البصر من مكانها خلف عنق لافظ اللهب، فمدت يدها لتمسك مرة أخرى بالفقرة التي كان من المفترض أن تكون ممسكة بها - لكنها أخفقت.

صاح الفتى الذئبي: «چينا.. چينا!».

لكن چينا لم ترد عليه.. ومضت.

21

استعادة الراكب



من *فرط ذهول چينا لم تتمكن من الصراخ*، وكانت تعلم أنه ليس هناك غير الهواء يفصل بينها وبين صخرة راڤن بعيدًا في الأسفل.

لكن عندما شعر لافظ اللهب أن الثقل الذي كان يقبع خلف عنقه زال، حفزه شيء فطري؛ شيء يجهله لافظ اللهب، لكن تملكه جميع التنانين التي **يضع البشر بصمتهم** عليها؛ وهو شيء يجعلها تتولى مهمة **استعادة الراكب**.. وهكذا، مع سقوط چينا، هبط لافظ اللهب كالصخرة وأمسكها بأرجله.

وفي غضون ثانيتين، كان يحمل چينا كما يحمل النسر فريسته بمخالبه.

أصيب الفتى الذئبي بهلع شديد؛ إذ لم يكن في وسعه أن يرى چينا وهي متدلية في الأسفل، وكل ما يدركه أنها ما عادت موجودة على ظهر التنين.

وأخذ يصيح: «چينا.. چينا!».

فرد عليه صوت، أو هكذا خُيل إليه، يقول له: «409!».

سألت داوني ستانلي باستياء: «أين ذهبت يا ستانلي؟ أظن أن الموقف أصبح فوق الاحتمال ونحن منطلقون هكذا. أقصد، أريد أن أعرف من الذي سيقود هذا الشيء الآن؟».

رد ستانلي بنبرة حادة: «أرجوك اصمتي الآن يا داوني»، ثم نظر للخارج بعيدًا عن الفقرات السوداء الضخمة للتنين، وهو يخشى ما قد يراه، لكنه لم ير إلا بطن لافظ اللهب العريض.

ثم جاء صوت چينا التي توشك الآن أن تطيرها الرياح: «409!».

«چينا؟» هكذا صاح الفتى الذئبي وهو يلتفت حوله ليرى إذا ما كانت چينا خلفه، لكنه لم يجد أثرًا لها، ثم نظر للأسفل ليرى إذا ما كانت تتعلق بجسم التنين من الأسفل، لكنه لم ير سوى بطن لافظ اللهب.

«409.. أنا هنا». فتساءل الفتى الذئبي في سره أهو يتخيل ما يسمعه؟ وإن لم يكن يتخيل، فأين هي إذن؟

كان لافظ اللهب قد التف مرة أخرى محلقًا في اتجاه القلعة، وبدأ الآن يهبط ببطء وحرص. نظر الفتى الذئبي للأسفل، وهو يتفحص سطح الأرض، ويخشى أن يكون الأسوأ قد وقع. حلق بهم التنين فوق

صخرة راڤن، مرورًا بالحصار المفروض على المراكب الذي يمتد بعرض النهر ويمنع أي مركب موبوء بالمرض الغامض من المرور والوصول إلى الميناء، وصاروا الآن متوجهين نحو رصيف المراكب الذي يقع أمام مقهى سالي مولن للشاي والجعة. كان هناك زبائن ينطلقون من المقهى ركضًا، وكان في وسع الفتى الذئبي أن يرى أناسًا قد أخذوا يدورون مثل الطاحونة، وهم ينظرون لأعلى ويشيرون إلى شيء بحماس. ومع انخفاض مستوى تحليق لافظ اللهب، سمع الفتى الذئبي كلامهم..

«إنها الأميرة!».

«إن تنين الساحر خطف الأميرة!».

«انظروا إليها.. وهي معلقة هكذا.. يا للهول! يا للهول!».

«لقد ماتت».

«لا تقل ذلك. لا يمكن. لا يمكن».

«إنها لا تتحرك ولا تفعل أي شيء».

«وما الذي يمكنها أن تفعله وهي معلقة هكذا في مخالبه. لقد كنت أقول دائمًا إن هذا التنين سيتحول ويصبح شريرًا. كل التنانين تفعل هذا».

«انظروا! انظروا! إنها تتحرك. إنها حية، انظروا!».

«إنه في طريقه للهبوط، وسوف يسحقها».

«يا للهول! لا أستطيع أن أنظر.. لا أستطيع!».

أصبح لافظ اللهب يحلق الآن على ارتفاع لا يزيد على عشرة أقدام من فوق سطح الأرض. وتبدلت سعادة الفتى الذئبي بإدراكه أن چينا لم

تسقط إلى إحساس بالرعب وهو يفكر كيف يتمكن لافظ اللهب من الهبوط دون أن يسحقها!

وببطء، ببطء شديد جدًا، أخذ لافظ اللهب يهبط إلى أن بات ارتفاعه قريبًا جدًا من سطح رصيف المراكب، حتى إن الفتى الذئبي تمكن من رؤية تفاصيل الأشكال المعقدة المرسومة على قبعات الصيادين، وتسببت ضربات جناحي التنين - وربما أيضًا رائحته النفاذة - في تراجع الجماهير للخلف، ورأى الفتى الذئبي علامات الذهول التي علت وجوههم وهم يشاهدون التنين يحوم الآن على ارتفاع نحو خمسة أقدام فوق سطح الأرض، ويمد مخالبه ثم يترك چينا لتقفز بخفة عند حافة رصيف المراكب، وهبطت وهي تركض للأمام لمسافة حتى استعادت اتزان جسمها.

أخذ الجماهير يصفقون، في صحبة صفارات انطلقت من هنا وهناك تعبيرًا عن تقديرهم للتنين، وهو ما بدا أنه جعل لافظ اللهب يشعر بالفخر والزهو؛ حيث استقر على رصيف المراكب، ثم رفع عنقه، وزأر زئيرًا ممتدًا حتى إن الفتى الذئبي شعر به في جوفه. بدأ الجماهير المبهورون برؤية لافظ اللهب عن قرب، خاصة بعد هذا الإنجاز العظيم الذي قام به - يقتربون أكثر فأكثر وهم يشيرون إلى مختلف الأجزاء الغريبة من جسمه، من أصغرها إلى أكبرها.

«إن فقراته السوداء هذه ضخمة جدًا..».

«انظروا إلى حجم ذيله..».

«أنا عن نفسي ما كان ليروقني أن أتعلق بمخالبه..».

وبعدها، ومع ملاحظتهم للفتى الذئبي: «هناك طفل على ظهره...».

«إن نظرته غريبة. وأنا لا أحب أن أجد نفسي وجهًا لوجه معه في ليلة مظلمة».

«صه! إنه سيسمعك هكذا».

«لا، لن يسمعني. أنصت! ما هذا الصوت؟».

كان الزئير الذي اندلع في أعماق لافظ اللهب يزداد ارتفاعًا. فقفزت جينا للخلف؛ لعلمها ما سيلي ذلك، فزلت قدمها وسقطت في المياه من عند حافة رصيف المراكب. لكن الجماهير التي لا تزال مندهشة برؤية التنين، لم تلتفت لصوت الطرطشة واختفاء أميرتهم أسفل البقايا الطافية لحطام سفينة، بل راحوا يقتربون أكثر فأكثر من لافظ اللهب، وكأن هناك مغناطيسًا في التنين يجذبهم إليه، وراحوا يراقبون التنين وهو يلقي برأسه للخلف وأنفه يتوهج، وينصتون إلى الزئير البركاني القادم من جوفه، ثم ظهرت جينا دون أن يلحظها أحد، وهي تلفظ من فمها سمكة صغيرة ميتة منظرها منفر، وسبحت نحو درجات السلم الذي يصعد من المياه إلى رصيف المراكب.

وفجأة، وبمصاحبة أزيز أشبه بصوت الطائرات النفاثة، تدفقت نافورة من الغازات من أنف التنين **وأضرمت نارًا**.. أخذت النيران تنطلق لعشرين أو ثلاثين ثانية في الهواء وامتدت حتى وصلت إلى المياه، وأشعلت في طريقها النيران في قلاع اثنين من مراكب صيد سمك الرنجة تُكون جزءًا من الحصار المفروض على المراكب. وبحلول الثانية الثلاثين، كان الكثيرون قد لجئوا إلى مقهى سالي مولن للاحتماء، ليجد كل منهم نفسه يُدفع في يده دلوًا من مجموعة ضخمة من دلاء إطفاء الحريق الجاهزة للطوارئ، ويقال لهم: «اذهبوا وأطفئوا النار المشتعلة في

التنين قبل أن تلتهمنا جميعًا». أما بقية الجماهير ففروا وهم يتسلقون أعلى التل ركضًا، متوجهين نحو البوابة الجنوبية، حاملين معهم قصة في غاية التشويق سيقصونها في الحانات وقت الغداء.

ومع هبوط الليل، كان معظم سكان القلعة قد سمعوا إحدى الروايتين اللتين تحكيان الواقعة، وكانت الرواية الأولى قد سردها أصحابها كالتالي: «إن الأميرة خطفها تنين السحرة، فعلًا خطفها، أنا أؤكد لك ذلك، لقد خطفها. يا له من وحش هائل الحجم! ثم أسقطها مثل قطعة الصخر، لقد أسقطها، فعلًا أسقطها. لا، إنها بخير. لا، لم تقفز. لقد سقطت في النهر.. إنها سباحة ماهرة هذه الفتاة، لكن هذا التنين تحول في نهاية الأمر، إن كل التنانين تتحول. لقد لفظ نارًا من أنفه عليَّ مباشرة – وأحرقت النار شعري حرقًا طفيفًا، انظر! هنا، لا ليس هنا. إذن، لا بد أن ترتدي نظارة بعدسات سميكة جدًّا إذا كنت لا ترى ذلك».

كما أن معظم الناس كانوا قد سمعوا أيضًا الرواية الأخرى للواقعة – وكيف أن اللوم يقع على الأميرة؛ لكونها هي التي جلبت المرض الغامض على متن مركبها التنينية الموبوءة، وكيف أنها حاولت أن توقع قتلة الجرذان في الفخ عند سور القلعة عن طريق بعض خدع **السحر الأسود** – حسنًا، لو أردت دليلًا، إليك ذلك؛ لقد أنقذت اثنين من تلك الآفات، قلت الآفات وليس الفراء، هل أنت أصم؟ إنهما جُرذان أيها الأحمق، جُرذان. أخذتهما معها على ظهر التنين. فما قولك في ذلك إذن؟». وكان المتحدث الجالس بعد ذلك يرجع بظهره للخلف، ثم يعقد ذراعيه وتعلو وجهه ابتسامة صفراء.

وكانت الروايتان، وكما اكتشف الناس، قابلتين للتصديق.

وهو أمر يتوقف على من هو الراوي. لكن الجميع اتفقوا على أمر واحد؛ هو أن الأميرة الشابة ليست بالسذاجة التي تبدو عليها، بل غير ذلك تمامًا.

أما ستانلي وداوني فكانا يراقبان قرار الجماهير بسعادة غامرة. ووسط كل هذه الأحداث المثيرة، لم يلتفت إليهما أحد وهما جاثمان من فرط الخوف بين فقرات لافظ اللهب، ثم جلسا باعتدال أخيرًا، واستقرت داوني فوق ظهر التنين بشكل بدا وكأنها جُرذ اعتاد الطيران فوق ظهور التنانين، ثم قالت: «أتمنى أن نستأنف الرحلة على الفور، فأنا أتضور جوعًا، وأشتهي وجبة غداء في الميناء».

تنهد ستانلي، لكنه لم ينطق بكلمة، وأخذ يراقب جينا والمياه تتساقط منها، وهي تتسلق مرة أخرى فوق ظهر التنين، ثم سألها: «أأنت بخير يا صاحبة الجلالة؟».

لم تمانع جينا أن يناديها ستانلي بهذا اللقب، بل إن اللقب في واقع الأمر يروقها عندما تسمعه من الجُرذ؛ لعلمها أنه يفعل ذلك من باب الحب والود، وردت عليه قائلة: «نعم يا ستانلي، أشكرك. وأنت، هل أنت بخير؟».

قال ستانلي بنبرة مشرقة: «ما كنت يومًا في حال أحسن من هذا؛ فالصباح طقسه صحو رائع، والسماء بدأت تصفو، ونحن على وشك الانطلاق في رحلة طيران. ماذا يمكن لجُرذ أن يتمنى أكثر من ذلك؟».

ردت داوني بصوت خفيض: «وجبة غداء».

22

الألفرون



كان *لافظ اللهب واثقًا* من نفسه ويتحرك وفق هدف في *رأسه*، وواصل تحليقه في غير عجلة، متتبعًا مسار النهر نحو الجنوب، في اتجاه الميناء.

قالت جينا: «أتمنى ألا يكون متجهًا نحو البحر».

«وأنا أيضًا أتمنى ذلك»، هكذا رد الفتى الذئبي يوافقها الرأي، والذي كان يشعر بالغثيان الشديد من فرط تحليقه فوق ظهر التنين، ولا يستطيع أن يتخيل أن هناك ما هو أسوأ مما هو فيه الآن. ولكي يلهي ذهنه، نظر إلى شريط النهر الفضي الذي يلتف أسفل منهم، وحاول أن يحدد موقع الشاطئ الذي يتردد عليه سام؛ وهو الشاطئ الذي انطلق منه هو و412

تاركيْن الغابة خلفهما منذ عدة شهور مضت. ابتسم الفتى الذئبي متذكرًا مدى الحماس الذي اعتراه بعد عثوره على أعز صديق له مرة ثانية، حتى وإن بدا 412 حينها مختلفًا تمامًا عما عُرف به حينما كان في جيش الشباب. ولم يقتصر هذا الاختلاف على أن 412 أطال شعره، وباتت له أسرة واسم غريب، وصار يرتدي كالتلامذة رداءً وحزامًا أبيقيين، فالاختلاف كان أبعد من ذلك؛ إذ أضحى 412 فتًى واثقًا من نفسه يتسم بالمرح، وأقرب.. أقرب لأفضل ما فيه.. والآن، اختفى 412.. ربما إلى الأبد!

ثم اقتحم صوت جينا أفكاره فجأة، وهو ما أسعده، وكانت تقول له: «هل رأيت الإعلان عن الحجر الصحي الموجود عند رصيف المراكب؟».

فصاح بصوت أعلى من صوت ضربات جناحي لافظ اللهب قائلًا: «أي إعلان؟»؛ إذ إنه لن يستطيع أساسًا أن يميز بين إعلان وآخر، ثم ما هذا الحجر الصحي الذي تتحدث عنه؟ وتخيل أنه وحش مروع؛ كتلك الأشياء التي ربما قد تكون في هذه اللحظة تطارد 412 في الغابة، أو أينما كان. ووجد الفتى الذئبي نفسه أسيرًا للحيرة - رغم كل مهاراته في التعقب - فكيف لأحدٍ أن يتعقب شخصًا سحبه لوح زجاجي؟!

صاحت جينا من فوق الجُرذين اللذين كانا يتحدثان كأنهما يتابعان مباراة تنس، قائلة: «هناك إعلان عن المرض الغامض وعن الحصار! ومعنى ذلك أن تجار الشمال لن يأتوا هذا العام. إن عيد منتصف الشتاء سوف يكون كئيبًا بدون سوق التجار».

رد الفتى الذئبي قائلًا: «ياه!»، ثم صاح: «لكن، من هم تجار الشمال؟».

جازف ستانلي وقال: «إن هؤلاء التجار لديهم مراكب جميلة جدًا. إنها تذهب إلى أي مكان.. ولعلمك، كان يجب عليَّ أن أتوخى غاية الحذر عندما كنت جُرذًا رسولًا؛ فهؤلاء التجار يتبعون سياسات صارمة جدًا تجعل مراكبهم خالية تمامًا من الجرذان، وهم مضطرون لذلك حتى يتعايشوا مع القوانين المنظمة للسوق. ولقد قابلت بعض أشرس القطط التي قابلتها في حياتي على متن مراكب تجار الشمال هذه، وواجهت أثناء مهمتي الأخيرة كجُرذ رسول معركة صعبة جدًا مع قط أحد تجار الشمال السابقين». وهز ستانلي رأسه أسفًا، ثم واصل قائلًا: «كان ينبغي عليَّ أن أدرك حينها أن الأمور ستنتهي إلى ما آلت إليه. لقد كانت هذه المهمة فعلًا أسوأ مهمة قمت بها في حياتي، وأنا لا أعرف أي جُرذ آخر واجه مثل ما واجهته أثناء تلك المهمة. هل حكيت لكما عن جاك المجنون؟».. وهكذا، أخذ ستانلي يواصل ثرثرته بسعادة غامرة، غير مدرك - لحسن الحظ - أنه لم يكن أحد يسمعه بسبب صوت جناحي لافظ اللهب - إلا داوني التي كانت قد قررت منذ زمن ألا تُنصت لما هو أكثر من الجملة الأولى من أي حديث يخوض فيه ستانلي.

صاحت جينا ترد على سؤال الفتى الذئبي قائلة: «هناك مركب لأحد هؤلاء التجار في الأسفل! انظر!».

نظر الفتى الذئبي إلى النهر، ورأى بعيدًا في الأسفل مركبًا طويلًا نحيلًا، وله قلع أبيض ضخم، يبحر مع التيار، كما رأى لافظ اللهب ذلك

أيضًا. شعر الفتى الذئبي بتغير وتيرة طيران التنين وخفّت حدة شعوره بالغثيان الشديد إلى حد ما.

صاحت چينا: «نحن نهبط الآن!».

أبطأ لافظ اللهب من سرعة ضربات جناحيه وانخفض. نظرت چينا حولها لتتبين إلى أين يتجه التنين، وخالجها إحساس بالحماس؛ إن لافظ اللهب يتوجه نحو هدف ما بلا أدنى مجال للشك. لقد نجحت **عملية البحث**، ولقد أوشكوا – وربما تمامًا – على العثور على سبتيموس.

صاح الفتى الذئبي: «إنه يتجه نحو المياه!».

ردت چينا عليه وهي تصيح أيضًا: «لا، إنه يتجه نحو الغابة!».

كان لافظ اللهب قد انعطف، وما عاد يحلق فوق النهر، وأخذ يواصل هبوطه، محلقًا في اتجاه الغابة. وما إن استعدت چينا والفتى الذئبي للهبوط في الغابة، حتى بدأ لافظ اللهب يلتف محلقًا مرة أخرى نحو النهر.

صاحت چينا: «إنه يحلق في مسار دائري. أعتقد أنه يحاول اكتشاف مكان يهبط فيه»، وكانت چينا محقة إلى حد ما؛ فلافظ اللهب كان بالفعل يحلق في مسار دائري، لكنه كان يعلم بالتحديد أين سيهبط، إلا أنه أراد – فحسب – أن يكتشف الطريقة التي سيهبط بها.

وبعد دورانه ثلاث مرات، كان لافظ اللهب وركابه يحلقون فوق هامات أشجار الغابة، حتى إنهم كادوا – من فرط قربهم – يلمسون أوراقها ويمسكونها لو مدوا أيديهم إليها. انجرف إليهم عمود من الدخان الخفيف

قادم من نار أحد المعسكرات، وشعر الفتى الذئبي بوخزة حنين للعودة إلى معسكر أولاد أسرة هيب.

تجاوز لافظ اللهب الأشجار، وفجأة هبط هبوطًا حادًّا فوق سطح النهر، فصرخت داوني. وكان أمامهم مباشرة مركب تجار الشمال الذي رأوه منذ قليل، وتنبعث منه رائحة لحم مقدد محمر.

لم يُخيل لچينا بالطبع أن تنينًا طوله 15 قدمًا سيهبط على متن مركب طوله ستون قدمًا يعلوه قلع ضخم.. ومع انخفاض مستوى تحليقه وحومانه مباشرة فوق المركب، كانت چينا تفكر تمامًا فيما تفكر فيه ربانة المركب التي أخذت تلوح بذراعيها وتصيح بلغة لم تفهمها چينا، وإن كان المعنى واضحًا تمامًا.

لكن لافظ اللهب لم يفهم ولم يكترث، وكان يستعد للهبوط على الجزء المنبسط الذي يمتد أعلى سطح قمرة المركب؛ حيث كان في وسعه أن يشتم رائحة طعام الإفطار. فحتى التنانين التي تخرج في **مهام بحث** - بل التي تخرج في **مهام البحث** خاصةً – هي أيضًا تحتاج إلى تناول وجبة إفطار.

وهكذا، هبط بهم لافظ اللهب على المركب مصطدمًا بصوت مكتوم. لم يكن الاصطدام بمقياس التنين قويًا، لكنه كان كافيًا لأن يتسبب في انخفاض المركب حتى كادت المياه تصل إلى الحافة العليا من جانبه، ثم ارتفع مرة أخرى لأعلى، متأرجحًا من جانب إلى آخر، مرسلًا أمواجًا تجتاح ضفة النهر، وانطلقت ربانته جريًا نحو التنين بغضب، ملوّحة له بخطاف طويل تهدده به.

وصاحت سنوري سنوريلسن بنبرة غاضبة: «ابتعد عن هنا! ابتعد عن هنا!».

كان هذا اليوم بالنسبة لسنوري يومًا سيئًا؛ فقد استيقظت في الفجر على وقْع خطوات أقدام ثقيلة تتجول عبر سطح قمرتها، وطَرْقٍ متواصل على فتحة المركب. ولم تكن سنوري بالشخص الذي يتملكه الخوف بسهولة، لكن هذه الأصوات بالفعل جعلت الخوف يتسلل إلى قلبها، كما أن القلعة باتت - على مدار الأيام القليلة الماضية - مكانًا غير مرحبٍ بالزائرين؛ إذ بدأ سكانها يلقون باللوم على تجار الشمال، أنهم السبب وراء ظهور المرض الغامض، ولقد تعرضت سنوري أثناء تجولها في أنحاء القلعة لسباب كثير. ومن ثم، ظلت خلال الأيام الماضية مختبئة على متن الألفرون، تنتظر حضور آخرين من تجار الشمال، لكن لم يحضر منهم أحد. وما لم تكن سنوري تعلمه أن الحصار المفروض على مراكب الصيد عند صخرة راقن كان قد بدأ يعيد تجار الشمال من حيث أتوا في صحبة وابل من الشتائم والسمك المتعفن.

وهكذا، أبحرت سنوري بمركبها بعيدًا مع بزوغ فجر هذا اليوم وسط طقس ملبد بالغيوم، بعد أن تم إعطاؤها (عشر دقائق مهلة لكي تترك المكان وإلا ...). فسنوري لم ترقها نبرة التهديد التي كانت تحملها كلمة «وإلا» هذه - أيًا كان ذلك - ومن ثم غادرت المكان. وما كادت تبدأ في إعادة تقييم الموقف حتى هبط تنين بوزن 764 طائرًا من طيور النورس على سطح قمرتها، وبات من الواضح تمامًا الآن أن اليوم ليس مبشرًا.

ولأن الألفرون صُنع بأخشاب أمتن من أخشاب مراكب الصيد الرديئة الموجودة في ساحة المراكب - فقد تلقى ظهره هذا الاصطدام معلنًا اعتراضه بصرير ضعيف، لكن المركب نفسه لم يتضرر، ولقد انخفض مستواه في المياه بعض الشيء، ثم واصل إبحاره مع التيار بشحنته الجديدة التي هبطت على متنه توًا، والتي لم ترحب بالوخزات التي كانت تتلقاها في فقراتها بخطاف حاد. وهنا شعرت چينا أسفل قدميها بزئير متواصل يوشي بأن لافظ اللهب يكوّن نارًا في جوفه.

فصاحت قائلة: «لا يا لافظ اللهب! لا!» ونزلت چينا من فوق ظهر التنين، واندهشت سنوري التي لم تلحظ أن التنين يحمل ركابًا. أخذ الزئير الممتد يزداد قوةً، وسمعه الفتى الذئبي فقفز بعيدًا، وانطلق الجرذان يتسلقان الصاري بخطوات سريعة صغيرة، ثم جثما في وضع خطير يهددهما بالسقوط على عارض نحيل من عوارض القِلع، كأنهما زوج غريب من طيور النورس.

وبسرعة، أمسكت چينا الخطاف الذي كانت سنوري تنخس به التنين كي يبتعد عن مركبها، وصاحت قائلة: «لا تستفزيه! أرجوكِ!» لكن سنوري التي كانت أطول وأقوى من چينا، دفعت الخطاف تجاهه ثانية، فازداد دوي الزئير المتواصل في الجوف الناري، حتى إن سنوري لاحظته أيضًا فتوقفت، وبدت عليها الحيرة.

ثم سألت بلغة چينا: «ما... ما هذا؟».

صاحت چينا: «إنه صوت النار! إنه يكوّن نارًا في جوفه!».

فهمت سنوري - شأنها شأن أي ربان مركب آخر - معنى كلمة نار، فخطفت بعض الدلاء المربوطة بحبال من مقابضها، ودفعت بواحدةٍ في يد چينا، ثم صاحت: «مياه! اجلبي مياهًا!».

حذت چينا حذو سنوري، وألقت الدلو في الماء من على جانب المركب وهي ممسكة بالحبل، ثم سحبتها وهي مملوءة عن آخرها بماء أخضر آسن، ثم ألقت به. سقط الماء على الفتى الذئبي الذي علاه الذهول، والذي كان يُسرع في إطعام لافظ اللهب بأقطار سنوري الذي كان خبزًا ولحمًا مقددًا محمرًا. وهنالك، أدركت چينا أن الزئير المتواصل توقف.

قال الفتى الذئبي بابتسامة: «لقد رأيت أنه لن يستطيع أن يُكوِّن نارًا وهو يأكل».

راقبت سنوري لافظ اللهب وهو يلتهم آخر ما تبقى من طعام إفطارها، ويبتلع ما تبقى في الدلو من ماء، ثم اختتم وجبته بابتلاع الطبق الخشبي بأكمله. وقالت سنوري في سرها إن الوضع كما يبدو يُنذر بالمتاعب، فلا يحتاج المرء لأن يكون رائيًا للأرواح حتى يدرك ذلك.

23

رائية الأرواح



كان لافظ اللهب مستغرقًا في نومه، وقد بات لدى سنوري الآن حيز خالٍ في مخزن مركبها الضيق في نفس المكان الذي كان يشغله برميل سمك مملح. ولقد ربطت ربانة المركب مركبها الألفرون بشجرة صفصاف تتدلى على ضفة النهر التي تمتد عندها أراضي الحقول، بعدما رأت أن مواصلة الإبحار بالمركب وعلى متنه تنين متقلب المزاج - أمر محفوفٌ بالمخاطر.

جلست چينا وسنوري في غرفة القيادة عند مؤخرة المركب، تحاولان تجاهل غطيط لافظ اللهب بقدر المستطاع.

لكن الفتى الذئبي الذي مازال يشعر بالغثيان بعد رحلة الطيران على ظهر التنين، وأراد أن يستعيد الإحساس بأنه يقف على أرض صلبة، نزل إلى البر وأخذ يستكشف بساتين أشجار التفاح المزروعة على امتداد ضفة النهر.

كانت مقابلة الأميرة للمرة الثانية أمرًا لا يخطر ببال سنوري بأي حال من الأحوال، ناهيك عن هبوط الأميرة على مركبها من فوق ظهر تنين، وهو ما جعل سنوري تشعر بشيء من الرهبة، وحتى ترحب بها وبالفتى الذئبي قدمت لهما إفطارًا، يتكون من الخبز والكعك والسمك والتفاح المخلل، وقد تناولا كل ذلك بنهم من فرط جوعهما. وندم الفتى الذئبي أنه أطعم كل اللحم المقدد للافظ اللهب، لاسيما أنه لم يُشبع جوع التنين، واضطرت سنوري بعد ذلك لأن تُطعمه برميلًا كاملًا من السمك المملح.

ثم اعتذرت چينا مرة أخرى لسنوري بعد أن نزل الفتى الذئبي من على متن المركب وانطلق في الخارج، قائلة لها: «أنا فعلًا آسفة يا سنوري. لقد كنا في طريقنا للبحث عن أخي سبتيموس، وقرر لافظ اللهب من تلقاء نفسه أن يهبط بنا. وأنا لم أمنعه لاعتقادي أن سبتيموس سيكون هنا على متن هذا المركب.. لكن اتضح أنه غير موجود»، ثم استغرقت چينا في الصمت. وكان من المستحيل ألا تتساءل في سرها إذا ما كانت **عملية البحث** مع لافظ اللهب ستنجح في نهاية الأمر وكذا الأمر معه؛ إذ إنه ما زال تنينًا شابًا ومتهورًا، وإذا كانت رائحة اللحم المقدد المحمر قد تمكنت من التشويش على تفكيره، أفلن يكون من السهل إذن أن يلهيه أي شيء آخر ويضله عن الطريق؟

سألت سنوري چينا: «وأخوك سبتيموس.. أَسَقط كما قلتِ مخترقًا لوحًا زجاجيًا؟ فأومأت لها چينا برأسها.

«إذن.. من المؤكد أنك ستجدينه في المستشفى».

فهزت چينا رأسها وقالت شارحةً: «إنه لوح زجاجي عاكس.. مرآة، المرآة التي تعكس الصورة، هل فهمتِ قصدي؟».

قالت سنوري: «نعم.. لوح زجاجي عاكس قديم إذن. لقد فهمت الأمر الآن».

ردت چينا في دهشٍ قائلة: «حقًا؟».

«جدتي كان لديها واحد، لكن... لم يُسمح لنا قطُّ بلمسه. فقد سقطت أختها إيلس بداخله عندما كانت صغيرة».

واستطاعت چينا بالكاد أن تسألها: «وهل... هل وجدتموها بعد ذلك؟».

ردت سنوري قائلة: «لا».

فسكتت چينا عن الكلام، هبت سنوري فجأة وانطلقت تجري صوب جانب المركب، وهي تنظر جهة منبع النهر، تابعت چينا نظرات سنوري، لكنها لم تر شيئًا. كان النهر خاليًا وساكنًا. وكان الرذاذ الخفيف قد توقف منذ فترة، وباتت المياه الآن منبسطة وآسنة، وتعكس صورة السحب الرمادية الثقيلة المعلقة في السماء، لا يعكر صفوها أي شيء ولو حتى سمكة واحدة تجازف بالقفز إلى السطح لتصطاد حشرة.

أخرجت سنوري نظارتها التي ترى بها الأرواح من جيب بين طيات ردائها ووضعتها على عينها اليسرى، ثم همهمت بصوت هامس.

فسألتها چينا: «ما الأمر؟».

فهمست سنوري قائلة: «أنا لا يعجبني هذا المركب».

ردت چينا قائلة: «لكنه مركب جميل. إنه بالفعل يعجبني، خاصة قمرتك الصغيرة، إنها مريحة جدًا».

قالت سنوري: «أنا لا أقصد هذا المركب، بل أقصد ذلك المركب»، ورفعت سنوري النظارة من على عينها، وأشارت في اتجاه منبع النهر. تابعت چينا نظرات سنوري، وقد لاحظت الآن أنها تثبت بصرها على شيء ما، وتتابع تقدمه البطيء نحوهم مع تيار النهر.

نظرت سنوري إلى چينا نظرة خاطفة وقالت: «إذن، أنت لا تستطيعين رؤية المركب الشبحي؟»..

أومأت لها چينا برأسها.

همست سنوري: «إنه يتجه نحونا».

وفجأة، أصبح الجو أبرد وبدا النهر عدائيًا. فسألتها چينا: «ما هذا الذي يتجه نحونا؟».

لم ترد سنوري عليها؛ فقد كانت تنظر بعين شبه مغمضة من خلال نظارتها، واستغرقت في مراقبة مركب الملكة إيثلدريدا وهو يقترب منهم. وعلى الرغم من أن المركب كان عند الجانب البعيد من النهر أثناء انعطافه عند الانحناء، فإنه بدأ يعبر عرض النهر الآن متوجهًا مباشرة نحو الألفرون.. وهنا، ارتجفت سنوري.

همست چينا قائلة: «ما الأمر؟ ماذا ترين؟».

«أرى مركبًا مقدمته مرتفعة، ومبنيًا بالطريقة التي كانوا يبنون بها المراكب منذ سنوات عديدة مضت. أرى أربعة مجاديف شبحية عند الكوات الجانبية للمركب، وأربعة أخرى عند الميمنة؛ إنها تجدف دون أن يصاحبها أي اضطراب في المياه، وأرى مظلة ملكية حمراء تغطي المركب ومرفوعة على قوائم ذهبية، وأرى الملكة تجلس تحتها».

همست چينا - بعد أن خالجها فجأة إحساس رهيب يُحدثها بمن هي هذه الملكة - وسألت سنوري: «هل... هل الملكة ترتدي ياقة مكشكشة مرتفعة حول عنقها ولها ضفائر ملفوفة حول أذنيها؟ هل تبدو وكأنها اشتمت توًا شيئًا ما رائحته منفرة؟».

التفتت سنوري إلى چينا وقد علا وجهها ابتسامة؛ هي أول ابتسامة رأتها چينا على وجهها.

«إذن أنت كذلك أيتها الأخت رائية للأرواح. كم كنت أشتاق لأن أقابل أحدًا منهم. مرحبًا بك!»، ثم أحاطتها سنوري بذراعيها لتعانقها، لكن چينا التي تحاول باستماتة الآن ألا تراها الملكة إيثلدريدا - انسحبت من بين ذراعي سنوري وانطلقت إلى القمرة.

تابعت سنوري خطوات چينا، وقالت لها: «أنا آسفة إذا... إذا كنت أهنتك».

كانت چينا جالسة على درجة من درجات السلم ممسكة بركبتيها وقد علاها الشحوب، ثم همست قائلة: «أنتِ... أنتِ لم تهينيني، لكن يجب ألا أجعل الملكة تراني؛ فهي التي جعلتني أصحب أخي إلى اللوح الزجاجي العاكس لينظر فيه. إنها بشعة، بشعة فعلًا».

قالت سنوري التي لم يفاجئها هذا الكلام، متذكرة البرودة التي سرت في جسمها عندما رأت هذا المركب الملكي لأول مرة: «آه، إذن ابقي أنت هنا يا چينا، وسأذهب أنا لأرى هذه الملكة. ولسوف أخبرك بما تفعل؛ لأني أعتقد أنها اختارت ألا **تظهر** لك لسبب شرير؛ ربما أنها تحتجز أخاكِ على متن مركبها!».

قالت چينا: «سب على متن مركب شبحي! لكن معنى ذلك أنه هو أيضًا أصبح شبحًا!».

«لا، ليس بالضرورة، فمن الممكن أن **يؤخذ** أي شخص عن طريق روح ويظل هذا الشخص حيًّا. لقد حدث ذلك لعمي إيرنولد».. ومع هذه الكلمات، اختفت سنوري بعد أن صعدت ظهر المركب، تاركةً چينا تفكر في عائلة سنوري التي تميل للتعرض - بشكل أو بآخر - للحوادث المتعلقة بالأرواح.

كان المركب الملكي يقترب من الألفرون، ورأت سنوري أن هذا المركب كان في يوم من الأيام جميلًا؛ فقد كان طويلًا نحيلًا، ومطليًا بأشكال حلزونية معقدة باللونين الذهبي والفضي، كما ارتفعت على ظهره قوائم مرصعة بالذهب تحمل ظلة حمراء فاخرة تحجب الشمس عن الملكة وحاشيتها، والذين من المفترض أن يكونوا جالسين الآن باسترخاء على الوسائد التي تفترش المنصة عند مؤخرة المركب. لكن الملكة كانت تجلس بمفردها الآن، كما كان حالها معظم الأوقات أثناء حياتها، بما أن أفراد حاشيتها حينها كانوا يتحججون بكل الأعذار الممكنة حتى يتجنبوا أن يجدوا أنفسهم محبوسين في المركب الملكي

بلا ملاذ آمن يحميهم من الملكة. كان هناك ثمانية جدافين شبحيين عند السطح السفلي لظهر المركب، يجلسون على دككهم الضيقة، ويسحبون مجاديفهم الوهمية للأمام والخلف على التوالي من دون إثارة أي اضطراب في مياه النهر.

ومع تقدم المركب الملكي متأرجحًا وسط المياه نحو الألفرون، تركت سنوري نظارتها، وشغلت نفسها بترتيب المكان بعد وجبة الإفطار؛ فلم تكن راغبةً في أن تكتشف الملكة أنها رائية أرواح، وقد بدا الأمر واضحًا بالنسبة لسنوري أنه إذا كانت چينا لم تتمكن من رؤية الملكة، فمعنى ذلك أن الملكة قد اختارت ألا **تظهر**. قامت الملكة إيثلدريدا من فوق وسائدها، وسارت نحو جانب مركبها، ثم نظرت عبر المياه وحدقت إلى سنوري. بدأت الملكة تستنشق الهواء بتعبير مستنكر، وهي تقول في سرها إن هذه الفتاة من المؤكد هي الخادمة، ثم توجهت نظرات الملكة إلى ما تبقى من الطعام، والذي كانت الخادمة تنظفه ببطء.. ببطء شديد على نحو مخزٍ. كم أن خادمات هذه الأيام كسالى، لسوف تتغير الأمور كثيرًا عندما تصبح هي الملكة من جديد. انجرفت نظرات إيثلدريدا مرة أخرى إلى سنوري، ثم قالت في سرها إن هناك شيئًا غريبًا في هذه الفتاة؛ إذ لم ترفع نظراتها وهي تقلب الطرف في الأنحاء حولها كالسحلية، تتحاشى النظر في أي مكان. إنها فتاة مخادعة جدًا. وسرعان ما سوف يستيقظ سيدها ذات ليلة ليجد أن شحنة بضائعه بأكملها قد تم بيعها تحت سمعه وبصره، ولسوف يستحق ذلك حينها!

وبابتسامة حازمة ارتسمت على شفتيها، سمحت الملكة إيثلدريدا للمركب بأن ينجرف نحو الألفرون، بينما أخذت تتفحص هي الأنحاء الأخرى من المركب فحصًا دقيقًا بحثًا عن چينا. لقد كانت الملكة منذ قليل في طريقها إلى مستنقعات مرام، لكن ما إن التفتت عند انحناء النهر ورأت الألفرون راسيًا عند ضفة النهر حتى خالجها إحساس قوي بأن حفيدتها الشاردة موجودة في مكان ما في هذه الأنحاء، وهو أمر لم تفهمه، فالفتاة بلا شك موجودة الآن في كوخ الحارسة. هذا هو ما اتضح لها من الحديث الذي دار بين هذين الساحرين الأعظمين المزعجين - ولقد سمعتهما من خلف باب غرفة النوم. كانت الملكة إيثلدريدا من المؤمنين - بقوة - بصحة المعلومات التي يتم الحصول عليها من خلال التنصت على الأبواب، وقد أتقنت هي هذه الخصلة أثناء حياتها إتقانًا تامًا إلى حد أنها لم تكن تصدق قط أيًا مما تسمعه من أي شخص وجهًا لوجه حتى تسمعه مرة أخرى بطريقتها.

ومع تقدم المركب الملكي نحو الألفرون ازداد شعور الملكة إيثلدريدا بأن چينا على متنه، لكنها لا ترى أثرًا لها. وبملامح بدت عليها الحيرة، بدأت الملكة تتفحص المركب بدقة وتمعن، وبدا لها المركب أنه لا يزيد على كونه واحدًا من مراكب تجار الشمال العادية؛ فهو يحمل العلم الرسمي للرابطة الهنزية، ورغم مظهر الخادمة غير المهندم كان مرتبًا، وقريب الشبه بالسفينة، كما كان مصونًا بشكل جيد. كان كل شيء مسالمًا وهادئًا، كما ينبغي أن يكون؛ إذ كانت الحبال ملفوفة بدقة والشراع مطويًا بيد خبيرة و... ويحمل على متنه تنينًا.

24
غزاة المركب



لم *يتحرك التنين الرابض على ظهر المركب رغم نظرات الملكة إيثلدريدا الثاقبة*.. كان لافظ اللهب مستلقيًا وهو يغط، وطفت فقاعة غازية كبيرة صاعدة نحو الجزء العلوي من معدته، ثم تحررت بفرقعة مدوية. تراجعت الملكة إيثلدريدا وكأن الفرقعة أصابتها، وانسحب المركب الملكي بعيدًا عن الدخان المؤذي المنبثق من التنين. انحنت الملكة إيثلدريدا للخارج على جانب مركبها، وأخذت تحدق إلى الألفرون

بعينين تضيقهما، واستقر بها الرأي على أن هناك شيئًا غريبًا يحدث على متن هذا المركب، ولسوف تكتشفه. وبرشاقة كرشاقة طائر مالك الحزين الذي يتحسس طريقه وسط بركة من المياه الضحلة - خطا شبح الملكة مغادرًا المركب الملكي، وبمظهر بدا وكأنها تسير وسط بساتين القصر، راحت تمشي الهوينى على سطح المياه، ثم صعدت متن الألفرون.

قالت سنوري بلغتها وهي تشهق: «إنها هنا!»، ورغم جهل چينا بلغة سنوري، فهمت ما يكفي من نبرة صوتها، وغطست على الفور تحت البطانية الصوفية الكبيرة، مزحزحة أولر من مكانه، والذي كان نائمًا بعد ليلة أمس التي قضاها في حراسة المركب. فانطلق القط خارج القمرة كالصاروخ، وهرع إلى ظهر المركب، بذيل بدا وكأنه قطعة مقانق ضخمة يكسوها وبر ساخط. لم يكن أولر مجرد كائن يتحول ليلًا، بل أيضًا كان قطًا ينحدر من سلالة طويلة من القطط الرائية للأرواح، والتي تُعد أكثر انتشارًا عن البشر الرائين.. ومع صعوده ظهر المركب، قرر في سره أن هذا الشبح الزائر حتمًا لا يروقه، كما لم يرقه أيضًا منظر الجُرذين الجاثمين على الصاري، إلا أن أمرهما يمكن تأجيله قليلًا الآن، فهما يصلحان لأن يكونا وجبة عشاء لذيذة لهذه الليلة.

ومع رؤية شبح الملكة إيثلدريدا يسير قدمًا على ظهر المركب - ألقى أولر بجسمه عليه، وهو يموء كما تموء فقط القطط الرائية للأرواح. وهو مواء بشع، يجمع بين عويل الأرواح المنذرة بالشؤم وصوت الجنيات الصغيرة السمراء، مع لمسة من نواح نواحة المستنقع.. شهقت الملكة

إيثلدريدا من فرط صدمتها بأنه تم **اختراقها** بهذه الطريقة العنيفة، وسقطت منهارةً على ظهر المركب، وهي تسعل وتغمغم، وتشعر كما لو كانت قد ابتلعت قطًا بأكمله - بفروته ومخالبه وصراخه وكل شيء فيه.

سمع الفتى الذئبي لدى ضفة النهر مواء أولر، فانطلق جريًا بين البساتين إلى المركب ليتبين الأمر. وما إن وصل إلى الألفرون حتى رأى أمامه أغرب مشهد رآه في حياته؛ إذ كانت الفتاة التاجرة وقطها في حالة من العته الهستيري؛ العته الهستيري التام. وكان القط - وهو كائن برتقالي نحيل وشرير - يدفع نفسه تارةً للخلف وتارةً للأمام كأنه يخترق شيئًا ما، بينما كانت الفتاة تلوح بذراعيها وتصيح بكلام غير مفهوم بلغتها، بدا له وكأنه صياح تشجيع. وفجأة، توقف القط وضربت الفتاة بقبضة يدها في الهواء ضربة تشير إلى نشوة الانتصار، ورفعت القط من على الأرض، ثم انطلقت جريًا إلى جانب المركب، وراحت تنظر في النهر طويلًا من مكانها وهي تضحك.

قفز الفتى الذئبي على متن المركب، وهرع إلى القمرة في الأسفل، ثم همس بصوت أجش: «چينا؟ چينا؟».

وجاء الرد من أسفل البطانية يقول: «نعم».

«ما الذي تفعلينه أسفل البطانية هنا؟».

وجاء ردها بصوت مكتوم من أسفلها يقول: «اختبئ. فسوف تراك».

«إن الاختباء لن يجدي في شيء يا چين، إنها مجنونة.. دعينا نخرج من هنا والفرصة لا تزال سانحةً.. بسرعة قبل أن... يا للإزعاج!».

وهنا، ظهر وجه سنوري مبتسمًا من فتحة المركب، ثم هتفت: «لقد رحلت الروح المزعجة. لقد سقطت من على متن المركب، واختفت تحت سطح المياه، عادت الآن إلى مركبها، وتاجها تعلوه أعشاب من النهر»، ثم اختفت فجأة ابتسامة سنوري، وتسلقت نازلة سلم فتحة المركب وجلست على الدرجات العلوية منه، وهي تهز رأسها في حيرة.

وكان الفتى الذئبي أيضًا يهز رأسه، فقد انسد الآن طريق الهرب أمامهما، وكان ينبغي عليهما أن يرحلا عندما كانت الفرصة لاتزال سانحةً.

همهمت سنوري قائلة: «ثمة أمور لا أفهمها».

سألتها چينا، بينما كانت تتخلص من البطانية التي كانت تثير الحكة للغاية: «وما هذه الأمور؟».

«منها أن الملكة لم تصعد متن مركبي أثناء حياتها - فلماذا لم يتم إعادتها؟».

قال الفتى الذئبي: «ماذا قلتِ؟»، ثم تساءل في سره: لماذا تتحدث هذه الفتاة بالألغاز؟

فقالت سنوري تستظهر ما سبق أن حفظته عن ظهر قلب: «لا يستطيع الشبح أن يطأ بقدميه إلا حيثما وطئ أثناء حياته».

قال الفتى الذئبي ساخرًا: «إن هذا يبدو مثل أغاني الأطفال».

ردت سنوري عليه وقد شعرت أنه جرح مشاعرها: «إن هذا الكلام ليس من أغاني الأطفال، إنه قانون من قوانين الحياة الشبحية».

زمجر الفتى الذئبي، فقالت سنوري بإصرار: «إنه بالفعل كذلك، وأنا أعلم بالأمر، وكل الرائين للأرواح يعلمون ذلك».

فهمهم الفتى الذئبي قائلًا: «أف!».

رمقت چينا الفتى الذئبي بنظرة تحذير؛ فهي تصدق سنوري؛ إذ إن سنوري قد رأت شبح إيثلدريدا بكل وضوح، وچينا تريد الآن أن تعرف المزيد. فقالت له: «انتظر يا 409»، ثم سألت سنوري: «وما الأمور الأخرى التي بدت لكِ مبهمة؟».

«أنا لا أفهم كيف أن أعشاب النهر التصقت بتاجها، فليس للأرواح كيان مادي ملموس، ومن المفترض أن هذا مستحيل».

زفر الفتى الذئبي؛ لقد بدا له كل ما يحدث غريبًا أكثر من اللازم. أين تلك الأيام الخوالي التي كان يقضيها في الغابة، فهو على الأقل كان يعرف وضعه هناك بين معظم سكانها وكان سينعم غالبًا بوجبة عشاء.

فسألتها چينا هامسةً، وكأن الملكة إيثلدريدا تتنصت عليهم الآن من خارج الكابينة: «ما ماهيتها إذن؟».

ارتجفت سنوري وقالت: «لا أعلم. إنها بالفعل روح، ومع ذلك.. هي أكثر من روح».

طراخ! طراخ! طراخ! كان هناك شخص - أو شيء - يطرق ويدق على جسم المركب. هبت سنوري واقفةً على قدميها من فرط الفزع، وشهقت قائلة: «ما هذا؟».

أما چينا والفتى الذئبي اللذان كانا في هذه اللحظة قد تملكهما الخوف إلى حد ما - فقد علا الشحوب وجهيهما، وأخذ الصوت يتردد صداه داخل القمرة على نحو مفزع.. طراخ! طراخ!

همست چينا تقول: «لقد عادت إيثلدريدا ثانيةً».

فطلت سنوري برأسها بشجاعة من فتحة المركب، وقالت بصوتها الرخيم الذي تتميز به لهجة تجار الشمال: «مرحبًا».

رد عليها صوت مرح يقول: «مرحبًا.. هل تعلمون أن لديكم هنا تنينًا هاربًا على متن هذا المركب؟».

فسألته سنوري: «هارب؟ من أين؟».

«من القلعة. إنه ملك أخي، وأخي سوف يبحث عنه في كل مكان».

«أخوك؟»، ثم هرعت سنوري تصعد ظهر المركب فرأت فتى له عينان خضراوان ضاحكتان يربط مركبه في الألفرون.. نظرت سنوري إلى ردائه البحري المبقع بالملح وشعره الجعد والمتشابك، والذي يكاد لونه الأشقر أن يكون بلون شعرها، فعلمت أنه شخص مؤتمن.

قال نكو: «نعم، للأسف كنت أود أن أعرض عليك أن آخذه معي لأعيده، لكنه أكبر من أن يتحمله مركبي، ومركبك أنت أيضًا - لو سألتني عن رأيي.. يا إلهي! چين.. أنتِ هنا!».

برزت چينا من القمرة وضحكت قائلة: «نكو! ما الذي تفعله هنا؟».

«لقد أُرسلت كي أعيد زوارق تجديف روبرت البائسة، فهناك من اقتحم المخزن ليلة أمس وروبرت يعتقد أنه فقد العديد منها. لكنني لم أعثر إلا على واحد فقط حتى الآن». وأشار إلى زورق تجديف وردي

صغير الحجم يسحبه بمركبه، ثم استطرد قائلًا: «إنه مضيعة للوقت لو أردتما رأيي».

لاحظت چينا نظرة الحيرة التي علت وجه سنوري، فقالت لها: «هذا هو نكو. إنه أخي».

ردت سنوري التي بدأت تشعر أن سجل (أخيها) يتكدس بسرعة: «أخوكِ! الذي سقط عبر لوح زجاجي؟».

فسأل نكو: «أي لوح زجاجي؟».

«أخ!»، هكذا ردت چينا، وقد تلاشى حماسها الذي اجتاحها برؤية نكو على نحو جعلها تشعر كأن قواها خارت فجأة، ثم قالت: «أنت لا تعلم ما الذي حدث لسِب، أليس كذلك؟».

ورأى نكو الدموع تسيل من عيني چينا. وبقلب مثقل، صعد متن الألفرون.

ترك الفتى الذئبي چينا ونكو يجلسان معًا، وتسلل بعيدًا. كان هناك شخص يريد أن يطمئن عليه. ولقد وجد بالفعل لوسي جرينج حيث تركها جالسة على ضفة النهر أسفل شجرة صفصاف.

قالت لوسي بتذمر: «أنت مرة أخرى؟ قلت لك إنني أريد الجلوس وحدي. ولا أحتاج على أية حال إلى زورق التجديف الغبي هذا». كانت لوسي تجلس متلحفةً عباءتها الزرقاء، وتضم ركبتيها بذراعيها، مع تدلي الرباط الوردي لحذائها الطويل بعد أن بلله النجيل الرطب وكانت تمسك بيدها قصاصة ورق جعدة من كثرة طيها وبسطها، وتحركت شفتاها ببطء وهي تقرأ كلمات الرسالة التي باتت تحفظها عن ظهر قلب. كانت الورقة

رسالة من سايمون هيب، وقد عثرت عليها في طرف عباءتها التي أعادتها إليها جينا، وكانت الورقة يتصدرها كلمة المرصد، وتقول:

إلى لوسي، حبيبة قلبي

هذه العباءة هدية لكِ. سوف أعود قريبًا

ونعيش معًا في قمة البرج.

ولسوف أجعلك تفخرين بي. انتظريني.

المخلص لك دائمًا،

سايمون

لكن لوسي سئمت الانتظار، وهي تعلم الآن أن سايمون لن يستطيع أبدًا العودة مرة أخرى إلى القلعة.. ومن ثم، انطلقت بنفسها تبحث عنه. لكن كل ما فعلته حتى الآن أنها استغرقت في النوم، وعندما استيقظت لم تجد زورقها، ولم يكن هذا بداية مبشرة، ثم اقتحم صوت الفتى الذئبي أفكارها.

وقال وهو يلهث: «لقد عثرت على زورقك».

فسألته لوسي وهي تطوي بسرعة ورقتها الثمينة وتهب واقفة على قدميها: «أين هو؟».

«إنه مع نكو».

«نكو هيب؟ أخو سايمون».

«نعم، كما هو واضح، وإن كان ذلك رغم أنفه». فالفتى الذئبي، والذي كان قد تلقى ضربة من إحدى **صواعق** سايمون، يحمل انطباعًا سيئًا تجاهه.

انطلق من عيني لوسي البنيتين شرر غاضب، وقالت: «ما الذي تقصده بقولك (رغم أنفه) أيها الفتى الوقح؟».

رد الفتى الذئبي الذي رأى في لوسي جرينج شخصًا مثيرًا للمتاعب، وقال: «لم أقصد شيئًا». لقد بدأ يشعر الآن بالندم بأنه اهتم أن يسألها منذ وقت قصير إذا ما كانت تحتاج لمساعدة عندما وجدها عند ضفة النهر تبحث عن الزورق والدموع تنهمر من عينيها.

سألته لوسي بلهجة آمرة: «وأين هو نكو هيب؟ أنا ذاهبة إليه لأرى كيف تجرأ وسرق زورقي. يا لها من وقاحة!».

أشار لها الفتى الذئبي بذراعه إشارة عامة نحو الألفرون، رغم علمه بأنه ربما كان من الأفضل ألا يفعل، وراقبها وهي تسير بخطوات واسعة نحو مركب التاجرة، ثم سار خلفها مبتعدًا عنها بمسافة آمنة، وهو ما كان يعني مع لوسي جرينج أنها مسافة طويلة.

ومع اقتراب الفتى الذئبي من الألفرون سمع أصواتًا عالية.

«أعد إليّ زورقي!».

«إنه زورق روبرت وليس زورقك».

«إن روبرت يقول لي إني أستطيع استخدام زوارقه متى شئت، ما رأيك إذن؟».

«في الحقيقة، أنا...».

«ولسوف أستخدمه الآن يا نكو.. أفهمت؟».

«لكن...».

«لو سمحت، ابتعد عن طريقي، ممكن؟».

ووصل الفتى الذئبي في اللحظة التي رأى فيها لوسي جرينج تنطلق جريًا فوق ظهر الألفرون، ثم تتعثر قدماها في ذيل لافظ اللهب المستغرق في النوم وتسقط. لا يوجد ما يمكن أن يثني لوسي جرينج عن عزمها لوقت طويل فنهضت على الفور، ثم سدت أنفها مع انطلاق فقاعة غازية أخرى من معدة لافظ اللهب، وأخيرًا تدلت من جانب الألفرون لتنزل إلى الزورق.

تبعهـا نكـو، وسـألها مـن بـاب القلق عليهـا: «إلـى أين سـتذهبين بالزورق؟».

«ليس هذا من شأنك أيها الفتى المتطفل. هل كل إخوة سايمون مزعجون بهذا الشكل؟».

وهنا أضافت سنوري إلى قائمة الإخوة سايمون، وهي تتساءل في سرها كم يبلغ عددهم بالضبط؟!

قال نكو بإصرار: «لكن زورق التجديف هذا ليس آمنًا للإبحار به في النهر، إنه لا يزيد على كونه لعبة، الغرض منه أساسًا اللهو والمرح في الخندق المائي».

قفزت لوسي على متن الزورق الذي أخذ يتأرجح بشكل خطير، ثم ردت عليه قائلة: «لقد أوصلني إلى هنا، ولسوف يوصلني إلى الميناء، سترى».

قال نكو بفزع: «لا يمكن أن تبحري بذلك الشيء حتى الميناء! هل لديك فكرة عن سرعة حركة المد والجزر عند مصب النهر؟ ستجعلك تدورين بالزورق حول نفسك ثم تسحبك إلى البحر - هذا إذا لم تغرقك الأمواج التي تجتاح الميناء قبالة الجرف الرملي العظيم هناك. أنت مجنونة».

ردت لوسي بتجهم: «ربما، لكن هذا لا يهمني، سأذهب على أية حال»، ثم حلت الحبل وأمسكت مقبضي المجدافين، وبدأت تجدف بهما وهي تستشيط غضبًا.

راح نكـو يراقـب الزورق الوردي الصـغير وهـو يبتعد في ميـاه النهر متأرجحًا، إلى أن فاض به الكيل، فصاح قائلًا: «لوسي، خذي مركبي!».

صـاحت لوسـي بصـوت أعلى من القعقعة المزعجة التي يصـدرها المجدافان، متسائلة: «ماذا قلت؟».

«خذي مركبي من فضلك».

شعرت لوسي بالارتياح، وإن كانت لن تُظهر لهم ذلك؛ فقد خالجها إحساس رهيب بأن نكو مُحقٌ فيما قاله عن زورق التجديف. وبشيء من الصعوبة - وبعد أن أخذت تبدل التجديف بسرعة من مجداف لآخر بالتناوب لمدة خمس دقائق - تمكنت من إدارة دفة الزورق للخلف وعادت إلى الألفرون وهي لاهثة، وتشعر بسخونة في جسمها، وما زال مزاجها متعكرًا.

راقبت چينا، وستوري، والفتى الذئبي ونكو إبحار لوسي ثانيةً، لكن هذه المرة وهي على متن زورق تجديف نكو العميق الجدير بأن ينطلق في البحار.

سألت چينا نكو: «لكن كيف ستعود أنت الآن؟ أنت بالطبع لن تعود بزورق التجديف هذا، أليس كذلك؟».

زمجر نكو قائلًا: «أتمزحين؟ على جثتي أن أركب واحدًا من هذه الزوارق، لاسيما هذا الزورق بلونه الغبي هذا، أنا ذاهب معكم للبحث عن سِب أيتها الحمقاء».

فابتسمت چينا لأول مرة منذ اختفاء سبتيموس؛ فكل شيء مع نكو سيكون على ما يُرام ولا يساورها شك في ذلك.

25

كتاب أنا، مارسيلوس



من يوميات مارسيلوس باي:

الأحد: يوم الاعتدال الخريفي

كان اليوم رائعًا، وإن كان أيضًا مروعًا إلى أقصى حد.

وعلى الرغم من أنني تنبأت بذاك الحدث في رُزْنامتي، (أي التقويم الذي يتنبأ بالأحداث المستقبلية، والذي سيعد الجزء الأخير من كتابي أنا، مارسيلوس).

لم أكن أصدق حقيقة أن هذا الأمر سيُكلل بالنجاح.

فاليوم، في الموعد الذي تم تعيينه، أي في الساعة السابعة وسبع دقائق من صباح اليوم، اخترق بالفعل تلميذي الجديد اللوح الزجاجي.

وعلى الرغم من استيقاظي هذا الصباح قبل الموعد، وحرصي على أن أكون بكنف الباب الكبير أرقب موعد انفتاحه، كانت دهشتي عظيمة عندما انفتح على مصراعيه وتبدّى أمامي اللوح الزجاجي العاكس الذي صنعته يداي، ورأيت على نحو غامض خلفه غلامًا يبدو الفزع في عينيه. وكان يتدثر رداء أخضر غريبًا وحزامًا فضيًا، ولا يرتدي حذاء، وكان شعره مموجًا لكن وجهه كان مبهجًا ولقد راقني كثيرًا من أول نظرة. لكن ما لم يرقني، بل ما مقته وارتعبت منه، هو رؤية ذلك الكائن الذي كان يقبع خلفه. لقد علمت أن هذا الكائن ليس إلا أنا.. البائس المسكين شخصيًا - بعد خمسمائة عام من الآن.

لقد اخترق الغلام اللوح الزجاجي بسلام وهو يقيم في داري ها هنا الآن. ولكم أتمنى أن تتلاشى لمحة البؤس واليأس التي ترتسم على محيّاه حين يرى العجائب التي قُدر له أن يُشارك فيها، والإنجازات الرائعة التي سيقوم بها.

الأربعاء

لقد مرت ثلاثة أيام منذ قدوم تلميذي الجديد ويبدو أن الغلام يُبشر بالخير، ومع اقترابنا من موعد اقتران الكواكب، وهو الحدث الذي كنت أنتظره منذ زمن، بدأت - ولاشك في ذلك - أشعر بالأمل في أن صبغتي الجديدة التي أصنعها سوف تنجح.

وأنا أتمنى ذلك من كل قلبي؛ لأني بالأمس سألت تلميذي، وليتني ما فعلت: «كيف بدا لك منظر ذلك البائس المسكين - الذي هو أنا - والذي صار من القدماء المروعين، وأخذك من زمنك؟ هل كان - هل كنت - منفرًا إلى حد كبير؟» فأومأ لي تلميذي برأسه لكنه لم ينبس ببنت شفة.

ولقد اعتصرته كي ينطق، ونظرًا لما بدا عليّ من قلق، رق لحالي. وكم كنت أتمنى لو لم يرق لحالي. إن له لطريقة عجيبة في التحدث، ومع ذلك أخشى أني بالفعل فهمت كل كلامه.

ولقد أنبأني بالتفصيل كيف أن رائحتي كانت لا تطاق، وأني كنت أتحرك كأني سلطعون، وكنت أنوح من فرط الألم مع كل خطوة أخطوها، وألعن المصير الذي وصلت إليه. ولقد أنبأني أن أنفي كان جعدًا مثل جلد الفيل (وإن كنت لا أدري ما هذا الكائن، لكني أشك في كونه علجومًا قذرًا كأقذر ما يكون وأن أذنيّ كانتا أشبه بثمرة الكرنب الكبيرة المبقعة والممتلئة باليرقات.

يرقات! يا للهول! كيف يمكن أن يصل بي الحال إلى هذا الحد؟ كما قال إن أظافري كانت طويلة صفراء كمخالب ضخمة، ومتسخة من أثر تراكم السخام فيها خمسمائة عام.

وأنا أمقت تمامًا الأظافر المتسخة - ألن أتردى حقًا إلى هذه الحالة المزرية؟

لكن يبدو أن هذا هو ما سيحدث لي. ولا بد أن أتحمل خمسمائة عام من التحلل والتعفن.

إنني لا أطيق أن أفكر في هذا كله.

بعد ذلك، تحريت نظرة إشراق تعلو وجه تلميذي وسط كآبته، وصاحب ذلك خفوت في إشراقي أنا.

الجمعة: يوم اقتران الكواكب

يوم يبعث على الأمل. فأنا وسبتيموس قمنا بالفعل بمزج الصبغة في الساعة المرتقبة، والصبغة الآن معدة كي تختمر وتنضج في الخزانة في (الغرفة)، والدور المنوط به سبتيموس هو معرفة متى يمكن أن أضيف الجزء الأخير. فلا أحد يستطيع أن يحدد اللحظة المناسبة لذلك إلا الابن السابع للابن السابع، هذا هو ما بت أعرفه الآن. ولكم يحزنني أني تجرعت صبغتي الأولى قبل مجيء سبتيموس. كانت أمي محقة، ألم تكن دائمًا تقول لي: «لسوف يؤدي بك التعجل والغرور إلى الفشل يا مارسيلوس حقًّا».

كنت دائمًا متعجلًا ومغرورًا حتى ظننت أني أستطيع أن أصنع الصبغة المتقنة بدون الابن السابع للابن السابع. لكن للأسف، الحقيقة (أيضًا كما تقول أمي دائمًا) أنني لست سوى شخص بائس مجنون.

أتمنى أن تنجح هذه الصبغة الجديدة، وتمنحني ليس الحياة الأبدية فحسب، بل الشباب الدائم أيضًا. ولكم أؤمن بقدرات تلميذي؛ إنه غلام نابه وحريص للغاية ويكنُّ حبًا كبيرًا **للطب**، مثلي تمامًا عندما كنت في

مثل سنه، رغم أني ولا شك لم أتسم بكل هذا اليأس والإحباط والصمت.

الخميس

مرت عدة أشهر منذ أن صنعنا الصبغة الجديدة حتى الآن، لم يخبرني سبتيموس بأنها باتت جاهزة. ولقد بدأ صبري ينفد وأخشى أن تفسد الصبغة أثناء انتظارنا. إنها فرصتي الأخيرة. فلن أستطيع أن أصنع المزيد منها، بما أن اقتران هذه الكواكب السبعة لن يحدث إلا بعد مئات السنين، وأنا على يقين بأنه لن يكون في وسعي أن أصنع غيرها مستقبلًا. وأمي تصر يوميًّا على أن تحصل على صبغتها الخاصة بها. إنها تتملقني إلى أن تعرف كل ما أصنعه وأنا لا أستطيع أن أخفي عنها شيئًا.

السبت

أكتب الآن وقد داخلني بعض الحماس؛ فاليوم سنقوم **بوضع الختم** على أعظم كتبي لنغلق عليه غلقًا محكمًا، وهو كتاب أنا، مارسيلوس. فتلميذي الجديد الذي مضى على بقائه هنا حتى الآن مائة وتسعة وستون يومًا يعمل بشكل رائع، ويستكمل المراجعات النهائية المتبقية بالنسبة للصفحات الأخيرة، وسرعان ما سأضطر لأن أتوجه إلى الغرفة العظمى من أجل مباشرة كل الأعمال التي تنتظرني.

وبعد أن أنتهي من **وضع الختم** على عملي العظيم، فسوف أطلب مرة أخرى إلى الغلام سبتيموس أن يلقي نظرة على صبغتي الجديدة. أتمنى

أن تكون جاهزة بسرعة حتى أستطيع أن أتجرع منها. أمي ينفد صبرها يومًا بعد يوم؛ لأنها تعتقد أن الصبغة لها.. ها ها! أنا لم يصل بي الحمق حتى أتمنى لها أن تعيش للأبد. أنا أفضل الموت حينها. غير أني لا أستطيع.. سحقًا!

الساعة على ما يبدو تدق العاشرة الآن. لا بد ألا أتأخر أكثر من ذلك بل لا بد أن أعجل لمباشرة العمل بكتابي.

وما إن رأى سبتيموس مارسيلوس قادمًا حتى أنهى رسالته إلى مارشا على عجل ووضعها في جيبه؛ فقد كان سبتيموس يخطط لأن يدس الرسالة خلسةً في كتاب *أنا، مارسيلوس* في أول فرصة، قبل **وضع الختم** عليه ظهر هذا اليوم، في الموعد المفترض الساعة 1:33.

كان سبتيموس يعرف كتاب مارسيلوس باي معرفة جيدة؛ فقد قرأه عدة مرات على مدار الأيام الماضية التي قضاها في زمن مارسيلوس، والتي لا يبدو أن لها نهاية.. وكان الكتاب مقسمًا إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول هو *الكيمياء*، والذي يبدو على حد علم سبتيموس غير مفهوم على الإطلاق - على الرغم من إصرار مارسيلوس على أن هذا الجزء يوفر إرشادات واضحة وبسيطة عن كيفية تحويل المعادن إلى ذهب والعثور على مفتاح الحياة الأبدية!

أما القسم الثاني، وهو باب **الطب**، فكان مختلفًا، وقد فهمه سبتيموس بسهولة، ويشمل تركيبات معقدة لأدوية، وعقاقير مهدئة للسعال، وأقراصًا

وجرعات، ويضم شروحًا مقنعة عن أصل العديد من الأمراض، ورسومًا مفصلة تفصيلًا رائعًا عن تشريح جسم الإنسان، لم ير سبتيموس مثيلًا لها من قبل. وباختصار، احتوى هذا القسم على كل ما يحتاج إليه المرء كي يصبح طبيبًا ماهرًا، ولقد قرأه سبتيموس مرة تلو أخرى إلى أن بات يحفظ الكثير منه عن ظهر قلب. وهو الآن يعرف كل شيء عن اليود والكينين والكريوسوت والكاموميل وعرق الذهب، وغير ذلك من المواد ذات الرائحة الغريبة، ويستطيع الآن أن يحضر مضادات السموم والمسكنات، والمواد المخدرة، ومغلي الأعشاب، ومرطبات البشرة، والإكسير. ولقد لاحظ مارسيلوس اهتمام سبتيموس **بالطب**، فأعطاه كراسة ملاحظاته الخاصة **بالطب** التي تُعد شيئًا نادرًا وثمينًا بما أن الورق في ذلك الزمن كان باهظ الثمن.

أما القسم الأخير من كتاب *أنا، مارسيلوس*، فكان عن *التقويم*، وهو دليل يومي يتنبأ بالأحداث اليومية على مدار ألف سنة وسنة قادمة. ولقد خطط سبتيموس في سره أن يدس الرسالة في هذا الجزء - في الباب الخاص باليوم الذي اختفى فيه.

كان سبتيموس يرتدي العباءة ذات اللونين الأسود والأحمر التي يرتديها التلامذة الكيميائيون، والتي كانت ذات حافة ذهبية ومطرزة برموز كيميائية ذهبية على الأكمام، كما كان يرتدي حول خصره حزامًا جلديًا سميكًا مربوطًا بمشبك ثقيل من الذهب، يدس قدميه، بعد أن فقد حذاءه البني الطويل - الذي كان يحبه كثيرًا - في الحذاء الغريب ذي

المقدمة المدببة والذي يُعد صيحة ذلك الزمن، ويجعله يشعر بأن منظره في غاية البلاهة. ولقد قطع سبتيموس في نهاية الأمر الطرفين المدببين للحذاء اللذين كانا يتسببان في تعثره وسقوطه بشكل متواصل، إلا أن هذا لم يُحسن كثيرًا من منظر الحذاء، وجعل البرد يتسلل إلى أصابع قدميه. جلس سبتيموس متلحفًا بعباءته الصوف الشتوية؛ إذ كان الطقس هذا الصباح في الغرفة العظمى للكيمياء **والطب** باردًا؛ حيث بدأ الفرن يبرد بعد أيام عديدة من الاستخدام المتواصل.

كانت الغرفة العظمى عبارة عن قبو ضخم دائري الشكل يقع أسفل مركز القلعة تمامًا، ولم يكن هناك شيء يُذكر يعلو الغرفة فوق سطح الأرض سوى فتحة المدخنة التي تعلو من الفرن الضخم، وتنبعث منها أدخنة ضارة ليل نهار - وفي كثير من الأحوال تخرج هذه الأدخنة ملونة بشكل مثير للاهتمام. وتصطف بطول محيط الغرفة طاولات سميكة من خشب الأبنوس، منحوتة باستدارة تلائم استدارة الحائط، مرصوص عليها قوارير ضخمة معنونة بدقة ونظام، ومملوءة بمختلف أشكال وأنواع المواد والكائنات - الحية منها وغير الحية - ويملأ الغرفة، رغم وقوعها أسفل سطح الأرض بحيث يدخلها ضوء الشمس، بريق ذهبي ساطع، ففي كل شبر من الغرفة هناك شموع ضخمة مشتعلة على الدوام، يعكس ضوءها بحرًا من الذهب الذي يملؤها.

ولقد بُني في الجدار بجانب مدخل الغرفة الفرن الذي حول فيه مارسيلوس لأول مرة معادن أساسية إلى ذهب.. ومن فرط استمتاع

مارسيلوس بلحظات الحماس التي تعتريه وهو يرى السواد المنطفئ للرصاص واللون الرمادي للزئبق يتحولان ببطء إلى سائل أحمر متوهج ثم إلى ذهب نقي رائع ذي لون أصفر عميق بعد أن يبرد، لا يكاد يمر يوم دون أن يصنع قدرًا ولو بسيطًا من الذهب لمجرد المتعة. وبهذه الطريقة، جمع مارسيلوس كمًّا هائلًا من الذهب، من كثرته تم تحويل كل شيء في الغرفة قابل لأن يُصنع من الذهب إلى ذهب - كمفصلات ضلف الدواليب، ومقابض الأدراج ومفاتيحها، والسكاكين، والحوامل الثلاثية، وحوامـل المصابيح، ومقابض الأبواب، والصنابير، إلا أن كل هذه السفاسف المصنوعة من الذهب تبدو تافهة بجوار أضخم كتلتين من الذهب رآهما سبتيموس في حياته - وتمنى لو ما رآهما أساسًا - وهما ضلفتا الباب العظيم العابر للزمن.

فهذا هو الباب الذي دُفع منه سبتيموس منذ مائة وتسعة وستين يومًا. وقد شيد في الحائط المواجه للفرن، ويتكون من كتلتين من الذهب الخالص بارتفاع عشرة أقدام، تكسوه سلسلة طويلة من الرموز المحفورة التي تُشكل حسابات خاصة بالزمن - كما قال له مارسيلوس. ويكتنف جانبي الباب تمثالان يشهر كل منهما سيفه الحاد. وقد كان الباب **مغلقًا بالمفتاح** وعليه متاريس - وهو أمر سرعان ما اكتشفه سبتيموس - وكان مارسيلوس فقط هو الذي يحتفظ **بالمفتاح**.

جلس سبتيموس صباح اليوم في مكانه المعتاد على كرسي عرش الوردة، بجوار رأس مائدة تمتد طويلًا وسط الغرفة، موليًا ظهره للباب

الكريه. كان يتوسط المائدة ويضيئها صف من الشموع المشتعلة الساطعة. وقبعت أمام سبتيموس رزمة من الأوراق المرتبة بدقة ونظام؛ هي خلاصة عمله الذي قام به منذ الصباح الباكر، والذي تضمن المراجعة الأخيرة والمضنية لحسابات مارسيلوس الفلكية، وهي المراجعة التي تُعد بمثابة اللمسات الأخيرة لما يسميه مارسيلوس عمله العظيم.

وعلى الطرف الآخر من المائدة، جلس سبعة كتبة، وعددهم سبعة؛ لأن هذا الرقم له مدلول خاص بالنسبة لمارسيلوس باي. هؤلاء الكتبة في المعتاد لا توكل إليهم أية أعمال يقومون بها، ويقضون وقتهم يحملقون في فراغ الغرفة، ويعبثون في أنوفهم، ويهمهمون بأغانٍ غريبة بلا أي تناغم، ودائمًا ما تقود سبتيموس إلى الشعور بوحدة رهيبة؛ إذ إن نوتها الموسيقية مجمعة بشكل غريب، ولا تشبه أي شيء سمعه من قبل. أما اليوم فكان الكتبة السبعة بلا استثناء منشغلين تمامًا، وأخذوا يواصلون التدوين على قدم وساق، يصاحبهم صوت خربشة الأقلام، ناسخين بأفضل خط لديهم الصفحات السبع الأخيرة لهذا العمل العظيم، ويعملون باستماتة كي ينتهوا من العمل في الوقت المحدد. وكل حين وآخر يتثاءب أحدهم؛ فهم مثل سبتيموس، يعملون بجد وعناء منذ السادسة صباحًا، ومع دخول مارسيلوس عليهم الآن بخطوات واسعة علم الجميع أن الساعة العاشرة أو أن الساعة قد دقت العاشرة كما يقول مارسيلوس.

كان مارسيلوس باي في ريعان الشباب عُرِفَ بالوسامة، والزهو بالنفس بعض الشيء، شعره الأسود الثقيل جَعْدٌ يتدلى على جفنيه طبقًا لصيحة

ذلك الوقت، وكان يرتدي العباءة الطويلة ذات اللونين الأسود والأحمر التي يرتديها الكيميائيون، والتي زينت بكُمٍّ من الذهب يفوق كثيرًا الذهب الذي يكسو عباءة تلميذه، ولقد علت أطراف أصابعه، حتى في هذا اليوم المهم، ذرات من الذهب. ابتسم مارسيلوس باي وهو ينظر في أنحاء الغرفة؛ فكتابه العظيم *أنا، مارسيلوس* الذي لا يشك في أنه سوف يُعد مرجعًا على مدار القرون القادمة وسيُخلد اسمه - قد أوشك على الانتهاء.

طرقع مارسيلوس بأصابعه بنفاد صبر وهو يتفحص الغرفة بحثًا عن الحرفي المتغيب، وقال: «أين مغلف الكتب؟ أيها البُلهاء المعاتيه! أين أخفيتم مغلف الكتب؟».

فجاء صوت مرتجف من خلفه يقول: «لم أختبئ يا صاحب السمو. أنا - بلا ريب - ها هنا، رغم أني أقف منذ أربع ساعات أو أكثر على قدمي فوق الأحجار الباردة. لقد كنت هنا وسأظل».

كتم عدد من الكتبة ضحكاتهم، ثم التفت مارسيلوس وحدق إلى الرجل الأحدب المسن الذي كان يقف بجانب مطبعة تغليف الكتب، وقال له: «كفاك سفسفة، وضع آلة الطباعة على المائدة».

تسلل سبتيموس من مكانه، وقد رأى الرجل يرفع آلة الطباعة بشق الأنفس، وذهب ليساعده. ومعًا، رفعا الآلة الثقيلة ووضعاها على المائدة فارتطمت بصوت مكتوم، فنثرت الحبر من المحابر وأسقطت الأقلام على الأرض.

صاح مارسيلوس بعد أن حطت بعض القطرات المتناثرة من الحبر الأزرق الداكن على آخر صفحات كتابه، قائلًا: «احترسوا!»، ثم رفع

الورقة التي كان أحد الكتبة قد انتهى من نسخها توًا، وقال: «لقد خربت الورقة»، ثم تنهد وأردف قائلًا: «لكن الوقت ليس في صالحنا، ولا بد من تغليف الكتاب كما هو الآن. إن هذا الموقف يثبت أن الإنسان مهما حاول فلن يصل إلى أقصى درجات الإتقان والكمال. هكذا هو حال الدنيا. لكنَّ بعضًا من بقع الحبر لن تحيد بي عن هدفي. سبتيموس، لقد حان الآن وقت مهمتك».

رفع سبتيموس رزمة من أوراق الرق الضخمة – وتمامًا كما أرشده مارسيلوس صباح اليوم، أخذ أول ثماني ورقات، ثم ثناها من منتصفها، وناولها لأقرب كاتب، والذي أخرج بدوره إبرة كبيرة بها خيط سميك من الكتان، وبدأ وهو يحشر لسانه بين أسنانه من فرط التركيز، يحيك الأوراق بطول الخيط المثني، ثم ناولها سبتيموس إلى مغلف الكتب. وهكذا، استمرت هذه العملية الساعات المتبقية من الصباح، وظل الكتبة السبعة يحيكون الأوراق، وكلما شكتهم الإبرة أو تعقد الخيط، بدءوا في السب بصوت هامس. وانشغل سبتيموس بالجري من كاتب إلى آخر؛ حيث أصر مارسيلوس باي على أن يقوم سبتيموس بنفسه بمناولة الكتبة الصفحات؛ لاعتقاده أن لمسة من الابن السابع للابن السابع يمكنها أن تمنح قوى الخلود، حتى للكتب!

كانوا قد وصلوا الآن إلى قسم التقويم، ومع اقترابهم من الصفحة التي تشمل الزمن الذي يستهدفه سبتيموس، بدأ الابن السابع للابن السابع يزداد توترًا، رغم كل محاولاته لإخفاء ذلك؛ فهو يريد باستماتة إرسال

رسالة إلى مارشا، ومحاولة الاتصال بزمنه. ولقد وصلت قناعته الآن بأن مارشا على الأرجح لن تستطيع أن تساعده؛ لأنه لو كان في وسعها أن تعيده إلى زمنه – وهو دائمًا عندما يصل به التفكير في هذه النقطة يكاد يتفتت مخه – لكانت بلا شك فعلت ذلك من قبل وما اضطر للمكوث هنا حتى هذه اللحظة، ولخمسة أشهر.. أليس كذلك؟ لكن أيًا كان ذلك الذي تستطيع مارشا أن تفعله فهو يريد أن يخبرها بما حدث.

ثم أدرك سبتيموس فجأة أن الورقة التي تتصدر المجموعة التالية هي الورقة التي تشمل التاريخ المقصود. وبيدين مرتجفتين، زجها وسط مجموعة من ثماني ورقات أخرى ليختل تسلسلها اختلالًا طفيفًا، لكن ما باليد حيلة – ثم ناول الأوراق إلى أقرب كاتب ليس منشغلًا ليحيكها. وما إن انتهى الكاتب من حياكتها حتى أخذ سبتيموس الأوراق التي باتت مثنية الآن ودس رسالته. وكالمذنب، راح ينظر حوله خشية أن تكون الأعين متربصة به، لكن كان العمل في تجميع الكتاب يتم بوتيرته المنتظمة، وأخذ مغلف الكتب الأوراق منه بوجه يكسوه تعبير الضجر، وأضافها إلى رزمة أوراق الرق التي معه، ولم يلحظ أحد أي شيء.

جلس سبتيموس مرتجفًا، وعلى الفور اصطدم بدواية الحبر وسكبها.

قطب مارسيلوس جبينه، وطقطق بأصابعه لأحد الكتبة قائلًا له: «اذهب واجلب خرقة قديمة. لن أسمح بتأخير موعد انتهاء هذا الكتاب».

وفي الساعة 21:1، كان مغلف الكتب قد انتهى من تغليف كتاب *أنا، مارسيلوس*، وناوله لمارسيلوس باي، بمصاحبة بضع صفارات أطلقها

الكتبة بصوت خفيض؛ إعجابًا بالكتاب الذي بدا بالفعل جميلًا؛ إذ كان مغلفًا بغلاف جلدي ناعم، وعنوانه مذهبًا ومحاطًا بأشكال متنوعة من الرموز الكيميائية التي بات سبتيموس يفهمها الآن، وتمنى لو ما كان فهمها، ولقد قام مغلف الكتب بصنع حافة للصفحات من أوراق الذهب الخاصة جدًا بمارسيلوس، ووضع الكتاب على شريط سميك من الحرير الأحمر.

في 1:25 سخن مارسيلوس إناء نحاسيًا صغيرًا يحتوي على شمع أسود للأختام على شعلة شمعة.

وفي 1:31 أمسك سبتيموس الكتاب، بينما كان مارسيلوس باي يسكب الشمع على طرفي الشريط ليلصقهما ببعضهما البعض.

في 1:33 ضغط مارسيلوس باي الخاتم المنقوش في شمع الختم. وبذلك، أصبح كتاب *أنا، مارسيلوس* **مختومًا**، وتنفس جميع من بالغرفة الصُعداء.

ثم قال مارسيلوس، وهو يمسك الكتاب بتبجيل، ولا يكاد يجد كلمات تعبر عن فرحته: «لقد اكتمل الكتاب العظيم...».

ثم اخترق أحلام العظمة والجلالة التي كان يحلم بها مارسيلوس باي الصوت المشاكس لمغلف الكتب وهو يقول: «إن معدتي تقرقر، لقد فاتت فترة الراحة التي نتناول فيها الخبز. لن أتأخر أكثر من ذلك. أتمنى لسموك صباحًا جميلًا»، ثم انحنى الرجل محييًا، وغادر الغرفة، فتبادل الكتبة النظرات فيما بينهم، فمعداتهم هم أيضًا ليست صامتة، لكنهم لا

يجرؤون على البوح بذلك. وانتظروا بينما كان الكيميائي الأخير مستغرقًا في أحلام العظمة والجلالة، يهدهد الكتاب العظيم بين ذراعيه، وينظر إليه طويلًا كأنه وليد جديد رُزق به.

لكن على الرغم من آمال مارسيلوس باي العظيمة، فلم يلتفت أحد إلى كتابه، لقد تم **إحكام الغلق** عليه بعد كارثة الكيمياء الكبرى ولم يطلع عليه أحد قطُّ بعد ذلك - إلى أن نزعت مارشا أوفرستراند الختم في اليوم الذي تم فيه اختطاف تلميذها من زمنه.

26
برج السحرة



ذهب الكتبة ليتناولوا غداءهم، تاركين سبتيموس في الغرفة. اقترب مارسيلوس من تلميذه، وقد بدا عليه القلق، ثم قال، وهو يجلس على المقعد الخشبي المجاور له، والذي يشغله في المعتاد الكاتب الخاص بسبتيموس: «أي تلميذي امنحني بعضًا من وقتك؛ فالصيغة أوشكت على الاكتمال، وهي بحاجة لانتباهك»، وأشار مارسيلوس برأسه إلى خزانة زجاجية

موضوعة على كتلة ذهبية مربعة تقبع على إحدى الطاولات المصنوعة من الأبنوس عند طرف الغرفة. وكان بداخل الخزانة الزجاجية زجاجة صغيرة موضوعة على حامل ثلاثي رقيق من الذهب، مملوءة بسائل أزرق ثخين. وعلى الرغم من أن سبتيموس كان مرهقًا بعد العمل طوال هذا النهار فلم يكن لديه مانع من استغلال الفرصة كي يعمل مع مارسيلوس في بعض **الأعمال الطبية** الحقيقية، فأومأ له برأسه ونهض من على مقعده.

كان بجانب الخزانة الزجاجية صندوق زينة جديد من خشب البلوط أركانه مغطاة بالذهب، وموصولة بشريطين ذهبيَّين سميكين.. كان هذا هو الصندوق **الطبي** الشخصي الخاص بسبتيموس الذي يفتخر به كثيرًا. ولقد أعطاه إياه مارسيلوس عندما بدأ العمل معًا في تحسين صبغة الحياة الأبدية. كان هذا الصندوق هو الشيء الوحيد الذي يمتلكه سبتيموس من ذلك الزمن، وقد احتوى على ملاحظات مكتوبة بدقة تامة عن الخلطات، وتركيبات السعال والتهاب الحلق، والوصفات العلاجية. لكن أثمن محتوياته هو نسخة من التركيبة المضادة للمرض الغامض، مطوية بحرص في القاع. كان هذا الصندوق **الطبي** هو الشيء الوحيد الذي سيندم على تركه في هذا الزمن لو تسنى له يومًا فرصة محاولة تنفيذ خطة الهروب - ولو قدر لها أساسًا النجاح.

لكن رغم أن الصندوق بات ملكًا له، فلم يكن **مفتاحه** معه؛ فالصندوق، مثل كل شيء في غرفة الكيمياء والطب، يُفتح بمفتاح واحد - وهو **المفتاح** الذي يتدلى من سلسلة ذهبية سميكة تحيط بعنق مارسيلوس، مشبوكة بشكل آمن بدبوس ذهبي كبير داخل ردائه. وبنظرة

حذرة وجهها إلى سبتيموس، فك مارسيلوس الدبوس الذي يشبك المفتاح وسحب السلسلة، كان المفتاح هو نفس القرص الذهبي السميك الذي يضم سبع نجمات تحيط بدائرة تتوسطها نقطة، والذي كان مارسيلوس المسن يرتديه. رنا سبتيموس إلى القرص طويلًا، وهو يعلم أنه هو الذي يفتح الباب العظيم العابر للزمن، والسبيل إلى حريته. لكن لافتقاده القدرة على نصب كمين لمارسيلوس وخطف القرص منه - وهو أمر مستحيل نظرًا للفارق بين حجميهما - رأى أنه ليس هناك أي سبيل للحصول عليه. وضع مارسيلوس القرص الذهبي في فراغ دائري مسنن في واجهة الصندوق، فانفتح الغطاء، متأرجحًا وكأن أصابع شبحية هي التي فتحته.

اختار سبتيموس من الصندوق قضيبًا زجاجيًا رفيعًا، وهو قضيب الاستبيان الذي عند غمره في مادة يخبره إذا ما كانت هذه المادة قد وصلت إلى المرحلة التي يُطلق عليها مارسيلوس مرحلة الكمال أم لا، ثم فتح سبتيموس ضلفة الخزانة الزجاجية وأخرج الصبغة، ونزع السدادة، وغمر القضيب في محتوى الزجاجة، ولفه سبع لفات، ثم حمله عاليًا بجانب شعلة شمعة.

سأله مارسيلوس بقلق: «أي تلميذي ماذا ترى؟ هل أصبحنا جاهزين لإضافة السم؟».

هز سبتيموس رأسه.

فسأله مارسيلوس بقلق: «ومتى تظن أنه سيكون جاهزًا؟».

لم ينطق سبتيموس بكلمة واحدة. فعلى الرغم من تعوُّده اللهجة الملتوية الغريبة التي يتحدث بها مارسيلوس والجميع هنا في هذا الزمن، فإنه حتى الآن لا يزال يجد صعوبة في التحدث بها. فهو إذا غامر وتحدث، يرى الحيرة والارتباك على وجوه مستمعيه، وهم إن كانوا يفهمون كلامه فبعد أن يفكروا فيه للحظات، إلا أن الأمر لن يمر عليهم دون أن يدركوا أن هناك شيئًا غريبًا جدًا في الطريقة التي تحدث بها. ولقد توقف سبتيموس عن إحصاء عدد المرات التي يسأله فيها الناس من أين جاء؛ فهو سؤال لا يعرف كيف يرد عليه، ولا يريد أن يفكر فيه أساسًا. لكن أسوأ ما في الأمر الآن أنه في الحالات النادرة التي يتحدث فيها، تبدو حينها لهجته وطريقته في تنغيم الكلام غريبة حتى عليه هو، وكأنه بات هو نفسه غريبًا عن نفسه.

في المعتاد، لم يكن مارسيلوس ليبالي أن يكون تلميذه من النوع الملتزم بكل هذا القدر من الصمت -لاسيما أن الموضوع الوحيد الذي يبدو أن سبتيموس يرحب بالتحدث فيه هو حالة الضعف والعجز التي صاحبت تقدم مارسيلوس في العمر - لكنَّ هناك أوقاتًا يصبح فيها صمت سبتيموس هذا مزعجًا، كما كان الحال الآن. فقال له مارسيلوس: «بحق السماء أيها التلميذ، تكلم!».

والحقيقة هي أن الصبغة تكاد تكون جاهزة منذ بداية تحضيرها، لكن سبتيموس حينها كان يفتقد المهارات التي تمكنه من إدراك ذلك. وما حدث بعد ذلك، وكما هو الحال مع الصبغات والجرعات المعقدة، أن الصبغة سرعان ما أصبحت غير مستقرة، ومكث سبتيموس الشهور

القليلة التالية يتحايل عليها بصبر كي تعود مرة أخرى إلى حالة الكمال؛ لعلمه بأن مارسيلوس يعتقد أن مستقبله يعتمد عليها.

لم يتمكن سبتيموس، مهما حاول، من أن يكره مارسيلوس باي. وعلى الرغم من أن مارسيلوس اقتلعه من زمنه الذي ينتمي إليه واحتجزه لديه على غير رغبته، فإنه يعامله بصفة دائمة معاملة حسنة، والأهم من ذلك كله أن مارسيلوس يشرح له ويعلمه كل شيء يسأل عنه في الطب، وما هو أكثر من ذلك.

قال له مارسيلوس بهدوء: «أي تلميذي، لا ريب أنك توقن أن هذا الأمر هو مسألة حياة أو موت بالنسبة لي».

فأومأ له سبتيموس برأسه.

«ولا ريب أنك توقن أن هذه الكمية المحدودة هي كل ما أملك. فليس هناك كمية أخرى متبقية، كما لا يمكن تحضيرها مرة أخرى، فظاهرة اقتران الكواكب لن تحدث ثانيةً في زمني».

فأومأ له سبتيموس برأسه مرة أخرى.

«لذا أستحلفك أن تفكر بعمق في هذا وتجيبني؛ لأن هذا هو أملي الوحيد حتى أغير مصيري المفزع. فأنا أتمنى إذا تمكنت من تجرع الصبغة التي صنعتها أنت ألا أصير شيخًا كريه الرائحة كما بصرت ذلك بنفسي».

لم يُدرك سبتيموس كيف يمكن لمارسيلوس أن يغير الأمور؛ لقد رآه بالفعل وهو شيخ في أرذل العمر وجسمه في مرحلة التحلل، وهذا هو ما سيحدث، لكن مارسيلوس كان مصرًا على أن يتشبث بهذا الأمل، وقال

بالحاح: «لذلك أقسمت عليك بأن تقول لي متى يمكن أن نضيف السم أيها التلميذ.. فأنا أخشى بعد كل هذا الوقت أن تتحلل الصبغة».

تحدث سبتيموس أخيرًا، صحيح أن الرد كان مقتضبًا، لكنه تحدث. وقال: «في القريب العاجل».

«في القريب العاجل؟ ومتى بالتحديد يكون ذلك؟ غدًا صباحًا مثلًا، أم غدًا مساءً؟».

هز سبتيموس رأسه ثانية.. سأله مارسيلوس بسخط: «متى؟ متى؟».

«بعد تسع وأربعين ساعة بالتحديد. ليس قبل ذلك ولو بلحظة واحدة».

بدا الارتياح على مارسيلوس، لقد انتظر طويلًا حتى الآن، ولا ضرر في الانتظار يومين آخرين، ثم أخذ يراقب سبتيموس وهو يضع بحرص الزجاجة الصغيرة في الخزانة الزجاجية، ويغلق الباب برفق. وهنا، أخذ مارسيلوس نفسًا عميقًا وابتسم.

وبعد أن هدأ بال مارسيلوس بشأن الصبغة، بدأ يدقق النظر في تلميذه؛ إذ بدا له شاحبًا ونحيلًا، وتحيط بعينيه هالات سوداء. صحيح أن ما يزيد من مظهره سوءًا هو رفضه حلق شعره الأشعث الأشبه بعش الطيور، أو تمشيطه، لكن مارسيلوس شعر رغم ذلك بوخزة من تأنيب الضمير.

وقال له: «أي تلميذي، إن جلوسك هنا كحيوان خلد أسفل رابيته ليس في مصلحتك. وعلى الرغم من أن الطقس ما زال باردًا على سطح الأرض والثلوج تتساقط، هناك أيضًا شمس تشرق في الخارج»، وأخرج

مارسيلوس عملتين فضيتين ووضعهما في يد سبتيموس غير المرحبة بذلك، والتي يغطيها الحبر، وقال: «إن المعرض الشتوي مقام الآن في الطريق، خذ هاتين العملتين واستمتع بوقتك هناك».

نظر سبتيموس إلى العملتين دون اهتمام يُذكر.

«إن المثل القائل بأن استخدام الحبر بإسهاب يصيب الروح بالاكتئاب صحيح يا سبتيموس. هيا، اذهب الآن». وعاد مارسيلوس وهو يسير على غير عجل إلى المائدة الضخمة، ورفع نشافة الحبر الموضوعة عند مكان سبتيموس، كاشفًا الوردة الحمراء المحفورة في الخشب - أخذ سبتيموس يُحدق إليها بكآبة. قال سيده بإصرار، وهو يدفع سبتيموس كي يخرج: «هلم، امضِ».

خرج سبتيموس من الغرفة عبر باب الكتبة، وصعد سلمًا شديد الانحدار، ثم خرج إلى شبكة الأنفاق التي سوف تأخذه إلى برج السحرة. وتُعد هذه الرحلة إلى البرج هي المتعة الوحيدة التي يسمح سبتيموس لنفسه بأن يقوم بها؛ فهو كل حين وآخر يدخل البهو العظيم في برج السحرة ويسير في أنحائه، كما هو مسموح للتلامذة الكيميائيين أن يفعلوا. وهي متعة تشوبها المرارة، لكنها مع ذلك المتعة الوحيدة التي تذكره بحياته السابقة بطريقة يفتقدها في سائر الأمور الأخرى التي يقوم بها في هذا الزمن الذي انتقل إليه. ولقد بات سبتيموس يعرف الآن الطريق إلى البرج بسهولة، فسار ببطء على امتداد الأنفاق المضاءة بالمصابيح. ولم يمضِ وقت حتى كان قد بلغ مدخلًا مقنطرًا صغيرًا أسفل سطح الأرض، يُرى من خلاله سلم، قال الشبح الجالس عند

الدرجة السفلية له - وهو شبح ساحر أعظم حديث، كما تشير إليه عباءته الساطعة: «صباح الخير يا سبتيموس هيب».

أومأ له سبتيموس برأسه، لكنه لم ينطق.

فقال له الشبح وهو يرشده متحدثًا ببطء وبغاية الوضوح: «انعطف يسارًا عند السطح ثم اذكر كلمة السر»، ولأن سبتيموس لم يحدث له قط أن نطق أمامه، قرر الشبح في سره أن هذا التلميذ ليس من أذكى التلامذة، وهو ما يجعله يصر دائمًا على أن يكرر لسبتيموس كلما رآه نفس التعليمات بصوت واضح.

أومأ له سبتيموس برأسه مرة أخرى بأدب واحترام، وتوجه لصعود السلم بنفس ذلك الإحساس المعتاد والغريب الذي يربض في أعماقه. وعندما وصل إلى أعلاه، انعطف يسارًا كما يفعل دائمًا، ودخل غرفة صغيرة للعباءات، ما زال يرى أنها دولاب المكانس، ثم يأتي الجزء الذي لا يزال يحيي فيه الأمل - رغم كل المرات التي قال فيها لنفسه أن يكف عن هذا التفكير الأحمق - ودفع الباب ثم خرج إلى بهو برج السحرة العظيم.

فعندما زار سبتيموس برج السحرة لأول مرة، وطئت قدماه البهو العظيم وهو مقتنع تمامًا بأنه عاد إلى زمنه؛ فقد كان كل شيء في البرج كما هو؛ الحوائط تُظهر نفس الصور **السحرية** المتعاقبة، وكان الجو **السحري** يفعم المكان مما جعل رأسه يدور من فرط إحساسه بالهدوء والاسترخاء، حتى أرض البهو العظيم بدت، مع انطلاقه جريًا عبرها، رملية كما تبدو دائمًا، حتى إنه من فرط حماسه لم يلتفت إلى رسائل الترحيب

التي كتبتها الأرض له، وقفز على السلم الفضي الذي أقله إلى قمة البرج، تمامًا كما كان يفعل يوميًا على مدار نحو عامين. لم يلحظ سبتيموس نظرات الحيرة التي علت وجوه السحرة العاديين عند كل منبسط للسلم؛ فكل ما كان يشغل ذهنه في تلك اللحظة هو أن يرى مارشا ويخبرها عما حدث.. ويعدها بأنه لن يحيد عن المسار أبدًا.. أبدًا.. أبدًا، وعند الطابق العشرين ترك السلم قافزًا وانطلق كالصاروخ نحو الباب الأرجواني الضخم لمدخل جناح السحرة الأعظمين.

لكن الباب لم ينفتح.

أخذ سبتيموس يدفع الباب بنفاد صبر، لا يستطيع أن ينتظر ولو ثانية واحدة أخرى حتى يرى مارشا، لكن الباب ظل موصدًا تمامًا ولم يفهم سبتيموس سبب ذلك. وتساءل في سره: ربما أن مارشا في أزمة، ربما أنها أغلقت الباب بالمزلاج.. وبينما كان سبتيموس واقفًا يفكر في كل هذه الاحتمالات، انفتح الباب فجأة، وخرج منه شخص يرتدي عباءة أرجوانية.

«مارشا، أنا...».

نظر الساحر الأعظم للأسفل نحو سبتيموس، محدقًا إليه بحيرة، وسأله: «كيف تسنى لك أن تصعد إلى هنا أيها الغلام؟».

«أنا... أنا...». هكذا همهم سبتيموس، وهو يحدق بارتباك وذهول إلى الساحر الأعظم، والذي كان رجلًا نحيلًا، له شعر أشقر ناعم، ينسدل على عينيه الخضراوين اللتين تميزان السحرة، وكان يتدلى من عنقه تميمة أخو التي تحيط بعنق مارشا، كما كان يرتدي حول خصره الحزام

المصنوع من الذهب والبلاتين الذي يرتديه السحرة الأعظمون وترتديه مارشا أيضًا. وفجأة، أدرك سبتيموس حقيقة ما يراه.

قال الساحر الأعظم، بعد أن لاحظ الشحوب المفاجئ الذي اعترى سبتيموس: «لا تخف أيها الغلام. أنت جديد هنا، أليس كذلك؟» نظر الساحر الأعظم إلى سبتيموس، وهو يتفحصه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ويستوعب رداءه ذا اللونين الأسود والأحمر والمطرز عند حافة الأكمام برموز الكواكب بخيوط من الذهب: «لا بد أنك الغلام الكيميائي الجديد؟».

أومأ له سبتيموس برأسه وهو في حالة من البؤس التام بعد أن أطلق العنان لآماله ثم تبخر كل ذلك في لحظة في الهواء.

«تعال معي أيها الغلام، سوف أصطحبك إلى البهو العظيم ثم أرشدك إلى طريق الخروج. اتبعني»، وتابع سبتيموس الساحر الأعظم إلى السلم الحلزوني، ثم وقفا معًا في صمت بينما كان السلم الفضي الحلزوني يقلهما ببطء لأسفل برج السحرة.

لقد علم سبتيموس الآن أنه ما عاد ينتمي إلى برج السحرة، أو بالأحرى، وكما أدرك بعد الأيام البائسة الأولى، أن عليه أن يتكيف ويتأقلم مع مكانه الجديد. ولكن، على الرغم من كل هذا كان من الصعب عليه أن يبقى بعيدًا عن البرج.

وبينما كان سبتيموس يسير عبر البهو العظيم ظهرت رسالة باللون الأحمر المتلألئ تومض بومضات خاطفة حول قدميه تقول: **مرحبًا أيها التلميذ الكيميائي**، ثم تلتها رسالة أهم تقول: **مرحبًا بتلميذة الساحر**

الأعظم؛ حيث في تلك اللحظة دخلت من الباب الضخم لبرج السحرة الذي ما عاد مسموحًا له باستخدامه – هيئة نحيلة ترتدي الرداء الأخضر، والحزام الفضي – حزامه هو الفضي – الذي يرتديه تلامذة السحرة الأعظمين. خالج على الفور سبتيموس شعور غير متآلف مع التلميذة التي لا تكبره إلا بسنوات معدودة، رغم علمه بأنه من الظلم أن يشعر بذلك تجاهها؛ فقد بدت الفتاة ودودًا، وأومأت له برأسها إيماءة متحفظة عندما لمحته، لكنها أخذت مكانه. أم تُرى هو الذي أخذ مكانها في نهاية المطاف؟ وعند هذا الحد، رفض ذهن سبتيموس أن يذهب في تفكيره إلى أبعد من هذا.

ولعدم رغبته في أن يجد نفسه مضطرًا لتفسير سبب وجوده هنا، تسلل إلى الظلال، وتوجه إلى السلم الخارجي الخلفي لبرج السحرة، وهو سلم حجري متداع، ثم لف حول قاعدة البرج الضخمة وعبر الأرض الحجرية للفناء الذي كان مكسوًّا بالثلوج، متوجهًا نحو القوس العظيم. وكان الطقس اليوم – كما قال مارسيلوس – جميلًا؛ كان الجو باردًا، لكن الشمس المنخفضة ألقت بضوء ساطع يتلألأ مع سقوطه على الخيوط الذهبية الممتدة بين أحجار اللازوردي التي تكسو القوس. إلا أن سبتيموس لم يلتفت كثيرًا لهذا مع مروره من أسفل القوس وخروجه إلى طريق السحرة الذي كان محتشدًا بالجماهير، ثم توقف للحظة وسحب عباءته الصوفية الثقيلة بلونيها الأحمر والأسود؛ ليحتمي بها من الصقيع، وهو يتنفس في جو تنبعث منه روائح غريبة ويستمع لأصوات غير مألوفة. هز سبتيموس رأسه لا يصدق نفسه، فقد خالجه إحساس مرير بأنه قريب

جدًا من بيته ورغم ذلك فهو بعيد عنه إلى حد المستحيل – بعيدًا عنه بخمسمائة عام على وجه الدقة!

وبينما كان سبتيموس واقفًا في هذا الجو الشتوي البارد المشمس تسلل إليه خلسةً خاطر ما؛ فأخيرًا بات حرًّا ليضيع ساعات، ولديه من الوقت ما يجعله يحاول تنفيذ خطته؛ إنها خطة ميئوس منها، لكن ربما... ربما تنجح.

27

هيوجو تندرفوت



سار سبتيموس على امتداد طريق السحرة، وهو يطأ بقدميه على تربة مكسوة بالثلوج، وليس على الحجر الجيري الباهت الذي اعتاده في زمنه، كانت أعمدة الإنارة الفضية بمصابيحها، والتي كثيرًا ما كان سبتيموس يراقبها من نافذة غرفة نومه أثناء إضاءتها، لاتزال في طور التشييد؛ تكريمًا للملكة في اليوبيل الفضي ذكرى مرور خمسة وعشرين عامًا على اعتلائها عرش القلعة.

وبدت البيوت ذات الارتفاعات المحدودة المبنية بالأحجار الصفراء، والتي تصطف على جانبي الطريق أقل تهالكًا رغم قدمها حتى في هذا الوقت، وعلتها تفاصيل دقيقة لم يرها سبتيموس من قبل.

ومع مروره أمام دار المخطوطات الكائنة في العقار رقم ثلاثة عشر في طريق السحرة - نظر إلى النافذة التي بدت له غريبة وهي تكاد تخلو من رزم الأوراق وزجاجها نظيف جدًا، فاجتاحته موجة اشتياق جارفة لرؤية بيتل يخرج منطلقًا إليه من الدار. ترى، ماذا كان سيقول له بيتل حينها؟ ورأى سبتيموس أنه حتى بيتل الذي دائمًا ما يكون لديه موضوع يتحدث فيه، كان سيقف في هذا الموقف مذهولًا عاجزًا عن الكلام.

طرد سبتيموس من ذهنه ذكريات الأوقات المرحة التي كان يقضيها مع بيتل، وصب تفكيره على مقصده، كانت هناك شبكة من الأنفاق تربط بين كل مباني القلعة، يعرفها سبتيموس في زمنه باسم الأنفاق الجليدية، لكنها تخلو في هذا الزمن من الجليد، ويستخدمها الكيميائيون والسحرة للتنقل في أنحاء القلعة أثناء قضاء مأمورياتهم، دون أن يراهم أو يلحظهم أحد وكان سبتيموس يستخدم حاليًا أحد هذه الأنفاق كل يوم ليسلك طريقه من بيت مارسيلوس إلى ورشة عمله في الغرفة العظمى. ولقد تم إرساله مؤخرًا إلى القصر لتسليم بضعة أوانٍ من الذهب الخالص هدية إلى الملكة - قدمها لها مارسيلوس اعتذارًا عن خطأ ما اقترفه وكانت هذه الرحلات هي التي أوحت لسبتيموس فكرة خطته، وهو الآن يتوجه إلى أنفاق القصر - إلا أنه هذه المرة يسير فوق سطح الأرض، لا يود أن يجد نفسه مصطدمًا بأيٍ من الكتبة الفضوليين الذين يعملون لدى مارسيلوس؛ أو بمارسيلوس نفسه.

كان المعرض الشتوي الأخير في ذروة نشاطه عند نهاية الطريق الواقع مباشرة أمام بوابة القصر. وتصاعدت أعمدة كثيفة من الدخان من

عشرات المجامر التي تحمص البندق وتشوي الذرة على الفحم وتطهو حساء الشتاء السميك والمقانق والبطاطس. وانطلق سبتيموس يشق طريقه وسط الزحام الذي كانت تنبعث منه رائحة غريبة، رافضًا كل ما يُعرض عليه في الطريق من «أفضل فطائر أذن الخنزير المقرمشة»، أو «فطائر حوافر الخيل الشهية، من يشتري فطيرة حوافر الخيل الشهية؟» واستطاع سبتيموس – وسط المحاولات التي بذلها لتجاهل توتره من الموسيقى التي كان يعزفها الأرجون اليدوي والتي كانت حسب ظنه موسيقى احتفالية – أن يتخلص من عرافة ملحة عرضت عليه أن تفصح له عن قدره بجروت واحد – «فمن منا يدري ما الذي تخبئه له الأقدار» من منا فعلًا يدري؟ هكذا قال سبتيموس في سره بتجهم، وهو يتخلص من يدها التي تتشبث به بإلحاح.

وتجنب سبتيموس توءمين متشابهين طبق الأصل يسيران على الأرجل الخشبية الطوالة، ثم انحنى أسفل حبل البهلوان، متجنبًا بالكاد تلقي ضربة من مشارك متحمس في لعبة (اضرب الجرذ بقوة) كان يلعبها المشاركون في مربض للحيوانات. وبعد آخر انحشار اجتازه مع مروره بين سيدتين بدينتين تلقيان جراد البحر والأرز في راقود ضخم بداخله ماء مغلي، وجد سبتيموس نفسه وقد خرج أخيرًا من وسط الزحام .. وبسرعة، انعطف إلى حارة الزقاق التي تؤدي إلى المنزلق الثعباني. وسرعان ما كان جرس باب البيت يرن، والذي لا يزال يعتبر أنه بيت ويزل فان كلامف.

وبينما كان سبتيموس يقف أمام الباب في انتظار أن يُسمح له بالدخول، تذكر كل المرات التي كانت مارشا ترسله فيها إلى نفس هذا المكان ليجلب لها مختلف قطع واقي الظلال الذي كانت تصنعه. ولو أغمض عينيه الآن لتخيل بسهولة نفسه حينها، ولتردد في أذنيه صدى الشتائم التي كان يتلقاها من الفتيان بأصواتهم الغليظة عند الرصيف الممتد إلى الخندق المائي. وما كان يخطر على باله أنه سيأتي اليوم الذي سيشتاق فيه لسماع جملة: أنت أيها اليرقة!

فتح الباب فتى صغير السن يرتدي الزي الأنيق الخاص بالخدم، وبدا مندهشًا برؤية سبتيموس الذي يحضر في المعتاد عن طريق النفق، لكنه ابتسم وانحنى للتلميذ الكيميائي وقال له: «تفضل يا سبتيموس هيب.. فليباركك الله». كانت عينا الفتى الرماديتان تكسوهما نظرة جادة، وبشرته يعلوها النمش، ويحلق شعره الرملي اللون بالقصة التي يحلقها جميع الأطفال في ذلك الوقت، والتي تتميز بقصر الشعر عند الجوانب ومؤخرة العنق. ولقد رفض سبتيموس بشكل قاطع أن يحلق شعره بهذه القصة، وترك خصلات شعره تزداد طولًا وتشابكًا يومًا بعد يوم.

نظر الفتى إلى سبتيموس بترقب، منتظرًا أن يصطحبه إلى حيث يطلب إليه. تنهد سبتيموس؛ فلم يكن هذا جزءًا من خطته. لقد نسي أمر الفتى هيوجو تندرفوت الذي يميل لأن يتبع خطاه بشكل مزعج كأنه جرو صغير ضال. كان على سبتيموس أن يرد عليه بأي رد، فتنحنح، ثم قال: «أشكرك جزيل الشكر يا هيوجو، يمكنك أن تذهب أنت الآن».

«فليباركك الله!».. هكذا رد الفتى وقد اتسعت عيناه جزئيًا لدهشته وهو يسمع سبتيموس يتحدث، لكن أساسًا «لأنه شعر - رغم أنه لم يفهم تمامًا كلام سبتيموس - أن هذا هو ما ينبغي عليه أن يفعله».

رد سبتيموس محاولًا بعناء التحدث بلهجة هذا الزمن، وقال له: «ممكن يا هيوجو، فلترحل أنت الآن.. فلترحل».

وأنقذ سبتيموس من هذا العناء رنة جرس صدرت من الطابق العلوي، وبعد أن انحنى الفتى انحناءة خاطفة لسبتيموس، انطلق يُجيب الجرس.

وعلى الفور، مضى سبتيموس إلى الجزء الخلفي من البيت، ونزل السلم الذي يصدر صريرًا والمؤدي إلى السرداب، وأخذ طريق النفق المعتاد الذي يؤدي إلى الخروج من الطرف القصي من البيت، وهو النفق الذي سار على امتداده أول مرة مع أونا براكيت إلى المعمل. كان النفق نظيف الأرضية ومضاءً بشموع الأسل، خلافًا لحاله في زمن أونا، لكن فيما عدا ذلك بدا صورة طبق الأصل له. تجاهل سبتيموس الباب الذي يفتح على المعمل، والذي يستخدمه مارسيلوس للتجارب الحساسة جدًا، وأخذ طريق النفق الجانبي الذي يستخدمه صباح كل يوم للذهاب إلى عمله.

وسرعان ما كان قد وصل إلى الباب المسحور الذي يألفه - لكن أين هو السلم المتنقل؟ جثا سبتيموس على ركبتيه وفتح الباب المسحور، فبدا له العمق في الأسفل كبيرًا. بحث حوله عن السلم، لكنه لم يعثر على أثر له. إذن، ليس هناك مفر من ذلك.. لا بد أن يقفز. تردد سبتيموس، محاولًا أن يقيم مدى العمق الذي سيسقط منه إذا تدلى

بقامة منبسطة من الباب المسحور. وقال في سره إذا كان سايمون استطاع أن يفعل ذلك وهو يرتدي زوجًا من زحاليق الجليد، فمعنى ذلك أنه أيضًا يستطيع أن يفعل ذلك بسهولة بما أنه بدون زحاليق.

سمع سبتيموس أصواتًا في النفق تقترب، فتراجع خطوات للوراء مبتعدًا عن الباب المسحور، وراح يراقب مجموعة من خدم القصر يمرون أسفل منه وهم يثرثرون. كان الخدم يرتدون الزي القديم للقصر الذي رآه سبتيموس على بعض الأشباح في زمنه. وعلى الفور، قرر أن ينفذ خطة لاحت له وهو يرى الخدم ينعطفون عند الركن، فدخول القصر دون أن يلاحظه أحد سيكون أسهل كثيرًا مما لو كان منخرطًا وسط مجموعة من الخدم. وبسرعة، تدلى سبتيموس من الباب المسحور. وبعد أن ظل متدليًا هكذا منتظرًا بتردد للحظات، أدرك السبب الذي جعل أرض النفق تبدو بهذا العمق، وهي بالفعل كانت عميقة؛ لأنها لم تكن مكسوة بطبقة الجليد السميكة. لكن لا مفر الآن، وأغمض عينيه، ثم أخذ نفسًا عميقًا، وترك نفسه يسقط «هوب!!».

وعلى إثر ارتجاج جسم سبتيموس مع ارتطامه بالأرض شعر بانقطاع أنفاسه، وبينما كان مطروحًا ممدد الجسد على الأرض وهو يلهث، رأى وجه هيوجو الذي بدا عليه القلق بينما كان ينظر إليه في الأسفل من فتحة الباب المسحور..

بعد لحظة، كان هيوجو قد أحضر السلم الذي كان معلقًا في السقف، ودفعه للأسفل نحو سبتيموس.

ثم قال له، وهو يترجل نازلًا السلم: «إن المسافة التي هويت منها أيها التلميذ عميقة. أقدم لك اعتذاري ألف مرة؛ لأني تركت الباب المسحور مفتوحًا. فليباركك الله، مد لي يدك»، وأوقف هيوجو سبتيموس على قدميه.

سأله سبتيموس: «أين كان السلم؟».

«فليباركك الله، أرجوك أيها التلميذ اصعد السلم بحرص».

تنهد سبتيموس وقال: «هيوجو، أنا لا أريد أن أصعد بحرص. حِل عني الآن».

«أحل عنك؟».

«نعم، حِل عني، اذهب بعيدًا، يا للهول! فلترحل».

تجهم هيوجو وقد شعر بالإحباط؛ لقد فهم معنى «فلترحل»؛ إنها الكلمة التي يستخدمها معه أخوه الأكبر منه بشكل منتظم، وأختاه اللتان تكبرانه أيضًا، وكذلك أبناء أعمامه الذين يقطنون في الجوار.

«إذن، تعال معي إن شئت»، هكذا قال له سبتيموس بعد أن رق قلبه، مدركًا أنه لو ترك الفتى الآن فسوف يذهب ويذيع النبأ على الجميع بأن التلميذ الكيميائي انطلق في الأنفاق بمفرده، واستشعر سبتيموس أن هذا قد يثير شكوك مارسيلوس».

نظر هيوجو إلى سبتيموس في حيرة، وقال مقلدًا لهجته: «إن شئت.. إن أنا شئت!».

فقال له سبتيموس الذي نفد صبره، فهو يريد أن يلحق بخدم القصر الذين بدأ صوت ثرثرتهم يتلاشى بعيدًا: «إذن، تعال معي بسرعة».

تبع هيوجو سبتيموس مهرولًا، وبينما كان يجري خلفه كالنحلة الصغيرة، أخذ يعيد ويكرر قائلًا: «حل عني! حل عني! حل عني! حل عني!».

انطلق سبتيموس بسرعة تتراوح بين الركض والسير أسفل ضوء شموع الأسل المتراصة فوق الحوائط على جانبي النفق العريض المبني بالطوب، في طريق متفرع يتجه إلى القصر. وأخذت النحلة التي تجري خلفه تلحق بخطواته، وفيما عدا عبارة (حِل عني) التي ظل يتلفظ بها كل حين وآخر لم يحاول هيوجو أن يفتح أي حوار، وعندما بدأت أصوات خدم القصر تبدو أكثر وضوحًا، ركز سبتيموس انتباهه بحيث يظل محتفظًا بمسافة آمنة بعيدًا عنهم دون أن يفقد أثرهم، فمع اقترابهم من القصر ظهر العديد من المنعطفات الصغيرة المتفرعة، وبدأ النفق يتشعب كما لو كان جُحر أرنب.

وبعد عدة دقائق، اختفى الخدم عند منعطف صغير، ورآهم سبتيموس في اللحظة التي اختفوا فيها عبر باب أحمر ضيق. فالتفت سبتيموس إلى هيوجو وقال له: «يجدر بك أن تعود أنت الآن». وبعد أن رأى نظرة الحيرة على وجه هيوجو، قال له: «ليباركك الله، فلترحل، أتمنى ألا تفشي أمر هذه الرحلة؛ لأني أقوم بمهمة سرية للسيد».

أمال هيوجو رأسه جانبًا مثل الببغاء، وتساءل في سره عما إذا كان يستحق الأمر أن يعيد ما قاله سبتيموس توًا، ثم سأله: «أحل عنك؟».

«نعم، حِل عني، هيا، انطلق..».

ووصلت الرسالة لهيوجو، فبدا التجهم على وجهه، وبيؤس التفت وانطلق مرة أخرى على امتداد النفق. شعر سبتيموس بوخزة من تأنيب الضمير، فمنذ أن وجد نفسه حبيسًا في هذا العصر الكريه، لم يظهر له أحد سوى هيوجو أدنى اهتمام بأن يكون في صحبته، فنادى عليه قائلًا: «تعال إذن».

بدا الإشراق على وجه هيوجو وقال: «لا أحل عنك؟».

فتنهد سبتيموس وقال: «لا، لا تحل عني».

وبعد عدة دقائق، كان سبتيموس وهيوجو يقفان في طرقة المطبخ الرئيسي، وسط ما بدا أنه إعداد لوليمة يجري على قدم وساق. ومرت موجة من الخدم أمام الفتيين اللذين وقفا كالصخرتين وسط سيل متدفق سريع الحركة، يراقبان مرور أكوام شاهقة من الأطباق، وصوانٍ تحمل كئوسًا، وأحواض بداخلها سكاكين ذهبية. وكاد اثنان من الخدم يحمل كل منهما سلطانية حساء هائلة الحجم أن يصطدما أثناء مرورهما مترنحيْن بسبتيموس وهيوجو، ثم تبعهما حشد من الفتيات، كل منهن تحمل إناءين صغيرين من الفضة، ويبرز من كل إناء رأس فرخ بط.

تملك سبتيموس الدهش؛ فقد اعتاد أن يرى القصر في زمنه هادئًا وشبه خالٍ، وكان يتوقع أنه سيتمكن من الدخول خلسةً إلى قلب القصر ويشق طريقه دون أن يلحظه أحد إلى البرج الصغير الذي يضم بين جدرانه غرفة الملكة.. ووفقا لخطته، كان سيتبع الملكة أو الأميرة ويدخل الغرفة في اللحظة التي يكون فيها الباب الخفي مفتوحًا، ثم يتسلل بعد ذلك إلى غرفة

الملابس في الأسفل ويحاول أن ينفذ عبر اللوح الزجاجي مرة ثانية.. وكان سبتيموس يعلم أن هذه الخطة ميئوس منها، وفرصة نجاحها ضعيفة جدًّا، لكن الأمر كان يستحق المحاولة. أما وقد رأى الآن حالة الزحام التي تعم أنحاء القصر، فقد علم أنه لا أمل له، خاصة مع وقوفه هكذا بهيئته المميزة برداء الكيميائيين المكسو بالذهب.

ولقد بدأت بالفعل ملابسه الغريبة هذه تلفت الأنظار، وكان الخدم يبطئون من سرعتهم ويحدقون إليه أثناء مرورهم، وسرعان ما بدءوا يتراكمون في الطرقة، وكانت النتيجة أن خادمًا عالي المقام ضخم الجثة من خدم التقديم وفتح الأبواب كان قد نفد صبره أثناء محاولته الخروج من دولاب يقف أمامه مباشرة سبتيموس وهيوجو، واصطدم بهما أثناء خروجه مندفعًا من الدولاب. وبغضب، أمسك الخادم سبتيموس من ياقته وقال له بارتياب: «أنت غريب هنا».

حاول سبتيموس أن يتخلص من قبضته، لكن الخادم تشبث به بقوة. وفجأة، قال هيوجو: «سيدي، ما نحن إلا رسولان، ولقد أرسلنا بخبر عاجل إلى طاهية الحلويات»، نظر الخادم إلى مظهر الجدية الذي يكسو وجه هيوجو وترك سبتيموس.

«انعطفا عند المنعطف الثالث ثم ادخلا من المدخل الثاني. السيدة (عجينة الشو) قد تكون هناك.. عاملاها برفق؛ فقد أحرقت نحو خمسين فطيرة منذ ساعة»، ثم غمز الخادم لسبتيموس وهيوجو، وانخرط بعد ذلك وسط تيار الخدم الذي سحبه بعيدًا.

نظر هيوجو إلى سبتيموس، محاولًا أن يفهم ما الذي يدور في رأسه، لقد أحب هيوجو سبتيموس؛ إذ إنه هو الشخص الوحيد الذي يعرفه دون أن يصيح في وجهه أو يرسله في تنفيذ بعض الأوامر كأنه لا يزيد على كونه كلبًا. سأل هيوجو سبتيموس أثناء مرور ثلاث نساء بدينات يحملن سلالًا ضخمة مملوءة بالخبز: «أحل عنك؟».

فهز سبتيموس رأسه، وحدق إلى النساء اللاتي كن قد التفتن إليه وبدأن يحدقن به، ثم قال له: «لا، لا تحل عني. فهناك مهمة لا بد أن أقوم بها»، وباللغة القديمة قال له: «عليّ القيام برحلة استكشافية.. هنا في القصر».

وفهم هيوجو مصطلح رحلة استكشافية، فكل الفرسان والخدم يُرسلون في رحلات استكشافية، وهو لا يرى سببًا يمنع التلميذ الكيميائي من أن يقوم بإحدى هذه الرحلات. صحيح أنه لم يسمع من قبل أن هناك رحلة استكشافية بدأت داخل قصر، لكن كل شيء جائز مع الكيميائيين. فأخذ يد سبتيموس وسحبه نحو تيار الخدم، وبعد أن تتبع هيوجو رائحة المياه الساخنة ورغاوي الصابون، سرعان ما وجد ضالته، والتي كانت غرفة الغسيل.

وبعد عدة دقائق – وبعد دفع جروتين اثنين – تسلل خادمان جديدان من خدم القصر يرتديان ملابس الخدم النظيفة، وانطلقا خارج غرفة الغسيل، وكان الخادم الأصغر ذو الشعر الرملي اللون يهرول خلف الخادم الأطول ذي الشعر الذهبي الملفوف المتشابك. وما كادا يبتعدان بمسافة لم تتجاوز الركن، إذا بامرأة ضخمة ترتدي مريلة مبقعة تخرج من

باب مطبخ الصلصات وهي تحمل إبريقين ذهبيين مزخرفين. دفعت الطاهية في أياديهما الإبريقين المملوءين بصلصة البرتقال، وقالت لهما: «أسرعا، أسرعا»، ثم دفعتهما لينضما إلى صف طويل من الفتيان، كل منهم كان يحمل نفس الإبريق الذهبي..

لم يكن أمام هيوجو وسبتيموس خيار آخر. وتحت إشراف طاهية الصلصات ذات عيون الصقر، وفي ظل متابعة خادم ضخم الجثة عالي المقام من خدم التقديم في القصر كان يحمل منشفة بيضاء جافة؛ تحسبًا لانسكاب الصلصة من أحد الفتيان، سار الفتيان يتذيلان صف الفتية وصعدوا السلم الخلفي الطويل الملتف، وظهروا في ظلمة الممشى الطويل.. ومع تقدمهم بخطوات بطيئة، انجرفت إليهم أصوات ثرثرة وقعقعة تعلن عن بدء الوليمة في قاعة الرقص. وفجأة، انفتح باب القاعة على مصراعيه، واجتاحتهم أصوات صاخبة من الداخل، ثم بدأ صف الفتية الطويل يتوافد داخل القاعة.

دخل سبتيموس وهيوجو القاعة، يسيران بتثاقل في آخر الصف، ثم أغلق الخادم الباب خلفهما. أخذ هيوجو، وقد فغر فاه، يُحدق إلى المشهد الذي أمامه؛ إنه لم ير قط غرفة بهذا الحجم الهائل مكدسة عن آخرها بهذا الكم المدهش من البشر في ملابس بهذه الفخامة والغرابة. كانت الأصوات تكاد تصم الآذان، وأدارت رائحة الطعام الزكية رأس الفتى، فلا أحد من قبل خطر بباله أن يُطعمه حتى الشبع.

وقف سبتيموس الذي كان معتادًا أكثر من هيوجو مثلَ هذه المناسبات، بما أن مارشا مضيافة كريمة تستضيف الناس في برج

السحرة – وقد فغر فاه هو أيضًا، ولكن لسبب آخر؛ إذ كان يجلس إلى المائدة الرئيسية هيئة مألوفة تتفحص المشهد بأسره، بوجه – كعادة صاحبته الملكة إيثلدريدا – يكسوه نفس التعبير المستنكر.

28

محجوز عليه



كان *مركب سنوري سنوريلسن التجاري قد رُبط تَوًّا عند رصيف التجار في الميناء*. ووقفت أليس نيتلز، وهي رئيسة موظفي الجمارك، عند الرصيف، تنظر إلى المركب بارتياب. كانت أليس امرأة طويلة القامة، لها شعر رمادي، وذات سمت مهيب، اكتسبته من عملها قاضيةً لسنوات طويلة، لكنها الآن ترتدي العباءة الزرقاء الرسمية الخاصة بموظفي الجمارك، والتي يزين كميها شريطان ذهبيان. لا أحد في الميناء

يتدخل في عملها، وإن أقدم أحدٌ على ذلك فلن يكون هذا إلا للمرة الأولى والأخيرة.

قالت أليس لسنوري: «أريد أن أتحدث مع ربان المركب».

ولم تكن هذه بداية موفقة للتخاطب مع سنوري التي نظرت إلى أليس بدون أن تتنازل وترد عليها.

فسألتها أليس، وهي لا يساورها أدنى شك في أن الفتاة فهمتها: «أفهمت ما قلته؟».

قالت سنوري: «أنا ربانة المركب، وعليك إذن أن تتحدثي معي أنا».

ردت أليس في دهشٍ: «أنت؟» وقالت في سرها إن الفتاة من المؤكد لا تزيد على الرابعة عشرة من عمرها، وإنها أصغر من أن تقود مركبًا تجاريًا بنفسها.

قالت سنوري بتحدٍّ: «نعم. ماذا تريدين؟».

بدأت أليس تُستفز، وقالت لها: «أريد أن أرى شهادات التفتيش المعتمدة من القلعة». وبنظرة متجهمة، قدمت لها سنوري الأوراق.

فتفحصتها أليس وهزت رأسها، ثم قالت: «هذه الأوراق غير مكتملة».

«هذا هو كل ما أعطوه لي».

«تنقصكِ الأوراق التي تفيد بأنك استوفيتِ الشروط المنظمة للحجر الصحي الطارئ، وأنا مضطرة بدوري لأن أحجز على مركبكِ».

احمر وجه سنوري من فرط الغضب، وقالت معترضة: «إنك... إنك لا تستطيعين أن تفعلي ذلك».

«بل أستطيع بكل تأكيد»، وتحركت أليس نحو اثنين من موظفي الجمارك كانا ينتظران بعيدًا في الظل؛ تحسبًا لأي تطورات قد تطرأ.

وهنالك، أخرج الموظفان لفافة كبيرة من الشريط الأصفر، وشرعا في وضع (كوردون) حول الألفرون.

ثم قالت أليس لسنوري: «لا بد أن تتركي مركبك على الفور. فلسوف يسحب إلى رصيف في منطقة الحجر الصحي إلى أن تنتهي فترة الطوارئ، ثم يمكنك بعد ذلك استعادته بعد دفع رسوم الرصيف ومصاريف التفتيش بالكامل».

قالت سنوري: «لا، لن أدعك تفعلين ذلك!».

ردت أليس بنبرة حادة: «إذا اعترضتِ ثانيةً فستجدين نفسك حبيسةً في غرفة حبس الجمارك». وأمامك 5 دقائق من الآن تجهزين فيها أمتعتك، ويُمكنك أن تصطحبي معك القط إن شئت ذلك».

وهكذا، بعد انقضاء هذه الدقائق الخمس، باتت سنوري سنوريلسن بلا مأوى. راقب ستانلي وداوني من موقعهما على قمة الصاري سنوري وهي تمشي بتثاقل وحقيبتها تتدلى من على كتفها، وأولر يتبع خطاها.

همهم ستانلي لدواني: «هذا كثير جدًّا، كيف ستتصرف الآن هذه الفتاة اللطيفة».

ردت داوني: «على الأقل تمكنا من الوصول في الوقت المناسب لتناول وجبة غداء متأخرة. أتصور أننا سنستطيع أن نخرج بشيء من محل الفطائر الموجود هناك»، وتابع ستانلي خطى داوني في نزول الصاري رغم عدم رغبته في تناول أي طعام الآن، ثم سار خلفها بخطوات سريعة إلى محل الفطائر.

ابتعدت سنوري هائمةً في الأنحاء، بذهن شارد مستغرق في التفكير.

فمنذ قدومها إلى القلعة والكوارث تتوالى عليها واحدة تلو الأخرى؛ فهي ابتداءً رأت معظم الأشباح التي تسكن القلعة، ورغم ذلك لم تقع عيناها على الشبح الذي تريد حقًّا أن تراه، ثم أُلقي بها خارج القلعة قبل موعد بداية السوق مباشرة، وبعد ذلك كاد تنين أن يغرقها. وما كادت تتخلص من هذا الحيوان البائس، فإذا بها تتعرض لهذا الموقف الآن. ومن فرط انزعاجها، لم تسمع أليس نيتلز عندما نادت عليها، وبعد أن سمعتها أخيرًا، قررت أن تتجاهلها.

لكن لا أحد يستطيع أنْ يتملص من أليس التي انطلقت جريًا خلف سنوري إلى أن لحقت بها، وقالت لها: «انتظري.. قلت لكِ انتظري لحظة! أنت لا تستطيعين البقاء في الميناء وحدك وأنت في هذه السن الصغيرة».

همهمت سنوري، وهي تنظر للأسفل نحو قطها: «لست وحدي، معي أولر».

«إن المكان هنا محفوف بالمخاطر في الليل. ربما يكون القط رفيقًا يؤنس وحدتك، لكنه لا يستطيع أن يحميك..».

ردت سنوري بنبرة جافة: «أولر سيحميني».

قالت أليس وهي تدفع بقصاصة ورق في يد سنوري: «خذي هذا، إنه عنوان بيتي، المخزن رقم تسعة، الطابق العلوي. والمكان يسعك أنت وأولر كي تقضيا فيه ليلة مريحة. أهلًا وسهلًا بكِ».

بدا التردد على سنوري.

فشرحت لها أليس موقفها قائلة: «أحيانًا أضطر لاتخاذ إجراءات في عملي لا أحب أن أقوم بها. إنني آسفة بالنسبة لمركبك، لكن هذا لصالح الميناء. فنحن لا نستطيع أن نخاطر ونعرض المكان لانتشار المرض الغامض؛ فالمراكب تجلب الجرذان، والجرذان تجلب المرض الغامض..».

قالت سنوري: «يقول البعض ليست الجرذان هي التي تنشر المرض الغامض، بل إن السبب فيه وجود كائن آخر».

ضحكت أليس وقالت: «إن الناس يقولون الكثير، فمنهم من يقول إن صناديق الذهب الضخمة الموجودة على متون سفنهم ظهرت بشكل غامض من دون علمهم، ومنهم من يقول إن براميل المياه على سفنهم لا بد أنها تحولت بمعجزة إلى خمر أثناء رحلتهم، ومنهم من يقول إنهم سيعودون كي يدفعوا رسوم شحناتهم، وهذا لا يعني أن كل ما يقولونه صحيح».. كانت أليس قد لاحظت عيني سنوري الزرقاوين الصافيتين أسفل حاجبيها الباهتين الحائرين، وتلاقت نظراتهما، ثم واصلت قائلة: «لكن العرض الذي عرضته عليك الآن أنا بالفعل أقصده، فأنا أتمنى لو أن تبقي».

فأومأت لها سنوري برأسها ببطء.

«عظيم. العنوان هو المخزن رقم تسعة. وستجدينه في الشارع الخامس على اليسار بعد الرصيف القديم. وخير لكِ أن تصلي قبل حلول الظلام؛ فالرصيف القديم لا يكون آمنًا بعد حلوله، ادخلي من الباب الأزرق المحاط بباب أخضر، ثم خذي شمعة من الحوض، وسيري في المخزن

ذي السقف المنخفض، ثم استخدمي السلم الخلفي واصعدي السطح. الباب مفتوح دائمًا. كما أن هناك خبزًا وجبنًا في الدولاب، ونبيذًا في الإبريق – واسمي أليس».

«وأنا سنوري».

«أراك لاحقًا يا سنوري». وبعد هذه الكلمات، انطلقت أليس إلى قارب صغير ينتظر عند نهاية سلم المرسى، وراقبت سنوري الجدافين بينما كانوا يقلون أليس إلى سفينة ضخمة راسية في المياه على بعد نحو نصف ميل من الميناء، ثمّ بدأ القط يفرك جسمه في ردائها ويموء؛ لقد كان جائعًا – وكانت هي كذلك، كما لاحظت فجأة، جائعةً.

كان محل «فطائر الميناء والرصيف» محشورًا بين «مكتب جمارك رصيف التجار» ومبنى آخر من طابق واحد، كان يصدر عن نوافذه المكسوة بالبخار ضوء أصفر ودود ومرحب، وتسللت من بابه المفتوح الروائح الشهية للفطائر الساخنة. ولم يكن هناك سبيل أمام سنوري وأولر للمقاومة، وسرعان ما كانا قد انضما إلى طابور من العمال الجائعين في انتظار تناول العشاء. كان الطابور يتحرك ببطء، وأخيرًا جاء الدور على سنوري.

خرج فتى من المطبخ حاملًا صينية من الفطائر المخبوزة توًا، وقالت سنوري وهي تشير إلى الصينية: «أريد فطيرتين لو سمحت».

ابتسمت السيدة الواقفة خلف المائدة الطويلة لسنوري، وقالت لها: «أربعة جروتات لو سمحتِ».

فأعطتها سنوري أربع عملات فضية صغيرة.

وعلى الفور، كانت مورين – خادمة المطابخ سابقًا، ثم الخادمة السابقة في بيت الدمى، وحديثًا المالكة الحالية لـ(محل فطائر الميناء والرصيف) – قد لفت الفطائر وأضافت بعض الكسرات من فطيرة مفتتة، وقالت لها: «هذا لقطك».

«شكرًا»، هكذا ردت عليها سنوري وهي تحتضن الفطائر الساخنة بين ذراعيها، وترى أن الميناء لا يبدو في نهاية الأمر بهذا السوء. ومع خروجها من المحل، سمعت مورين تصرخ:

«جرذان! بسرعة يا كيفين، كيفين! أمسكهما!».

جلست سنوري وأولر لدى رصيف التجار ليتناولا الفطائر. وعلى الفور، كان أولر الذي دائمًا ما يشعر بجوع شديد قبل سقوط الليل مباشرة – قد التهم كسرات مورين، ثم أجهز على الفطيرة التي اشترتها له سنوري. ومع تسلل الظلام إلى صفحة السماء، وانجراف سحب رمادية مطيرة من جهة الغرب، أخذت سنوري وأولر يراقبان الألفرون تسحبه قاطرة من رصيف التجار إلى رصيف الحجر الصحي الذي يقع على الجانب الآخر من مصب النهر في مستنقع بائس. وعلى الرغم من دفء فطيرتها وصحبة أولر وعرض أليس نيتلز – شعرت سنوري بالحزن والبؤس وهي ترى الألفرون يغادر المياه المحمية في الميناء، ويتأرجح للأمام والخلف مع دخوله المياه القائمة التي يشتد فيها المد بقوة.

وتذكرت سنوري كلمات والدتها وهي تقول لها: «أنت مجنونة يا سنوري أن تفكري في أنه باستطاعتك التجارة بمفردك – ما الذي يميزك عن

نظيراتك؟ إنها ليست الحياة المناسبة للنساء، ناهيك عن أنك لا تزالين فتاة في الرابعة عشرة من عمرك. إن والدك أولاف كان سيفزعه ذلك - يفزعه يا سنوري! إن والدك المسكين ما كان يدرك أن هذا هو ما سيحدث عندما ترك لك أوراق عضويته لتؤول إليكِ. عديني يا سنوري من أجل فريا أنك لن ترحلي. سنوري.. سنوري.. عودي في الحال!».

لكن سنوري لم تعِدها، ولم تعدْ. وها هي الآن حبيسة في ميناء غريب، ترى كل آمالها التجارية تُسحب بعيدًا عنها، ولسوف يبدأ العفن بعد ذلك يتسلل إلى مركبها مع رسوه لدى رصيف موبوء في مكان مُوحش. وقفت سنوري على قدميها تتنهد، ثم قالت للقط: «هيا بنا يا أولر».

ومع سقوط الزخات الأولى للأمطار الخريفية الباردة، انطلقت سنوري وغادرت المكان.. كان من المفترض أن توجيهات أليس سترشد سنوري بسهولة إلى العنوان، لكن لأنها كانت لاتزال مستغرقة في التفكير، وجدت نفسها ضلت الطريق، سائرة وسط متاهة مربكة من المخازن المهجورة وبين أشباح عجائز هائمة. واكتشفت أنها كانت تجهل تمامًا أن هناك أشباحًا لها هذا المنظر المزري. كانت الشوارع تعج بأشباح طاعنة في السن لمهربين وقطاع طرق، ومخمورين ولصوص، جميعها كانت تتدافع وتسب وتبصق، تمامًا كما كانت تفعل عندما كانت على قيد الحياة. لم تلتفت معظم هذه الأشباح إلى سنوري، فمن فرط انشغالها في التشاجر مع بعضها ما كانت لتلحظ الأحياء ولا تزعج أنفسها **بالظهور** لهم، ولكن كان هناك اثنان أو ثلاثة من هذه الأشباح، وقد أدركت أن سنوري تستطيع أن تراها، بدأت تتبعها على امتداد الشوارع التي كانت

تسير فيها، مستمتعةً بنظرة القلق التي ارتسمت على وجه الفتاة مع التفاتها؛ لتتأكد مما إذا كانت الأشباح لاتزال تلاحقها.

بدأت الأمطار تهطل بغزارة، وانخفضت معنويات سنوري أكثر وأكثر؛ إذ خالجها إحساس بأنها باتت محاصرة. ولم تكن تحمل معها بوصلة، ولا خريطة، وبدت لها كل الأماكن متشابهة؛ فكل شارع دخلته رأت فيه كتلًا ضخمة من المباني السوداء ترتفع عاليًا حاجبةً عنها مشهد السماء. ولو كانت سنوري قد خُيرت لاختارت أن ينجرف بها مركبها وسط الأمواج العاتية في بحر الشمال عن التيه بهذا الشكل وسط هذه المخازن القديمة المُهددة. أخذت تنظر حولها باستماتة بحثًا عن باب أزرق يحيط به باب أخضر، أم أنه باب أخضر يحيط به باب أزرق؟! وأصابها الهلع، ثم توقفت محاولةً تبيُّن الطريق، لكن الأشباح التي كانت تحاصرها ازدادت قربًا، ولم يعد في وسعها - بأي حال من الأحوال - أن ترى أين هي، ووجدت نفسها محاطة بوجوه ساخرة ذات أسنان عفنة، وأنوف مكسرة، وآذان مشوهة وعيون عمياء.

فصاحت سنوري: «ابعدوا، ابعدوا!»، وتردد صدى صياحها على امتداد الطريق.

وإذا بصوت ناعم يقول لها من مكان قريب: «هل أنتِ تائهة يا عزيزتي؟» ومن فرط حماسها لرؤية صاحبة الصوت، **اخترقت** حلقة الأشباح وسط «كورس» جماعي من السباب واللعنات والاعتراضات. كانت هناك امرأة شابة ترتدي زيًّا بمختلف درجات اللون الأسود، تقف في ظل مدخل يبعد عنها بضع ياردات قليلة - وكان باب المدخل أزرق

يحيط به باب مخزن أخضر كبير. وعلى القنطرة المبنية بالطوب التي تعلو الباب، حُفر الرقم 9.

ردت سنوري وهي تتوجه بسعادة نحو باب أليس: «لا، أنا لست تائهة، أشكرك»، وبعد أن رأت السيدة الشابة وجه سنوري، تقدمت للأمام ورفعت ذراعها عبر الباب الصغير، وهي تسد الطريق على سنوري. ويقلب مرتجف من فرط الخوف، رأت سنوري العينين السوداوين تشعان بريقًا أزرق، وعلمت أنها تتعامل مع ساحرة تمارس **السحر الأسود**.

قالت لها الساحرة: «أنت لا تريدين الدخول هنا؟».

ردت سنوري: «بل أريد أن أدخل».

ابتسمت الساحرة **الشيطانية** وهزت رأسها، وكأن سنوري لم تفهم ما تقصده، ثم قالت: «لا يا عزيزتي، أنت لا تريدين ذلك، بل تريدين الذهاب معي، أليس كذلك؟»، ثم انطلق وميض أزرق من عيني الساحرة، وبدأت عزيمة سنوري تفتر، فما الذي سيجعلها على أية حال تريد أن تدخل بيتًا قديمًا مروعًا بهذا الشكل؟

«أجل، ستعودين مع ليندا الآن. هيا بنا» وعلى الفور كانت ليندا التي تتدرب على منصب الساحرة الأم لمجموعة ساحرات الميناء، قد أمسكت بيد سنوري التي شعرت أن قبضة الساحرة الأشبه بالمِلزم تزداد ضغطًا على عظامها وتسحق يدها.

«أوه! أوه! أنت تؤلمينني» هكذا اعترضت سنوري وهي تحاول جاهدةً أن تسحب يدها، بينما كانت ليندا تزيد من إحكام قبضتها على يدها أكثر فأكثر، وتسحق عظامها.

وبدأت ليندا تقهقه وهي تقول: «بالطبع أنا لا أسبب لك ألمًا، كما أن فتاة قوية مثلك لا يليق بها أن تصرخ هكذا»، وهي تعلم الآن أن سنوري أصبحت تحت سيطرتها. كانت ليندا قد خرجت صباح اليوم فيما تُطلق عليه الساحرات شبكة الشفق؛ لحاجتهن إلى بديل لخادمتهن التي كانت تقوم بسائر الأعمال في بيتهن، بعد الحادث المزعج الذي ألمّ بالفتاة في غلاية الساحرات في وقت مبكر من هذا اليوم. ولقد تمكنت الساحرات من إخراج الفتاة في نهاية المطاف، ولكن بعد فوات الأوان. وليندا تصر على العودة بهذه الفتاة التي عثرت عليها، والتي يبشر منظرها بأنها ستكون خادمة قوية تستطيع تحمُّل أعباء العمل، وعلى الأرجح ستواصل العمل لمدة أطول من شهرين كالعادة، إلا أن سنوري لم تكن متعاونة بالشكل الذي توقعته ليندا؛ فسحبتها الساحرة بعيدًا عن باب المدخل مع مقاومتها لها. سحقت ليندا يد سنوري بقوة من جديد، فلهثت من شدة الألم، لكن فجأة قلَّ إحكام قبضة الساحرة على يدها، ورأت سنوري لمحة خوف في عيني الساحرة السوداوين. تتبعت سنوري الوجهة التي كانت تنظر إليها ليندا، وكادت تضحك من فرط شعورها بالارتياح؛ فأولر قد بدأ يتحول، وما عاد القط النحيل البرتقالي الذي ركلته الساحرة توًّا، ولا عاد برتقاليًا. وبينما كانت ليندا تحدق إليه، غير مرحبة بأن تترك صيدها الثمين، بدأت ترى أولر الليلي يظهر أمامها، فبدأ سواد طرف ذيله يزحف عبر جسمه البرتقالي مثلما ينشر كسوف الشمس الظلام على الأرض، وبدأت فروته تنعم، وتقصر، وتلمع، وغطت عضلاته

الجديدة التي تجعدت أسفل جلده، بينما أخذت تتشكل وتتعدل مع نمو القط ببطء وثبات ليصبح نمرًا أسود كاملًا.

لكن رغم ذلك، ظلت ليندا تحكم قبضتها على يد سنوري، وأخذت تحدق إلى أولر بدهش، بينما بدأت فكرة ذكية تختمر في ذهنها؛ فمع وجود هذا الوحش الأسود الضخم في حوزتها يناصرها، لن يجادلها أحد حول حقها الشرعي في تنصيبها الساحرة الأم للمجموعة - فلا أحد سيجرؤ على ذلك عندما يكون معها حيوان كهذا. فلسوف يخلصها من باميلا العجوز دون متاعب، هذا عدا الساحرات الأخريات.. وعلى ذكر ذلك، سوف يخلصها أيضًا من تلك الممرضة التي تقطن في البيت المجاور. وحينها، سوف تتمكن المجموعة من الاستيلاء على بيتها، وهو ما يُعد تعويضًا لهن بعد أن أضرمت الممرضة النار في الجسر. ابتسمت ليندا.. فكم سيكون ذلك ممتعًا!

ومر أولر بآخر مرحلة من مراحل تحوله الليلي، فتحولت عيناه إلى عيني أولر الليلي. وما إن نظرت ليندا في عينيه، حتى خالجها إحساس داخلي بالبرودة، وعلمت أنها لن تستطيع أن تكون ندًا لهذا الكائن؛ إذ انطلق من عينيه **سحر أسود؛ سحر أسود** أقوى كثيرًا مما عرفته ليندا طوال حياتها. وفجأة، أسقطت الفتاة من يدها وكأن يد سنوري نالتها بعضة، ثم تراجعت بعيدًا، وهي تهمس: «قط لطيف، قط لطيف جدًا».

وانطلقت زمجرة طويلة مُهددة من حلق أولر، ثم ارتدت شفتاه الضخمتان للخلف لتنطلق منهما زمجرة عنيفة هذه المرة، كاشفةً عن أسنان بيضاء حادة. التفت ليندا للخلف، وانطلقت جريًا وسط حشد من

الأشباح التي كانت تراقبهم، ولم تتوقف حتى وصلت إلى بيت مجموعة ساحرات الميناء، حيث اضطرت لدى وصولها إلى أن تطرق الباب لمدة نصف ساعة على الأقل إلى أن كلفت إحدى الساحرات نفسها وفتحت لها الباب.

دفعت سنوري الباب الأزرق الصغير بينما كانت تدلك يدها المتورمة، ثم دخلت هي وأولر إلى المخزن رقم 9.

29

المخزن رقم تسعة



كانت سنوري تغط في نوم عميق عندما عادت أليس نيتلز إلى بيتها هذا المساء متأخرةً عما اعتادته. كانت رئيسة موظفي الجمارك تشعر بالبرد والإرهاق وتغمرها المياه، بعد عودتها من رحلة بحرية قاسية تعاملت فيها مع سفينة غير متعاونة، لكن وجهها كان مبتسمًا وهي تدفع الباب الأزرق الصغير؛ إذ كان شبح ألثر ميلا يخطو دالفًا معها من الباب.

كان ألثر قد قضى يومًا شاقًا في القصر. وبحلول فترة العصر، كانت مارشا قد ذهبت لتنضم إلى چيلي دچين في الغرفة الهرمسية، بعد أن

قالت له: «لا يا ألثر، لا أريد أن أقابل أي أحد، ولا حتى أنت. لا، لا أعرف متى سأخرج. على الأرجح ليس قبل شهور. والآن اغرب عن وجهي!»، ثم واصل ألثر بعد ذلك البحث عن چينا وسبتيموس، لكنه لم يجد لهما أثرًا في أي مكان. ومع ذلك، حصل ألثر على العديد من الروايات حول ما حدث لهما، وبدا له أن لافظ اللهب متورط بشكل قاطع في الموضوع، خاصة أن التنين قد اختفى هو أيضًا، لكن فيما عدا ذلك لم يكن في وسعه أن يرى شيئًا منطقيًا في الموضوع برمته، كما لم يكن في وسعه أن يقتنع بأن الرسالة التي عثرت عليها مارشا كانت بالفعل من سبتيموس، وهو لا يزال يأمل أن تكون چينا وسبتيموس قد ذهبا بالفعل لزيارة العمة زيلدا، على الرغم من أنه أدرك مع انقضاء ساعات النهار وسقوط الظلام أنه بات يتعلق بقشة؛ لعلمه بأن العمة زيلدا لن تسمح لهما بأن يتأخرا إلى هذا الوقت.

في تلك الأثناء كان سايلاس يزداد يأسًا، ومع سقوط الليل أقر ألثر أخيرًا في سره أن رسالة سبتيموس حقيقية. وقال لسايلاس إنه مازال ممسكًا ببعض الخيوط يريد أن يتتبعها، ولسوف يعود غدًا صباحًا. ترك ألثر سايلاس وماكسي جالسيْن في كآبة لدى باب القصر، في انتظار حضور جرينچ.

وكان ألثر يقصد بذلك أنه يحتاج إلى التحدث مع أليس نيتلز.

وهكذا، بينما كانت أليس تستقل مركبًا للعودة عبر مياه البحر القاتمة وسط أمواج متلاطمة متوجهة نحو أضواء الميناء المرحبة، رأت شبح ألثر ميلا يقف عند سور الميناء بنفاد صبر، تمامًا كما رأته منذ سنوات عديدة

مضت عندما كان لا يزال ساحرًا أعظم حيًا يُرزق. في ذلك اليوم الذي لا تنساه أبدًا، كانت أليس في طريق عودتها من النزهة الشتوية السرية التي تقيمها دار قضاء القلعة سنويًا، وكان ألثر قد اكتشف مكان النزهة - فهو مكان تصفر فيه الريح على جزيرة ساندي التي تقع جنوب الميناء بعدة أميال - وتوجه إلى الميناء خصيصًا لمقابلتها. وشعرت أليس بسعادة بالغة لم تشعر بها قطُّ من قبل - أو منذ ذلك الحين - عندما تعرفت من بعيد إلى هيئة ألثر بعباءته الأرجوانية يحملق نحو البحر، منتظرًا عودتها. وبعد أسبوعين، لقي ألثر حتفه إثر تلقيه رصاصة أطلقها عليه سفاح.

أخذت أليس شمعة من الحوض، ثم ضربت الحجر الصوان وأضاءتها. تابع ألثر خطى أليس داخل المخزن وهي تلتف عبر أخاديد ضيقة شُقت بشكل خطير بين أكوام مكدسة من الشحنات القديمة. ألقى ضوء شمعة أليس بظلال متراقصة فوق أكوام الصناديق والأثاث الخشبي، وأكوام مختلفة من الخردة، وعربة مزخرفة ذات عجلات حمراء ضخمة ودميتي تمرين محشوتين مثبتتين في سرج العربة، ثم انتفض ألثر فجأة فزعًا من منظر عيون التمرين الزجاجية البراقة، وقد بدت أنها تحدق إليه بنظرة لوم تعاتبه كأنه هو المسئول عما آل إليه مصيرها.

وقد عُد مخزن أليس واحدًا من العديد من المخازن الأخرى التي تقع في المنطقة القديمة من الميناء، وكان يمتلئ عن آخره بمحتويات سفن تعفنت وتحللت جلبها إلى الميناء ملاحون قضوا نحبهم منذ زمن بعيد، وتركوا بضائعهم بعد أن أهملوا في دفع رسومها أو رفضوا دفعها. هذه

الرسوم لن يسددها أحد الآن؛ لأن كثيرًا من هذه البضائع تعود لقرون سحيقة، ولقد تضاعفت الفوائد المتراكمة على الرسوم عدة مرات وتجاوزت قيمة البضائع نفسها.

بعد عدة لفات وانعطافات، وصلت أليس وألثر إلى السلم الخلفي للمخزن. تردد صدى قعقعة خطوات أليس مع صعودها السلم الحديدي شديد الانحدار، مرورًا بالطوابق التي تكتظ حتى أسقفها بمزيج من الكنوز والخردة، المكسوة بالأتربة وبيوت العناكب.

قال ألثر مستفزًا أليس: «أنا لا أفهم ما الذي يجعلك تسكنين في مقلب القمامة هذا يا أليس؟ في حين أنك تستطيعين أن تسكني في البيت الفخم الكبير المخصص لرؤساء موظفي الجمارك في الرصيف رقم واحد».

ردت أليس وهي تلهث بعض الشيء، وقد وصلا الآن إلى الطابق الخامس وما زالا يواصلان الصعود: «وأنا أيضًا لا أفهم لماذا. لا بد أنه أمر متعلق بشبح مسن يصر على متابعتي في الأنحاء هنا»، ثم توقفت عند منبسط سلم الطابق السادس لتلتقط أنفاسها، مستندةً إلى كومة عالية بشكل مخيف مكونة من أطباق صينية مزخرفة بأشكال من خشب الصفصاف، وقالت بعد أن فكرت في رد أكثر استفزازًا: «خسارة أنك لم تحضر قطُّ تلك الحفلات التي كان يقيمها مكتب الجمارك يا ألثر، كان ذلك سيوفر علينا الكثير من المتاعب».

رد ألثر مبتسمًا: «لو كنت فعلت ذلك لما كنت ستتمتعين أنت بهذه الرشاقة، فأنت تبدين في حالة جيدة مع كل هذه التمارين التي تقومين بها يا أليس».

«أشكرك يا ألثر، أعتقد أنك تكثر من مجاملتي الآن خلافًا لتلك الأيام التي كنت فيها... كنت فيها كما تعلم».

«كنت فيها حيًا يا أليس. لا بأس، يمكنك أن تنطقيها. حسنًا، كنت أحمق حينها، ولم أكن أدرك قيمة ما كان في يدي إلى أن فات الأوان».

لم ترد عليه؛ خشية أن تتفوه بكلام غير لائق، ثم التفت وصعدت جريًا السلالم الأخيرة الموصلة إلى الطابق السابع، ثم دفعت باب مخزنها البعيد عن سطح الأرض، وشغلت نفسها بإشعال الموقد الضخم الذي يتوسط الغرفة.

دخل ألثر محلقًا بعد لحظات، متتبعًا نفس الخطوات التي خطاها ذات مرة منذ سنوات عديدة، بعد أن اكتشفت العمة زيلدا بعض الرسائل المخبأة خلف المدفأة في كوخ الحارسة. وفاجأت العمة زيلدا ألثر بزيارتها له بعد ذلك، مصرةً على أن هناك شيئًا مهمًا في المخزن رقم 9، وأرادت منه أن يساعدها. وعندما سألها ألثر ما هذا الشيء المهم، اقتصر ردها على أنها لن تعرف ما هو إلا عندما تراه. وبعد ضغوط شديدة مارستها عليه، وافق على مضض أن يقوم **بمهمة البحث**. ولقد استغرقت منه **هذه المهمة** ثلاثة أسابيع كاملة، وخلال هذه الفترة أصيب بحساسية من الأتربة، ووقع في شجار مع العمة زيلدا، وبعد ذلك كله لم يعثرا على أي شيء يُذكر، فيما عدا بيت عناكب استوائية نادرة حادة المزاج قبع خلف مواسير المياه الساخنة. وبعد انتهاء الأسابيع الثلاثة هذه كانت العمة زيلدا قد كفت عن الحديث معه تمامًا. وفيما بعد، عندما تصالحا،

أخبرته العمة زيلدا عما كانت تبحث عنه. ومنذ ذلك الحين، كان في نية ألثر دائمًا أن يعود ويبحث من جديد، لكن كأغلب الأمور الأخرى التي أرادها في حياته، لم يفعل ذلك.

وهكذا، اعتبر ألثر أن الأمر برمته كان مضيعة للوقت، إلى أن حاولت أليس بعد سنوات عديدة أن تعثر على سكن لها في الميناء، يستطيع ألثر الشبحي أن يزورها فيه. ولأن ألثر لم يتردد على معظم الأماكن في الميناء أثناء حياته - عندما عُرض المخزن رقم 9 للبيع تحمس هو وأليس لهذا العرض. واشترته أليس بكل محتوياته، وانتقلت للعيش في الطابق العلوي منه. وبهذا الشكل، أصبح في وسع ألثر الآن أن يزورها ويتجول بحُرية في أنحاء المخزن بأسره، بدون أن يخشى أن **يتم إعادته**، وهي عملية يمقتها تمامًا.

وفي هذا الطابق البعيد عن سطح الأرض، وضعت أليس الشمعة على المائدة الكبيرة الموجودة بجانب إحدى النوافذ الصغيرة التي تطل على الميناء، ثم انضم إليها ألثر، وجلسا متجاورَيْن لا يصاحبهما سوى الصمت. وفي ركن بعيد مظلم، تقلبت ستوري لكنها لم تستيقظ.. نظرت أليس إلى الفتاة الصغيرة وهي ممددة على كومة سميكة من السجاد الفارسي، ومغطاة بشكل مُحكم بفرو ذئب، فعلا وجه أليس ابتسامة، لقد أسعدها أن ترى ستوري في أمان.. لكن... ما هذا؟

وفي لحظة سهو نسيت فيها أن ألثر بات شبحًا، أمسكت بذراعه لتجد نفسها تمسك الهواء، ثم همست له قائلة: «ألثر، ألثر، هناك شيء ما. إنه

حيوان كبير. يا للهول! انظر».

عكس ضوء الشمعة عينين خضراوين كانتا تحدقان إلى أليس وألثر.

فقال ألثر لاهثًا: «يا إلهي! ألديك نمر أسود هنا؟».

«أنا لا أحتفظ يا ألثر بنمور هنا، ولا في أي مكان آخر. إنني لا أحب النمور. يا للهول! اسمع...» وهنا ملأت أجواء الطابق الأخير من المخزن زمجرة خفيضة، ثم وقف أولر على أرجله المبطنة، نافشًا فرو عنقه، وهنا استيقظت سنوري وهمست قائلة، وقد رأت خيالي أليس وألثر يجسدهما نور القمر خلفهما، وعلمت أنها في أمان: «اهدأ يا أولر»، وأطلق أولر الليلي زمجرة أخيرة متعمدًا، ثم استلقى بجوار سيدته، ووضع رأسه الأسود الضخم على رجليه الأماميتين، ثم راح ينظر إلى أليس ورفيقها الشبحي بعينين شبه مغمضتين.. وضعت سنوري ذراعها على ظهره الأملس، ثم راحت في سبات عميق مرة أخرى.

همهمت أليس قائلة: «لم أكن أعلم أن لديها نمرًا أسود بالإضافة إلى القط. كان عليها أن تذكر لي ذلك. ما أغربهم هؤلاء التجار!».

نظر ألثر إلى رئيسة موظفي الجمارك بابتسامة يغلفها الحنان؛ فهو يعشق طريقة أليس التي تجعلها في الظاهر تبدو في غاية القسوة، بينما هي في حقيقتها بعيدة عن ذلك تمامًا. فأليس نيتلز ليست ممن يقفون بعيدًا ويتركونك وحيدًا إن حدث لك أي مشكلة، ثم سألها ألثر: «ضالة أخرى من الذين تؤوينهم يا أليس؟».

«إنها مجرد فتاة اضطررت أن أحجز على مركبها بسبب الحجر الصحي، وشعرت بتأنيب الضمير، لكن ماذا كان في وسعي أن أفعل غير ذلك؟ إن المرض الغامض ينتشر في أنحاء القلعة كالنار في الهشيم، ولا نستطيع أن نخاطر بجلبه إلى هنا».

«أخ! صحيح.. ذكرتني الآن»، فكلام أليس عن القلعة عاد بألثر - على مضض - إلى أرض الواقع.. فلولا ذلك، لجلس مع أليس بسعادة طوال الليل بجانب النافذة الصغيرة، ينظران منها إلى أضواء الميناء.

«ما الأمر يا ألثر؟ لديَّ إحساس بأن هذه ليست ليلة رومانسية سنقضيها معًا نتحدث في نور القمر».

تنهد وقال: «كنت أرغب في أن يكون الأمر كذلك، لكن هناك مشكلة».

تنهدت أليس بدورها، وقالت: «حقًا؟ أوليس هذا هو ما يحدث دائمًا؟».

«أرجوك يا أليس، إن الموقف سيئ، وأنا أحتاج إلى مساعدتك».

«أنت تعلم أنك لا تحتاج أن تطلب مني ذلك، ما الذي في وسعي أن أقوم به من أجلك؟».

«أحتاج أن أقوم بعملية بحث في المخزن بأسره من أوله إلى آخره، هناك شيء ما موجود هنا وأريد أن أعثر عليه. أنا وزيلدا لم نعثر عليه قطُّ منذ سنوات عديدة مضت، لكن الآن وبعد أن أصبحت شبحًا، أعتقد

أنني سأستطيع»، ثم تنهد وقال: «سوف يضطرني ذلك لأن اخترق كل شيء هنا».

بدا الاندهاش على أليس وقالت له: «لكنك تكره أن تُخترق يا ألثر. وأنت... أنت تعلم كم الأشياء الموجودة هنا. إنها جبال من الخردة والمهملات. يا للهول! إن هذا سيكون في غاية القسوة عليك. لا بد أن الأمر جد خطير».

«إنه بالفعل كذلك يا أليس.. فصباح اليوم، سبتيموس وجينا.. ما هذا؟ ما الذي يحدث في الخارج؟».

كان هناك طَرْقٌ مدوٍّ في الشارع رج زجاج نوافذ أليس. ومع إنصاتهما، أخذ الصوت يعلو أكثر فأكثر، وبدا أكثر إصرارًا، إلى أن أصبح الطَّرْقُ ثابتًا ومتواصلًا، وهز أرضية الغرفة التي أخذت بدورها ترج المائدة.

قال ألثر: «أحيانًا ينتابني القلق عليك من إقامتك هنا في مثل هذا الحي المليء بالعنف».

«إنهم ليسوا سوى بعض العربيدين يا ألثر. سأطلب منهم أن يهدءوا»، ثم أطلت أليس من النافذة وقالت: «يا إلهي! حسنًا، إنه على الأقل ليس نمرًا أسود، أظن ذلك».

سألها ألثر: «ما هذا الذي ليس نمرًا أسود؟».

فقالت له: «التنين».

كرر ألثر ببطء كلام أليس وقال: «التنين ليس نمرًا أسود؟» وخالجه إحساس بأن أليس تتحدث بالألغاز.

«بصفة عامة لا. فالتنين تنين، والنمر الأسود نمر أسود، هكذا تكون الأمور. ولا تسألني لماذا. أعتقد أنه من الأفضل أن أذهب وأفتح لهم قبل أن يحطموا الباب تمامًا».

«عمن تتحدثين؟».

«التنين يا ألثر. لقد قلت لك، هناك تنين على الباب».

30
الغنم المقدس



صاحت *أليس، وقد أخذ الباب الضخم يرتج إثر قوة الضربات التي يتعرض لها: «حسنًا، حسنًا، أنا قادمة!»* وأخذ ألثر - لأنه كان يودُّ من كل قلبه أن يساعدها، لكن لم يكن في وسعه إلا أن يقف مكتوف اليدين - يراقبها وهي تسحب مزلاجَيْن حديديَيْن هائلين، بكل ما أوتيت من قوة، وتجر باب المخزن الأخضر الضخم على عجلاته الصدئة. تحركَ الباب ببطء، لكن بمساعدة چينا ونكو اللذين كانا يدفعان الباب من الجهة الأخرى في

الخارج، بدأ الباب ينفتح مصدرًا صريرًا وأنينًا، إلى أن اتسعت فتحته بالقدر الذي يسمح لتنين عرضه 15 قدمًا لأن ينحشر ويمر منه.

قفز لافظ اللهب إلى الداخل، فصاحت أليس قائلة: «احترس!» - ولكن بعد فوات الأوان - فسقطت كومة ضخمة من الصناديق المكتوب عليها قابل للكسر مصدرةً جلبةً عاليةً صاحبتها خشخشة زجاج. لم يبدِ لافظ اللهب أي اهتمام لما تسبب فيه، وجلس ينظر حوله بترقب، وكأنه ينتظر أن يأتي إليه شخص بوجبة عشاء، وهو ما لم يكن بعيدًا عن الصحة، بما أن لافظ اللهب يقضي معظم الوقت يأمل وجبة عشاء أو إفطار، أو وجبة خفيفة، أو غداء، أو حتى شايًا؛ فهو لا تعنيه التسمية الآن، مادامت هناك وجبة تؤكل.

قال ألثر لاهثًا من فرط السعادة والارتياح: «چينا! ما الذي تفعلينه هنا؟» وابتسم الشبح ابتسامة عريضة مع دخول چينا ونكو اللذين بدا عليهما الشحوب والإرهاق، ثم واصل قائلًا: «وصانع المراكب الماهر أيضًا معك. مرحبًا يا فتى». منح نكو لألثر ابتسامة مقتضبة، لكنه بدا على غير حالته المرحة المعتادة، ثم ألقى الشبح نظرة على الشارع المظلم الممطر في الخارج، من باب الأمل وليس التوقع، وقال: «أليسَ سبتيموس معكما؟».

قالت چينا باقتضاب على غير عادتها: «نعم ليس معنا».

قالت أليس: «يبدو عليكما الإرهاق الشديد. اصعدا معي حيث الدفء في البيت»، وهنا ضرب لافظ اللهب بذيله ضربة قوية مدوية على الأرض.

فقالت له چينا بنبرة مرهقة وهي تربت على عنقه: «اهدأ يا لافظ اللهب.. استلق على الأرض، هيا. استلق. نم»، لكنه لم يكن يريد أن ينام الآن، بل يريد وجبة عشاء. أخذ التنين يستنشق الهواء ويتشمم، لكن لم تبد له رائحة الجو مبشرة؛ إذ لم يُشتم منها سوى الغبار، والقماش المتحلل، والخشب الذي يسكنه الدود، والحديد الصدئ، وعظام أغنام.. أخ! هذه الرائحة الأخيرة تبدو شهية.

دس لافظ اللهب أنفه في كومة شاهقة من الصناديق الخشبية المتراصة فوق بعضها بنظام، بشكل متزن، والتي ترتفع عاليًا إلى نحو عشرين قدمًا وسط الظلام، وبدأت الكومة تهتز بشكل ينذر بسقوطها.

وعلى الفور، صاحت أليس قائلة: «ابتعدوا جميعًا!» ثم دفعت چينا ونكو للخلف إلى الشارع في الخارج، وخرجت معهما هي وألثر الذي لن يروقه أن يجد نفسه **مخترقًا** بأكوام من الأغنام النافقة. وهنالك، سقط وابل من الصناديق مرتطمًا بالأرض، أدى إلى ارتداد لافظ اللهب تحاصره الصناديق من كل اتجاه.

وعندما أطلت أليس وألثر وچينا ونكو بقلق على المخزن من الداخل، وجدوا أن التنين تكاد تغطيه الصناديق بالكامل. رفع التنين رأسه، وهزه ليتخلص من أكوام الأتربة والشظايا التي علقت به، وبدأ يمزق بأسنانه أول صندوق منها، والتي سقطت، ليفتحه؛ فتبعثر من داخله كومة من العظام المصفرة وما بدا أنه سجادة مصنوعة من جلد الغنم.

قالت چينا، وقد بدأ يتولد لديها في الآونة الأخيرة كُرْهٌ للعظام: «أف! ما هذا الذي معه هناك؟».

ردت أليس قائلة وهي ترفع صوتها فوق أصوات المضغ والطقطقة بينما كان لافظ اللهب يقضم محتويات الصندوق الأول: «أغنام. إنها عظام أغنام. إنه يأكل عظامًا من قطيع سارن. لا بأس».

وبحذر، دخلت أليس وچينا ونكو وساروا جميعًا يتحسسون الطريق وسط الصناديق، وتمكنت چينا بالكاد من قراءة الكتابة المدونة على جانب أحد الصناديق، والذي مازال سليمًا، وكانت الكتابة مدونة بالخط القديم، وقد تحول لونها مع مرور الزمن إلى البني، وتقول كلماتها: **قطيع أغنام سارن المقدس، الصندوق 7 من مجموع 21 صندوقًا. عاجل، مطلوب توصيله على الفور.** والكلمات لا تكاد تظهر حيث تغطيها كلمات أخرى، مختومة عليها بلون أحمر باهت يبدو عليه صيغة الأمر، وتُقرأ كالتالي: **الرسوم الجمركية غير مدفوعة.**

صاحت چينا محاولةً أن تصل إلى التنين: «لافظ اللهب! توقف! أعطني هذا، فورًا». نظر لافظ اللهب بطرف عينه لأسفل نحو چينا، ثم واصل المضغ في الصندوق السابع. إن هذا هو طعامه، ولن يتنازل عنه لأي شخص آخر الآن – ولا حتى إلى **القائم مقام الذي وضع بصمته عليه.** فلتذهب هي وتبحث بنفسها عن طعام آخر تأكله.

«لا بأس»، هكذا قالت أليس وهي تزفر، وتدفع الباب مع نكو لتغلقه، فغرق المخزن في الظلام.

قالت چينا: «لكنها أغنام مقدسة». شطر لافظ اللهب عظمة أخرى، وابتلعها بصوت قوي.

ردت أليس وهي تضحك من بين أسنانها ضحكة خافتة: «هذا أمر أشك فيه كثيرًا. أعتقد أنها جزء من العظام المقدسة المزورة التي صادرها مكتب الجمارك منذ نحو مائة عام. وأنا لن أشغل بالي بها. ولو سألتموني لقلت لكم إن هذا أفضل استخدام لها.. إنها لم تنفع أحدًا سوى هذا التنين. في واقع الأمر، لقد سمعت بالفعل أن أحد المزارعين من حقول الأراضي المرتفعة اشتراها معتقدًا أنها قطيع حي، وعندما جاء ليتسلمها وأدرك أنه اشترى أكوامًا من الصناديق المملوءة بالعظام القديمة، رفض دفع الرسوم الجمركية المطلوبة لها وألقى بموظف الجمارك في الميناء، وقضى بعد ذلك ثلاثين يومًا في غرفة حبس الجمارك عقابًا له».

وبعد أن تلقى لافظ اللهب أوامر صارمة بأن يخلد إلى النوم مباشرة بعد أن ينتهي من تناول عظام الأغنام، تركت چينا ونكو التنين يسحق قطيع سارن المقدسة، وتابعا أليس وألثر إلى الطابق العلوي من المخزن.

ومع دخول چينا ونكو الغرفة، أطلق أولر الليلي زمجرة.

شهق نكو وقال: «أنت تؤلمينني يا چينا!» فما إن رأت چينا عيني النمر الخضراوين وهما تتلألآن في ضوء شمعة أليس حتى أمسكت بذراع نكو بقوة، وهو ما بدا له، وكما قال في سره، تصرفًا يتسم بالتوتر والاضطراب لم يصدر منها من قبل.

اعتدلت سنوري وجلست بعد أن أيقظتها زمجرة أولر الطويلة، وركزت عينيها اللتين يملؤهما النعاس بدهشة على الوافدين الجديدين، وقالت: «اهدأ يا أولر».

قالت چينا التي تملكها الدهش هي أيضًا بعد أن تعرفت الشعر الأشقر وسط الظلام: «سنوري؟».

«چينا؟ أهذا أنت؟» هكذا ردت سنوري، وهي تخلص نفسها من غطائها الذئبي، ثم تسير متعثرة على الأرض الخشبية، وأولر الليلي يسير بجوارها بخطوات صامتة.

ولدهش سنوري، جاء صوت نكو وسط الظلام يقول: «مرحبًا يا سنوري»، فردت بلهجتها الغناءة التي تروق نكو: «نكو.. أنا... أنا لم أكن أعلم أنك أنت أيضًا ستحضر إلى الميناء!».

فقال بتجهم: «ولا نحن، لقد أخذ هذا التنين الأحمق يلف بنا فوق الميناء لساعات وساعات، حتى ظننت أننا لن نهبط أبدًا، كان الجو في الأعلى قارس البرودة».

ابتسمت سنوري وقالت: «أنا أفضّل أن أكون على متن مركبي».

رد نكو قائلًا: «وأنا أيضًا. فأنا لا أملُّ أبدًا من المراكب – حتى وإن كانت زوارق تجديف صغيرة. كنت أرى الفتى الذئبي يجدف نحو الغابة، وتمنيت لو كان في وسعي أن أستبدل هذا التنين بأي ثمن في مقابل أحد هذه الزوارق – حتى ولو كان وردي اللون».

قالت چينا: «لا أظن أن الفتى الذئبي مصيبٌ في اعتقاده بأن سبتيموس ضل طريقه في الغابة».

هز نكو رأسه موافقًا چينا، وقال: «ومع ذلك، هذا لا يمنع أن يحاول البحث عنه هناك، بما أنه كان من المستحيل أن يعود عن طريق لافظ اللهب».

سألت چينا سنوري: «وهل وصل بسلام إلى الغابة؟».

أومأت لها سنوري برأسها، وقالت: «لقد أطلق صفارة، وحضر إليه فتى ليقابله».

قال نكو: «إنه سام، لابد أنه كان يصطاد».

سألته سنوري: «سام؟».

«نعم، سام، إنه...».

قاطعتها سنوري وهي تضحك قائلة: «إنه أخوك!».

سألها نكو مستغربًا: «وكيف عرفتِ ذلك؟».

ردت سنوري وهي تواصل الضحك: «لأن هذا هو ما يتضح كل مرة».

عادت أليس ببعض البطاطين التي أخذتها من بين كومة مبعثرة خارج صندوق مكتوب عليه **صُنع في بيرو، الرسوم الجمركية غير مدفوعة، محجوز عليها**، ثم قالت: «عظيم عظيم، إذن، يعرف بعضكم بعضًا. خذي يا چينا وأنت يا نكو هذه البطاطين ودفئا أنفسكما بها، إنكما ترتجفان كأنكما قنديلان من قناديل بحر يترجرجان في صحن».

وقفت چينا ونكو، متلحفيْن في بطاطين مرسومة بأشكال زاهية الألوان، وقد بدأ يفوح منها رائحة قوية لماعز مع تسلل بخار الرطوبة من ملابسهما بينما كانا يجففان أنفسهما في حرارة الأخشاب المتأججة داخل موقد أليس. وبينما كان الدفء يتسرب ببطء إلى جسميهما، أخذا يراقبان أليس وهي تضع على الموقد إناء به ماء لتغليه، وتخلط بعض شرائح البرتقال مع القرفة والقرنفل والعسل في إبريق من الفخار،

وتسكب الماء المغلي على الخلطة، ففاحت على التو رائحة معطرة ملأت الأجواء.

ثم قالت لهما أليس: «لا بد أنكما تشعران بالجوع أيضًا»، فأومأ لها نكو برأسه؛ فقد أدرك أنه يتضور جوعًا بعد أن بدأ يشعر بالدفء رويدًا رويدًا، ونسي الساعات التي قضاها هو وچينا فوق ظهر لافظ اللهب وسط الرذاذ الخفيف يحلقون في دوائر فوق الميناء. اختفت أليس في الظلام عند الركن البعيد من المخزن الذي تطلق عليه بيتها، وعادت بصينية عليها كعكة فواكه هائلة الحجم، ورغيف ضخم من خبز الميناء القاسي، وقطع كبيرة من مقانق الميناء المخلوطة بالأعشاب، بالإضافة إلى نصف فطيرة تفاح بالتوابل.

وبعد أن لاحظت أليس أن سنوري التي بدت مترددة ظلت منزوية بعيدًا، قالت: «والآن، تفضلوا جميعًا.. وأنتِ أيضًا يا سنوري».

جلست سنوري إلى المائدة، آخذة مكانها بجوار ألثر وابتسمت له، ثم قالت: «أعتقد... أعتقد أني رأيتك في القلعة».

فأومأ لها ألثر برأسه وسألها: «أنت رائية للأرواح؟».

احمر وجه سنوري وقالت: «هذا أمر لا يروقني دائمًا، لكنه واقع، فأنا مثل جدتي».

سألها ألثر: «ومثل والدتك؟».

هزت سنوري رأسها؛ فهي ليست مثل والدتها بأي حال من الأحوال.

وبعد أن اختفت كعكة الفواكه والخبز والمقانق وأغلب فطيرة التفاح، وبعد أن أعدت أليس إبريقين آخرين من البرتقال المعطر، نظرت إلى جينا وقالت لها: «هل من الممكن أن تحكي لنا الآن ما الذي حدث اليوم؟ أنا وألثر نود أن نعرف».

ابتسم ألثر؛ فهو يروقه سماع أليس وهي تقول «أنا وألثر»، كما تروقه الطريقة التي تعتبر بها أليس أن ما يقلقه يقلقها هي أيضًا. وقال في سره إنه لولا أن مسألة سبتيموس بالغة الخطورة لكان في تلك اللحظة في منتهى السعادة.

أومأت لها جينا برأسها؛ فهي تحتاج لأن تحكي لهم ما حدث كي تخفف من وطأة الحمل الذي يُثقل كاهلها. ومن ثم، أخذت نفسًا عميقًا، وبدأت تحكي بدءًا من ظهور الملكة إيثلدريدا في غرفة نومها في الليلة السابقة. كانت أليس وألثر يستمعان بتجهم، وعندما حكت لهما ما حدث لسبتيموس مع اللوح الزجاجي، تحول ألثر إلى هيئة شبه شفافة من فرط القلق الذي انتابه.

ثم جاء دور ألثر ليخبرهم بالأنباء السيئة التي لديه. وعندما سمعت جينا عما عثرت عليه مارشا في كتاب *أنا، مارسيلوس*، شهقت، وأطرقت رأسها بين يديها. لقد رحل سبتيموس.. للأبد.. وكل ذلك بسببها.

وضع نكو ذراعه حول كتفي جينا وقال لها: «لا تلومي نفسك يا جين».

هزت جينا رأسها؛ فهي بالفعل تلوم نفسها.

وفجأة، قال ألثر: «حسنًا، إنني أعتقد...» وعلى الفور، نظر الجميع إلى الشبح الذي كان يجلس بين سنوري وأليس، وقد بدأت عباءته الأرجوانية

للدهشة تبدو حقيقية مرة أخرى في ضوء الشمعة بعد أن تسلل إليه شعاع من الأمل. وواصل ألثر قائلًا: «.. أعتقد أن هناك طريقة.. وإن كان احتمال نجاحها ضعيفًا في العثور عليه.. إنها طريقة طويلة بالطبع، لكن...».

وهكذا، جلس في الطابق الأعلى للمخزن رقم 9 كائن ليلي وأربعة أشخاص في دفء حرارة النار، يستمعون إلى شبح يشرع في شرح الطريقة التي ربما قد يستطيعون بها أن ينقذوا سبتيموس.

وفي الطابق السفلي من المخزن رقم 9، كان قطيع سارن المقدس يختفي رويدًا رويدًا - وهو يُلتهم، ويُسحق، ويُبتلع، إلى أن كان كل ما تبقى منه هو هذه الصناديق الفارغة التي كانت تحويه، وجشأة طويلة تنم عن الرضا والسعادة، تفوح منها رائحة جلد الغنم.

وفي مكان ما ليس ببعيد عن المخزن رقم 9، واصل مركب ملكي تقدمه بمهابة في طريقه إلى مستنقعات مرام، طافيًا فوق تيار مياه شبحي وجد منذ أكثر من خمسمائة عام. وصل المركب إلى مرسى اختفى منذ زمن بعيد، ورسا عنده متلألئًا في نور القمر، متأرجحًا برفق على سطح الماء، بينما نزلت الراكبة التي كانت على متنه إلى البر، وقد علا وجهها تعبير مستنكر، وسارت بحرص على ممر موحل يؤدي إلى كوخ صغير مسقف بالقش.

اخترقت الملكة إيثلدريدا باب الكوخ، وعلى الفور كانت ساكنة الكوخ - وهي سيدة لها سمت مريح ترتدي خيمة ضخمة مصنوعة من أقمشة مختلفة الألوان - قد رفعت بصرها وهي جالسة على مقعدها بجانب النار، حائرة من الاضطراب الذي شعرت بهبوبه على الغرفة، ثم سرت في جسمها

رجفة مع مرور الملكة إيثلدريدا بجوارها، والتي صاحب مرورها انطفاء الشمعة. وقفت العمة زيلدا على قدميها، ونظرت بعينيها الزرقاوين اللتين تميزان الساحرات البيضاوات، وهما شبه مغمضتين، تتفحص أنحاء الغرفة التي كان يملؤها دفء ونسيم مريح تسرب منها فجأة. وعلى الرغم من كل **التفتيش** الذي قامت به العمة زيلدا - لم تكتشف وجود شبح إيثلدريدا وهو يتحرك في أنحاء الكوخ بحثًا عن چينا.

تملك العمة زيلدا الفزع؛ إذ كان بوسعها أن ترى **اضطرابًا** يعتري الحوائط المرصوصة بالكتب وزجاجات الجرعات بينما كانت إيثلدريدا تتفحصها بحثًا عما قد يُفصح عن وجود باب مخفيٍّ، دون أن تعثر سوى على دولاب يحتوي على قارورة عملاقة. ومع صعود إيثلدريدا السلم شديد الانحدار إلى غرفة السندرة، يتقدمها أنفها المدبب، صعدت العمة زيلدا هي أيضًا، وإن كانت لا تعلم السبب.

فتشت إيثلدريدا كل شبر في غرفة السندرة الصغيرة تفتيشًا دقيقًا؛ لاقتناعها بأن چينا لا بد أنها موجودة هنا. **فنفخت** غطاء كل سرير من الأسرّة الثلاثة، متوقعة أنها سوف تجد حتمًا چينا مختبئة أسفل أحدها لكنها لم تعثر على شيء، ثم حشرت أنفها المدبب أسفل كل سرير، ولم تعثر أيضًا على أي شيء، وبحثت في دولاب العمة زيلدا الذي كان مملوءًا بثياب جميعها نسخ طبق الأصل مصنوعة من الأقمشة الملونة بمختلف الألوان - ومع ذلك لم تعثر على أي شيء.

وفي ذلك الوقت، كانت العمة زيلدا قد أصابها الهلع؛ فقد علمت أن هناك روحًا غير هادئة في كوخها. ومن ثم، نزلت جريًا إلى الطابق السفلي

تبحث عن تعويذة **الطرد**، تاركة إيثلدريدا تعبث في أنحاء السندرة. وهنالك، عثرت إيثلدريدا على شيء وعدت العمة زيلدا چينا بأنها سوف تحافظ لها عليه في مكان آمن؛ هو المسدس الفضي. رفعت الملكة إيثلدريدا المسدس، مستخدمةً قدرًا هائلًا من قوة الإرادة، بينما كانت العمة زيلدا في الطابق السفلي قد بدأت ترتل تعويذة **الطرد**، ووسط هبة من الهواء المكتوم **طردت** التعويذة الملكة إيثلدريدا من الكوخ؛ حيث إن تعويذة العمة زيلدا تعويذة قديمة، حُفظت في دولاب رطب، فاندفعت نحو قناة الغمد التي تشهد مياهها الآن حركة جزر قوية فسقطت في الوحل. رفعت إيثلدريدا نفسها ووقفت على قدميها ثم صعدت متن مركبها الملكي والمسدس في يدها تحكم قبضتها عليه بقوة.

أخذت إيثلدريدا تتفحص المسدس وهي جالسة في قمرتها بعيدًا عن عيني العمة زيلدا الفضوليتين، ثم أخرجت الرصاصة الصغيرة الفضية التي أخذتها من غرفة چينا، وراحت تتفحص الرصاصة - عن قرب هذه المرة - وهي تمسكها بيدها التي بدأت تبدو حقيقية أكثر فأكثر، وعلا وجهها ابتسامة إصرار. كانت الرصاصة محفورًا عليها حرفان هما (أ. ط.) - اختصارًا للأميرة الطفلة - ولقد سُميت الرصاصة حيث كان الهدف منها إطلاقها على چينا عندما كانت لا تزال رضيعًا. ولقد كانت ضربة حظ - كما قالت إيثلدريدا في سرها - أن اصطدمت بشبح الجاسوسة التي خانت أسرة هيب طوال تلك السنوات الماضية. فلولا أن شبح ليندا لين المضطرب زحف خارج النهر ورفع نفسه على متن المركب الملكي، ما كان سيتسنى لإيثلدريدا أبدًا أن تعرف شيئًا عن قوة الرصاصة المسماة.

ومازال الحظ يحالفها، فالمسدس الفضي أيضًا أصبح معها الآن – وكل ما تحتاج إليه إذن هو العثور على الأميرة لتصويب المسدس نحوها.

وهكذا، انجرف المركب الملكي بعيدًا عن كوخ الحارسة، تاركًا العمة زيلدا في حالة من الاضطراب الشديد. أغمضت الملكة إيثلدريدا عينيها، وهي ممدة على وسائدها، تؤرجحها عاصفة خفيفة قديمة بدأت تزداد حدتها، وحلمت باليوم الذي سرعان ما سيأتي عندما ينتهي أمر الأميرة، وتعود القلعة إلى ملكتها الشرعية؛ الملكة إيثلدريدا الأبدية.

•

31
كنز دراجو



كان *الضوء الخافت لصباح يوم من أيام الخريف الباردة* يحاول جاهدًا أن يتسلل عبر النوافذ المرتفعة في الحائط الخلفي للطابق الأرضي للمخزن رقم 9، ولكن حال الزجاج السميك الأخضر لهذه النوافذ متناهية الصغر، مع طبقات السخام التي تكسوه دون ذلك. وفي نهاية المطاف، وبعد أن بذل كل ما في وسعه، تسرب ضوء ضعيف في صورة حزم ضوئية ممتدة طويلًا، يسبح فيها بحر من الأتربة.

سألت أليس بحنق، وهي تحاول أن تخرج من أسفل فيل ضخم، موجهة سؤالها إلى ألثر: «قلت أين هي تلك المرآة البائسة يا ألثر؟» كان ألثر جالسًا على صندوق زينة مصنوع من خشب الأبنوس، مربوط جيدًا بشرائط حديدية ومؤمن بقُفل ضخم، وكان الصندوق الأحمر الزاهي مختومًا بختم متكرر في شتى أنحائه، مدون عليه الكلمات التالية: **رسوم جمركية غير مسددة، محجوز عليه**، كأن أحد موظفي الجمارك السابقين كان قد فقد أعصابه وراح يشفي غليله في الصندوق.

بدا على ألثر الإعياء، وخالجه إحساس بأنه تناول دلوًا مملوءة بالأتربة، وكي يبتلعها اضطر لأن يتجرع المادة اللزجة المتخلفة في قاع كيس جزر متعفن؛ إذ إنه قضى طوال الساعة الأخيرة في **اختراق** أكوام من الخردة، ولم يسبق له أن جعله سوء حظه **يخترق** شيئًا وصلت حالته المتعفنة والبالية إلى هذه الدرجة. فمن كثرة البضائع المكدسة في المخزن، والتي منها ما هو مربوط في أكوام، وما هو مغلق عليه بإحكام في صناديق ضخمة، ومنها ما هو محشور في الخلف في أكوام لا يمكن الوصول إليها – كانت الطريقة الوحيدة أمام ألثر كي يتفحص كل جزء من المخزن هي **الاختراق**.. وحتى الآن، لم يعثر على ضالته، علمًا بأن مجموع ما تفحصه لم يتجاوز بعد سوى واحد من الألف من الموجود في مخزن أليس من أكوام الخردة والنفايات المكدسة، كما وجد نفسه أيضًا عاجزًا عن التفكير بشكل مباشر؛ إذ كان غطيط لافظ اللهب ورائحة تجشؤه المنفرة – وما هو أسوأ من ذلك – يمنع أفكاره – الغارقة في الأتربة والوحل – من التحلي بأي شيء من المنطق.

قال ألثر بتذمر مصححًا لأليس كلامها: «إنه لوح زجاجي يا أليس، لوح زجاجي.. وليس مرآة.. ولو كنت أعرف مكانه ما جلست هنا ولا تحملت الإحساس بأن قطيعًا من حيوانات الفوريكس دهسني، أليس كذلك؟».

ردت أليس بنبرة حادة: «كفاك حمقًا يا ألثر! ليس هناك وجود لهذه الحيوانات».

قال ألثر متذمرًا: «أمتأكدة أنتِ يا أليس؟ ربما أنك تخزنين أكوامًا كاملة منها في مكان ما هنا».

فقالت چينا وهي تحاول أن تلطف الأجواء: «عندما كنت صغيرة، كنت أعتقد أن حيوانات الفوريكس حقيقية، وكان نكو يحب أن يخيفني إذ كان يحكي لي قبل النوم قصصًا عنها – كانت جميعها تبدو شبه متحللة ولزجة، ووجوهها مرعبة تعلوها النتوءات، ولها أرجل ضخمة جدًّا ذات مخالب طويلة تجري حول العالم إلى ما لانهاية، وتسحق كل ما يعترض طريقها، وكنت أضطر حتى أنسى منظرها لأن أراقب المراكب لساعات من نافذتي».

قال ألثر: «ما كان ينبغي عليك يا نكو أن تحكي هذه القصص غير المناسبة لأختك الصغيرة».

«لم تكن چينا تمانع في ذلك، أليس كذلك يا چين؟ حتى إنك كنت دائمًا تقولين إنك تريدين أن تتحولي إلى واحدٍ منها!».

وكزت چينا نكو، وقالت له وهي تضحك: «كنت أقول لك ذلك فقط حتى يتسنى لي يومًا أن أطاردك أيها الفتى الشرير». كانت سنوري تراقب

العلاقة الأخوية الودود بين چينا ونكو، وتمنت لو كان لديها أخ مثله، فلو كان لها مثل هذا الأخ، لما اضطرت لأن تترك البيت وتأتي إلى هذا المكان المجنون.

تسلقت أليس كومة من الجوالات تحتوي على ثمانية وسبعين زوجًا من الأحذية الهزلية ذات المقدمة التي يلتف شكلها المدبب إلى الخلف، واخترقت قدمها أحد هذه الجوالات، وعلى الفور تناثرت في الهواء سحابة من روث خنافس الجلود، فانتابتها نوبة سعال، وتهاوت على صندوق الزينة بجوار ألثر، ثم قالت له: «ألثر، هل أنت واثق تماما - كح.. كح - أن اللوح الزجاجي- كح - سيكون موجودًا في نهاية المطاف - كح - هنا؟».

لم يتمكن ألثر من الرد عليها من فرط إحساسه بأنه ممتلئ بالأتربة. كان الشبح جالسًا وسط حزمة ضوئية مسلطة عليه، وتمكنت چينا من أن ترى ملايين الجسيمات الدقيقة الدوارة من الأتربة التي كانت تملأ جسده، ومن فرط سُمك السحابة الترابية في جوف الشبح، كاد يبدو بملامح ملموسة وبمنظر متسخ على نحو غريب.

سألته چينا التي جاءت لتجلس بجوار الشبح البائس الحزين: «لكنك تعتقد أنه قد يكون موجودًا هنا، أليس كذلك يا عم ألثر؟».

ابتسم لها؛ فهو يحب سماع چينا وهي تناديه بالعم ألثر؛ إذ يذكره ذلك بأوقات سعيدة مضت أيام نشأة چينا وسط أسرة هيب في غرفتهم الفوضوية بمنطقة العشوائيات.

«نعم أيتها الأميرة، أنا بالفعل أعتقد أن هذا اللوح الزجاجي موجود هنا».

فقال نكو مقترحًا: «ربما من الأفضل أن نطلب من العمة زيلدا أن تأتي لتساعدنا؟».

رد ألثر بتذمر، متذكرًا الوقت الذي حاول فيه مع الساحرة البيضاء العثور على هذا اللوح الزجاجي في المخزن رقم 9، ثم قال: «إن العمة زيلدا ليس لديها أدنى علم بمكانه، لقد كانت تقف وسط المكان هنا وهي تلوح بذراعيها هكذا» - وقلد ألثر حركة مراوح طاحونة هواء تلف وسط إعصار - «وهي تقول ابحث هناك، هناك يا ألثر. يا لك من رجل أبله! لقد قلت لك هناك» ضحكت چينا ونكو؛ فقد أتقن ألثر تقليد العمة زيلدا تمامًا.

«لكنني متأكد من أن اللوح الزجاجي هنا. مارسيلوس نفسه يقول ذلك. فبعد مائة وتسعة وستين يومًا من نجاحه لأول مرة في صُنع ما أسماه باللوح الزجاجي الحقيقي العابر للزمن الذي تحدث عنه كثيرًا وصنع له بابًا من الذهب وكل ما يلزمه، أكمل صُنع لوحين زجاجيين آخرين عابريْن للزمن، وهذه المرة كان اللوحان متطابقين ويمكن نقلهما. هذا هو ما أبحث عنه، وأعتقد أن أحد هذين اللوحين موجود هنا».

«ياه!» أطلق نكو صفارة هامسة منبهرًا بما يسمعه، ونظر حوله كأنه يتوقع رؤية اللوح الزجاجي فجأة يظهر من وسط كل أكوام الخردة هذه.

سألته أليس بارتيابها المعهود: «أواثق أنت يا ألثر؟».

بدأت جسيمات الأتربة في جوف ألثر تستقر، وشعر الشبح بتحسن، ثم قال بيقين أكبر: «نعم. كل ذلك مذكور في رسائل برودا باي، رغم أن مارشا تقول عن هذه الرسائل إنها مجرد مهاترات».

قالت جينا: «لقد حدثني سِب ذات مرة عن برودا باي.. لقد كانت حارسة، أليس كذلك؟ ياه! كم افتقد سِب الآن، لقد اعتاد أن يحكي لي عن الكثير والكثير عن كل الأشياء غير المهمة.. وكنت أنا أرد عليه وأقول له أن يكف عن ترديد الكلام هكذا كالببغاء الأحمق.. ليتني ما فعلت ذلك، حقًا ليتني ما فعلت ذلك»، ثم تهانفت وجففت دموعها، وهمهمت قائلة؛ لعلمها أنها سوف تنفجر في البكاء لو تفوه أي شخص الآن بأي كلمة تخفف عنها: «إنه التراب».

قال ألثر: «أعتقد أن سبتيموس كان مهتمًا بكتابات مارسيلوس عن **الطب**، وكان ذلك يقلق مارشا إلى أقصى حد. كانت تضطرب وتتوتر كلما اقترب سبتيموس من القسم **المحكم الغلق** في المكتبة. ترى، كيف تسنى له أن يعرف عن برودا؟».

ردت عليه جينا قائلة: «لقد أخبرته العمة زيلدا بذلك».

«فعلًا؟ عظيم، عظيم.. وهل أخبرته عن مجموعة الرسائل التي عثرت عليها خلف المدفأة عندما كانت تشق نفقًا للقط؟».

هزت جينا رأسها نافية؛ لعلمها أن سبتيموس لو كان نمى إلى علمه شيء عن هذه الرسائل لأخبرها بكل تأكيد.

«لقد كانت هذه رسائل مارسيلوس باي لزوجته برودا».

قالت جينا: «ولكن الحارسات لا يُسمح لهن بالزواج».

رد ألثر موافقًا رأيها: «صحيح، وهذا يثبت لماذا كان ذلك غير مسموح».

«كيف يا عم ألثر؟».

«لأن برودا أخبرت مارسيلوس بكل أسرار الحارسات، وعندما تأزمت الأمور معه، جعلته يسلك طريق الملكة كدرب مختصر إلى الميناء، ولقد كان يجلب كل الأغراض الكيميائية المتعلقة **بالسحر الأسود** عبر هذا الطريق. ولا تزال هناك حتى الآن جيوب من **السحر الأسود** معلقة في طريق الملكة؛ ولذلك لا بد أن تحترسي دائمًا أيتها الأميرة عند استخدام هذا الطريق..».

أومأت له جينا برأسها، ولم يدهشها كلامه؛ لأنها دائمًا ما يتملكها شيء من الخوف في طريق الملكة.

ثم سألته نكو: «إذن، مارسيلوس أخبر برودا بأنه سيضع اللوح الزجاجي في المخزن هنا؟».

«لا. لقد كتب لها يقول إنه تم الاحتيال عليه، ففيما يبدو أنه نقل اللوح عبر طريق الملكة، وحمله إلى الميناء على ظهر مجموعة متوالية من الحمير العنيدة، وأخيرًا وضعه على متن إحدى السفن. وكان يخطط لحمله إلى مجموعة صغيرة من الكيميائيين لهم نفوذ قوي في الشمال في بلاد الليالي الطويلة، لكن قبطان السفينة خدعه وباع اللوح إلى شخص يُدعى دراجو ميلز - كان تاجرًا من الميناء اعتاد شراء أكوام من البضائع الرخيصة دون أن يلتفت كثيرًا إلى مصدرها. المهم، بعد عدة

أشهر، تشاجر دراجو مع رئيس موظفي الجمارك حول مسألة بسيطة تتعلق بالرسوم الجمركية لشحنة أخرى لم يتم سدادها، وتم الحجز على جميع محتويـات مخزنـه نتيجـة المتاعب التـي أثارهـا. ولم يكـن أحد، حتى مارسـيلوس نفسـه، يسـتطيع دخول المخزن بدون موافقـة رئيس موظفي الجمـارك الـذي قال عنه مارسـيلوس إنه متطفل حقود، ولم يسـمح هذا المتطفل الحقود قطُّ بالإفراج عن الشحنة.

قال نكو: «معنى ذلك أن هذا المخزن مِلكٌ لدراجو؟».

«تمام يا نكو. المخزن رقم 9. ولقد أضيف إليه بالطبع عبر السنوات المتوالية مزيدٌ من البضائع الخردة، لكنه في الأساس يحتوي على كنوز دراجو؛ أي أن هناك لوحًا زجاجيًا مخبأً في مكان ما هنا، ومن المفترض أنه يعبر بك الزمن، ويجعلك تصل بعد سبتيموس بمائة وتسعة وستين يومًا».

خيم الصمت على نكو وچينا وسنوري بينما كانوا يحاولون استيعاب ما يسمعونه.

ثم قالت چينا: «لا بد أن نعثر على اللوح الزجاجي. لا بد أنه موجود هنا في مكان ما. هيا يا عم ألثر».

رد عليها ألثر متألمًا: «أمهلني شبحًا مسنًا مثلي بعض الوقت للراحة، فلا أزال أشعر وكأن جوفي أحد أكياس الأتربة الموجودة داخل مكانس الشفط. أمهليني عدة دقائق، وسوف أواصل العمل بعد ذلك.. آه! إن التنين يتقلب الآن، ولو كنت مكانكم لذهبت إليه فورًا. وربما أنكم

ستحتاجون لأن تأخذوا معكم جاروفًا من هذه الكومة التي تضم أدوات قديمة خاصة بالحدائق».

وعلى الفور، كانت الأجواء معبأة برائحة نفاذة، وقالت چينا باعتراض: «ياه يا لافظ اللهب!».

بعد عشر دقائق، كانت هناك كومة ضخمة من روث التنين تجف خارج المخزن رقم 9، وكان لافظ اللهب يلتهم برميلًا من المقانق اشترته له چينا من عربة مارة كانت في طريقها إلى السوق. ابتلع التنين آخر قطعة من المقانق، ولعق دلو ماء جلبها له نكو، ثم نخر مرسلًا في الهواء كتلة ضخمة من لعابه اصطدمت بكومة من الشمعدانات المقلدة المصنوعة من النحاس، فأذابت طلاءها.

شعر لافظ اللهب الآن بالسعادة والرضا؛ فمعدته النارية باتت ممتلئة بالعظام، ومعدة الطعام باتت ممتلئة بالمقانق، وكل ما عليه الآن هو أن يُكمل **مهمة البحث**.. وبتعمد، ضرب ذيله في الأرض مرسلًا سحابة هائلة من الأتربة في الهواء، وأغمض عينيه **بحثًا** عن الطريق المؤدي **لصاحب الصمة**.

فمنذ أن خرج لافظ اللهب في **مهمة البحث** وهو يشعر بالانجذاب نحو الميناء، وفيما عدا نداء الإفطار الذي كان لا سبيل لمقاومته وهبط ليتناوله على متن مركب سنوري - لم يحد لحظة عن هدفه. وأخذ يدور محلقًا فوق الميناء لساعات وساعات، مواصلًا **مهمة البحث**، إلى أن خالجه أخيرًا إحساس ما، فهبط على الرصيف القديم، وتابع النداءات

الخافتة التي كانت تصدر عن **مهمة البحث** طوال الطريق المؤدي إلى الباب الأخضر الضخم للمخزن رقم 9. أما الآن، بعد أن امتلأت معدته، فبات يستطيع التفكير بوضوح - والإشارات التي تصدرها **مهمة البحث** الآن تزداد قوة أكثر فأكثر.

وفجأة، وبعد أن نخر نخرة عالية، رفع رأسه لأعلى ملقيًا إياه إلى الخلف، وانطلق إلى أعماق المخزن، مصطدمًا بكل ما يعترض طريقه، ومرسلًا كنوز دراجو ميلز متناثرةً في كل الاتجاهات. رأته چينا ونكو وسنوري قادمًا نحوهم، لكنَّ ألثر، والذي كان شاحبًا ومملوءًا بالأتربة، لم يره. وفي لحظة، كان الشبح قد قُذف في الهواء، بعد أن **اخترقه** تنينٌ في مهمة، وسقط ألثر وطُرح أرضًا ممدد الجسد، شاعرًا بأسوأ إحساس شعر به منذ أن دخل عالم الأشباح.

وبينما كان ألثر ممددًا على الأرض، مكسوًّا بالأتربة ومدهوشًا، أخذ لافظ اللهب يثقب صندوق الزينة المصنوع من خشب الأبنوس الذي كان يجلس عليه الشبح. وفي لحظات، كان الإطار الحديدي للصندوق قد نُزع، والقفل العملاق قد كُسر، وانفتح غطاء الصندوق في لمح البصر بفعل مخالب التنين الضخمة والحادة.

وداخل الصندوق، بين طيات من القطيفة المخملية، كان اللوح الزجاجي قابعًا.

32
البركة المظلمة



خيم صمت غريب على *المخزن رقم 9*، حتى إن لافظ اللهب كفَّ عن نخيره المتحمس، ومكث ساكنًا على غير عادته.. اقترب الجميع بضع خطوات.. وبحذرٍ، نظروا في صندوق الزينة الأسود المصنوع من خشب الأبنوس، وارتجفت أجسادهم، كان منظر الصندوق منفرًا؛ إذ بدا كالتابوت، يقبع بداخله اللوح الزجاجي كأنه جثة هامدة، محفوظًا بشكل آمن بعيدًا عن العالم طوال الأعوام الخمسمائة الماضية وتحميه بطانة من المخمل حمراء داكنة، وكانت مُفصلة بإتقان بنفس استدارات

ولفات البرواز الذهبي. وبصمت، نظر أربعة أشخاص وشبح وتنين وقط نحيل برتقالي في أعماق الصندوق، محاولين النظر في بركة اللوح الزجاجي الداكنة التي يتعلق فوق سطحها ضباب أبيض معتم كأنه ممتد فوق سطح مياه راكدة في صباح يوم خريفي.

كان منظر اللوح الزجاجي يأسر القلوب ويخلب العقول إلى أبعد الحدود، وأخذ لافظ اللهب يحدق إليه، وذيله يهف متحركًا ببطء من جانب إلى آخر، مزيحًا في طريقه عشر دست من الأقزام الخرافية المبتكرة التي تهشمت تمامًا، ومائة رطل من الفواكه الشمعية التي بدت وكأن كاسحة ضخمة هرستها. أراد نكو أن يقفز داخل الصندوق ليعرف ما مدى عمق اللوح، بينما تساءلت سنوري في سرها عما إذا كانت ستستطيع أن ترى خالة والدتها إيلس في هذا اللوح الزجاجي. أما أليس فأرادت أن تعرف ما الذي اشترته تحديدًا مع المخزن رقم 9 - بما أن اللوح الزجاجي ملكها الآن، وهو ما يجعلها تشعر بأنها مسئولة عنه.

كان ألثر مبهورًا وهو يرى بأم عينيه هذا الشيء بالتحديد الذي قرأ عنه في رسائل مارسيلوس باي التي دُونت منذ كل هذه السنين الطويلة، لقد بدا اللوح تمامًا كما تخيله. وبينما كان يحدق إلى أعماق الصندوق أحس كأنه يحدق إلى حفرة سحيقة بلا قاع؛ حفرة يتمنى أن يغوص فيها إلى الأبد، ثم وبخ نفسه بحدة وهو يقول في سره: «كفى، كفى أيها المجنون»، وبشيء من الصعوبة أيقظ نفسه من أحلامه.

قالت أليس: «الغريب في الأمر أنك لم تلحظ أنك كنت تجلس عليه طوال ذلك الوقت يا ألثر!».

رد ألثر بانزعاج وقد شعر بالإهانة: «هذا ليس غريبًا يا أليس، بما أن الصندوق مبطن بالذهب الخالص. إن الذهب يمتص كل القوى. ولا عجب أن مارسيلوس كان يشتكي لبرودا من ثقل الصندوق - بحق السماء، ماذا كان يتوقع غير ذلك؟».

أخذت چينا تحدق إلى اللوح الزجاجي، بينما كانت تستجمع كل شجاعتها. فلو كان ألثر على صواب، فها هو ذا الطريق إلى سبتيموس، وها هي فرصتها لتصلح الضرر الذي تسببت فيه له.. وكل ما عليها إذن أن تفعله الآن هو أن تقفز في اللوح الزجاجي وتبحث عنه، أينما كان. ليس هناك بد من ذلك. وفي حركة باغتتهم بها جميعًا، تسلقت چينا إلى حافة الصندوق.

صاح ألثر قائلًا: «ارجعي!»، فانتفضت چينا لدى سماعها نبرة التحذير في صوته، وإذا بها تفقد اتزانها، وتسقط نحو اللوح الزجاجي.

وفي لمح البصر، اندفع نكو نحوها صائحًا: «چين!» لكن كان ذلك بعد فوات الأوان؛ إذ سرعان ما سقطت چينا داخل الصندوق على نحو أخرق، بذراعيها ممدودتين للأمام كالغواص الذي أخطأ في حسابات قفزته، لتغطس بعد ذلك وسط الظلام السائل للوح الزجاجي، وبات كل ما تبقى منها من أثر بضع تموجات قليلة، سرعان ما تلاشت، ثم عاد السطح إلى سكونه وانبساطه كما كان.

كسر الصمت المروع الذي خيم عليهم صياح نكو وهو يقول: «چين، چين!».

ثم ألقى بنفسه داخل الصندوق، لكنه رُفع فورًا إلى الخارج، في اللحظة التي لمس فيها حذاؤه الطويل سطح اللوح الزجاجي، بقبضة أليس نيتلز القوية.

قالت أليس وهي تزفر، وتواصل إحكام قبضتها على ذراعه: «لا يا نكو، هذا خطير جدًا».

رد نكو بعنف، غير قادر على أن يرفع بصره عن ذلك الشيء الذي ابتلع توًا أخته الصغيرة: «لا يهمني. اتركيني. إن جينا هناك بمفردها. اتركيني!» ظلت أليس ممسكة به كأنها حيوان ابن مقرض اصطاد لتوه أرنبًا، لكن نكو يكاد يصل طوله إلى طول أليس، كما أن الأشهر الثلاثة التي قضاها في العمل في ساحة مراكب جانيت مارتن أكسبته بنية قوية. وباستماتة، تخلص من قبضتها، وقبل أن تتمكن أليس من التصرف، كان نكو قد ألقى بنفسه مرة أخرى، لكن هذه المرة تكللت قفزته بالنجاح.

كان الجو باردًا حول نكو أثناء نفاذه عبر اللوح الزجاجي، وأحس كأنه يسقط وسط جليد سائل. لقد اخترق سطح اللوح الزجاجي كما لو كان يخترق شريطًا مطاطيًا باردًا كالثلج، ثم تركه السطح بعد ذلك ينطلق حرًا، كأنه ما عاد من شأنه الآن ما يحدث لنكو، ثم بدأ نكو يسقط سقوطًا حرًا وهو يتكور ويلتف ويتلوى كورقة شجر سقطت من فرعها وسط ليلة خريف هواؤها ساكن، إلى أن وجد نفسه يُسحب داخل طبقة أخرى من البرودة سرت في جسمه ثم تركته ينفذ منها، ليجد نفسه بعد ذلك قد سقط وسط كومة من المعاطف القديمة. وما إن وقف على قدميه حتى ارتطم

رأسه بشيء، ثم أطاح به قدوم قط برتقالي صغير بذيل أسود الطرف كان مندفعًا نحو ظهره.

قال نكو بذهول وهو يفرك رأسه: «أولر.. سنوري؟» فبينما كان نكو جالسًا، بعد أن طُرح أرضًا، نصفه داخل دولاب أخضر ضخم مملوء بمعاطف قديمة متربة ونصفه الآخر خارجه - التفت ليتبين من أين أتى أولر، فإذا به يرى سنوري تسقط عبر لوح زجاجي عاكس قديم - يشبه تمامًا اللوح الزجاجي الذي قفز من خلاله توًا - وكان اللوح مستندًا إلى ظهر الدولاب.

خرجت سنوري من دولاب معاطف مساعدي الطهاة الذي ما عاد يُستخدم الآن بعد أن استولى مساعدو الطهاة على الغرفة الثانية الخاصة بمعاطف خدم التقديم بعد صراع نفوذ مرير. نظرت سنوري إلى نكو بتردد؛ فكيف ستكون نظرته إليها بعد ذلك وهو يراها تتبعه بهذا الشكل؟ إن والدتها كانت دائمًا ما تقول لها إنه لا ينبغي على أية فتاة أن تلاحق أي فتى.

هزت سنوري رأسها لتتخلص من تفكيرها في والدتها. وعلى أية حال، فأمها لم تذكر شيئًا عن عدم جواز القفز خلف فتى في لوح زجاجي. لم تذكر شيئًا البتة.

كان دولاب معاطف مساعدي الطهاة في مكان عميق عند التقاء ممرين. وبحذر، زحفت هي ونكو خارج الدولاب ونظرا حولهما، كان المكان معبأ برائحة قوية للحم مشوي، جعلت نكو على الفور يشعر بالجوع، ولكن لم يكن هناك أي أثر لجينا.. أي أثر على الإطلاق.. كان

المكان مهجورًا، وأدرك نكو فجأة كم أنه كان غبيًا. فجينا قد تكون في أي مكان، فمن يدري أين أخذها اللوح الزجاجي؟

كان هناك شيء على أرض الممر لفت نظر سنوري، فانحنت ورفعته؛ كان دبوسًا ذهبيًا على شكل حرف (ج). وهنا، بدا وجه نكو شاحبًا، وقال: «هذا الدبوس يخص جينا، لقد أهديته لها في عيد ميلادها».

قالت سنوري: «لقد كان الدبوس معها منذ دقائق قليلة. أنا أشعر بذلك.. بل واثقة من ذلك».

ابتسم نكو، ومد يده إلى سنوري وقال لها: «هيا بنا إذن يا سنوري، فلنذهب للبحث عنها، من المؤكد أنها ليست بعيدة عن هنا».

بالعودة إلى المخزن رقم 9، كانت أليس نيتلز تستعد لأن تلحق بجينا ونكو وسنوري عبر اللوح الزجاجي. وقالت لألثر إنها لا يمكن أن تتركهم ليواجهوا المخاطر وحدهم. وهي مُصرة، مهما كلفها الأمر.

هز ألثر رأسه، وقد تملكه إحساس بالرعب من تطور الأحداث على هذا النحو، لقد فقد جينا ونكو وسنوري بسبب اللوح الزجاجي، وهو الآن على وشك أن يفقد حبيبته أليس. ولقد بات أمله في أن يرى أيًا منهم مرة أخرى ضعيفًا جدًا. ولو كان في وسعه لضحى بكل غالٍ في سبيل الذهاب مع أليس، لكنه يعلم أنه لكونه شبحًا لا يستطيع فعل ذلك.

وبقلب مُحطم، راقب أليس وهي تدخل بحذر في الصندوق. رآها تقف برشاقة على برواز اللوح الزجاجي، تستجمع شجاعتها كي تقفز وتغطس فيه، وتقاوم دافعًا قويًا يدفعها لأن تسد أنفها، وهي خصلة اعتادتها

بصفة دائمة كلما قفزت في المياه. وبينما كان ألثر يحاول تثبيت آخر صورة لأليس في ذهنه، وهو منظر سيلازمه إلى الأبد، كان لافظ اللهب - أخيرًا - قد حدد موقع الشخص الذي خرج من أجله في **مهمة البحث**.

ولأن لافظ اللهب لم تنمُ أطراف أعصابه بقدر طفرات نمو جسمه، ولا يعلم بعد ما حجم الفجوة الذي يمكن أن يسعه - فقد اندفع نحو اللوح الزجاجي متوقعًا أنه سينفذ منه، كما حدث مع جينا ونكو وسنوري، فأطاح بأليس في طريقه خارج الصندوق، فسقطت بجوار ألثر، حيث ظلت مطروحة أرضًا ممددة الجسد مقطوعة الأنفاس، عاجزة عن منع التنين من تحطيم اللوح الزجاجي إلى آلاف الشظايا من الخواء الداكن المتلألئ.

33
الأميرة إيزميرالدا



انتهت *توًا نوبة عمل اثنين من حراس القصر* اللذين كانا متوجهيْن إلى المطبخ، حيث تعمل زوجة أحدهما طاهية للحوم، والأخرى حارسة لصلصات اللحوم. كان الحارس الأصغر حجمًا – وهو رجل ممتلئ، له وجه مشدود ولامع وعينان صغيرتان تشبهان عيني الخنزير – يتحاور مع رفيقه في عدد قطع الكلاوي التي يحتاج إليها بالتحديد لصنع فطيرة اللحم بالكلاوي. أما رفيقه الأنحف، وهو أشبه بالجُرذان، وقد بدأ يعتريه الضجر، فكاد يطأ بقدميه على قدم چينا وهي تخرج متعثرة من دولاب معاطف مساعدي الطهاة في حالة من الذهول.

وفي لمح البصر، وجدت نفسها ممسوكة من ذراعها.

قال الحارس ذو العينين الصغيرتين اللتين تشبهان عيني الخنزير، والذي يضعف بصره في الضوء الخافت في الطوابق السفلية من القصر: «مرحَى مرحَى، ما أرى هنا؟ أين زي القصر أيتها الجارية الصغيرة؟».

حدقت چينا إليه، وقد خالجها إحساس أغرب ما يكون بأنها كادت تفهم كلام الرجل.

واصل الحارس كلامه متذمرًا: «أنتِ دخيلة هنا، آثمة على أرض ملكية. وإنها لجريمة خطيرة. سيتعين عليكِ تبرير تصرفك».

خالج چينا إحساس فطري بأنه خير لها ألا تنطق بأي كلمة الآن، وكانت مدركة أن الحارس الآخر الأشبه بالجرذان يُحدق إليها. فرفعت بصرها تنظر إليه، فرأت في عينيه نظرة هلع.

«دعها يا ويل. ألا ترى أنها ترتدي زي الأميرات الملكيات؟».

أخذ الحارس ذو العينين الصغيرتين اللتين تشبهان عيني الخنزير يدقق النظر إليها بتمعن حتى تحولت عيناه إلى شقين طوليين وسط انتفاخ وجهه السمين، وإذا بجبينه قد بدأ يتصبب عرقًا، وترك رداءها على الفور وكأنه قد صُعق، ثم همس بغضب للحارس الأشبه بالجرذان قائلًا: «لمَ لم تخبرني بذلك؟».

«يا لك من أحمق! لقد قلت لك. ولو لم تسترسل بكل هذا الكلام عن الكلاوي واليخني وصلصات اللحوم حتى أعلنت معدتي العصيان عليّ وامتلأ فمي باللعاب – لأبصرت ذلك من تلقاء نفسك».

شعرت چينا برأسها يدور. ما هذا الذي يقولانه؟ لقد سمعتهما يذكران أميرات ملكيات، وخالجها إحساس غير مريح يحدثها بأنهما تعرفا إليها. وعلى الفور، وجدت نفسها تُسحب على امتداد الممر من مرفقيها بحزم، ولكن هذه المرة باحترام.

أخذت چينا تنصت لحديثهما المتحمس، ملتقطة منه بعض الكلمات، محاولة أن تفهم منه شيئًا.

«من المؤكد أننا سنثاب على ذلك يا ويل؛ فعثورنا على الأميرة الضالة سوف يُقابل بانبهار وفرحة عارمة».

«أنت على صواب يا چون. وتخيل سعادة الملكة وهي ترى ابنتها التي كانت تخشى أن تكون قد غرقت عادت إليها. ربما تعود إلينا الابتسامة الملكية مرة أخرى».

«ربما. رغم أني صراحة لا أتذكر أي ابتسامة على وجه الملكة يا ويل».

نعرويل موافقًا رأي چون، وباحترام، طَلَبَا من چينا لو تتكرم وتصعد السلم، لاصطحابها إلى مكان بالقصر (يليق بمقام الشخصيات الملكية).

وسرعان ما كانوا قد وصلوا إلى الممشى الطويل، وهنالك أيقنت چينا أن اللوح الزجاجي لم ينقلها فحسب إلى القصر، بل نقلها أيضًا عبر الزمان إلى الماضي. بدا الممشى الطويل تمامًا كما وصفه لها السير هيروارد وهو يخوض معها ذات ليلة في حديث مطوّلٍ عن المعتاد؛ إذ كان القصر يزخر بالكنوز القديمة التي لا تشبه الأشياء الغريبة والعجيبة التي رصها ميلو باندا على امتداد الممشى الطويل فحسب، بل تشمل عرضًا

سخيًا لتاريخ القصر يحكي قصته.. كانت هناك لوحات مطرزة جميلة، ولوحات زيتية مرسومة بتفاصيل دقيقة لأميرات ومربياتهن، ولكلاب القصر، ولزوار من السحرة والعرافين، وكان هناك أيضًا تمثال ضخم من البرونز لتنين أزرق نادر، له نظرة ذكرتها بلافظ اللهب، كما أن القصر لم يكن بالهدوء والسكون الذي اعتادته بل كان أشبه بخلية نحل؛ حيث كان يعج بالحركة والنشاط. ولقد ذكرها الممشى الطويل بساعة الذروة في منطقة العشوائيات، فكان هناك مئات الخدم - جميعهم يبدون في غاية النظافة ويرتدون زيهم الخاص بالقصر الذي يتكون من رداء أو ثوب رمادي بشريط أحمر داكن حول الحافة، وكانوا يتحركون بخطوات سريعة ذهابًا وإيابًا في مأموريات مهمة، بعضهم كان يحمل صواني عليها صحون فضية مغطاة، ومنهم من كان يحمل رزمًا من الملفات، والعديد منهم كانوا يحملون حقائب القصر الخاصة بالرسائل، وهي عبارة عن دوسيهات حمراء صغيرة مختوم عليها بالهلال الذهبي المميز للقصر، لكن الأغرب في كل ذلك هو امتلاء الأجواء برنين الأجراس؛ إذ إن كل غرفة كان معلقًا خارجها جرس، جاهز لأن يرنه خادم أعلى مقامًا؛ لاستدعاء خادم أقل مقامًا لتلبية الأوامر. ولا تكف هذه الأجراس عن الرنين، وعمومًا لا يعدو تأثيرها عن أن يتجاوزها الخدم الأقربون مسرعين، ويتظاهروا بأنهم لم يلحظوها.

كانت چينا تتقدم في طريقها ببطء؛ حيث كان كل خادم يمر بجوارهم يتوقف مندهشًا مع إدراكه من هي هذه الفتاة التي تسير بين الحارسين؛ مما كان يتسبب في اصطدام الخدم الآخرين به. وكان بعضهم يشهقون

من فرط الذهول، وآخرون كانوا ينحنون، وكثيرون كانوا يبتسمون، ثم يسرعون الخطى، متحمسين لأن يكونوا أول من ينقلون خبر عودة الأميرة التي غرقت.

بعد ذلك بقليل، وصل الحارسان إلى مقصدهما؛ أي إلى غرفة العرش. وكانت هي الغرفة الوحيدة في القصر التي لم تدخلها چينا قط، ولا تتمنى أساسًا أن تدخلها؛ فهي التي تم اغتيال والدتها وألثر فيها، وهي الغرفة التي كادت هي أيضًا أن تفقد فيها حياتها - لولا أن حملتها مارشا أوڤرستراند بعيدًا إلى مكان آمن. وعندما عادت چينا بعد ذلك لتقيم في القصر، قررت إغلاق غرفة العرش. وبدون تردد، وافق ألثر الذي هو أيضًا لا يكنُّ حبًّا لهذه الغرفة.

وما إن رأى حارسا باب غرفة العرش الأميرة الغارقة حتى اتسعت عيونهما من فرط الذهول، وانطلق من الفتى الأصغر سنًّا صريرٌ تعبيرًا عن دهشه، ثم انحنى كلا الخادمين انحناءة منخفضة، وبحركة متمرسة دفعا الباب الضخم لغرفة العرش على مصراعيه، ثم رافقاها إلى الداخل. أما الفارس النهاري، وهو رجل بدين، له وجه ودود، وهو الفارس الشخصي للملكة هذا اليوم، فقد بُهت لرؤية چينا، ثم انحنى انحناءة منخفضة في غاية التعقيد، تضمنت حركات متعددة بالأذرع ورفع القبعة.

وبينما كان الفارس النهاري يواصل أداء تحيته، اتجه بصر چينا إلى غرفة العرش نفسها؛ كانت الغرفة ضخمة؛ فهي تُعد ثانية كبرى غرف القصر، وتمتد بطول خمس نوافذ من نوافذ واجهة القصر التي تطل على البوابة، كما تطل أيضًا على طريق الكيمياء القديم مباشرة. وقد امتد جهة

اليسار طريق السحرة وتمكنت چينا من أن ترى من على مسافة ليست ببعيدة خلف القوس العظيم - برج السحرة يرتفع شاهقًا وسط سماء آخر النهار الوردية، وكاد الهرم الذهبي الذي يتوج البرج يتوارى عن الأنظار بتأثير ما تسميه چينا بالضباب **السحري** الذي يتسلل لأعلى من نوافذ جناح الساحر الأعظم، وهو يدور في حركة محورية كالدوامة.

وأخيرًا، اختتم الفارس النهاري الانحناءة، وانزعج بعض الشيء أن وجد الشخص الذي وجه إليه كل هذه التحية يُحدق من النافذة. فتنحنح الرجل بتحفظ، والتفتت چينا وقد عاد انتباهها على الفور إلى غرفة العرش؛ حيث كانت تزخر بلوحات مطرزة فاخرة معلقة على جدرانها، تصور حياة ومغامرات العديد من الملكات. وعند أحد أطراف الغرفة، تأججت نيران مدفأة ضخمة، وعند طرف آخر قبع كرسي عرش مزخرف، جلست عليه الملكة إيتلدريدا بشحمها ولحمها، ويعلو وجهها تعبير في غاية الاستنكار، وكانت تطرز نسيجًا بطعنات قصيرة شريرة.

شهقت چينا وقالت: «يا للهول!».

تقدم الفارس النهاري إلى الأمام، وخاطب الملكة التي لم تكترث حتى الآن لترفع بصرها وتنظر. قال الفارس الذي يستغرق عادة ساعات ليدلي بما يدلي به الآخرون في دقائق، هذا إن اهتموا أساسًا بأن يُدلوا به: «مولاتي الملكة، يا صاحبة الجلالة الملكية وصاحبة كل الكرم، أتسمحين لي أن أزف إليك هذه البشرى. أزف إليك بشرى تسر وتبهج قلبك، وتزيح حزنك وهمك وبؤسك كأمٍّ، بشرى العودة العظيمة الرائعة، المعجزة التي كنا نأملها جميعًا، رغم أننا كنا نخشى ألا تتحقق أبدًا؟!».

قالت الملكة إيثلدريدا بنبرة حادة، وهي تقطع خيطًا بأسنانها، وتعقد بحنق غرزة معقدة: «أف! اختصر أيها الرجل».

واصل الفارس قائلًا، وقد سمح لنفسه، كما رأت چينا، أن يغير نبرته إلى نبرة يشوبها شيء من الاستنكار لإضفاء الأهمية على كلامه: «إن ابنة جلالتك الغارقة، ابنتك التي هي من شحمك ولحمك، يا سيدتي، هذه الوردة الجميلة الرقيقة التي اشتاقت إليها القلعة منذ شهور طويلة، وقد باتت هذه الشهور الحزينة والمؤلمة الآن مجرد ذكرى مؤلمة وصارت...».

ألقت الملكة إيثلدريدا نسيجها الذي تطرزه على الأرض من فرط ضجرها، وقاطعته قائلة: «بحق السماء أيها الرجل، كُف عن هذه الثرثرة الجوفاء الحمقاء، وإلا سوف أجعلهم يعلقون رأسك على بوابة القصر هذا المساء». بدا وجه الفارس النهاري شاحبًا من فرط فزعه، وأخذ يسعل، ثم أردفت الملكة قائلة: «كُف عن هذه الهمهمة». وأخيرًا، رأت الملكة إيثلدريدا چينا، وقالت: «ما هذا؟».

جازف الفارس النهاري ورد بخجل متسائلًا عما إذا كان كلامه سيُعد ثرثرة جوفاء حمقاء أم لا: «إنها... إنها ابنتك المفقودة يا صاحبة الجلالة».

قالت الملكة إيثلدريدا بنبرة تشوبها المرارة وهي تنظر على امتداد غرفة العرش، وقد بدا عليها ولو لمرة واحدة - أخيرًا - أنها تكاد تعجز عن الكلام: «أرى ذلك. لكن كيف؟».

أشار الفارس النهاري بذراع ضخمة إلى الحارسين اللذين كانا يقفان في وضع الانتباه بأدب واحترام على جانبي چينا، وقال: «هذان الحارسان

العظيمان يا مولاتي عثرا على فلذة كبدك بينما كانت تجوب أعماق القصر تائهة تنوح».

انزعجت چينا من هذه الجملة الأخيرة، لكنها لم تعلق. فهي بكل تأكيد لم تكن تنوح.

صاحت إيثلدريدا مزمجرة بصوت عالٍ: «إذن، خذهما إلى الزنزانة!». فتقدم جنديان قويا البنية من بين الظلال وقبضا على الحارسين، وقبل أن يتسنى لهما التقاط أنفاسهما، كانا يجران جرًّا من حضرة الملكة إلى قبو القصر، وألقيا في الزنزانة؛ وهي حفرة شريرة شديدة الرطوبة تقع أسفل مطابخ فضلات الذبائح، يتساقط فوقها دهون فاسدة ومياه قذرة مع تدفق مياه الغسيل.

شعرت چينا فجأة بوحدة شديدة بدون وجود الحارسين ويل وچون اللذين كان وجودهما بجوارها يطمئنها على نحو غريب. كان الوجود الواقعي الملموس للملكة إيثلدريدا بشحمها ولحمها يثير ذعرًا رهيبًا في نفس چينا لم يثره شبحها. أما وجود الكائن ذي الذيل الثعباني المتعلق بتنورة الملكة، والذي أخذ يحدق حاقدًا بعينين حمراوين إلى چينا، وهو يطقطق بسنّه الوحيدة المتحركة، بتحريكها داخل وخارج فكه المدبب - فجعل چينا تود لو أن تلتف للخلف وتنطلق جريًا. لكن لم يكن ثمة مفر، وشعرت چينا بأنفاس الفارس النهاري الثقيلة تلفح مؤخرة عنقها.

قالت الملكة إيثلدريدا مخاطبةً الفارس: «وأنت، خذ إيزميرالدا إلى غرفتها وأغلق عليها الباب بالمفتاح إلى أن يحين موعد العشاء غدًا؛ حتى تتعلم ألا تفر من والدتها في المستقبل».

انحنى الفارس النهاري للملكة، ثم أمسك چينا من ذراعها برفق، وقال لها: «اسمحي لي أيتها الأميرة أن أصطحبك إلى غرفتك. سأعطي التعليمات للطاهي كي يزودك بالطعام». ولم يكن هناك خيار آخر أمامها غير أن تترك الفارس يقودها على امتداد الطرقة، ويشق بها الطريق المألوف إلى غرفتها.

كان شبح السير هيروارد يستند إلى الحائط، محدقًا إلى الفراغ، ويبدو عليه الضجر والفتور. وما إن رأى چينا حتى بدا عليه الاندهاش. وعلى الفور، وقف «انتباه» ثم انحنى باحترام، وبابتسامة عريضة قال لها: «مرحبًا بعودتك إلى قصرك يا إيزميرالدا. إن عودتك أروع حدث؛ إذ كنا نخشى أن تكوني قد غرقتِ. والآن، إليك هذا اللغز، فأنت تبدين شاحبة بعض الشيء وبائسة. ما الفارق بين العنقاء والرمان؟».

قالت چينا وهي تبتسم: «لا أعلم يا سير هيروارد، ما هذا الفارق؟».

«بما أنك لا تعلمين الفارق بينهما فلن أستطيع أن أرسلك لتتسوقي لي. هيو هيو!».

«ها ها! دعابة لطيفة جدًا يا سير هيروارد».

وبينما كان الفارس النهاري يقود چينا لتدخل غرفتها، نظر إليها السير هيروارد وقال لها: «لقد تغيرتِ يا إيزميرالدا. لقد تغيرت طريقة حديثك. إنها الصدمة ولا شك. ارتاحي جيدًا أيتها الأميرة. وأنا سأحرسك من أي أذى. اطمئني، لن تدخل والدتك»، وانحنى الشبح، ثم أغلق الفارس النهاري باب غرفتها الضخم، لتجد چينا نفسها تقف وحيدة في غرفتها أو بالأحرى بمفردها في غرفة إيزميرالدا الغارقة.

كانت غرفة الأميرة إيزميرالدا تثير في النفس إحساسًا بالفزع؛ فالغرفة لم تكن باردة، وشديدة الرطوبة، وينمو في أماكن مختلفة منها بقع من العفونة الخضراء فحسب، بل كان بها كذلك إحساس بائس حزين؛ بل إحساس حقود يملأ الأجواء. جابت چينا الغرفة التي كانت للدهشة في حالة متداعية بالنسبة لغرفة نوم أميرة؛ إذ كانت الأرض خشنة عارية، وبعض ألواحها الخشبية مشققة ومخلوعة، وكانت الستائر منحولة ولا تصل إلى الحافة السفلية للنوافذ الطويلة، كما أن السقف سقطت أجزاء كبيرة من طلائه. كانت هناك شمعة واحدة بجانب السرير، والمدفأة بالطبع لم تكن موقدة.

ارتعد جسم چينا، ولم يكن السبب الوحيد لرعشتها هذه هو البرودة القارسة التي تملأ جو الغرفة المتعفن، وجلست على ما رأت أنه سريرها الشخصي، ثم اكتشفت أنه مختلف تمامًا عن سريرها، لكنها لم تلحظ الأجزاء المتكتلة في حشيته؛ فأمر سبتيموس كان يشغلها. تُرى؛ كيف سيتسنى لها أن تعثر عليه؟ لقد كانت تتوقع بشكل أو بآخر أنها ستجده في انتظارها بمجرد أن تنفذ من اللوح الزجاجي، لكنها أدركت الآن كم كانت حمقاء أن فكرت هكذا. إنها الآن في عالم مختلف تمامًا، وسبتيموس قد يكون في أي مكان في هذا العالم - في أي مكان. بل إنه قد يكون أكبر سنًا - أكبر بكثير حتى إنها لن تتمكن من التعرف إليه، بل ربما... ربما أنه لقي حتفه. هزت چينا رأسها تحاول أن تطرد من ذهنها هذه الأفكار التي لا جدوى منها. لقد كان الأثر واضحًا تمامًا فيما ذكره لهم - فاللوح الزجاجي الذي نفذت منه انتهى صُنعه بعد الانتهاء من

صُنع اللوح الزجاجي الذي نفذ منه سبتيموس بمائة وتسعة وستين يومًا. وهذا الرقم رقم كيميائي مهم، كونه حاصل ضرب ثلاثة عشر في ثلاثة عشر. وكانت چينا ماهرة في الحساب؛ لذا سرعان ما حسبت أن سبتيموس عبر إلى هذا الزمن منذ خمسة أشهر ونصف الشهر - هذا إن صح كلام ألثر! لكن أين هو الآن؟

استلقت چينا على الفراش، وحاولت أن تتخيل طريقة تعثر بها على سبتيموس بينما كانت تراقب عنكبوتًا ضخمة تهبط على أحد قوائم السرير وهي معلقة في خيوطها. شعرت چينا على الفور - لكونها أميرة متأصلة في صميمها - بشيء حاد يتغرز في ظهرها، وتساءلت في سرها كيف كان يتسنى للأميرة إيزميرالدا أن تنام على سرير حشيته متكتلة بهذا الشكل. ترى، ما سبب هذا التكتل؟ وبحنق، رفعتها لأعلى لترى إذا ما كانت ستستطيع أن تكتشف السبب.

ووجدت أسفل الحشية الريشية القديمة الغارقة في الرطوبة، والتي تنبعث منها رائحة دجاج نفاذة - كتابًا ضخمًا له غلاف جلدي ذو أركان معدنية، وكان مدونًا عليه: **اليوميات الخاصة والخصوصية جدًا للأميرة إيزميرالدا. غير مسموح لأي شخص بفتحها أو قراءتها، خاصة أمي.**

أخذت چينا اليوميات، وتركت الحشية تسقط على السرير مصطدمة بصوت مكتوم، مرسلة معها سحابة من الغبار وبذور العفن. فعطست «أتشو، أتشو!» وبعينين تسيل منهما الدموع، جلست چينا على السرير الذي أصبح الآن أقل تكتلًا، ومتجاهلة التعليمات التي علت ركن الكتاب، بدأت تقرأ يوميات الأميرة إيزميرالدا.

34

يوميات الأميرة إيزميرالدا



كانت *يوميات الأميرة إيزميرالدا* مدونة بنفس الخط المسترسل القديم الذي يزين الغلاف، وكان الحبر المستخدم أسود وواضحًا - تمامًا مثل القصة البشعة التي تحكيها.

يوم الإثنين

كان اليوم من أقبح الأيام وأكثرها رعبًا.

فبناء على أوامر أمي التي ترهقني بالعمل في كل الأماكن المتدنية

من القصر (حتى تعرفي يا إيزميرالدا قيمة العمل)، ذهبت إلى مطبخ اللحوم اليوم، بدأت عملي في استخراج كل أحشاء الطيور للطاهي، وهو رجل تنبعث من فمه رائحة كريهة ويتصبب جسمه عرقًا كأنه قطعة جبن طازجة يرشح منها الماء، ووجهه أيضًا أشبه بقطعة الجبن، من النوع الذي تتناوله أمي؛ أبيض مجدور بعروق زرقاء على أنفه. أعتقد لو أن أمي تناولت أنفه، فلن تميز الفرق بينه وبين الجبن، كما أعتقد لو أن أمي أدركت حينها أنها تتناول أنف الطاهي، لواصلت تناوله، ولكن لا بد ألا أكتب شيئًا عن أمي؛ لأن الكتابة عنها أمر محفوف بالمخاطر.

عندما عدت من مطابخ اللحوم إلى غرفتي، وكان قد أعطاني الخادم إناء فيه ماء عذب للتنظيف حتى أخلص أظافري من بقايا الدم المتخثرة أسفلها، جاءت ماري تطرق عليّ باب غرفتي بهلع كأن ساحرات ويندرون اللاتي يعشن في الغابة يلاحقنها بإصرار وكانت ماري، والتي أحبها من كل قلبي، ويكاد حبي لها يكون كحبي لأختيّ الرضيعتين، في حالة بائسة تمامًا.

وسألتها، كما أفعل دائمًا (لأن أمي لا تسمح لي بأن أكون إلى جوار أختيّ الرضيعتين متى شئت): كيف حال أختيّ العزيزتين؟ وهنالك، أخذت ماري تنوح مثلما ينوح الخنزير عندما يرى سكين القصاب، أجلستها إلى جواري بالقرب من النار الصغيرة المشتعلة في مدفأة غرفتي (لأن خادمتي تسرق بعض الفحم في الليالي الباردة) وغليت بعض الماء عليها؛ لأن أسنان ماري المسكينة كانت تصطك كأنها زجاج نافذة في ليلة عاصفة.

طرحت عليها سؤالي مرة أخرى عن أختيّ التوءمتين، وأعترف أن قلبي بدأ يتسلل إليه شيء من الخوف. «لقد رحلتا»، هكذا صرخت ماري صرخة تفتت القلوب، حتى إن السير هيروارد هرع إلينا جريًا - أو بالأحرى محلقًا - وسألنا: «لماذا كل هذه الدموع؟»؛ إذ إن الشبح العزيز عندما دخل علينا، كنت قد علمت حقيقة مصير أختيّ. لقد فارقتا الحياة.

كانت ماري، في وقت مبكر من صباح اليوم، قد أخذتهما إلى أمي؛ لأن هذا هو ما أمرت به أمي، وقال برميل الدهن المتكبر لماري بأن تترك الطفلتين في غرفة العرش في انتظار حضور أمي. فانطلقت الطفلتان خلف ماري باكيتين وصائحتين: «ماري.. ماري»، لكن برميل الدهن المتكبر دفع ماري بعيدًا عن الغرفة، وأغلق الباب بالمتاريس.

والآن، تقول أمي وبرميل الدهن المتكبر إن ماري لم تحضر الطفلتين إلى غرفة العرش وإنهما تاهتا منها. ولقد باتت ساقا ماري الآن مثل مثانة الخنزير السمين؛ إذ تورمتا بعد أن قضت اليوم بطوله تبحث في القصر عنهما، وأعتقد أنها بدأت تفقد صوابها. أخشى أن هذا سيمرضها. ترى، ماذا حدث لأختيّ المسكينتين؟

الثلاثاء

يوم كئيب إلى أقصى درجة، وأشعر بتدني معنوياتي. ليس هناك أي أخبار عن الصغيرتين، وماري ليس لها أي أثر. إنني وحيدة في هذا العالم.

الأربعاء

أنا في حيرة بالغة اليوم، ورأسي تدور فيه أفكار بشعة. ولقد أُعدت إلى غرفتي بعد يوم سيئ آخر قضيتهُ في مطابخ اللحوم، وثمة شيء غامض في الأجواء لا أعرفه، لكنني أشعر بخوف شديد جدًا.

الخميس

في الفجر، ذهب السير هيروارد لإحضار أخي العزيز. فطوال ليلة أمس كنت أسمع - دون انقطاع - صياحًا وصراخًا خلف بطانة الحائط؛ لقد كان صوت الرضيعتين. لا يعنيني ما يقوله أخي أو السير هيروارد، لكنني أعلم أن هذا البكاء هو بكاء أختيّ. أخذت أتوسل إلى أخي أن ينزع بطانة الحائط.. ولخوفه عليّ من الجنون، نفذ ما طلبته منه، إلا أنه لم يعثر على شيء أسفل البطانة.. ورغم ذلك، لا أزال أسمع حتى الآن صوتيهما الناعمين وهما تبكيان وتطلبان مني أن أخلصهما.

الجمعة

جاء أخي؛ لقد سمح لي بالإقامة لديه لفترة من الوقت، وأنا ممتنة له؛ لأني ما عدت أتحمل سماع بكائهما أكثر من ذلك. وعلى الرغم من أن أمي لم تسمح لي بذلك في أول الأمر، فقد تمكن أخي من إقناعها، ولسوف أرحل ظهر اليوم، وسآخذ معي كتابي الصغير.

السبت

زارت أمي اليوم أخي زيارة قصيرة؛ لأن هناك بعض الأعمال التي تتم

بينهما. أخي يشعر بالانزعاج حيال ذلك؛ لأنه قال لي: «لن أفعل ما تطلبه مني يا إيزميرالدا ورغم أني أتمنى الخير لأمي، لأن هذا واجب عليّ لأنني ابنها، لكنني لا أتمنى لها أن تعيش إلى الأبد»، إني لم أفهم ماذا كان يقصد - فكيف يمكن لأي شخص أن يعيش إلى الأبد؟ - قلت له إنني أيضًا وبكل تأكيد لا أتمنى أن تعيش أمي إلى الأبد، ثم ضحكنا معًا.. إنني أحب أن أمزح وأضحك مع أخي.

الأحد

زارته أمي اليوم زيارة أخرى قصيرة، ولقد أغلق أخي باب غرفته وقال لي: «اذهبي أنت يا إيزميرالدا، فهذه أعمال لا ينبغي عليكِ أن تشغلي بالك بها»، وعلى الرغم من أنه كان ينبغي عليّ بالطبع أن أطيع أخي، فإني خالفت أمره، ورحت أتنصت على الباب، رغم أني ما كنت في حاجة لأن ألصق أذنيّ على الباب؛ لأن صوت أمي كان يخرقهما مع اختراقه الباب الضخم المصنوع من خشب البلوط كأنه منقار نقّار الخشب، كانت أمي تصيح قائلة: «اسمع يا مارسيلوس. لن يرتاح بالي حتى أحصل عليها!».. لم أسمع رد أخي؛ لأن أمي كانت لا توقف سيل كلامها.

وعندما كانت أمي في طريقها للمغادرة، قام الكائن الذي تربيه، والذي يعض كل من يزعجها ويتسبب في إصابته بالمرض الغامض والموت بعد ذلك - بعضّ قطتي الصغيرة؛ قطتي بوسي المسكينة، وهي تتألم هذه الليلة وتتأوه، وأنا أتألم لألمها.

الاثنين

يبدو جناح أخي مظلمًا وكئيبًا؛ لأن هناك عاصفة كبرى تعوي في أنحاء القلعة، لكنني لا أبالي؛ لأن هذا هو حال ذهني. فقطتي المسكينة ما عاد لها وجود الآن.

زارته أمي مرة أخرى زيارة قصيرة، وبعد أن رحلت مع حاشيتها، والتي تضمنت برميل الدهن المتكبر وستة من الحرس المسلحين، جاءني أخي العزيز وأخبرني بكل شيء. فأخي أجبر على أن يوافق على إمداد أمي بجرعة الشباب الدائم. وبذلك تحيا إلى الأبد. فاعترضتُ وتساءلتُ: كيف يلعب بالنار على هذا النحو؟ فأنا **لا أتمنى** – بأي حال من الأحوال – أن تعيش أمي إلى الأبد؛ لأني أتمنى أن أكون في يوم من الأيام ملكة ولو ليوم واحد، فكيف سيتسنى لي أن أصبح ملكة إذا لم تمت أمي كما يموت الجميع؟ وابتسم أخي ابتسامة عريضة وقال لي إنه رغم أن هذه الجرعة موجودة فعلًا، فإنها ليست لأمي، ها ها! بل إنها له هو ولقد تناول منها منذ عدة أشهر مضت.

الثلاثاء

لماذا لا أحصل أنا أيضًا على جرعة الشباب الدائم؟ هذا ليس عدلًا، إنني دائمًا مهمشة.

الأربعاء

أخي عيَّن تلميذًا جديدًا له اليوم، وعلى الرغم من أن الفتى له سمت

بهيج، فإنه غريب إلى أقصى درجة. عندما رآني ضحك وصاح باسم ما غريب لا أعرفه، تحدثت إليه بطريقة لطيفة جدًا، رغم أنه ليس سوى تلميذ من العامة، لكنه لم يرد عليّ وفر بعيدًا. إن أخي لا يزال منزعجًا جدًا. وهو لا يفتأ يقول: «لقد رأيت نفسي في المستقبل. رأيت مصيري البشع. يا للهول! يا إيزميرالدا، أنا مجنون لأني لم أتريث. ما الذي فعلته بنفسي؟!». وأنا لا أعرف ما هذا الذي فعله بنفسه، فهو يرفض أن يخبرني به.

الجمعة

يوم ينذر بمخاطر كثيرة. أمي جاءت لإعادتي اليوم. فغير مسموح لي بالإقامة مع أخي العزيز بعد ذلك، فكما قالت لي: «إنه مشغول، ولديه أعمال مهمة يقوم بها يا إيزميرالدا، وأنت مع نواحك المزعج هذا تشوشين على تفكيره وتمنعينه من التركيز في مهمته».. توسلت إليها حتى تسمح لي بالبقاء – وأخي أيضًا توسل إليها، لكن بدون جدوى. والآن أنا أجلس في غرفتي التي ليس لها مثيل في كآبتها. ولسوف ترسل لي أمي برميل الدهن المتكبر غدًا في الفجر ليصطحبني، وأنا في غاية الرعب.

وعند ذلك انتهت المذكرات. أغلقت جينا الكتاب، ثم جلست على حافة فراش إيزميرالدا، تحاول أن تستوعب كل ذلك. تُرى، ما الذي حدث لإيزميرالدا؟ وما الذي سيحدث لها هي والجميع يظنون الآن أنها إيزميرالدا؟

35
الفرسان



فيما بعـد، وفي وقـت متأخر عصر اليوم، جلست چينا على سرير إيزميرالدا بحشيته المتكتلة متلحفة بغطاء سرير رطب.. كان بجانبها بقايا فطيرة كبيرة وخبز مقرمش وجبن وتفاح وكعك ولبن جلبه لها الطاهي، كما وعدها الحارس النهاري. أشعلت چينا الشمعة الصغيرة التي بجانب السرير، وبينما كانت جالسة تدفئ يديها فوق لهب الشمعة الواهي، سمعت طرْقًا خافتًا على البطانة الخشبية للغرفة، كان الصوت يظهر ويختفي كنوبات، أحيانًا تكون

محمومة، وأحيانًا أخرى مرهقة يائسة. وقف شعر رأس چينا من فرط الخوف؛ إنه صوت الأميرتين الصغيرتين، وهما مازالتا على قيد الحياة.

ورغم علم چينا أنه لا ينبغي عليها أن تتنصت، كان من المستحيل عليها أن تمنع نفسها من أن تلصق أذنها بسطح اللوح الخشبي الذي يصدر عنه الطرْق. وللأسف الشديد، سمعت بلا أدنى مجال للشك صوتًا خافتًا لأطفال تتنفس بصوت مسموع وتنشج نشيجًا منهكًا. وهنا، لم يعد في قوس الصبر منزع، فانطلقت جريًا نحو الباب، وبكلتا قبضتيها، أخذت تطرق عليه بقوة، وهي تنادي: «سير هيروارد، سير هيروارد! إنهما هنا. أنا أسمعهما - لا بد أن نخرجهما.. أرجوك يا سير هيروارد، أرجوك ابحث عن أحد يأتي للمساعدة!».

ولدهش چينا، **اخترق** الشبح باب غرفة النوم، رغم أن السير هيروارد لا **يخترق** أبواب الكثيرين، لكن الضرورة تحتم ذلك في بعض الأحيان، ثم وقف الشبح إلى جوار چينا، وهو يهز رأسه ليتخلص من هذا الإحساس المزعج بأنه مملوء بالأخشاب.

قال الفارس وهو متكئ على سيفه ناظرًا إلى چينا نظرة حائرة: «سامحيني على حيرتي، لكن ذهني الضعيف يقول لي، رغم أنك ولا شك أميرة ملكية، إنك لست إيزميرالدا المسكينة، وإن كنت قريبة الشبه منها إلى حد غريب».

أومأت له چينا برأسها؛ فهي تعلم أنها تستطيع الوثوق بالسير هيروارد، لكنها تشك في أنه سيفهم ما ستخبره به الآن. فقالت له بصوت خافت جدًا؛ تحسبًا لوجود من يسمعهما: «أنا الأميرة چينا. ولقد جئت من زمن

ما في المستقبل».. ثم توقفت برهة، غير واثقة من أن السير هيروارد سيفهم ما تقصده.

لكن الفارس المسن استوعب كلامها بأسرع مما توقعت، وقال لها: «إذن، أنتم تتحدثون بهذه اللهجة في الزمن الذي جئت منه؟»، ثم استغرق في التفكير وقال: «إن كلامكم تبدو لهجته غريبة، إنه سريع وحاد على الأذان، مثل قعقعة منقار طائر على قضبان قفصه. يا لها من نغمات متنافرة تلك التي تذيع في قصرك أيتها الأميرة جينا!».

كانت جينا على وشك أن تقول له إن قصرها هادئ وخالٍ مقارنة بحاله الآن، فإذا بالطَّرق يعود من جديد من داخل الجدار، فهمست له قائلة: «ها هو الصوت».

تنهد السير هيروارد، وقال بأسى: «إنهما الأميرتان الرضيعتان للأسف يا أميرة جينا».

قالت جينا، وقد أحبطها رد فعله غير المبالي: «لكن لا بد أن نخرجهما من هنا قبل أن تختنقا».

همس السير هيروارد، وهو يُحدق إلى قدميه اللتين يعلوهما الصدأ، وقال لها: «لكنهما بالفعل اختنقتا».

«لكن...».

«إن ما تسمعينه أيتها الأميرة هو صوت روحيهما غير المطمئنتين، وهي نفس الأصوات التي كانت المسكينة إيزميرالدا تسمعها.. ربما لو كان قد تسنى لي معرفة ملكتنا على حقيقتها لتمكنت حينها من إنقاذهما».

ردت جينا قائلة: «لكنهما ابنتاها، فكيف يمكن لها...».

قال السير هيروارد بنبرة خطيرة: «أعتقد أنها فعلت ذلك؛ لأنهما بالفعل ابنتاها. لقد سمعت شيئًا في غاية الغرابة، وإن كنت لا أجرؤ على أن أصدق أن هذا هو ما كان»، وهز الشبح رأسه كأنه يطرد من ذهنه هذا التفكير.

فسألته جينا: «ماذا؟ ما هذا الذي لا تصدقه؟» ومع إدراكها بأن طريقتها في التحدث لا بد أنها تبدو فظة بالنسبة له، حدثته بشيء من الخجل هذه المرة، بلهجته هو وقالت له: «بحق السماء، أخبرني يا سير هيروارد ما هذا الذي لا تجرؤ أن تصدقه؟».

فابتسم وقال لها: «ياه! لقد صرتِ تبدين الآن أقرب للأميرة إيزميرالدا؟» لم تعلم جينا على وجه اليقين إذا ما كان ذلك يُعد لصالحها - أو بالأحرى يمنحها الأمان - أم لا، لكنها أخذته على محمل المجاملة.

«يُقال إن الملكة تسعى لأن تحيا حياة أبدية على هذه الأرض، ولقد اقتربت بالفعل من ذلك، لدرجة أنها لا تريد ورثة لها؛ لأنها ستظل تحمل مقاليد المُلك إلى الأبد». تنهد السير هيروارد تنهيدة ثقيلة، وواصل قائلًا: «فعلى ما يبدو أن ملكتنا ستظل للأبد هي الملكة إيثلدريدا».

صاحت جينا قائلة: «لا، لن تكون كذلك».

نظر السير هيروارد إليها بعينين ينبعث منهما بريق أمل ضعيف، وقال لها: «فعلًا لن تكون كذلك أيتها الحسناء جينا؟ في رأيي، لضمان ذلك، لا بد الآن أن تهربي من جدة والدة والدتك، أيًا كان عددهن؛

لأنك لست في مأمن هنا كما كان حال الأميرتين الرضيعتين وإيزميرالدا المسكينة. صحيح أني لست سوى شبح، لكن حتى الأشباح مازال في وسعها أن تتسبب في فتح الأقفال المغلقة»، ثم وضع السير هيروارد قفازه المعدني البالي والصدئ على الباب. وبعد عدة دقائق، وبعد كمٍّ من الشهيق والزفير قام به الشبح المسن، سمعت چينا طقطقة انفتاح القُفل.

«لقد أصبحتِ حرة الآن أيتها الحسناء چينا.. وداعًا. إنني واثق من أننا سوف نتقابل ثانية».

قالت چينا: «نعم، سوف نتقابل يا سير هيروارد».

وهكذا، باتت چينا حرة، لكنها أدركت أنها لن تستطيع أن تكون حرة تمامًا إلا عندما تعثر على سبتيموس. فقررت أن تتوجه إلى طريق السحرة؛ فهناك مقولة مفادها أنك لو وقفت أسفل القوس العظيم لفترة كافية، لمرَّ بك كل من يقيمون في القلعة، إنه إذن أنسب مكان تبدأ البحث من عنده، وكلما أسرعت كان ذلك أفضل، وبعد أن لوحت إلى السير هيروارد الذي رفع ذراعه يحييها بتحية موقرة - انطلقت چينا في طريقها.

كانت طرقات القصر، لدهش چينا، ساطعة، تعج بالحركة والنشاط. ولقد كانت هي نفسها معتادة أن يسود الظلام ليلًا. ففي قصرها، لا يضيء الليل سوى عدد قليل من الشموع؛ لأن سارة هيب لا تستطيع أن تتخلى عن عاداتها المدبرة؛ ولذلك ترص الشموع على مسافات متباعدة، توفر الكثير من الظلال العميقة تستطيع أميرة هاربة أن تختبئ

فيها. لكن الوضع في القصر هنا بدا مختلفًا، وهو ما يحرص عليه بيرتي سمولز؛ المسئول الملكي عن رص الشموع. وبيرتي رجل نحيل طويل القامة، يبدو عليه الوهن والشحوب، وله خصلة شعر كبيرة ذات لون أحمر متوهج، وهو يحرس الطرقات في المساء بمنتهى الإخلاص والتفاني، ويعتبر انطفاء شمعة واحدة في فترة حراسته إهانة له ومساسًا بكرامته.

وعلى الرغم من أن چينا أغراها استخدام أحد الممرات المختصرة أو تلك الخاصة بالخدم، والتي تنتشر بكثرة في أنحاء القصر - فقد قررت أن هذا الاتجاه سيكون محفوفًا بالمخاطر؛ لأن الأميرات لا يفكرن أبدًا في أن يستخدمن هذه الممرات.. ومن ثم، سوف تلفت الانتباه إليها على الفور، كما قررت أيضًا أنها لا بد أن تواجه الموقف بثبات وتحدٍّ.. ففي نهاية الأمر، من الذي تسنى له أساسًا أن يعرف أن الملكة إيثلدريدا حبست ابنتها في غرفتها؟ وهكذا انطلقت چينا، مرفوعة الرأس، آملة أن يعتبر هؤلاء الذين تمر بهم أن وجود الأميرة إيزميرالدا في طرقات القصر أمر طبيعي من حقها أن تقوم به.

تقدمت چينا في طريقها، وما إن بدأت تستمتع أثناء سيرها بانحناءات المارة لها والهمسات المتحمسة التي تلي ذلك حتى رأت، لسوء حظها، الحارس النهاري يتقدم نحوها. ابتسم لها الحارس دمث الخلق وانحنى، ثم فجأة، وبإحساس ملؤه الرعب، تذكر أنه أُمر بأن يغلق على الأميرة إيزميرالدا باب غرفتها بالمفتاح. وبعد أن لاحت في ذهنه صورة رأسه معلقًا على عمود البوابة الشمالية، تقدم الفارس ووقف أمامها ليسد عليها الطريق.

«بحق السماء أيتها الأميرة إيزميرالدا، اسمحي لي بأن أقودك إلى غرفتك قبل أن تعلم والدتك العزيزة...».

قاطعته چينا وهي تهمهم قائلة: «آسفة، لا بد أن أذهب»، ثم انحنت أسفل ذراعي الفارس الممدودتين وانطلقت جريًا.

وبعد أن وجد الفارس نفسه مخيرًا بين تركها حرةً والحفاظ على رأسه، اختار رأسه. ومن ثم، بدأ يطاردها وهو يصيح للمارة من الخدم والموظفين ليساعدوه، وسرعان ما كان صف طويل من الخدم يتزايد طوله لحظة بعد لحظة يلاحق چينا. لقد حان الوقت إذن لاستخدام الطرق المختصرة، واندفعت خلف ستارة من القماش المقصب، مازالت معلقة في قصرها في زمنها، لكن في شكل أسمال بالية، ثم انطلقت كالصاروخ نازلة سلمًا قصيرًا، ثم واصلت انطلاقها على امتداد ممر ثلاثي الأركان، ومرت مندفعة من باب مدخل صغير، وأخيرًا توقفت للحظة عند سلم حلزوني، تلتقط أنفاسها وتنصت لمتعقبيها. فعلمت من صوت قعقعة الأقدام على امتداد الممر الثلاثي الأركان أنها لم تفلت منهم بعد.

وعلى الفور، أدركت چينا ما الذي يتعين عليها أن تفعله الآن، فهرعت تصعد السلم بقدمين متألمتين من فرط المجهود الذي بذلته، واندفعت تعبر المنبسط الصغير عند أعلى السلم، وهي تحاول طوال ذلك الوقت أن تفك المفتاح الزمردي الكبير من حزامها. ومع دوي صوت الأحذية الطويلة الثقيلة خلفها، ارتعشت يدها وهي تضع المفتاح في الثقب الذي يتوسط الباب المصنوع من الزمرد والذهب والذي يفتح غرفة الملكة. وهكذا، وصل متعقبوها في اللحظة التي رأوا فيها الأميرة وهي على ما

يبدو تسير مخترقة الحائط الصلب. فانطلقت صيحة اندهاش عالية من عند المنبسط المحتشد بالخدم والموظفين.

أما الفارس النهاري فقد انهار وافترش الأرض وهو يتأوه، وأطرق واضعًا رأسه بين يديه، وهو ما ذكره بمدى ارتباطه برأسه، رغم أنه يخشى أن هذا الارتباط لن يطول كثيرًا.

36
بروطا باي



دخلت *چينا غرفة الملكة، يصاحبها إحساس بالارتياح؛* فهي تعلم أنها أصبحت الآن في أمان، ولا أحد يستطيع أن يصل إليها هنا. كان كل شيء في الغرفة كما كان دائمًا، فالنار الصغيرة التي تشتعل في المدفأة هي نفس النار، والمقعد المريح القديم هو نفس المقعد، وتفترش الأرض بجانبه نفس السجادة – فيما عدا أن الشبح الجالس على المقعد ليس هو نفس الشبح؛ إذ كان يجلس على المقعد بدلًا من شبح والدتها الذي لم تره چينا حتى الآن، شبح والدة الملكة إيثلدريدا.

وبكل المقاييس، تختلف والدة

الملكة إيثلدريدا تمامًا عن ابنتها.. كان شبح الملكة العجوز يغفو على المقعد، وقد تزحزح التاج للأمام على شعر الملكة الأبيض المموج، وكان يعلو وجهها ابتسامة رضا وسعادة بينما كانت تحلم بالأوقات السعيدة التي قضتها مع زوجها في القصر، وتحلم بكل أصدقائها الذين تعرفت إليهم أثناء حياتها. وعندما كان يعترض هذه الابتسامة تكشيرة ترتسم بين حين وآخر على وجهها، يكون سبب ذلك اعتراض أحلامها السعيدة صورة نوبات الغضب التي كانت تنتاب الشابة إيثلدريدا، لكن سرعان ما كانت تتلاشى هذه التكشيرة، وتعوضها بكل الذكريات الجميلة التي تختزنها الملكة المحبوبة في ذاكرتها. ومع دخول چينا الغرفة، فتحت الملكة عينيها، وبعد أن ظنت أنها حفيدتها، ابتسمت ثم استأنفت أحلامها.

كانت چينا على وشك الجلوس على المقعد القديم بجانب النار منتظرة حتى يمل الجميع في الخارج ويرحلوا، إلا أنه كان هناك شيء في المقعد يحدثها بأنه ليس مقعدها لكي تجلس عليه.. ليس بعد! جابت چينا في أنحاء الغرفة الصغيرة بينما عادت الملكة العجوز لتغفو من جديد، متناسية وجود ابنة ابنة ابنة ابنة ابنة ابنة ابنة ابنة ابنة ابنة ابنة ابنة ابنة ابنة ابنة ابنة حفيدتها.

أرادت چينا، من باب الاهتمام، أن تتبين إذا ما كان دولاب الجرعات والسموم الخاصة في هذا الزمن يختلف عن زمنها، فألقت نظرة بداخله. ولدهشتها، وجدت الأرفف التي اعتادت أن تراها خالية، تصطف بزجاجات صغيرة جذابة من الزجاج الملون بمئاتٍ من درجات اللون

الأزرق والأخضر والأحمر التي أخذت تبرق في وهج ضوء النار المشتعلة في المدفأة. وكان يعلو كل منها سدادة من الذهب، وتلألأت الصفوف الطويلة لهذه السدادات كأنها سلسلة ذهبية نفيسة.

أثارت الزجاجات فضول چينا؛ لذا دخلت الدولاب، فانغلق بابه خلفها. ولدهشها، عندما انغلق الباب، اشتعل صف من الشموع المتناهية في الصغر المتراصة فوق الرف السفلي، فملأت الدولاب بالضوء.. ومن باب الفضول، أرادت چينا أن ترى المحتويات التي يحتفظون بها في هذا الزمن في الأدراج الصغيرة المصنوعة من خشب الماهوجني ولذا فتحت الدرج العلوي فوجدته مملوءًا بما بدا لها أنها عملات صغيرة سميكة من الذهب، وإن كان ينبعث منها رائحة النعناع. فالتقطت واحدة، وأزالت من عليها جزءًا من الورق الذهبي الرقيق الذي يغلفها، ثم لعقت الشيكولاتة الداكنة المرة. ولم يكن هناك سبيل للمقاومة، وعلى الفور كانت چينا قد دست بقية القطعة في فمها، فذاب فيه أروع مزيج من النعناع والشيكولاتة تذوقته في حياتها. أغلقت چينا الدرج قبل أن تغريها قطع أخرى، ثم أخذت تفتح درجًا تلو آخر، والتي كان يحتشد بها مزيد من الزجاجات التي تفترش صوفًا ناعمًا غير مغزول..

وبينما كانت چينا مستغرقة في التفكير محاولة أن تقرر إذا ما كانت تأخذ قطعة واحدة أخرى من الشيكولاتة أم تكتفي بالقطعة التي أخذتها، فتحت تلقائيًا الدرج السفلي، وسمعت - ولكن بعد فوات الأوان - الطقطقة الواشية بما سيتبعها من انغلاق باب الدولاب بالمفتاح، وبدأ

طريق الملكة يتحرك. خيم على الطريق ظلام دامس، ثم وطئ شخص على أصبع من أصابع قدمها - وانطلقت منه صرخة مدوية:

«يا للهول! برودا، برودا! أمي في الدولاب.. لقد اخترقته. بروداااااا!!».

وانفتح باب الدولاب بصوت مدوٍّ، ثم انطلقت منه فتاة، وهي لا تزال تصرخ. نظرت چينا بتوتر خارج الدولاب، وأذناها تطنان من دوي صراخ الفتاة، لتجد نفسها تواجه بذلك المشهد الغريب الذي بدا لها فيه أنها ترى توءمتها وهي تندفع نحو سيدة شابة جميلة، لها شعر داكن طويل وجعد، وعينان زرقاوان بزرقة وبريق عيون الساحرات.

قالت السيدة الشابة، وهي تُهدئ من روع إيزميرالدا وتربت على شعرها برفق: «لا تقلقي، لا تقلقي يا إيزميرالدا. كُفي عن هذا الصياح. أنت في مأمن الآن، فوالدتك لن تجرؤ على أن تجازف بالمرور عبر الطريق؛ لأنك تعلمين أن جدتك تمنع ذلك. كفى.. كفى.. ياه!».

وهكذا شهقت برودا باي وهي ترى إيزميرالدا أخرى تخرج من دولاب الجرعات والسموم الخاصة.

قالت چينا بارتباك: «أهلًا.. مرحبًا».

حدقت إيزميرالدا إلى چينا التي حدقت بدورها إليها، لا تستطيع أن تصدق أنها لا تنظر في المرآة وترى انعكاسًا لصورتها. كانت الفتاتان متساويتين في الطول، كما كان شعرهما البني بنفس الطول، وكلتاهما ترتديان نفس الطوق الذهبي. وفجأة، بدأت إيزميرالدا تنشج وهي تقول:

«لقد حان وقت رحيلي من الدنيا، أنا أرى الشبح المنذر بموتي. لقد ضاع كل شيء».

قالت برودا باي بنبرة أكثر حزمًا: «كفى الآن يا إيزميرالدا.. إن هذا ليس شبحك المنذر بموتك - انظري جيدًا إلى حذائه الطويل يا إيزميرالدا».

حدقت إيزميرالدا إلى حذاء جينا البني، وتجعد أنفها باستنكار بطريقة أثبتت بالفعل أنها ابنة أمها، ثم قالت غير آبهة بوجود جينا: «إنه ليس سوى حذاء بني طويل من النوع الشعبي».

نظرت جينا للأسفل إلى حذائها الطويل. إنها تحب حذاءها الطويل هذا، وترى أن إيزميرالدا آخر من يحق له أن يسخر منه، فلتنظر هي إلى حذائها الغبي الذي تلبسه؛ إنه أغرب حذاء رأته في حياتها، بهذا اللون الأحمر اللامع ومقدمته المدببة بطولها المفرط حتى إن طرفيه مربوطان بشريطين في كاحليها حتى لا تزل قدماها وتسقط.

ثم قطعت برودا تفكير جينا في حذاء إيزميرالدا، وهي تقول لها: «من تكونين؟».

قالت جينا: «اسمي جينا».

«بهذه الحلقة الذهبية والرداء الأحمر، يبدو عليك أنك أميرة، رغم حذائك الطويل هذا. لكن كيف يمكن ذلك؟».

ردت جينا بغضب: «أنا أميرة، ونحن في عصرنا نلبس هذه الأحذية الطويلة».

ولأن برودا باي اعتادت أمورًا غريبة تحدث في كوخها؛ حيث إن مستنقعات مرام في زمنها كانت تُعد مكانًا موحشًا غير مستأنس بالقدر الذي هو عليه في الزمن الذي تعيش فيه جينا؛ فكل أنواع الأرواح والكائنات كانت تعيش فيها وتدخل أحيانًا كوخ الحارسة وتجوب فيه. ومن ثم، قررت برودا في سرها أن جينا هي إحدى هذه الظواهر الغريبة - فلا بد أنها روح إحدى الأميرات التي ماتت منذ زمن، وهي تجوب الآن المستنقعات، ربما بحثًا عن المركب التنينية. كما رأت برودا أن جينا تُعد من ذلك النوع من الأرواح التي تبدو أكثر قربًا لأن تكون ملموسة وحقيقية، لها طبع يميل طفيفًا إلى العصبية، ومن الحكمة أن تسترضيها وتقدم لها بعض الطعام والشراب.

اختفت برودا في المطبخ، تاركةً إيزميرالدا وجينا معًا. خيم على الفتاتين صمت مرتبك، ثم قالت إيزميرالدا، بعد أن استقر بها الرأي - بما أنها شخص عملي - على أن جينا تبدو ملموسة وحقيقية أكثر من اللازم مما ينفي أن تكون روحًا: «أحقًا أنت أميرة؟».

فأومأت لها جينا برأسها.

ولأن إيزميرالدا تعلمت بعض الأمور من تجارب مارسيلوس، سألتها: «هل أنت من زمن مستقبلي؟».

مرة أخرى، أومأت لها جينا برأسها.

أخذت إيزميرالدا تفكر بعمق، ثم قالت لها: «هل لك أن تخبريني.. أمي في زمنك هي الملكة؟».

هزت چينا رأسها، ثم قالت لها: «لا، لم تكن هي الملكة عندما تركت زمني، لكن الشهر الماضي ظهر شبحها فجأة. وأنا أخشى الآن لو لم أعد أن تصبح بالفعل هي الملكة».

ردت إيزميرالدا قائلة وكأن ذلك سيحل الأمور: «لا بد إذن أن تعودي. ها هي برودا الآن، لقد جلبت حلواها الفاخرة - من الواضح أنه يتم تكريمك تكريمًا خاصًا».

وكانت برودا قد عادت حاملة صينية عليها كئوس طويلة مملوءة بمشروب ضبابي ساخن، وطبق من الذهب مرصوص به حلويات وردية وخضراء، قوامها لين ومكسوة بطبقة من السكر الناعم. قدمت برودا لچينا الطبق، فاختارت منه قطعة وردية، كان مذاقها لا مثيل له في روعته، وكانت القطعة تذوب في الفم ومع ذلك فهي تُمضغ، ولها مذاق معطر رائع يجمع بين طعم أوراق الورد والعسل والليمون.

لم يكن الشراب الضبابي بنفس هذه الروعة؛ إذ كان مرًا، لكنه كان ساخنًا، ولقد استمتعت چينا بجلوسها بجانب نار برودا، وشعرت بالأمان والدفء، كما كانت تشعر دائمًا في كوخ الحارسة، لكنها كانت تعلم أنها لا بد أن ترحل؛ فهي لن تعثر على سبتيموس هنا.

قالت چينا، وقد بدأت تعتاد التحدث بالطريقة الرسمية نوعًا ما: «لا بد أن أرحل الآن. أقدم لكما جزيل شكري على ضيافتكما الكريمة لي».

أحنت لها برودا باي رأسها، وقد خالجها إحساس بالارتياح أن روح الأميرة يبدو عليها الرضا، ثم قالت لچينا، باعتبار ذلك إجراءً احتياطيًا يُتخذ عند زيارة الأرواح: «بحق السماء أيتها الأميرة الحسناء لا تغادري

هذا البيت خاوية اليدين، اطلبي إليّ ما تشائين وستجدينني رهن إشارتك». قالت لها ذلك وهي تأمل في سرها ألا تطلب إليها چينا عقدها اللؤلؤ الذي أرسله لها مارسيلوس مؤخرًا، وتمنت لو كانت قد دسته في ردائها أثناء وجودها في المطبخ. لكن فات الأوان على ذلك الآن، وحبست برودا أنفاسها في انتظار رد الروح.

كان هناك شيء تتمناه چينا أكثر من أي شيء آخر - فيما عدا العثور على سبتيموس - وعلمت أن هذا هو المكان الوحيد الذي ربما قد تعثر فيه على هذا الشيء. فقالت ببطء، محاولةً أن تجد الكلام المناسب: «أريد...».

قاطعتها برودا وهي متوترة، وتضع أصابعها على عقدها: «تحت أمرك، ماذا تريدين؟».

«أريد أن أعرف كيف يمكن **إنعاش** المركب التنينية».

تنفست برودا الصُعداء بصوت واضح، ثم سألتها: «من الموت؟».

«إنها بين الحياة والموت.. فهي تتنفس، لكنها لا تفعل أكثر من ذلك».

«وهل تتحدث؟».

قالت چينا، وقد بدأت بالفعل تعتاد الطريقة القديمة في التحدث، وتستمتع بها: «أجل، لكن بصورة ضعيفة، وكأنه همس يسري مع النسيم».

قالت برودا: «انتظري هنا عدة دقائق ولسوف أجلب لك **العلاج**». وقبل أن تغير چينا رأيها، كانت برودا قد هرعت إلى دولاب الجرعات والسموم

الخاصة. وسمعت چينا وهي تفتح الباب المسحور وتنزل السلم، متوجهة إلى المركب التنينية التي تقبع في معبدها المظلم وحيدة تحت سطح الأرض.

خيم الصمت على چينا وإيزميرالدا، ثم تحدثت إيزميرالدا قائلة: «إن أمي لا تحب المركب التنينية، أما أنا فسوف أحبها. وأنا أعلم أن المركب التنينية سوف تتحدث إليّ عندما يحين الوقت المناسب، على الرغم من أنها لا تتحدث إلى أمي، مع أن أمي لا تكف عن الصياح فيها ومداهنتها كلما حل عيد منتصف الصيف».

ابتسمت چينا؛ فقد كانت تعلم أن المركب التنينية تحسن الحكم على الناس.

عادت برودا لاهثةً، وتفوح منها رائحة عفونة الممر تحت الأرضي، ثم وضعت صندوقًا باليًا على مكتبها، وأشارت لچينا بالتقدم. كان الصندوق مدونًا عليه: الملجأ الأخير. همهمت برودا بتعويذة **إبطال مفعول الغلق**، ثم رفعت الغطاء. وكان بداخل الصندوق كيس جلدي صغير تعرفته چينا.

وقالت بإحباط: «هذه **إحالة ثلاثية**، لقد جربناها من قبل».

بدا الانبهار على برودا، وقالت لها وهي تخرج الأواني الثلاثة المطروقة بالذهب، ذات الحواف الزمردية، والتي مازالت چينا تتذكرها:

«يا لك من روح حكيمة رغم أنك فتاة يافعة صغيرة السن!». وضعت برودا الأواني على المكتب، ثم، ولدهش چينا، أخرجت أيضًا زجاجة خضراء صغيرة.

رفعت چينا الزجاجة، كان مكتوبًا على البطاقة إحياء س 3، ثم قالت: «لم أر هذه الزجاجة من قبل».

قالت برودا ببساطة: «ما رأيتِ إذن **الإحالة الثلاثية**.. **فالإحالة الثلاثية** لن يُكتب لها النجاح بدونها، وإن كان البعض، مع **السحر** القوي، قد ينجحون في إحداث التأثير المرجو».

سألتها چينا: «هل أستطيع أن آخذ الزجاجة فحسب؟».

أحنت برودا رأسها وقالت: «بالطبع تستطيعين. هناك المزيد منها في دولاب الملكة. خذيها على الرحب والسعة أيتها الأميرة».

قالت چينا: «أشكركِ».

ووقفت برودا تنتظر مغادرة روح الأميرة، وتخشى أن تطلب إليها شيئًا آخر؛ فبعض الأرواح تتسم بالطمع، ولقد زارت برودا من قبل روح تاجر أخذ منها مجموعة «كستباناتها» بالكامل، ثم عاد مرة أخرى ليأخذ أفضل إبرها.

كانت چينا تعلم أن برودا تود رحيلها، لكنها قالت لها: «هناك شيء واحد آخر...».

هنالك، بدا التجهم على برودا. إذن، هذه الروح هي من الأرواح الطماعة، رغم أنه لا يبدو عليها ذلك، لكنّ أحدًا لا يستطيع أن يُجزم بشيء مع الأرواح. فقالت لها برودا بنبرة تشوبها الحدة: «وما هذا الشيء؟».

سألتها چينا: «هل لديك غول؟».

بدا الاندهاش على برودا، وسألتها وهي لا تصدق أذنيها، مع علمها أن أرواح الأميرات لا يجوز رفض طلباتها: «أتريدين غولًا؟» ثم فتحت برودا باب الكوخ، فانجرفت إليهن رائحة الرطوبة المزعجة للمستنقعات،

واستنشقت چينا رائحة الهواء الذي تعشقه، ثم انتفضت فجأة من فرط الذهول؛ إذ كان هناك على الأقل دستة من الغيلان الصغيرة متجمعة لدى عتبة الباب، أخذت تراقبها، بينما كانت عيونها البنية وأنوفها المبللة تتلألأ في ضوء المصباح.

سألتها برودا: «أي غول تريدين؟».

قالت چينا مفسرة لها: «لا أريد أيًا منها. كنت فقط أود أن أرى واحدًا منها مرة أخرى.. يا لها من غيلان! ما أروعها! انظري إلى عيونها الكبيرة وزعانفها الضخمة».

هزت برودا رأسها، وهي تتعجب في سرها من جنون الأرواح، محاولة أن تتذرع بالصبر حتى ينتهي كل هذا العبث، ثم قالت وهي تلوح بذراعيها لصغار الغيلان: «ارحلي! ارحلي!» وحدقت الغيلان إلى برودا دون أن تغمض عيونها، ولم تُظهر أي استجابة لأمرها.

ثم قالت برودا وهي تصفق الباب: «إنها تحاول أن تستنفد صبري بلا رحمة.. إنه موسم التكاثر، وأنا أعلم أن هناك العشرات من الغيلان حديثة الولادة في أنحاء الجزيرة».

قالت چينا: «في زمني، ليس هناك سوى غول واحد».

ردت برودا قائلة، وهي تمسك باب دولاب الجرعات والسموم الخاصة مفتوحًا: «إذن، أنتم في زمنكم حتمًا محظوظون.. تصحبك السلامة أيتها الأميرة».

وفهمت چينا ما تلمح إليه برودا، وقالت بأدب واحترام: «وداعًا يا برودا، وداعًا يا إيزميرالدا»، ثم دخلت الدولاب..

وأغلقت برودا الباب بإحكام.

خرجت چينا متسللة من غرفة الملكة، وأسعدها أن رأت منبسط السلم خاليًا، ثم نزلت على أطراف أصابعها سلم البرج الصغير، و...

وانقض عليها الفارس النهاري وهو يقول لها: «أيتها الأميرة!».

فالحارس النهاري لم ييئس من محاولة إنقاذ رأسه، وأمسك بذراعها وسار بها، وهو يقول لها: «إن والدتك سوف تقلق أيتها الحسناء إيزميرالدا. لا ينبغي عليك أن تسرحي خارج غرفتك. إن الساعة تجاوزت السادسة مساءً، ومن المفترض أن يكنّ جميع الأميرات قد أوين إلى فراشهن في ذلك الوقت، هلمي».

لم تتمكن چينا من الفرار من قبضة الفارس القوية. وهكذا، سحبها الرجل بأقصى سرعة على امتداد الطرقة، ووجدت نفسها فجأة تُدفع نحو باب غرفتها – ونحو السير هيروارد الذي بدا عليه الاندهاش.

لم يكن السير هيروارد بمفرده بل كان معه رجل بدين قصير القامة أحمر الوجه بأنف منتفخ، وكان يطرق على باب غرفة النوم وهو يستشيط غضبًا، وكاد يغرق في الزي الحريري الرمادي الخاص بالقصر الذي يتدلى من كل كُمٍّ منه خمسة أشرطة ذهبية بالغة الطول، وكتافتان عريضتان من الذهب تم إضافتهما بناءً على طلبه. كان الرجل يصيح قائلًا: «افتحي الباب! افتحي الباب باسم مولاتي جلالة الملكة إيثلدريدا المبجلة.. قلت لك افتحي الباب!».

انتهز الفارس النهاري الفرصة كي يسلم عهدته المثيرة للمتاعب، وقال بصوت أعلى من ضجيج الطرق: «برسي، كُف عن هذا الضجيج. إن الأميرة إيزميرالدا معي».

تلفت الرجل أحمر الوجه حوله في دهش، وقال بلهجة آمرة: «لماذا لم تأوِ بعد إلى فراشها؟».

فكر الفارس النهاري بسرعة وقال: «إن الأميرة وردة في غاية الرقة يا برسي، ولقد أصابتها نوبة من تأثير الأبخرة، وأنا إدراكًا مني لقلق والدتها العزيزة على ابنتها الوحيدة...».

فقاطعه الرجل أحمر الوجه وقال بنبرة حادة: «دعك من هذه المهاترات»، ثم التفت إلى جينا وانحنى لها يحييها، وقال لها: «إن والدتك العزيزة جلالة الملكة المبجلة تطلب حضور سموك إلى الوليمة التي أعدتها لك هذه الليلة احتفالًا بعودتك سالمةً من مياه النهر الباردة.. اتبعيني».

نظرت جينا بهلع إلى السير هيروارد الذي همس لها قائلًا: «إنه ياور الملكة، وليس في وسعك رفض طلبه، لا بد أن تطيعي الأمر».

قالت جينا معترضة: «لكنها... أقصد أن أمي.. قالت إني لا بد أن أمكث في الغرفة»، ألقى الياور نظرة حائرة إلى جينا. إن إيزميرالدا بلا شك تغيرت إلى الأسوأ منذ آخر مرة قابلها فيها، لقد أصبحت أكثر جراءة، كما أنه لا يروقه مطلقًا الطريقة التي تتحدث بها.

قال الياور بنبرة جافة: «لا أظن أنك تودين حقًا أن تعصي أمر والدتك، عن نفسي لو كنت مكانك لما وددت ذلك».

همس السير هيروارد: «الأفضل أن تذهبي، سأبقى إلى جوارك. لن يرى ذلك؛ لأنني لا أختار أن أظهر لبرميل الدهن المتكبر هذا».

فابتسمت جينا ممتنة.

وبإحساس بالرعب يثير اضطرابًا في معدتها، خفف من وطأته شعورها بالاطمئنان مع وجود السير هيروارد المخلص إلى جوارها - تابعت جينا برميل الدهن المتكبر بامتداد الممرات المضاءة بالشموع، وأخذا يشقان الطريق وسط مساحة تشغلها حركة الخدم المتسارعة، وينزلان السلم الفسيح متوجهين نحو الأصوات المشئومة المصاحبة لإعدادات الوليمة.

37
الوليمة



صاحت *الملكة إيثلدريدا* في وجه چينا، وهي تشير إلى مقعد صغير غير مريح، قائلة: «اجلسي هنا!». كان المقعد قد وُضع بجانب كرسي عرش الملكة إيثلدريدا ذي البطانة الفاخرة الذي كان يهيمن على رأس المائدة الرئيسية المُعدة على المنصة في بهو الولائم. لم تكن الملكة إيثلدريدا مضيفة كريمة؛ فهي لا تقيم إلا أقل عدد ممكن من الولائم؛ لأنها تعتبرها إهدارًا للطعام الشهي والوقت الثمين، وإن كان لا مفر من إقامتها في بعض الأوقات.

وكانت الملكة قد فوجئت بسرعة انتشار نبأ عودة الأميرة الغارقة، ليس فقط في أنحاء القصر بل في كل أرجاء القلعة.. إلا أن هذه الأنباء صاحبها

رأيٌ بدأ يترسخ بين الناس بشكل مقلق، وتسبب في نشره الفارس النهاري؛ فقد رأى الكثيرون أن الملكة لم يسعدها عودة ابنتها المسكينة، وأنها حبستها في غرفتها.. والأسوأ من ذلك أن أي شخص كان في وسعه أن يرى - من النظرة التي علت وجه الملكة عندما رأت ابنتها العزيزة الغارقة - أنها كانت تتمنى لو أن ابنتها قد ماتت، أو أنها - كما كان الناس يتهامسون فيما بينهم، بعد التأكد تمامًا من أنه لا يوجد من يتنصت على الأبواب - هي التي أغرقتها بنفسها.. وكان انتقال هذه الأنباء يصاحبه رد فعل لا يتغير ألا وهو شهقات فزع أو اندهاش، تتبعها رغبة ملحة في العثور على آخرين تُنقل إليهم هذه الأنباء للاستمتاع مرة أخرى بهذا الفزع والاندهاش.

وانتشرت الشائعة أسرع من النار في الهشيم، وبحلول المساء أدركت الملكة إيثلدريدا أنها لا بد أن تتصرف، وبسرعة.. ومن ثم، بدأ كتبة القصر ينسخون الدعوات لحضور:

وليمة رائعة،

احتفالًا **بعودة** *ابنتنا المحبوبة،*

الأميرة إيزميرالدا بسلام.

برجاء إحضار أطباقكم معكم.

تجمعت الحشود التي تم استدعاؤها على عجل خارج الأبواب الضخمة لقاعة الرقص - وهي أضخم غرفة في القصر، والتي تُقام فيها

جميع الولائم. قبعت چينا بتوتر على المقعد الذهبي الهزاز، وأخذت تتفحص المشهد أمامها، ثم هزت رأسها محاولة أن تطرد من ذهنها ذلك الإحساس الغريب الذي خالجها منذ أن نفذت من خلال اللوح الزجاجي بأنها في واقع الأمر لا تزال في قصرها في زمنها، وأن كل ما تمر به الآن ليس إلا إحدى دعابات سايلاس التي ينفذها عمليًا ولفترة ممتدة. ومازالت چينا تتذكر بكل حب عيد ميلادها السادس، عندما استيقظت لتجد نفسها على متن سفينة تبحر إلى جزيرة عيد ميلادها، كما قال لها سايلاس حينها؛ فقد تم ترتيب الغرفة حتى بدت كأنها الجزء الداخلي من سفينة في حالة مزرية من الفوضى العارمة التي كانت تعمها. وارتدى إخوتها ملابس القراصنة، بينما ارتدت سارة ملابس طاهية السفينة. وعندما صاح سايلاس: «وصلنا! وصلنا إلى البر!» تسلق الجميع سلمًا من الحبل يتدلى بشكل خطير من النافذة إلى مركب حقيقي كان ينتظرهم في الأسفل عند النهر، وأقلهم إلى بقعة رملية في عكس اتجاه تيار النهر، حيث اكتشفت چينا هناك وجود صندوق مجوهرات قبعت بداخله هدية عيد ميلادها.

ومع ذلك رأت چينا، بشعور يداخله الرثاء، وهي تختلس نظرة خاطفة إلى الملكة - أنها لا تستطيع أن تتخيل والدة المسكينة إيزميرالدا والأميرات الصغيرات وهي تتظاهر بأنها طاهية في سفينة ولو ليوم واحد، فقد بدا مجرد التظاهر بأنها تحب ابنتها المفترضة يكاد يكون فوق طاقتها. تلفتت چينا حولها وألقت نظرة سريعة على السير هيروارد، وشعرت

بالاطمئنان وهي ترى الشبح المسن واقفًا خلفها ومازال يحرسها، والذي لمح نظرة چينا فغمز لها.

راقبت چينا الملكة إيثلدريدا وهي تهمُّ بالجلوس على كرسي العرش على نحو بدا كأنها تتوقع أن تجد مفاجأة شريرة تنتظرها على الكرسي. استقرت إيثلدريدا عليه، وهي تجلس كالسهم المستقيم، كما لو كان أحدهم قد ربطها بلوح خشبي. كان الكرسي مذهبًا بشكل يتسم بالبذخ، ومبطنًا بالمخمل الأحمر الداكن، ويكاد يقطر بالأحجار الكريمة. ولقد بدأ حيوان الأي أي الذي تربيه يتحرك حركات سريعة أسفل الكرسي، ولف ذيله حول إحدى أرجل الكرسي المزخرفة بالنقوش، محركًا سنه للخارج والداخل، ومحدقًا إلى الكعوب المارة أمامه. وبعينين بنفسجيتين ثقيلتي الجفنين، أخذت الملكة تحدق ببرود إلى الباب الضخم عند نهاية قاعة الرقص، والذي كان لايزال مغلقًا تمامًا في وجه الضجيج المتصاعد في الخارج. اختلست چينا نظرة خاطفة أخرى إلى الملكة الحية، ورأت أنها قريبة الشبه بشكل ملحوظ من شبحها؛ فكانت نفس الضفائر الرمادية الباردة ملفوفة حول أذنيها، وكان نفس الأنف المدبب يتشمم بنفس الطريقة المستنكرة، وكان الاختلاف الوحيد أن رائحة الملكة الحية بدت كرائحة الجوارب القديمة والكافور. وفجأة، قال الصوت الذي لا يُنسى بنبرة تخرق الآذان: «دعوا الرعاع يدخلون!».

وعلى الفور، انطلق جريًا فتيان صغيران، وهما خادما الباب لهذا المساء، ومازالا مستيقظَيْن رغم حلول موعد نومهما، ورفعا بصعوبة مقبضي الباب الذهبي، وهما يدفعان معًا مصراعيه بنفس السرعة،

بالطريقة التي تدربا عليها تحت إشراف العيون الصارمة للحارس الملكي للباب على مدار الساعات الأربع الأخيرة.

وبدأت مجموعة من أغرب ما تكون من البشر في غاية الأناقة يتوافدون على قاعة الرقص أزواجًا متوالية، كل منهم يمسك طبقًا في يده. ومع دخول كل زوج من الباب، كانت عيونهم تلتفت إلى الأميرة العائدة، وعلى الرغم من أن چينا في زمنها كانت قد بدأت تعتاد حملقة العيون فيها أثناء تحركها في أنحاء قصرها، بدأت تشعر الآن بخجل شديد، ولقد احمر وجهها بشكل واضح، وكان من المستحيل عليها ألا تتساءل في سرها عما إذا كان هناك من سيلاحظ أنها ليست إيزميرالدا.

لكنَّ أحدًا لم يلاحظ، ورأى القليل منهم أن إيزميرالدا تحسنت صحتها عما قبل، وتبدو، وهو ما ليس مستغربًا، أكثر سعادةً بعد أن قضت وقتًا بعيدًا عن والدتها. ولقد اختفت علامات الإرهاق التي كانت تعلو وجهها، وعبوس القلق الذي كان لا يبرح عينيها، كما أنها امتلأت قليلًا، وما عاد يبدو عليها أنها في حاجة لوجبة طعام مغذية ترمم بها عظامها.

ولأن الدعوات أرسلت قبل الموعد بفترة وجيزة، حشدت الملكة إيثلدريدا - قسرًا - مجموعة من الضيوف يتميزون بمظهر مبهر. وكان الجميع يرتدون أفضل ما لديهم؛ معظمهم كانوا يرتدون ملابس الزفاف، لكنَّ المدعوين العلماء والمثقفين، خاصة السحرة العاديين والكيميائيين، ارتدوا ملابس تخرجهم المزينة بالفراء والحرير المفعم بالزخارف والألوان. وتوافد الموظفون الملكيون والمسئولون بأنوف مرفوعة عاليًا داخلين من الباب الضخم وهم يتبخترون بعباءاتهم الرسمية. وقد صنعت

تلك العباءات من القطيفة الرمادية الداكنة وزودت بحافة حمراء، وزينت بأشرطة طويلة من الذهب تتدلى من الأكمام، يتوقف عددها وأطوالها على المكانة الوظيفية للمسئول. فكانت الأشرطة التي تتدلى من عباءات كبار المسئولين تصل إلى الأرض، أما أشرطة المسئولين المرموقين فكانت تتدفق خلفهم، وفي كثير من الأحيان - عن طريق الخطأ المتعمد - كان يُداس عليها. ومن ثم، لم يكن مستغربًا أن يُرى شريط ذهبي طويل ملقيًا بإهمال هنا أو هناك على طرقات القصر؛ ولذلك اعتاد بعض المسئولين حمل شرائط إضافية معهم؛ حيث إن عدد الأشرطة المتدلية من الأكمام له مدلول عظيم الشأن، وليس هناك مسئول ذو خمسة أشرطة يرضى لنفسه أن يظهر بأربعة فقط، ناهيك عن ثلاثة.

راقبت چينا تدفق سيل المدعوين المترفين على القاعة، وكل منهم يتوجه إلى مكانه المخصص له على إحدى الموائد الثلاث الممتدة بطول قاعة الرقص. وبعد الكثير من الاضطراب والارتباك والدَّوْس المتكرر على الشرائط، كان الجميع قد جلسوا في أماكنهم أخيرًا، ثم دفع الياور إلى المنصة خادمًا متوترًا صغير السن؛ فانطلق الفتى جريًا إلى منتصف المنصة، ثم وقف في مكانه أمام الملكة، ورن بيده جرسًا صغيرًا. وعلى الفور، خيم الصمت التام على القاعة مع رنات الجرس، وكفَّ الجميع عن ثرثرتهم في منتصف الكلام، ونظروا إلى الملكة إيثلدريدا بترقب.

دوى صوت إيثلدريدا في أنحاء القاعة كأنه أظافر تخدش سبورة، وهي تقول: «مرحبًا بكم في الحفل». بعض الحضور جفل، والبعض الآخر

أجرى أظافره على أسنانه ليتخلص من هذا الإحساس البشع، ثم واصلت الملكة قائلة: «هذا الحفل أُقيم تكريمًا لعودة ابنتنا العزيزة الأميرة إيزميرالدا بسلام، والتي اعتقدنا جميعًا للأسف أنها غرقت، وكانت قد أحزنت كثيرًا والدتها العزيزة، وقد رحبنا بعودتها بمشاعر تغمرها الفرحة، وبحنان الأم، حيث لم تغرب عن عيني منذ **عودتها**، أليس كذلك يا عزيزتي؟» ووجهت الملكة إيثلدريدا ركلة حادة في قصبة ساق چينا من أسفل المائدة.

فشهقت چينا وقالت: «أوه!».

«أليس كذلك يا عزيزتي؟»، ثم نظرت إيثلدريدا نظرة ثاقبة خارقة إلى چينا وهمست لها بصوت خفيض: «قولي بلى يا أمي أيتها الحمقاء الصغيرة، وإلا سوف تنالي مني أسوأ ما يمكن أن تناليه».

لم تجرؤ چينا، مع كل هذه العيون المحدقة إليها، أن تعصى الأمر، وهمهمت بنبرة كئيبة قائلة: «بلى يا أمي».

سألت الملكة إيثلدريدا بصوت ناعم، بينما علت عينيها نظرة قاسية: «ماذا قلتِ يا أغلى الناس؟ لم أسمعك جيدًا، ماذا قلتِ؟».

أخذت چينا نفسًا عميقًا وقالت: «بلى يا أمي، إن تأثير جلالتك رهيب»، ثم تمنت على الفور لو ما أطالت جملتها؛ إذ وجدت كل العيون تحدق إليها بدهش من لهجتها الغريبة وطريقتها غير المألوفة في الكلام. لكن الملكة إيثلدريدا، والتي اعتادت ألا تعير اهتمامًا لأيٍّ مما تقوله الأميرة إيزميرالدا، لم تلحظ ذلك. وبعد أن أصاب الملكة الملل؛ لأنها

اضطرت الآن لأن توجه تفكيرها إلى تلك الفتاة البائسة إيزميرالدا لمدة طويلة غير مسبوقة، وقفت على قدميها.

فهب الجميع واقفين، يصاحبهم صوت المقاعد التي تحركت معهم، ثم حولوا نظرات الاحترام التي كانوا ينظرون بها إلى إيزميرالدا - التي بدت لهم غريبة - نحو ملكتهم التي يألفونها.

ثم قالت إيثلدريدا آمرةً: «فلتبدأ الوليمة!».

ورد المدعوون: «فلتبدأ الوليمة!». وبعد أن تأكد الحشد أن الملكة جلست، جلسوا وبدأ طنين الثرثرة المترقبة يُستأنف من جديد.

كانت چينا تشعر بالقلق لاحتمال أن تجد نفسها مضطرة للتحدث إلى الملكة إيثلدريدا، لكنها ما كانت في حاجة لأن تزعج نفسها وتقلق؛ إذ إن الملكة لم تنظر نحوها ولو لمرة واحدة طوال الفترة المتبقية من الوليمة، وظلت توجه انتباهها للشاب ذي الشعر الداكن الذي كان يجلس إلى يسارها. لاحظت چينا أن الرجل لم يكن يرتدي الزي الأحمر الملكي، وإنما رداءً باللونين الأسود والأحمر، مزين بكُمٍّ مذهل من الذهب. ظل الشاب ينظر إلى چينا نظرة حائرة، لكن لم يبدُ عليه مع وجود الملكة إيثلدريدا بينهما أنه ود التحدث إليها. ولأن چينا لم تجد ما يشغل وقتها - حيث إن برميل الدهن المتكبر، والذي كان يجلس على يمينها، ويتخذ من سلوك الملكة نهجًا له، وكان هو أيضًا يتجاهلها - شغلت نفسها بالاستماع إلى الحديث اللاذع الدائر بين إيثلدريدا والشاب، واندهشت أن تسمعه يتحدث مع الملكة وهو يقول لها «أمي».

ثم قُرع الناقوس. وخيم صمت مترقب على المدعوين الجوعى، كان هذا إيذانًا بافتتاح الوليمة بأول طبق من بين الأطباق الخمسة عشر التي سيتم تقديمها. بدأت الألسن تلعق الشفاه، ومناديل الموائد تُبسط، وتُدس أسفل الأذقان بحركة جماعية، ثم فتح الخادمان الصغيران الباب الثقيل على مصراعيه، وتوافد صف طويل مزدوج من فتيات التقديم أزواجًا أزواجًا، كل خادمة منهن تحمل إناءيْن صغيرين من الفضة. ولدى دخول الفتيات القاعة افترقن؛ حتى يخدم كل صف مائدة. وفي صورة نهر رمادي متدفق، تقدمتْ الفتيات بخطوات سريعة، ووضعت كل منهن إناءً أمام ضيف متلهف لتناول الطعام. وتوجهت آخر فتاتين دخلتا القاعة نحو المنصة، وسرعان ما كان أمام چينا أيضًا إناء فضي.

ومن باب الفضول، نظرت چينا إلى الإناء فإذا بها تشهق من فرط الرعب والاشمئزاز؛ إذ كان يقبع في الإناء وسط بركة من الحساء البني الخفيف فرخ بط، من صغر حجمه بدا أنه فقس لتوه من بيضته. وكان فرخ البط قد نُقع في النبيذ، ونُتف شعره، ثم أُسقط جسمه العاري المتورم في هذا الإناء الخاص بالبط، حيث استند رأسه فوق حافة صغيرة بارزة من الإناء، وراح ينظر إلى چينا بعينين يملؤهما الرعب. إنه لا يزال حيًا وكادت چينا تقيء عليه.

على الجانب الآخر، بدت الملكة إيثلدريدا مبتهجة بفرخها، ولعقت شفتيها، وهي تقول معلقة إلى الشاب الذي يجلس إلى يسارها إن هذا أحد أطباقها المفضلة - فليس هناك ما هو أفضل من اللحم اللين الذي يميز فرخ البط المسفوع وهو طازج في صلصة البرتقال الساخنة.

قُرع الناقوس للمرة الثانية معلنًا وصول صف مزدوج طويل من الفتيان يحملون أباريق من الصلصة الساخنة جدًا. راقبت چينا الفتيان وهم يدخلون القاعة أزواجًا أزواجًا، صفًا يتجه يمينًا، وصفًا يتجه يسارًا؛ كي يسكبوا صلصة البرتقال في الأواني المنتظرة أمام المدعوين. أما الفتيان الأخيران اللذان كانا يتذيلان الصفين، واللذان يحملان أباريق الصلصة الأكثر سخونة، فقد أُمرا بالتوجه إلى المنصة. وبحركة خاطفة، قبل أن يصل إليها الفتى الذي سيسكب الصلصة في إنائها، رفعت چينا فرخ البط من إنائها ودسته في جيب ردائها، حيث قبع هذا الكائن الصغير في أعماقه وسط فروه الناعم المنفوش، بجسم متصلب من فرط الذعر.

راقبت چينا الفتييْن وهما يشقان طريقهما الملتف حول الحشد، وبعيون تنظر للأسفل، صعدا المنصة وهما يحاولان تجنب سكب الإبريقين المملوءين عن آخرهما بالصلصة الساخنة، بينما همس في أذنيهما خادم قوي البنية قائلًا: «لا تتوقفا طويلًا، وابدآ بالملكة ثم الأميرة»، رفعت چينا بصرها لتشكر الفتى الذي سكب لها صلصة البرتقال في إنائها الخالي من فرخ البط، وإذا بها تجد نفسها تنظر في عيني سبتيموس هيب المستغرقتين في التفكير.

التفتت چينا تنظر بعيدًا، لا تصدق نفسها. لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون هذا الفتى ذو الشعر الطويل الجعد، والوجه النحيل، والذي بدا بشكل أو بآخر أطول مما تتذكره - لا يمكن أن يكون هو بالفعل سبتيموس.. هذا من رابع المستحيلات!

أما سبتيموس، من جانبه، فكان يتوقع أن يرى الأميرة إيزميرالدا – وهذا هو ما كان. لكنه انزعج من نفسه أنه للحظات معدودة يملؤها الأمل فكر في أن الأميرة قد تكون چينا، ولقد سبق له أن خُدع مرة من قبل عندما أقامت الأميرة إيزميرالدا مع مارسيلوس قبل اختفائها. وهو لن يسمح بتكرار ذلك مرة أخرى. وبحرص، سكب سبتيموس صلصة البرتقال في إناء چينا، سعيدًا لأن إناءها لسبب أو لآخر كان خاليًا من فرخ بط صغير حي.

وفجأة دوى صوت تكسير، وصاحبته شهقة ذهول جماعية ممزوجة بفرحة غامرة، ملأت القاعة؛ إذ إن هيوجو عندما رأى فرخ البط في إناء الملكة إيثلدريدا، سقط منه الإبريق، وانسكبت الصلصة الساخنة في «حجر» الملكة. وعلى الفور، كانت إيثلدريدا قد انتفضت من مكانها صارخة، لكن برميل الدهن المتكبر ألقى مقعده للخلف وأمسك هيوجو من عنقه، ثم رفعه عاليًا، يكاد يخنقه، وصاح قائلًا: «أيها الغلام الأحمق! لسوف تدفع الثمن غاليًا، ولسوف تندم على فعلتك هذه طوال حياتك التي لن تطول كثيرًا، هذا وعد مني».

اتسعت عينا هيوجو من فرط الفزع، وظل معلقًا في الهواء، لا حول له ولا قوة، بجسم متراخ يتأرجح في قبضة برميل الدهن المكتنزة التي أخذت تزيد من ضغطها على عنقه أكثر فأكثر. ورأى سبتيموس شفتي هيوجو تزرقّان، ثم ارتفعت حدقتا عينيه وقد بدأ يغلب بياضهما على ما سواه، فقفز سبتيموس إلى الأمام، وجذب الفتى من القبضة القصيرة والممتلئة بقوة لم يعهدها في نفسه، وهو يصيح قائلًا: «اتركه أيها الشرير

البدين!» ورن صوت سبتيموس في أنحاء القاعة محدثًا تأثيرًا أكبر مما كان يقصد.

انتفضت چينا من على مقعدها؛ فقد كانت تراقب الياور وهو يخنق هيوجو بنفس قدر الاضطراب والذعر الذي تملك سبتيموس، أما الآن فقد تأكدت. لقد تأكدت أنه سبتيموس – فهذا الصوت هو حتمًا صوته، إنها تستطيع أن تميزه في أي مكان.. إنه هو!

وفي نفس اللحظة، انتفض الشاب الجالس على الجهة الأخرى من الملكة إيثلدريدا هو أيضًا وهب واقفًا؛ فهو مثل چينا يعرف صوت تلميذه، لكن ما الذي يفعله هنا مرتديًا زي الخدم؟

اصطدمت چينا بمارسيلوس في غمار المعركة التي نشبت على المنصة. وعلى إثر ذلك، انزلق مارسيلوس على بقايا صلصة البرتقال وسقط على الأرض بصوت مكتوم. كما خسر برميل الدهن المتكبر معركته التي كان يخوض غمارها مع سبتيموس وترك هيوجو الذي سقط من قبضته وانطرح ممدد الجسم على الأرض، في حالة من الذهول بعد أن كان في قبضة الرجل. أما الملكة إيثلدريدا التي كان يتساقط منها صلصة البرتقال – فأرادت أن تنتهز الفرصة، فوجهت ضربة قوية للفتى في اللحظة التي سقط فيها فأخفقت وأصابت برميل الدهن بضربة لاذعة في أذنه. وعلى إثر ذلك ولأنه كان رجلًا عدوانيًا، قام برميل الدهن تلقائيًا بصفع إيثلدريدا، وسط فرحة وابتهاج الحشد في القاعة الذين كانوا يراقبون المشهد بحماس، بأيادٍ معلقة في الهواء تمسك بفروخ البط في منتصف الطريق إلى أفواههم الفاغرة.

وفجـأة، أدرك برميـل الدهن هول ما فعلـه، فابيض وجهه، ثم أصبـح شاحبًا. وعلى الفور، كان قد تلحف بعباءته المبقعة بالصلصة وفر هاربًا من الوليمة، وهو منطلق بسـرعة فائقة بين الموائد، مع تطاير أشـرطته العشـرة الثمينـة وتسـاقطها خلفـه. رأى خادمـا البـاب البرميـل الهـارب قادمًا، ولاعتقادهمـا أن هذا هو ما يحدث في كل وليمة، فتحا له الباب الضـخم بشكل رسـمي وانحنيا له وهو ينطلق كالصـاروخ من أمامهما. وبينما كانا يدفعـان مصـراعي البـاب لغلقه، تبـادلا الابتسـامات فيمـا بينهما، فلم يخبرهمـا أحـد من قبـل أنَّ الولائم تتسـم بكل هـذا القدر مـن المتعة والتسلية.

وبينما توقف سبتيموس للحظة لينتشل هيوجو المذهول ويمسكه بيد، خطف بيده الأخرى يد چينا وقال لها، وعيناه تتلألأن من فرط الحماس: «إنه أنت يا چينا، أليس كذلك؟» وغمره إحساس رائع بالأمل والسعادة وهو يراها أمامه مرة أخرى، وشعر وكأن مستقبله عاد إليه من جديد.

«نعم إنه أنا يا سِب، رغم أني لا أستطيع أن أصدق أني بالفعل أراك أمامي!».

«لقد عثرت مارشا على رسالتي، أليس كذلك؟».

«أي رسالة؟ هيا بنا نخرج الآن والفرصة مازالت مواتية».

ولم يلحظ أحد الأميرة إيزميرالدا والخادمين وهم يغادرون ميدان المعركة، تاركين خلفهم جيشًا من خدم القصر قد أخذوا يخدمون إيثلدريدا التي كانت تستشيط غضبًا، وتصيح في مارسيلوس باي وتأمره

بأن ينهض ويقف على قدميه في التو واللحظة. وفي غمرة ارتفاع أصوات الشغب في قاعة الرقص، تسللوا على أطراف أصابعهم وخرجوا عبر باب صغير يعترض الحائط المبطن بالخشب خلف المنصة، ويؤدي إلى غرفة استراحة مخصصة للسيدات الملكيات اللاتي ترغبن في الاستراحة من آثار الإفراط في تناول الطعام والشراب.

أغلقت چينا الباب بالمزلاج واستندت إليه وهي تنظر إلى سبتيموس غير مصدقة نفسها. تحرك فرخ البط وتسرب من جيب ردائها بلل موحل. لم يعد هناك مجال للشك - هكذا فكرت چينا - ففرخ البط حي - والأدهش أن سبتيموس أيضًا حيٌ.

++ 38 ++

البيت الصيفي



قال سبتيموس، وهو ينظر إلى *القُفل الضعيف الرقيق*، والمصمم لتزيين باب غرفة استراحة السيدات الملكيات: «إن هذا القفل لن يصمد طويلًا، لا بد أن نخرج من هنا بسرعة».

أومأت له چينا برأسها قائلة: «أعلم، لكن القصر يكتظ بالبشر، أنت لن تصدق ذلك يا سِب، إن القصر بالفعل في هذا الزمن مختلف تمامًا. إنك لا تستطيع أن تتحرك دون أن يراك أحد وينحني لك يحييك و...».

قال سبتيموس، وهو يبتسم لأول مرة منذ مائة وتسعة وستين يومًا، وقد بدا فجأة كما تتذكره چينا: «لكن، ما كان سينحني لي أحد ويحييني يا چين».

«بالطبع لن يحييك أحد وشعرك بهذا المنظر الذي يبدو مثل عشش الجرذان. ما الذي فعلته فيه؟».

«كنت لا أمشطه، وأنا لا أرى أهمية في ذلك أساسًا، كما أني بكل تأكيد ما كنت سأتركهم يحلقون لي شعري بتلك القصة الغبية التي تشبه سلطانية البودنج. على أية حال، كنتُ أريد إزعاج مارسيلوس، فهو يميل لأن يدقق في أمور مثل... ماذا تريد يا هيوجو؟»؛ إذ أخذ هيوجو فجأة يشد في كُم سبتيموس.

وهمس الفتى الذي مازالت عيناه حمراوين كالدم، ووجهه شاحبًا شحوب الموتى بعد أن كاد يلقي حتفه خنقًا، وقال له: «اسمع!» كان هناك شخص يحرك مقبض الباب بحركات سريعة.

سد السير هيروارد الباب بسيفه البالي، **وظهر** لسبتيموس وهيوجو؛ مما جعل هيوجو المذعور أساسًا ينتفض ويقفز في الهواء من فرط الرعب، ثم قال السير هيروارد بنبرة ملؤها الجد: «لسوف أحميك أيتها الأميرة أنت وتابعيك المخلصين إلى النهاية».

قالت چينا: «أشكرك يا سير هيروارد، لكن لا بد أن نخرج من هنا بسرعة. سِب، افتح أنت النافذة بينما سأجعلهم يعتقدون أننا انطلقنا من هذا الطريق»، وانطلقت چينا جريًا إلى باب صغير في الغرفة يؤدي إلى الممشى الطويل وفتحته، ثم تركته يتأرجح.

وقالت وهي تدفع هيوجو المذهول نحو النافذة: «هيا.. هيا اخرج يا هيوجو». وهكذا، خرج ثلاثتهم منحشرين من النافذة وسقطوا على الشرفة الممتدة حول الواجهة الخلفية للقصر. وبهدوء تام، أغلقت چينا النافذة، ثم اخترق السير هيروارد النافذة، وسرعان ما كان واقفًا إلى جوارهم، ثم سألهم: «أتسمحون لي أن أدلكم على طريق آمن؟».

همست چينا قائلة: «أي مكان، المهم أن يكون بعيدًا عن هنا، وبسرعة».

قال السير هيروارد، مشيرًا إلى ضفة النهر التي كان يمتد بمحاذاتها صف من أشجار الأرز لا تألفها چينا: «الكثيرون يتخذون من النهر ملجأ لهم في مثل هذه الحالات».

قالت چينا: «إذًا، فليكن النهر».

ولو كان أيٌ من هؤلاء الذين كانوا محتشدين في القاعة قد كلف نفسه ونظر من النافذة - وهو ما لم يفعله أحد؛ نظرًا لانشغال المدعوين بحماس في النقاش حول أحداث الليلة - لرأى خادمين من خدم القصر والأميرة منطلقين كما لو كانوا في سباق عبر البساتين الممتدة التي تؤدي إلى النهر، كما لم يكن من بين المدعوين أيٌ من هؤلاء الرائين للأرواح حتى يرى الشبح المسن الضعيف وهو ينطلق بأسلحته البالية، ويرفع رغم ذلك سيفه المكسور عاليًا، ويقود ثلاثتهم بسرعة فائقة وكأنهم في مهمة قتالية. وفي ظل حماية سحابة شاسعة داكنة انجرفت لتخفي وجه القمر الذي كان بدرًا في هذه الليلة وأغرقت البساتين في الظلام - انطلقت الحملة جريًا بكل ما أوتيت من قوة!

طقطقت طبقة حادة من الجليد تحت أقدامهم تاركة آثارًا داكنة لثلاثة أزواج من الأقدام على النجيل الأبيض كدليل بيّن لمن يود أن

يستطلع الأمر، لكن كان الحظ حليفهم؛ إذ لا أحد - حتى تلك اللحظة - فكر في البحث عن آثار أقدام وسط النجيل. ولدى وصولهم إلى النهر، كانت هناك فرقة بحث يقودها بديل برميل الدهن المتكبر الذي عينته توًا الملكة إيثلدريدا - وهو رجل يتميز بافتقاده القدرة على التحكم في أعصابه بقدر افتقاده الذكاء، وكان يضع نصب عينيه منصب الياور منذ سنوات عديدة ولم يصدق نفسه منذ قليل أن الحظ حالفه إلى هذا الحد - وبدأت الفرقة عملية البحث انطلاقًا من باب غرفة الاستراحة، ليكونوا بذلك قد توصلوا إلى ما أرادت چينا أن يتوصلوا إليه. وانطلق أفراد الفرقة من الباب الضيق، كل منهم يسعى لأن يكون أول من يقبض على الأميرة إيزميرالدا ويكسب ود الملكة، إلا أن الياور كان أكثرهم سعيًا لذلك، وأشرسهم أيضًا، وراح يخربش ويركل في طريقه سعيًا لتصدر الفرقة، وليكون أول من يخرج من الباب.. وسرعان ما كان أفراد الفرقة يهرعون خلفه على امتداد الممشى الطويل، وقد أخذوا يصيحون في المارة ويواصلون سؤالهم: «هل رأيت الأميرة المسكينة المضللة». وكان العديد من هؤلاء المارة، تلهفًا لقهر الياور المرعب الجديد وأتباعه، يضللونهم بمعلومات مغلوطة، وبذلك أرسلت الفرقة إلى عملية بحث فاشلة.

* * *

في ذلك الوقت، كانت چينا وسبتيموس وهيوجو والسير هيروارد يقفون على المرسى الذي يقبع عنده المركب الملكي.

قال لهم السير هيروارد: «إنه سيقلنا بأمان إلى مقصدنا. إنها ليلة هادئة ساكنة الرياح وتيار المياه يتدفق ببطء».

نظر سبتيموس إلى المركب الملكي، وأطلق صفارة انبهار هامسة، وهي عادة مزعجة اكتسبها تلقائيًا من مارسيلوس باي، ثم قال: «ألا تعتقدون أنهم قد يلاحظوننا ونحن على متن هذا المركب؟».

قالت چينا: «لن نستخدم هذا المركب، فالسير هيروارد يقصد زورق التجديف الصغير هذا»، ثم أشارت إلى السير هيروارد الذي بدأ يحوم فوق زورق تجديف صغير لا يقل طلاؤه فخامةً عن المركب الملكي، كان يُربط خلف المركب، ويُستخدم في نقل الركاب من وإلى المركب الملكي وقتما يتعذر عليه الوصول إلى البر.

وهنالك، انقشعت السحابة وانكشف البدر، مغرقًا البساتين المكسوة بطبقة من الجليد بنور ساطع، وبدا المنظر كأن شخصًا أضاء كشافًا سلطه عليهم مباشرة. ولأن السير هيروارد يعلم تمامًا المخاطر الناجمة عن نور القمر، إذ إنه هو نفسه دخل عالم الأشباح نتيجة ظهور البدر في أسوأ توقيت بعد انقشاع السحب، ونتيجة سهم أصاب الهدف، قفز على الفور خارج الزورق وهو يقول لهم: «لسوف يكتشفون أمرنا هكذا - هلموا إلى البيت الصيفي!». وهكذا، قاد السير هيروارد ثلاثتهم مراوغًا بين أشجار الأرز إلى أن وصلوا البيت الصيفي الخاص بالقصر - وهو نفس المبنى الثماني ذي السقف الذهبي الذي تعرفه چينا في زمنها.

ومن خلف البيت الصيفي الذي اتخذوه غطاءً لهم، راقبت چينا نوافذ القصر وهي تُضاء واحدة تلو الأخرى؛ حيث كانت فرقة البحث المرتبكة

تقتحم كل غرفة شاغرة، وتترك خلفها شمعة مضاءة تشير إلى أن الغرفة خضعت للتفتيش.

وفجأة، وبصوت تهشُّم قادم من على مسافة ليست ببعيدة، فتحت النافذة الضخمة لقاعة الرقص على عَجلٍ على مصراعيها، وخرج منها الياور إلى الشرفة. فالياور بعد أن أصابته جولته غير المثمرة بالإحباط، ترك فرقة البحث منشغلة بمشاحناتها حول الأمور التافهة، وعاد هو إلى غرفة استراحة السيدات ليعيد تفتيشها بدقة. وقاده ذلك إلى اكتشاف أن النافذة غير موصدة وأن فريسته قد توجهت في اتجاه آخر تمامًا. وفي ثوانٍ، كان صوته المستبد بنبرته التي يملؤها الوعيد والتهديد يخترق أجواء الليل قارسة البرودة في الخارج، وهو يلقي أوامره إلى فرقة قطّاع الطرق الجديدة التي اختارها بنفسه لعملية البحث.

«انقسموا إلى فرق من ثلاث.. ويحك! هل أنت أبله أيها الرجل؟ أجل أنت بالفعل أبله. لقد قلت أيها الأخرق ثلاثة، إنهم ليسوا إلا أطفالًا، إن أي فرقة منكم تستطيع ولا شك أن تسحقهم. افعلوا ما شئتم في الخادمين، إن أمرهما لا يعنينا، لكن إيزميرالدا لا بد من إعادتها إلى والدتها الحزينة. هيا الآن، أنتم انطلقوا جهة البوابات العظمى، وأنتم جهة الإسطبلات، وأنتم أيها الحمقى انطلقوا جهة النهر. لا أريد أي تلكؤ.. هلموا، انطلقوا!».

وما إن جثت چينا وسبتيموس وهيوجو خلف البيت الصيفي والذعر يتملكهم حتى انطلقت صيحة من فرقة البحث الضخمة تقول: «انتباه!

توقفوا! لقد وجدنا آثارًا لأقدامهم على الجليد، وأنا أؤكد بذلك أننا نلنا منهم. لقد وقعوا في قبضتنا!».

انطلقت فرقة البحث كالبرق، والتي كان يتبعها الياور عن قرب، عبر البساتين متجهين نحوهم. وبهلع، حاول سبتيموس أن يفتح باب البيت الصيفي، إلا أنه كان مغلقًا بالمفتاح، ثم قال وهو يلف يده بفوطة التقديم البيضاء التي كانت تغطي إبريق صلصة البرتقال منذ دقائق معدودة: «سوف أكسر زجاج النافذة يا چين».

همست چينا قائلة: «لا يا سِب، سوف يسمعوننا، وحتى إن لم يسمعونا، فسوف يعلمون لو كسرت النافذة أننا في الداخل».

قال السير هيروارد الذي كان لايزال متحمسًا بعد نجاحه السابق في إبطال مفعول غلق باب غرفة چينا بالمفتاح: «اسمح لي أيها الفتى الشاب»، وضع الفارس يده على القفل، وانتظر الجميع بقلق، وهم يتتبعون وقع خطوات فرقة البحث ووصولهم إلى المركب الملكي.

همست چينا بهلع: «أرجوك، أسرع».

قال السير هيروارد الذي بدا مرتبكًا: «لست قويًا كما كنت في السابق، وهذا القفل لا يلف بسهولة».

ثم قالت چينا: «سير هيروارد، دعني أجرب شيئًا»، وأخرجت چينا مفتاح غرفة الملكة من حزامها، متمنية في سرها لو كانت قد أنصتت بمزيد من الاهتمام للكلام الذي كانت چيلي دچين تهمهم به، وبأصابع مرتجفة وباردة كالثلج، لا يكاد نفعها في هذا الطقس يزيد على كونها عبوة من المقانق المجمدة، تحسست چينا مكان ثقب الباب فسقط منها

المفتاح الذي سرعان ما تلألأ على النجيل المغطى بالجليد مع انعكاس بريق ذهبه وأحجاره الزمردية في نور القمر. فخطف سبتيموس المفتاح ودفعه في القفل ولفه، وفي اللحظة التالية كانوا جميعًا قد دلفوا إلى الداخل وهم يتخبطون في بعضهم، ثم أغلق سبتيموس القُفل من الداخل، ووقفوا ينصتون لأصوات جوفاء، تصدر عن أقدام تجري خلف أشجار الأرز، وتدك الأرض أسفلها.

وفجأة، أمسك هيوجو ذراع سبتيموس بقوة.

فثمة عينان خضراوان كانتا تتلألآن وسط الظلام، وبدأ صوت خفيض ممتد لزمجرة يملأ البيت الصيفي.

همست چينا وسط الظلام: «أولر؟» ثم تذكرت أنها ما عادت في زمنها، ومستحيل بالتالي أن يكون هذا الكائن هو أولر!

وهنالك، اخترق الظلام صوت تعرفه چينا جيدًا؛ إنه صوت سنوري التي كانت تقول وهي لاهثة: «اهدأ يا أولر، اهدأ»، لكن أولر لا يريد أن يهدأ؛ إذ كان القط الكبير الآن، والذي تملكه الدهش من الأصوات الغريبة التي يسمعها والروائح التي وجد نفسه يتشممها في هذا الزمن المختلف، قد تملكه الذعر منذ قليل من جراء صرخة خادمة مطبخ ليلية، وانطلق في متاهة من الممرات. ولحسن الحظ، تمكنت سنوري من اللحاق به، وهي الآن تمسك نمرها الأسود وتربت على عنقه الذي وقف فروه مع الزمجرة التي يطلقها.

همست چينا قائلة: «لا تقلق يا سِب، إنهما سنوري وأولر الليلي».

لم يفهم سبتيموس شيئًا من كلام جينا، لكن إذا كانت زمجرة النمر الأسود لم تُزعج جينا، فهو بالتالي لن ينزعج منها. فهناك أشياء أخرى الآن تستحق القلق؛ منها الصوت الشرس للباور الجديد الذي كان يقول بنبرة ملؤها الحماس: «إن الأثر واضح، والفريسة تنتظرنا داخل البيت الصيفي هنا يا رجال».

ثم تبع ذلك صوت دوران مقبض الباب بحركات عنيفة متوالية، تلاه صوت أحد الرجال وهو يقول باندهاش: «إن الباب مغلق بالمتاريس يا سيدي الباور».

«فلتهشموه إذن أيها النحس الأعجف المتخاذل.. فلتهشموه».

وتردد صدى صوت ضربة مدمرة تلقاها الباب الخشبي الهزيل، ارتج معها البيت الصيفي. فأشهر السير هيروارد سيفه لدى الباب من الداخل وقال مؤكدًا: «لا تخافوا، إنهم لن يمروا»، نظرت جينا بهلع إلى سبتيموس – ففرقة الباور لن تلحظ أساسًا وجود السير هيروارد، وسوف تخترقه كما لو كان غير موجود.

قالت سنوري على الفور: «نستطيع أن نهرب إلى المطابخ من هنا، لكنهم سوف يتبعوننا. لديّ فكرة – جينا، أعطيني عباءتك إذا سمحتِ». لو كان الموقف غير الموقف لما تنازلت جينا بسهولة عن عباءتها الجميلة هذه، لكن مع الضربة التالية التي تلقاها الباب وانشقاق لوح خشبي رفيع خلفها، خلعت جينا عباءتها وأعطتها لسنوري. تحملت جينا بصعوبة بالغة منظر سنوري وهي تشق عباءتها من أولها إلى آخرها، وتمرغها في تراب

أرضية البيت الصيفي، ثم تعطيها لأولر وهي تقول له: «خذ يا أولر»، وأطبق النمر الأسود على عباءة جينا الممزقة بفمه، وجز عليها بأنيابه البيضاء الضخمة.

«ابق هنا يا أولر، احرس المكان». أطاع أولر الأمر، ووقف النمر الأسود الضخم لدى الباب، وعيناه الخضراوان تطلقان شررًا مع موجة أخرى من الضربات أرسلت وابلًا من الشظايا الخشبية الجافة على عضلات ظهره العريض.

همست سنوري، وهي تشير إلى جينا وسبتيموس وهيوجو والسير هيروارد: «هيا بنا، اتبعوني».

واختفت سنوري وسط الظلام، لكن بريق نور القمر الساقط على شعرها الأشقر جعل من السهل تتبعها، وسرعان ما كانوا ينزلون منحشرين سلمًا شديد الانحدار. وفي تلك الأثناء، سمعوا باب البيت الصيفي ينهار أخيرًا بعد كل هذه الضربات، ثم انطلقت من أولر زمجرة مدوية طويلة ملؤها التهديد، تلتها صرخة رعب تخرق الآذان انطلقت من النحس الأعجف المتخاذل الذي كان لنحسه أول من مر عبر الباب ودخل البيت الصيفي.

ثم علا صوت الباور الشرس وهو يقول: «هيا، ادخل مرة ثانية».

«لا، لا، أتوسل إليك يا سيدي. أنا أخشى على حياتي ولا أجرؤ على الدخول».

«إذن ملعون أنت أيها الأحمق، وحياتك هذه لن تطول لو لم تدخل وتخرج الأميرة من هنا».

«لا.. لا يا سيدي، لا أجرؤ».

«تنحَّ جانبًا الآن أيها الأحمق، ولسوف أُريك كيف يكون الرجال و...».

وعند ذلك، انطلقت زمجرة لم يسمعها أحد قطُّ من أولر من قبل - ولا حتى سنوري - فملأ دويها بئر السلم الضيقة في الأسفل، وجعلت المختبئين فيها جميعًا يرتجفون من الأعماق، ثم اخترقت الأجواء صرخة مدوية يملؤها الذعر، وسمع المختبئون الأصوات المكتومة لأقدام فرقة الياور وهم يفرون ، تاركين الياور وحده كي يثبت بنفسه لأولر الليلي كيف يكون الرجال.

وعادت فرقة البحث إلى قاعة الرقص في حالة مزرية، وسمع ما تبقى من المدعوين الذين انتظروا حتى يكملوا أطباقهم - وأطباق من كانوا يجلسون إلى جوارهم - القصة المرعبة التي روت كيف أن الأميرة إيزميرالدا التهمها وهي حية شيطان أسود. ولا أحد يعلم حتى الآن مصير الياور، وإن كانوا جميعًا يخشون أن الأسوأ قد حدث (ويتمنونه أيضًا؛ حتى تزداد القصة تشويقًا).

* * *

وبينما كان أولر الليلي يحرس البيت الصيفي، وربما أيضًا يلتهم الياور (رغم أنه لا أحد يود التفكير في هذا الأمر)، ظهر سبتيموس وچينا وهيوجو وسنوري جميعًا عند أدنى درجات السلم الحلزوني، وإذا بهم فجأة يصطدمون بشخص، صاح سبتيموس في دهش: «نكو!».

كادت الشمعة تسقط من يد نكو ما إن سمع صوت سبتيموس، ثم كست ملامحه حيرة خاطفة بينما كان يستوعب التغييرات غير الملحوظة التي طرأت على سبتيموس بعد أن مكث مهجورًا في زمن غير زمنه لمائة وتسعة وستين يومًا، لكن سرعان ما تلاشت حيرته، وقد رأى أن أسفل هذا الشعر المتشابك، والهيئة النحيلة التي ازداد طولها طفيفًا، مازال سبتيموس هو سبتيموس.. لكن، ولسعادته، ليس هذا فحسب هو كل ما رآه؛ إذ كانت چينا تقف خلف سبتيموس.

قالت سنوري: «هيا، بسرعة، فقد يسرعون في إرسال آخرين للتغلب على أولر، وهو لن يستطيع أن يحجبهم عنا طويلًا. لا بد أن نذهب»، ثم أخذت سنوري الشمعة من نكو، وسارت بخطوات واسعة إلى وجهتها. تابع الجميع خطاها وضوء الشمعة المتراقص يمينًا ويسارًا على امتداد ممر أسفل المطابخ كان مهجورًا، فيما عدا ظهور ثلاث فتيات ممن يقدمن الطعام بدا عليهن الإرهاق، ثم اختفين على مسافة ليست ببعيدة.. كانت المطابخ تملؤها نفس الروائح المألوفة التي كانت تنبعث من الوليمة، والتي أوقعت في نفس چينا وسبتيموس إحساسًا منفرًا.. وهكذا، واصلوا جميعًا زحفهم، وهم يتلفتون حولهم.

ويلقون نظرات خاطفة؛ للتأكد من خلو الممر من الخدم الفضوليين. ولحسن حظهم، كانت هذه اللحظات هي الساعات الهادئة من الليل التي لا يعمل فيها في المطابخ سوى خباز القصر والذي كان بعيدًا عنهم بمسافة آمنة في الطابق الذي يعلوهم.

علمت چينا إلى أين كانوا يتوجهون؛ فقد رأت على مسافة ليست بعيدة الجزء الغاطس من الحائط الذي يخفي دولاب معاطف مساعدي الطهاة، فضغطت على يد سبتيموس وقالت له: «لقد حانت لحظة عودتنا يا سِب - أليس ذلك رائعًا؟».

فسألها سبتيموس وقد علته الحيرة: «لكن كيف؟».

ومن خلفه، رفع نكو الشمعة عاليًا، فعكس ضوءُها ظلهم على سطح دولاب المعاطف القديم، وقال: «سوف نعود من هنا، ألا تتذكره؟».

«أتذكر ماذا؟».

«المكان الذي أوصلك إليه اللوح الزجاجي أيها الأحمق!».

هز سبتيموس رأسه وقال: «لكن ليس هذا هو المكان الذي أوصلني إليه اللوح الزجاجي. لقد أوصلني إلى غرفة الكيميائيين».

لم يفهم نكو لماذا يعقد سبتيموس الأمور هكذا، وقال له: «وما الفرق يا سِب؟ دعنا نعُد من خلال هذا اللوح الزجاجي فحسب، حسنًا.. المهم أن نعود إلى البيت».

سكت سبتيموس ولم ينطق؛ فهو لم يفهم كيف سيتسنى له أن يعود إلى زمنه من خلال دولاب قديم. لكن هيوجو، على ذكر كلمة العودة إلى البيت، بدأ ينشج. فانحنى سبتيموس للأسفل وسأله: «ما بك يا هيوجو؟».

فرك هيوجو عينيه المتورمتين المرهقتين، وهمهم قائلًا: «أريد... أريد أن أعود إلى البيت. أريد أن أرى سالي».

«سالي من؟».

«إنها كلبتي، أريد أن أرى سالي».

«حسنًا يا هيوجو، لا تقلق، سوف آخذك إلى البيت».

صاحت چينا بفزع: «سِب! لابد أن تعود معنا، وفي الحال. لا بد أن نذهب قبل أن يقبض علينا أحد».

«لكن يا چين.. لا نستطيع أن نترك هيوجو هكذا بمفرده».

تنحنح السير هيروارد بأدب وقال: «أيتها الأميرة چينا، أنا واثق من أنك ستسمحين لي بأن أوصل الفتى إلى بيته».

ردت چينا قائلة: «رائع يا سير هيروارد، أحقًا لا تمانع؟».

انحنى الشبح وقال: «إنه لشرف لي أيتها الأميرة»، ومد الفارس يدًا بها قفاز صدئ إلى هيوجو الذي مد يده ليمسكها فأمسك الهواء. أردف الشبح قائلًا وهو ينحني انحناءة منخفضة: «وداعًا أيتها الأميرة الحسناء. فلن أراكِ ثانية».

ردت چينا بابتسامة عريضة: «بل سوف تراني يا سير هيروارد. سوف أقابلك الليلة وأحكي لك كل ما حدث».

«لا أظن ذلك أيتها الأميرة، فلا أعتقد أنك ستكونين بمأمن هنا الليلة. أتمنى لك ولرفقائك الشجعان البواسل سرعة المغادرة والعودة بسلام إلى بيوتكم. هلم يا هيوجو»، وخرج الشبح من الباب، بينما كان هيوجو يهرول إلى جواره.

ثم قال سبتيموس: «وداعًا يا هيوجو».

التفت هيوجو وابتسم، ثم قال: «صاحبتك السلامة أيها التلميذ، ربما أراك غدًا».

قال سبتيموس في سره بكآبة: «ربما هذا هو ما سيحدث».

ثم قالت چينا وقد نفد صبرها: «هيا يا سب». ثم جذبته نحو الدولاب.

أخرجت سنوري صفارة فضية من جيبها وصفرت بها، لكن لا أحد منهم سمع صوتها، ثم قالت: «إنها لأولر. سوف يأتي في الحال».

فتحت چينا باب دولاب المعاطف، وقالت لسبتيموس تشرح له: «انظر! هناك لوح زجاجي في الخلف، خلف المعاطف»، وأزاحت چينا طبقات الصوف الرمادية الخشنة كي تكشف له عن البرواز الذهبي المترب للوح الزجاجي، وقالت له بحماس: «ها هو!».

«أين هو؟» هكذا قال سبتيموس، بينما كان أولر يتقدم بخطوات ناعمة صامتة نحو الهيئات الأربع المتكدسة حول الدولاب.

«هنا»، هكذا ردت عليه چينا بانزعاج، وهي تتساءل في سرها لماذا يتصرف سبتيموس على هذا النحو الأخرق؟!

قال سبتيموس: «إنه ليس سوى برواز فارغ يا چينا. إنه ليس سوى برواز غبي قديم»، ثم ركله بغضب وقال: «مجرد برواز فارغ».

«لا، لا، لا يمكن!»، ومدت چينا يدها لتتحسس اللوح الزجاجي فوجدت سبتيموس محقًا. فالإطار كان فارغًا، واللوح الزجاجي الذي كان موجودًا فيه ما عاد له أي أثر مطلقًا.

قال سبتيموس بتجهم: «لقد أصبحنا جميعًا محتجزين في هذا المكان الرهيب».

39

التيار تحت الأرضي



حل نكو حبل *زورق التجديف* من *المركب الملكي*، وأبحروا متسللين به بعيدًا عن مرسى القصر، متخذين أشجار الأرز العملاقة غطاءً لهم. كان الزورق ضيقًا، فجلسوا فيه منحشرين. وقف أولر الليلي عند مقدمة الزورق، وقد أخذت عيناه الخضراوان تبرقان وسط ظلام الليل، بينما انحشرت سنوري إلى جواره. وجلس نكو في المنتصف وأخذ يجدف بهم بثبات عكس اتجاه تيار النهر، مبتعدًا عن القصر. أما چينا وسبتيموس فقد تكورا لدى مؤخرة الزورق، وظلا يرتعشان مع هبوب البرد القارس من المياه، مزيحًا في طريقه رقائق الثلوج الكبيرة التي تتساقط بكسل من السماء. كانوا جميعًا متلحفين بمجموعة متنوعة من معاطف مساعدي الطهاة، لكن الهواء البارد كان ينفذ بسهولة إلى

أجسامهم مخترقًا صوف المعاطف الرقيق الرخيص؛ حيث إن أجور مساعدي طهاة القصر لا تكفيهم لشراء معاطف من النوع الثمين.

لقد كانوا في طريقهم الآن إلى الغرفة العظمى للكيمياء والطب. فقد كان سبتيموس يعلم أن هذه هي فرصتهم الوحيدة لكي يعودوا إلى زمنهم، وإن كان لا يعول عليها آمالًا كبيرة. كان مزاجه متعكرًا، وقال لهم: «إن هذا لن يكون سهلًا، فمارسيلوس فقط هو الذي يحتفظ بمفتاح الباب العظيم العابر للزمن».

قال نكو بنبرة مرحة: «لا بأس، كل ما علينا أن نفعله إذن هو أن ننتظر دخوله الغرفة، ثم نعد له كمينًا؛ فنحن أربعة في مقابل واحد».

قال سبتيموس: «لقد نسيت الكتبة السبعة».

«أنت الذي نسيت أن تذكرهم يا سِب. فأنت لم تذكر لنا شيئًا عن هؤلاء الكتبة السبعة»، ثم تنهد وواصل قائلًا: «على أية حال، ليس أمامنا خيارٌ آخر. وإلا، فسنظل محتجزين هنا إلى الأبد».

همست سنوري: «ولا تنسوا أن أولر الليلي سيكون معنا إذا وصلنا قبل حلول النهار».

زاد نكو من سرعة تجديفه، فهو حتمًا يفضل أن يكون بجواره نمر أسود لا قط برتقالي هزيل. التفتت چينا تنظر إلى القصر الذي كان يختفي عن أنظارهم بسرعة.

لقد انتهت عملية تفتيش القصر التي لم تسفر عن شيء، وباتت كل غرفة من غرف القصر الآن مضاءة بشمعة؛ وهو ما جعل المبنى الحجري القديم - ذا الامتداد الطويل والارتفاع المحدود - يبدو متوهجًا بالضوء،

بينما بدت بساتينه العريضة الممتدة أمامه والمكسوة بالثلوج التي تساقطت توًا - كأنها مريلة بيضاء نضرة من تلك المرايل التي يرتديها الطهاة. وعلى الرغم من علم چينا بوجود الملكة إيثلدريدا الآن في مكان ما داخل القصر، فلم يكن في وسعها إلا أن تشعر بروعة منظر القصر وهي تراه مفعمًا بالحيوية والمرح هكذا، وقررت في سرها أنه لو حدثت المعجزة وتسنى لها العودة يومًا إلى زمنها، فسوف تضيء هي أيضًا كل غرف القصر؛ احتفالًا بعودتها.

نظرت چينا إلى نوافذ غرفة إيزميرالدا - وغرفتها هي أيضًا - وقالت: «أنا سعيدة أن إيزميرالدا رحلت بعيدًا».

قال سبتيموس: «وأنا أيضًا».

اندهشت چينا، وسألته: «هل تعرفت إليها؟».

فأومأ لها سبتيموس برأسه، وقال لها: «لقد أفلتت منها بأعجوبة. لقد أخذها مارسيلوس ليهربها عبر طريق الملكة، لكنهما كادا يقعان في قبضة الباور. فقام مارسيلوس - وهذا هو الجانب المشرق في الموضوع - بإلقاء عباءتها قبالة القصر مباشرة مع حركة مياه المد، وحرص على أن يجعل أحد الخدم يعثر عليها. وهكذا، اعتقد الجميع أنها غرقت، وتحمست إيثلدريدا جدًا بهذه النتيجة؛ نظرًا لأنها - حسب كلام مارسيلوس - كانت تخطط لإلقاء ابنتها إيزميرالدا في دوامات الغدير البارد التي لا قاع لها».

قالت چينا: «مارسيلوس هو الذي أنقذها؟».

«إنها أخته في نهاية المطاف، وكانت إيزميرالدا قد جاءت من قبل لتقيم معه، ولقد كانت بالفعل لطيفة معي، في الوقت الذي كان لا أحد حينها يتحدث معي؛ لأنهم كانوا يشعرون بالغيرة مني لأني كنت أنا التلميذ وظلوا هم على حالهم مجرد كتبة».

وهنا تذكرت چينا اليوميات، وقالت: «إذن التلميذ الجديد كان أنت؟».

أومأ لها سبتيموس برأسه، ثم رفع رداء الخدم الذي يرتديه وأظهر لها عباءة الكيميائيين بلونيها الأسود والأحمر ذات التطريز المذهب، وقال: «انظري! هذا هو زي التلميذ الكيميائي».

وبعد ضربة أخرى بالمجدافين، لف نكو عند الانحناء التالي، وتوارى القصر عن الأنظار، وبدءوا هكذا يقتربون من رصيف مراكب مُهْمَل منذ زمن بعيد، يقع عند الجانب الشرقي من القلعة.. بدا النهر في هذا المكان أعمق مما اعتاده نكو في زمنه، وبدأت الرياح تشتد، وكان التيار المائي سريعًا وقويًا.. ومر زورق التجديف الصغير كالصاروخ بعشرات السفن الشامخة الراسية على امتداد الشاطئ في فترة الشتاء. فأرسل الأزيز الشبحي للرياح الدائرة بين معدات السفن رجفة أعمق في أجساد ركاب زورق الملكة، ومما زاد الأمر سوءًا منظر الهوابط الجليدية الطويلة كاللحى والمستقرة على الحبال التي تزخرف الزورق كشجيرات معقدة، وقد أخذت هذه الهوابط تبرق الآن في نور القمر فبدت كأنها بيت عنكبوت عملاقة.

سأل نكو أخاه سِب مستفسرًا، بينما كانت أنفاسه تخرج في دفقات سريعة من السحب الدافئة وسط الصقيع: «هل ما زال أمامنا الكثير يا سِب؟».

ثم أزاح رقائق الثلوج عن رموشه.

رد سبتيموس، وهو ينظر إلى أكوام الركام والسقالات الشاهقة التي بدأت تبرز عند ضفة النهر: «من المفترض أننا اقتربنا».

سألته چينا، بينما كانت أسنانها تصطك: «كيف سيتسنى لك معرفة المكان وأنت لم يسبق لك من قبل أن استخدمت التيار تحت الأرضي؟».

«إن التيار تحت الأرضي يخرج ملتحمًا بالنهر عند قوس الكيمياء يا چين. وهناك خريطة على الجدار توضح مساره، ولقد كنت أقضي ساعات وساعات لا أفعل شيئًا سوى التحديق إلى هذه الخريطة. و(القوس) تعلوه علامة الكيمياء الذهبية، وهي عبارة عن دائرة ونقطة في مركزها؛ إشارة إلى دوران الأرض حول الشمس، ويحيط بالعلامة سبع نجمات؛ فالكيميائيون يحبون الرقم 7 - باعتباره رقمًا يجلب الحظ»، ثم تنهد تنهيدة ثقيلة.

فقالت له چينا: «هون على نفسك قليلًا يا سِب وابتهج، فعلى الأقل نحن جميعًا معًا الآن في هذا الأمر».

وهكذا، وبينما كان نكو يجدف، أخذ كل منهم يحدق إلى السور المرتفع عاليًا فوق النهر، آملين العثور على علامة الكيمياء. لكنهم لم يروا سوى أحجار، وسقالات وجدران غير مشطبة ترتفع عاليًا في كبد سماء الليل الملبدة بالغيوم. وبدأت چينا ونكو وسبتيموس واحدًا تلو الآخر يُدركون ما الذي ينظرون إليه.

قالت چينا بهدوء تام: «إنهم يبنون منطقة العشوائيات».

قال نكو: «أعرف ذلك، وهو إحساس غريب».

قالت چينا: «نحن لم نكن قد ولدنا بعد».

«ولا أمي ولا أبي. يا له من شعور غريب يجعل الرأس يدور!».

تنهد سبتيموس وقال: «لا تفكر حتى في ذلك يا نكو؛ فهذا التفكير سيقودك إلى الشعور بأنك ستُجن».

لم تتجاذب سنوري معهم أطراف الحديث؛ فمنطقة العشوائيات لم تكن تعني لها شيئًا، ولقد بدت لها القلعة غريبة في هذا الزمن كما هو حالها في زمنها، كما أنها نشأت في بلاد يعلم فيها الناس أن الزمن قد يكون قصيرًا أو طويلًا، قد ينتقل إلى الماضي أو إلى المستقبل، تأتي إليه الأرواح وتعود، وكل شيء فيه محتمل. ومن ثم، جلست ساكنة تتفحص الأسوار بحثًا عن علامة الكيمياء.

وفجأة، همس نكو قائلًا: «صه! هناك مركب خلفنا». التفتت چينا ونكو ليتبينا الأمر. كان نكو محقًا. فعندما أمعنوا في الإنصات، سمعوا صوت طرطشة مجاديف زورق صغير، ثم وصل إليهم صوت كلام عبر المياه.

«أسرعوا أيها الرجال. هناك شلن وعباءة فاخرة لكل منكم إذا لحقتم بهم. هيا، أسرعوا».

همست چينا قائلة: «نكو.. أسرع!».

لكنه بدأ يشعر بالإرهاق، وحاول أن يُبحر بسرعة أكبر إلا أنه وجد نفسه لا يستطيع أن يزيد من سرعة تجديفه أكثر من ذلك. أما چينا وسبتيموس، فكل ما كان في وسعهما أن يفعلاه هو مراقبة متعقبيهم وهم يقتربون أكثر

فأكثر منهم، إلى أن رأوا بوضوح أربع هيئات تقبع بشكل خطير على متن زورق تجديف طويل وضيق، وقد بدأ الزورق يلحق بهم بسرعة.

لم تلتفت سنوري لمتعقبيهم، وثبتت عينيها على السور الذي يقع قبالة أول الإنشاءات في منطقة العشوائيات، وفجأة قالت: «أعتقد أن العلامة التي تبحثون عنها هناك».

سألها نكو: «أين؟».

ردت سنوري عليه، مستمتعة بنطق اسم نكو: «هناك يا نكو. انظر! إنها تعلو المدخل المقنطر المظلم حيث يتدفق المجرى المائي إلى النهر. أسفل السور الذي تعلو واجهته نافذتان».

قال نكو: «حسنًا»، ثم قام بلفة سريعة، ومع شعوره بسريان قدر ضئيل من الطاقة الإضافية في جسمه، جدف بأقصى سرعة نحو المدخل المقنطر المظلم، وبعد أن وصل توقف ليلتقط أنفاسه. بدا صوت الزورق الذي يلاحقهم أكثر قربًا، ولم يجرؤ نكو أن يرفع مجدافيه من المياه خشية أن يصدرا صوتًا يشي بهم. حبسوا جميعًا أنفاسهم بينما كانوا يراقبون الفجوة الصغيرة وسط الظلام، والتي أظهرت لهم النهر الخالي ينيره القمر. وبسرعة البرق، مر متعقبوهم من أمام الفجوة في لمح البصر، ولو كان أحد منهم رمش حينها لفاته رؤيتهم.

قالت چينا وهي تلتقط أنفاسها، وتعود لتجلس باسترخاء في الزورق مع شعورها بالارتياح: «لقد رحلوا». والتقط نكو المجدافين على مضض، وقد أدرك الآن أنه سيضطر لأن يجدف أسفل سطح الأرض، وهو حتمًا

لـم يُسعده ذلك. ومحـاولًا تجاهل إحسـاس الذعـر والهلع الـذي بدأ يتملكه، أخذ يجدف متعمقًا في الظُلمة.

قالت چينا: «هذه اللافتة تشبه تلك التي تعلو بيت التنين، فيما عدا أن حالتها ليست بالية كالأخرى».

قال سبتيموس، بينما كان الخاتم التنيني يضيء وجهه من الأسفل على نحو مخيف: «إن أي شيء أسفل القلعة أو في الأسوار هو من صنع علوم الكيمياء القديمة يا چين».

فسألته چينا: «حتى بيت التنين؟».

«على وجه الخصوص بيت التنين».

نظرت چينا إلى سبتيموس، لكنه لم يبادلها النظرات، وظل محدقًا أمامه مباشرة وسط الظلام. لقد بدا منعزلًا، ومثقلًا بالهموم، وأكبر بكثير من المائة وتسعة وستين يومًا التي أُضيفت إلى عمره.. وللحظة، شعرت چينا بالخوف من التغير الذي طرأ عليه في الفترة التي غاب عنهم فيها، ثم قالت له على نحو أقرب من الإشارة عن السؤال: «لقد بت تعلم الكثير الآن يا سِب، أليس كذلك؟».

تنهد سبتيموس ورد قائلًا: «حقًّا».

كـره نكو الـتيار تـحت الأرضي. فبداية، كانت رائحته غريبة؛ إذ كانت تنبعث منه عفونة وحموضة وكأن هناك جثة ألقيت فيه حديثًا، وكانت هناك أشياء - لينة ومهروسة - تطفو على السطح وأمكنـه أن يشعر بأن طرفي مجدافيه يلمسان هذه الأشياء، كما أن النفق لم يكن عريضًا بالقدر

الـذي يـكـفي لطول المجدافين اللذين أخذا يحتكان مع كل ضربة بجوانب الجدار، وتسبب ذلك عدة مرات في توقف الزورق، واضطر نكو لأن يسحب المجدافين للداخل ويجدف بهما بإيقاع أخرق؛ حتى لا تصطدم مقابضهما ببعضها البعض.

وعلى الرغم من أن نكو يستطيع التعامل مع المشكلات المزعجة المتعلقة بالتجديف، فقد كان إحساسه بأنهم يواصلون التوغل أكثر فأكثر أسفل سطح الأرض يفوق احتماله، وازداد هلعه مع كل ضربة مجداف كان يقوم بها. وكانت هناك مياه مثلجة تتساقط من السقف المقنطر للنفق الذي يعلم نكو أنه يعلوه بمسافة لا تزيد على ذراع، كما أن النفق بأسره لم يكن يضيئه إلا خاتم سبتيموس التنيني، وكلما سحب نكو المجدافين لأعلى خُيل إليه أن الجدران تزيد من تضييق الخناق عليه. ولولا وجود سنوري، والتي كانت تجلس خلفه، لترك المجدافين وصاح قائلًا: أخرجوني من هنا! ومن ثم، أغمض عينيه وحاول جاهدًا أن يتخيل أنه يجدف في عرض المحيط، بما أن الأمر لن يختلف سواء كان يرى أو لا يرى الطريق أمامه؛ لأنه ليس هناك سوى طريق واحد يسلكه.

وبعد نحو عشرين دقيقة - بدت بالنسبة لنكو أقرب إلى عشرين ساعة - علم أنه حتى وإن فكر في المحيط وفي سنوري الجالسة خلفه، بات من المستحيل عليه أن يواصل طرد إحساسه بالهلع من ذهنه. لكن لحسن حظه، وجد سبتيموس يقول له: «ها نحن قد وصلنا يا نكو. نحن الآن في حوض التيار تحت الأرضي، يمكنك أن تفتح عينيك الآن».

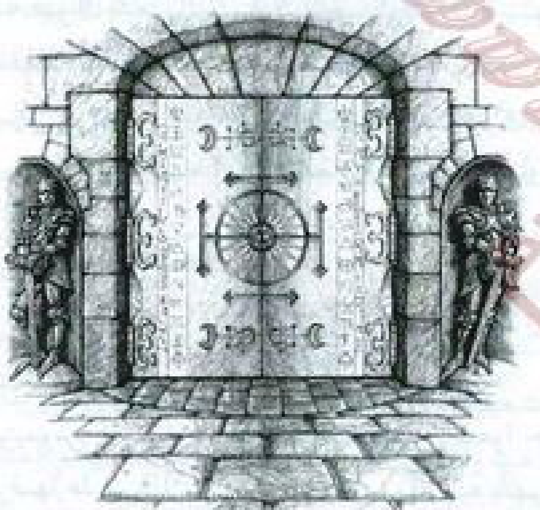
رد نكو بسخط قائلًا: «عيناي كانتا مفتوحتين»، وما إن فتح نكو عينيه حتى وجد أنهم وصلوا إلى بركة مياه تقع داخل كهف هائل الحجم مستدير الشكل. وكان هناك رصيف حجري طويل على امتداد جانب من النفق، يضيئه صف من شموع الأسل المتراصة على حوامل معلقة على الجدران. وكانت المياه سوداء كالحة، ينعكس على سطحها وميض الشعلات بضوء برتقالي، وعلم نكو الذي لديه حاسة فطرية تخبره بأعماق المياه - أن المياه هنا عميقة جدًا جدًا. لكن ليست المياه هي التي كان يحدق إليها نكو، بل إنه هذا السقف المقنطر الرائع المكسو بأحجار اللازوردي، والممتد باتساع الحوض.

قالت چينا: «بيت التنين، إنه يشبه تمامًا بيت التنين».

همس سبتيموس قائلًا: «صه! فقد يسمعنا أحد، فالأصوات يتردد صداها هنا».. وبهدوء، جدف نكو إلى الرصيف، وأوقف حركة الزورق. وعلى الفور، كان أولر قد قام بقفزة طائرة وهبط بصوت مكتوم على الأحجار الناعمة، وتبعته سنوري ثم چينا وسبتيموس ثم خرج نكو من الزورق ليربطه في أقرب مربط حبال، لكن سبتيموس اعترضه قائلًا: «لا يا نكو، ادفع الزورق ليعود إلى النفق، فهناك لن يستطيع أحد أن يراه، والآن هيا بنا».

وعلى مضض، دفع نكو الزورق في اتجاه النفق وراقبه وهو يطفو مبتعدًا، ثم قال لسبتيموس: «نحن هكذا نحرق مراكبنا ونقطع السبيل أمام أي فرصة للتراجع، أتمنى أن تكون مدركًا أبعاد ذلك».

40
الغرفة العظمى للكيمياء والطب



كانت *هناك ثلاث قناطر صغيرة في رصيف الكيمياء يفتح كل منها على طريق.* أخذ سبتيموس شمعة من شمعات الأسل من على حاملها، وهمس قائلًا: «من هنا، وخيرٌ لنا لو أسرعنا؛ فالرحلة من الرصيف هنا طويلة ومرهقة؛ لأن السبيل الوحيد لدخول الغرفة من هذا المكان هو عبر المتاهة».

صاحت چينا في دهش: «المتاهة! لكن... هل تعرف الطريق يا سِب؟».

همس سبتيموس قائلًا: «صه! أنت لا تحتاجين يا جين معرفة الطريق للوصول من خلال المتاهات؛ فهي تأخذك بنفسها إلى وجهتك. وكل ما عليك فعله هو أن تتبعي المسار إلى حيث يقودك، وسوف تجدين ضالتك بعد ذلك، سنأخذ المدخل المقنطر الأيسر».

«لكن... إلى أين يقود المدخلان المقنطران الآخران؟».

رد سبتيموس بنبرة غير مبالية: «إنهما يقودان إلى الهاوية العظمى للنار».

«ياه! جميل».

«لا تقلقي يا جين، فكل شيء سيكون على ما يُرام». لكن لم يبد عليها أنها اقتنعت.

أشار سبتيموس للجميع بالاقتراب. وبسكون، تجمعوا حوله بشيء من الهيبة فرضها عليهم ذلك الإحساس الغريب الأشبه بأنهم في مقبرة، وذلك الضوء الأزرق المخيف المترنح المتراقص الذي تعكسه أحجار اللازوردي.

قال سبتيموس بصوت خفيض: «دعونا نواصل الطريق الآن. لا بد أن نحتفظ بهدوئنا ولا نبتعد عن بعضنا.. فهناك أنفاق أخرى تفتح على هذا النفق، ولا نريد أن يسمعنا أحد فيتم القبض علينا. سنوري، أمسكي جيدًا في نمرك الأسود، افعلي أي شيء كي لا تدعيه يصدر أي زمجرة، فإذا رآنا أو سمعنا أي شخص، فلن يكون أمامنا أية فرصة للخلاص.. أفهمتم؟».

أومأ له الجميع برءوسهم، بينما انطلق من عيني أولر الخضراوين شرر، فربتت سنوري على ظهره ربتات خفيفة وهي تقول له: «اهدأ يا أولر، اهدأ».

وهكذا، تبع الجميع سبتيموس ومروا من أسفل المدخل المقنطر، وانطلقوا في صف واحد، وأولر يتبعهم بخطوات صامتة.

ولم تصدر كفوفه الضخمة اللينة صوتًا بينما كانوا يمرون متسللين عبر الفتحة الضيقة، لكن مع دخولهم المتاهة انطلقت شهقات اندهاش صامتة. وعكست شعلة شمعة الأسل التي يحملها سبتيموس أمامهم ومضات شاسعة تتلألأ بلون أزرق وذهبي؛ حيث إن المتاهة مبطنة من أسفلها لأعلاها بأحجار اللازوردي الموصولة ببعضها البعض بدقة، تتخللها شرائط ذهبية.

انطلق سبتيموس بخطوات مسرعة، وتابع الجميع خطاه بينما كانوا يسيرون متتبعين وميض أكثر أطياف اللون الأزرق بريقًا، يصاحبها ومضات ذهبية وأخرى خضراء داكنة. وقد أخذتهم المتاهة في بادئ الأمر عكس اتجاه المركز، وبعد عدة منعطفات أصبح الشك لا يساور جينا في أنهم يتوجهون نحو المركز. وازدادت زرقة أحجار اللازوردي عمقًا حتى بات تأثيرها منومًا، ووجدت جينا النعاس يتسلل إليها مع عدم قدرة عينيها على مواصلة التركيز من فرط ما استغرقت في النظر إلى الجدران الناعمة الزرقاء. وكانت بين حين وآخر تفيق من غفوتها الأشبه بالغيبوبة وتعود إلى اليقظة والانتباه كلما اعترض الجدار مدخل مقنطر مظلم، يشير إلى مدخل نفق يفتح على المتاهة. وهنا، كان سبتيموس يحد من سرعته، ويسترق السمع حتى يتبين إذا ما كانت هناك أصوات لخطوات أقدام، لكن الحظ كان حليفهم؛ لأنهم في ذلك الوقت كانوا قد

وصلوا إلى أواخر الليل، فالكتبة الكيميائيون من البشر أيضًا وهم يحتاجون أحيانًا إلى النوم.

ومثل قطيع صغير من الغنم المطيع، واصلت چينا ونكو وسنوري وأولر الليلي السير في خطى سبتيموس وسط ضوء السديم الأزرق وهم يقطعون طريق المنعطفات الطويلة البطيئة، ثم يعودون مرة أخرى من حيث أتوا، ليعودوا من جديد في قطع نفس طريق المنعطفات لكن في الاتجاه المعاكس، إلى أن شعروا بالدوار، خاصة نكو، واشتاقوا للخروج إلى مكان مفتوح مرة ثانية؛ وفي اللحظة التي كان نكو قد فقد فيها الأمل في أنه سيرى شيئًا آخر طوال حياته غير جدران زرقاء، كانوا قد وصلوا إلى مركز المتاهة، ووطئت أقدامهم أعتاب الغرفة العظمى للكيمياء والطب.

وهنالك، أطلق نكو صفارة انبهار قائلًا: «يا إلهي! هذا منظر مثير للدهش حقًا».

لكن سبتيموس ما عاد يرى الآن في هذه الغرفة أي نوع من الانبهار، فكل يوم يجلس على كرسي عرش الوردة المخصص له بجوار مارسيلوس الذي يتربع فوق كرسي عرش الشمس الذي يترأس مائدة تتوسط الغرفة، وأضحت كل هذه الأيام بالنسبة لسبتيموس أيامًا متشابهة لا تختلف عن بعضها، كل يوم منها ليس سوى يوم عمل جديد.

لكن بالنسبة لچينا ونكو وسنوري بدت الغرفة العظمى مكانًا يخلب العقول، ولقد كاد بريق الكم الهائل من الأسطح الذهبية اللامعة يعمي أبصارهم، والتي كانت تعكسه شعلة شمعة الأسل المتراقصة التي

يحملها سبتيموس، لكن ليست القطع الذهبية الصغيرة هي ما جذبت انتباههم، بل كتلتا الذهب الهائلتان اللتان تعترضان الحائط المقابل لمدخل المتاهة، واللتان تعتبران مصراعي الباب العظيم العابر للزمن.

همس سبتيموس وهو ينظر حوله في أنحاء الغرفة، خشية أن يكون هناك كاتب رابض فيها وسط الظلال: «هذا هو المكان الذي جئت منه».

كان الباب يكتنفه تمثالان كبيران بالحجم الطبيعي، يحمل كل منهما سيفًا حادًا ويقف في الجزء الغاطس من الحائط المكسو بأحجار اللازوردي.

أخذت چينا تحدق إلى الباب، وكانت تفكر في كلام سبتيموس عندما أخبرها بما يقبع خلف الباب -إنه اللوح الزجاجي الحقيقي العابر للزمن- وداهمها إحساس رهيب بالاشتياق للعودة إلى زمنها، مع عودة كل شيء كما كان؛ عودة سبتيموس إلى برج السحرة ومارشا، وعودة نكو إلى عمله في ساحة مراكب چانيت مارتن، وهي ستعود حينها إلى قصرها، فعلى الأقل سيكون القصر وقتها خاليًا من إيثلدريدا الحية، ويصبح مرة أخرى مكانًا ودودًا، يضم بين جدرانه سايلاس وسارة اللذين يواصلان تجولهما في أنحائه هنا وهناك، ويضلان الطريق من وقت لآخر.

قالت چينا: «لا بد أن تحصل على **المفتاح** يا سب.. لا بد».

نظر نكو، والذي يتسم بالتفكير العملي دائمًا، إلى الباب بعيني صانع المراكب، وقال: «أنا متأكد أننا نستطيع أن نجد وسيلة نفتحه بها. فهذه المفصلات تبدو ضعيفة».

رد سبتيموس قائلًا: «إنه ليس بابًا عاديًا. إنه **مغلق بمفتاح** مارسيلوس». لكن نكو لم يقتنع، فأخرج مفكه من جيبه. وما إن لامس المفك إحدى المفصلات حتى أشهر التمثالان سيفيهما في وجه نكو.

قال نكو معترضًا: «انتظرا! لا داعي لكل هذا الحماس»، ثم زمجر أولر فربتت سنوري على عنقه وسحبته بالقرب منها وهي تقول له: «صه يا أولر!»، لكن أولر الليلي رفع ذيله ذا الطرف البرتقالي كالقط المنزلي المضطرب، ونفش فرو عنقه.

ومما يثير العجب هو كيفية انتقال الأصوات خلال المتاهة، فالأصوات تجد طريقها على امتداد الطرقات حتى تصل إلى المركز في الغرفة هنا بوضوح تام كأن المتحدث يقف إلى جوارك لاسيما إن كان صوت المتحدث له خاصية اختراق الآذان كاختراق مثقاب الطبيب للأسنان، وهو ما جعل الجميع في الغرفة العظمى ينتفضون من فرط الذعر فجأة مع انجراف صوت الملكة إيثلدريدا إلى الغرفة، والتي كانت تقول: «لا يهمني أن أعرف شيئًا عن متاعبك يا مارسيلوس، أنا أريد الجرعة الآن. لقد انتظرت طويلًا. ولقد أثبتت أحداث هذه الليلة أنه ما عاد هناك مجال لتحمل الحمقى أكثر من ذلك، ولقد تحملت حمقك أكثر من اللازم. ياه! كم سيطول بنا السير في هذه المتاهة اللعينة بمنعطفاتها المرهقة؟».

«تستغرق كما تستغرق يا أمي».

مع صوت مارسيلوس الساخط تحفز سبتيموس كي يتحرك ويتصرف على الفور، فهمس قائلًا: «بسرعة.. إلى دولاب الأدخنة. سوف نضطر للانتظار إلى أن ترحل إيثلدريدا».

وفتح سبتيموس باب دولاب ضخم مقام في الجدار، وأطفأ شمعة الأسل.. وبوجود ضوء وحيد ينير لهم طريقهم يصدر عن خاتمه التنيني، انحشروا جميعًا في دولاب مفعم برائحة كريهة، ثم جذب سبتيموس باب الدولاب وأغلقه.

وبينما كان خاتمه يضيء، مُظهرًا ما ظنته جينا حبلًا أسود ملفوفًا موضوعًا على الرف في ظهر الدولاب، إذا به يقول: «يا للهول! لقد نسيت أن الأفعى هنا».

همست جينا قائلة: «أفعى؟».

«لا تقلقي، إنها ليست سامة إلى هذا الحد».

فسأله نكو الذي كان يقاوم رغبة جامحة لكي يفتح باب الدولاب وينطلق منه أيًا كانت عواقب ذلك: «وما إذن مدى سميتها على حد قولك؟».

لكنَّ أحدًا لم يسمع له ردًا. وكان هذا هو ما حتمه حضور الملكة إيثلدريدا.

41
القارورة



انغلق بـاب دولاب الأدخنـة فـي اللحظة التـي وطئت فيهـا القدم المدببة اليـسرى للملكـة إيثلدريـدا أعتاب الغرفـة العظمى للكيميـاء والطب. كان يتبعها عن قرب مارسـيلوس باي الذي لا يثق في أن يترك والدته ولو لثانية واحدة وحدها في الغرفة. بدا مارسـيلوس مرهقًا وأشـعث، بعد ليلة طويلة قضاها يبحث في القصر عن تلميذه والفتاة التي تصـر والدته على أنها الأميرة إيزميرالدا. كان مارسـيلوس لا يزال يرتدي العباءة الرسـمية الخاصة بأسـتاذ الكيمياء، وهي العباءة التي كان يرتديها

أثنـاء الوليمة، والتي يتناثر عليها الآن صلصـة البرتقـال. وكالمعتاد، كان يتدلى من عنقه مفتاح الباب العابر للزمن.

دخلت الملكة إيثلدريدا سائرة بخطوات واسعة، مرفوعة الرأس، يتبعها كائن الأي أي الذي كان يقعقع خلفها مع ركضه على أظافر أصابعه الطويلـة. نظرت المـلكـة حولـها بتعبير الاشمئزاز المعتاد الذي يكسو وجهها، وقالت: «بحق السماء يا مارسيلوس، إن الغرفة ذوقها رديء جدًا. ما كل هذا الذهب، أنا لا أكاد أجد سطحًا واحدًا أستطيع أن أوجه إليه بصري. إن المكان يبدو كدكان سمكري، والذي أعتقد أنك تشتري منه كل هذه التوافه الذهبية التي تشخشخ بها كأنها عربة محطمة».

بدا على مارسيلوس أن مشاعره قد جرحت من سباب والدته.. ثم أخذت إيثلدريدا تتشمم بنفور، وهي تقول له: «أنت مازلت عودًا أخضر يافعًا يا مارسيلوس. سآخذ الجرعة الآن قبل أن ينتهي مفعولها بسبب الأبخرة».

غلفت صوت مارسيلوس نبرة حازمة حين قال: «لا يا أمي، لن تأخذيها».

«بل سآخذها يا مارسيلوس. أراني الآن أشاهد الجرعة في الخزانة الزجاجية تنتظرني، أليس كذلك؟».

«إنها ليست لك يا أمي!».

ارتفع صوت إيثلدريدا إلى درجة غاية في الإزعاج، وهي تقول: «أعتقد أنك تماطلني يا مارسيلوس، لقد كنت دومًا طفلًا مخادعًا. لسوف آخذ الجرعة، سآخذها الآن». وهنالك، فتح كائن الأي أي فمه وأظهر سنه الطويلة الحادة، ثم أطلق صرخة تعاطفًا مع الملكة.

ومن داخل دولاب الأدخنة، ناح أولر الليلي؛ فصوت صياح الأي آي آذى أذنيه الحساستين إيذاءً بالغًا.

قالت إيثلدريدا لمارسيلوس بنبرة حادة: «إنك لن تخدعني».

«أنا لا أخدعك يا أمي».

«أنت تنوح مثل الأطفال الصغار».

قال مارسيلوس بتجهم: «قطعًا أنا لا أنوح يا أمي».

«بل تنوح، وأنا لن أسمح لك بذلك»، هكذا قالت إيثلدريدا بصوت وصلت نبرته المزعجة إلى آفاق بعيدة، وأثارت كائن الأي آي مرة أخرى، وهذه المرة أخذ الكائن يصرخ بلا توقف.

سد مارسيلوس أذنيه بأصبعين وصاح يقول لها: «بحق السماء يا أمي، أوقفي صراخ هذا الكائن، إن أذنيّ ستنفجران!».

لكن لم يكن لدى إيثلدريدا أية نية لأن توقف الكائن؛ إنه يزعج مارسيلوس، ولا بأس من ذلك. وظل الأي آي يصرخ ويصرخ كالقطة الحبيسة في قفص. وإذا كان الصوت قد أزعج مارسيلوس، فقد كان فوق الاحتمال بالنسبة لأولر الذي أطلق عواءً من فرط ألمه، وأخذ يتملص من قبضة سنوري. وإذا بالصرخة التالية تنطلق هذه المرة من إيثلدريدا نفسها من هول فزعها عندما انفتح باب دولاب الأدخنة وانطلق منه نمر أسود بفروة عنق منفوشة ومخالب بارزة وأسنان مكشوفة.

ولسوء حظه، اكتشف أولر أنه لم يهرب من الضجيج، بل أصبح في بؤرته، فكائن الأي آي ما إن رأى النمر الأسود حتى تسلق تنورة إيثلدريدا وواصل صراخه في مستوى أذن النمر، وشعر النمر بأن هناك من يثقب

أذنيه الكبيرتين. فانطلق يجري في أنحاء الغرفة، يريد باستماتة أن يتخلص من هذا الصوت، ثم اختفى بعد أن فر هاربًا إلى المتاهة.

صاحت سنوري وهي تنطلق خارج الدولاب تتعقب قطها العزيز: «أولر!»، وعبرت الغرفة جريًا بأقصى سرعة لها، غير آبهةٍ بمارسيلوس المذهول وإيثلدريدا المذعورة، واختفت هي أيضًا بعد أن انطلقت تتعقب بهلع آثار أولر في المتاهة.

ومن داخل الدولاب، شعر سبتيموس بأن عضلات نكو تشتد وتبرز، وعلم أن أخاه يريد أن ينطلق في أعقاب سنوري فأمسكه بقوة قبل أن يتحرك، ثم خيم صمت رهيب على شاغلي الدولاب الثلاثة المتبقين مع انفتاح الباب ببطء على مصراعيه، ليجدوا أنفسهم وجهًا لوجه مع مارسيلوس وإيثلدريدا.

قالت إيثلدريدا بصوت أجش بعد طول صراخها: «يا للهول! ما أغرب الكائنات التي تحتفظ بها في دولابك يا مارسيلوس! أظن أن الأميرة إيزميرالدا كانت تلعب لعبة (العسكر والحرامية) مرة أخرى. اذهب وأحضر هذه الطفلة يا مارسيلوس. لن أسمح لها بأن تعكر صفو حياتك مرة أخرى».

قال مارسيلوس لوالدته بتجهم: «إنها لا تعكر صفو حياتي أنا يا أمي. ولو كنت تعرفين ابنتك كما ينبغي أن تعرف الأمهات بناتهن – لأيقنت أن هذه الفتاة ليست إيزميرالدا».

ردت إيثلدريدا تقول: «ما أحمقك! فمن تكون إذن إن لم تكن إيزميرالدا؟».

«هذا هو ما ستخبرنا إياه بنفسها يا أمي»، ثم ابتسم مارسيلوس لسبتيموس ابتسامة ساخرة، وقال له: «أتمنى أن يكونوا قد دفعوا لك أجرًا مناسبًا مقابل خدمتك في القصر اليوم!».

هز سبتيموس له رأسه بخجل.

ثم أشار لهم مارسيلوس كي يخرجوا من الدولاب، وهو يقول لهم: «هلموا اخرجوا من هنا الآن. فالأفعى السوداء تنام هنا وأنتم تزعجونها. تذكر، لسوف نأخذ السم غدًا؛ لكي نضيفه إلى الصبغة».

صاحت إيثلدريدا: «أيها المارق! أنت تريد أن تسمم أمك!».

«كما سممت أنتِ ابنتيك المسكينتين يا أمي؟ لا تقلقي، بالطبع لن أفعل ذلك».

وبعد أن أيقنت إيثلدريدا أن نبرتها الحادة لن تصل بها إلى شيء، أبدلتها إلى نبرة رقيقة لطيفة لا ينخدع بها أي شخص، وعلى الأخص مارسيلوس، وقالت له: «أرجوك افتح الخزانة يا مارسيلوس، وأرني القارورة الزرقاء الجميلة، فأنا أتوق لأن أرى عن قرب المعجزات التي يصنعها أعز أبنائي».

قال مارسيلوس بمرارة: «ليس لديك سوى ابن واحد يا أمي، فليس من الغريب أن يكون هو الأعز إذا كان سيقارن بأبناء لا وجود لهم. رغم أني أشك في أنني سوف أظل أعز شيء عندك إذا ما شملت المقارنة كلاب الصيد الخاصة بك».

«أنت تشتكي وتتحسر على نفسك كما هي عادتك دائمًا يا مارسيلوس. أرجوك أرني القارورة حتى أستطيع أن أنظر إليها، إن شكلها جميل بكل هذا الذهب الذي يعلوها».

قال مارسيلوس منزعجًا بنبرة صوت إيثلدريدا الساخرة: «على الرغم من أن هناك ذهبًا عالقًا داخلها يا أمي، فإن زجاجها لا يعلوه من الخارج أي ذهب».

نفد صبر إيثلدريدا، وكالجُرذ الذي انطلق جريًا على امتداد ماسورة صرف، انطلقت كالصاروخ عبر الغرفة، وخطفت القارورة وهي تقول: «سوف آخذ هذه الجرعة يا مارسيلوس، قبل أن تلوثها بسم الأفعى السوداء. لن تمنعني من ذلك».

صاح مارسيلوس، وقد تملكه الفزع وهو يرى صبغته الثمينة على وشك الاختفاء في فم إيثلدريدا المفتوح: «لا يا أمي! إنها ليست جاهزة بعد. لا أحد يعلم ماذا سيكون تأثيرها».

لكن لم يكن في نية إيثلدريدا أن تخرق عادتها وتستمع إلى كلام ابنها، ولم تبالِ بتحذيره. وعلى الفور سكبت ما تحويه في فمها وابتلعته باشمئزاز، ثم تضاعف اشمئزازها من فرط الألم، وأخذت تسعل وتقيء. تلا ذلك ارتجاع الجرعة من معدتها، فسال ما ارتجع حول فمها، وغطى أسنانها بطبقة بدت مثل القطران الأزرق. وبإصرار، ابتلعت إيثلدريدا الجرعة مرة أخرى، ثم اعتدلت، وهي تستند إلى الطاولة بهيئة شاحبة ضعيفة جعلتها تبدو كأنها ملاءة تركتها خادمة الغسيل في السائل المبيض لمدة أطول من اللازم. أما كائن الآي آي، والذي لا يعلم شيئًا عن تأثير الجرعة على سيدته، فقفز على الدكة وتجرع القطرات المتبقية في قاع القارورة، ثم لعق شفتيه، وجمع بظفر طويل من أظافره أجزاء حول السطح الداخلي للقارورة آخر ما تبقى من المادة اللزجة.

كانت چينا ونكو ومارسيلوس يحدقون بذهول إلى هذا المشهد.

ثم قال مارسيلوس بهدوء: «ما كان ينبغي عليك أن تفعلي ذلك يا أمي».

ترنحت إيثلدريدا قليلًا، ثم أخذت نفسًا عميقًا، واستعادت رباطة جأشها، وإن كانت أسنانها ظلت تكسوها طبقة زرقاء لزجة، ثم قالت، بعد أن بدأت الصبغة تتسرب إلى أوعيتها الدموية، ويسري في عروقها طنين نشوة الإحساس بالقوة: «لن يمنعني أحد يا مارسيلوس، لسوف أحكم القلعة إلى الأبد.. إن هذا حقي وواجبي. ولن تأخذ أي ملكة أخرى مكاني».

همهم مارسيلوس قائلًا: «عليك ألا تنسي ابنتك إيزميرالدا يا أمي، فلا بد أنه سيأتي اليوم الذي تأخذ فيه مكانك، عندما يحين الوقت المناسب».

قالت إيثلدريدا معلنةً، وهي ترمق چينا بنظرة ملؤها الشر: «لن تأخذ إيزميرالدا أبدًا تاجي! أبدًا، أبدًا، أبدًا!». ومع تغلغل قوة مفعول الصبغة التي لم تُستكمل بعد إلى سائر أنحاء جسمها، اعتراها إحساس بأنها لا تُقهر، وبدأت الغرفة تتلون أمام عينيها، وأخذ ابنها المخادع يصغر حجمه، بينما باتت إيزميرالدا المملة المرهقة لا تعدو أكثر من مهمة لم تُستكمل بعد.

وأخفقت چينا التي شل حركتها منظر الجدة البشعة لوالدة والدة والدتها (وما بينهن من ذرية أخرى) بأسنانها الزرقاء وعينيها

المحدقتين، ولم يأت رد فعلها بالسرعة الكافية عندما امتدت يد إيثلدريدا فجأة كالأفعى وأمسكت ذراعها بقوة.

صاحت چينا، وهي تلوي ذراعها لتخلصها من الكماشة التي تقبض عليها، ولم يفلح ذلك إلا في زيادة شعورها بالألم، ثم ألقى كائن الآي آي القارورة على الأرض، وقفز على تنورات إيثلدريدا، ثم لف ذيله الثعباني حول عنق چينا لفة واثنتين وثلاثًا، إلى أن باتت چينا لا تكاد تستطيع التنفس.

هرع سبتيموس ونكو لإنقاذها، لكن إيثلدريدا طيرتهما بعيدًا كأنهما ذبابتان مزعجتان.

ومع اختفاء إيثلدريدا وكائن الآي آي في المتاهة وهما يجران چينا، هوى مارسيلوس على ركبتيه في حالة من اليأس بعد أن خسر صبغته، وفي غفلة منه نهض سبتيموس ونكو وانطلقا في المتاهة يتعقبان چينا.

صاح سبتيموس قائلًا: «سوف نصل إليها يا نكو، فمن المؤكد أنها لم تبتعد كثيرًا. لا يمكن أن تكون قد ابتعدت عن المنعطف الثاني».

لكنهما لم يعثرا عليها هناك، وواصل نكو وسبتيموس انطلاقهما جريًا بأقصى سرعة وسط السديم الأزرق السرمدي الممتد بطول الممرات، لا يريان أمامهما سوى الخواء.

42
النهر



صاحت *الملكة إيثلدريدا وهي تجر چينا إلى نفق مظلم يتفرع من المتاهة مباشرة:* «لسوف تأتين مع والدتك يا إيزميرالدا! لسوف تأتين معي، فنحن أمامنا رحلة تأخرنا عليها كثيرًا، أليس كذلك؟».

ولم يكن في وسع چينا الفرار من قبضتها مع التفاف ذيل كائن الآي آي بكل هذا الإحكام حول عنقها، حتى إنها كانت بالكاد تستطيع أن تأخذ أنفاسًا تمكّنها من مواصلة السير. وظلت چينا تُسحب مع توغلهم في أعماق ظلام النفق أكثر فأكثر. كانت الأرض تحت قدميها زلقة، وهبت رياح باردة على امتداد النفق تصاحبها رائحة الرطوبة المزعجة لمياه النهر.

وكانت القوة التي استمدتها إيثلدريدا من الجرعة، وانحدار الممر

للأسفل - يعنيان أن چينا كانت تتبع خطوات إيثلدريدا وهي تكاد تنزلق.

ولم يبد أن الظلام أزعج إيثلدريدا، فالملكة تعرف طريقها؛ لأن هذا المسار كثيرًا ما تستخدمه كي تتفحص ما يقوم به ابنها؛ ولذلك كانت تُسرع الخطى على امتداد النفق مثل زحلوقة سريعة انطلقت في مهمة. وبعد فترة بدت لچينا دهرًا، رغم أنها لم تزد على خمس عشرة دقيقة، خُيل إليها أنها ترى نورًا خافتًا للقمر - أم أنه بداية بزوغ الفجر؟ - وكان الضوء يلقي ببريق على سطح أرض النفق الجليدية الذي كان يُرى خلفه سواد النهر. وبعد لحظات قليلة، كانت هي وإيثلدريدا وكائن الآي آي قد خرجوا إلى الهواء الطلق، ووصلوا إلى مرسى صغير يبعد عن البوابة الجنوبية للقلعة ببضع مئات من الياردات على نحو التقريب في عكس اتجاه تيار النهر الذي تدفقت مياهه أمامهم بسرعة، داكنةً، وباردةً كالثلج. تراجعت چينا للخلف بعيدًا عن المياه، كان المرسى أيضًا باردًا كالثلج، وعلمت چينا أن الأمر لن يستغرق من إيثلدريدا سوى لحظة واحدة كي تدفعها في المياه.

همست الملكة، وهي لا تزال تحكم قبضتها على چينا قائلة بصوت كالفحيح: «أنتِ في أمان هنا حتى الآن يا إيزميرالدا. وأنا لن أسمح لأيٍّ من الخدم أن يعثر عليك طافيةً على سطح مياه المد المتدفقة بسرعة صباح غد، كما أني أود أن أجعلك تشاهدين إحدى عجائب بلادنا وهي الدوامة التي لا قاع لها عند الغدير البارد. لسوف أستدعي مركبتنا، ثم سنرحل على الفور؛ لأن والدتك ليست بهذه القسوة حتى تجعلك

تتأخرين هنا للحظة واحدة في الوقت الذي تنتظرك فيه كل هذه البهجة والمتعة». ومع هذه الكلمات، أخرجت الملكة صفارة ذهبية من جيب عميق من بين طبقات تنوراتها الحريرية التي كانت تواصل خشخشتها، وأطلقت ثلاث صفارات قصيرة مجلجلة. اخترق الجو قارس البرودة صوت الصفارة الخارق للآذان، وواصل طريقه إلى أن وصل إلى مرسى القصر، حيث أيقظ البحار الذي كان يغفو غفوات متقطعة على دكته الباردة كالثلج على متن المركب الملكي، وقد ترك كُوّته مفتوحة على آخرها؛ تحسبًا لمثل هذا الاستدعاء.

إلا أن صفارة إيثلدريدا لم تستدع البحار فحسب. ففي ظلال المرسى، كان أولر الليلي رابضًا ينتظر أن تعثر عليه سيدته، ومع إطلاق إيثلدريدا صفاراتها التي تخرق الآذان - تأذت أذنا أولر. وبأذنين يكاد يصمهما الألم، اندفع النمر الأسود خارج الظلام، وأطاح بالصفارة من فم إيثلدريدا فصرخت الملكة من فرط دهشتها، فحل كائن الآي آي ذيله من حول عنق چينا وقفز لنجدة سيدته، تاركًا چينا تستعيد حريتها وتتخلص من قبضة الملكة، ثم تنجو بنفسها بابتعادها عن حافة المياه.

ومع انزلاق إيثلدريدا على غير قصد على المرسى الزلق بسبب الثلوج التي تغطيه، سقط تاجها من فوق رأسها، وهوت هي في النهر بطرطشة كانت للدهشة خفيفة أنيقة. وهكذا، توقف الصراخ والفزع.. وفي لحظة، كانت الملكة قد اختفت أسفل سطح المياه، دون أن تترك على السطح أي أثر لها سوى بعض الفقاقيع التي تدل على مكان سقوطها. أما كائن الآي آي فقد انعطف واختفى في الظلام، وهو يهذي من فرط

الخوف، وآخر ما سمعته منه چينا هو صوت زحزحة بعض أحجار السور بينما كان يتسلقها منطلقًا إلى حياة حرة.

وبحرص شديد، زحفت چينا نحو حافة المرسى، ونظرت في أعماق المياه؛ لقد بدا لها استحالة اختفاء الملكة إيثلدريدا هكذا وبهذه البساطة، ثم نظرت خلفها لتتأكد من أنها لا تزحف نحوها من الخلف وعلى وشك أن تدفعها في المياه إلا أنها لم تر شيئًا، وعلمت أنها أصبحت في مأمن الآن. ومع طلوع الشمس خلف مجموعة ممتدة من السحب الوردية المنخفضة فوق أفق الحقول، تثاءبت چينا مع شعورها بالإجهاد والبرد، وتذكُرها فجأة أنها حتى وإن كانت قد سلمت من إيثلدريدا القاتلة فلا تزال تبعد خمسمائة عام عن زمنها.

ثم نادت على أولر كما كانت تسمع سنوري تفعل: «هيا يا أولر»، ثم التفت مولية ظهرها للشمس التي بدأت تشرق، ولدهشتها لم تجد أثرًا له حولها، وظنًا منها أنه عاد إلى النفق، التفت بجسم مرهق نحو مدخل النفق كي تتبع خطاها السابقة وتعود إلى الغرفة، فهل هناك مكان آخر سواها يمكنها أن تذهب إليه؟

ثم أخذ قط برتقالي غريب ذو ذيل أسود الطرف يفرك بجسمه في ساقها وهو يموء.

قالت له چينا، وهي تنحني للأسفل وتربت على ظهره: «مرحبًا أيها القط، ما الذي جاء بك إلى هنا؟».

بدا القط قد نفد صبره بعض الشيء، وواصل مواءه.

وفجأة، تذكرت چينا، وهمست قائلة: «أولر».

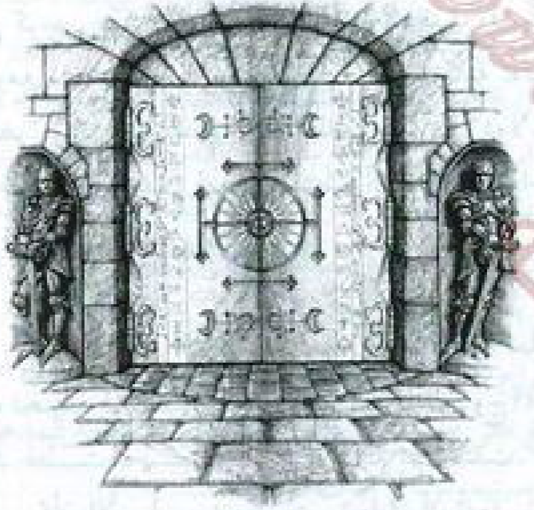
رد بمواء آخر، ثم انطلق القط البرتقالي عائدًا إلى النفق المظلم الزلق، وتبعته چينا وهي تسير بصعوبة، مع شعورها بالإرهاق والبرد.

وفي الوقت الذي كانت چينا تبتعد فيه عن المرسى، كان المركب الملكي ينعطف عند منعطف النهر - وعلى متنه ثمانية جدافين عيونهم يملؤها النعاس يرتجفون من شدة البرد ولا يقوون على الحركة، بينما اصطكت أسنان البحار المتجمد، والتصقت يده بذراع الدفة الباردة كالثلج. بدا المركب رائعًا في ضوء فجر الشتاء بشموعه التي أُضيئت على عَجلٍ وراحت تشتعل ساطعة عند الكوات، وبظُلته الملكية الحمراء التي كانت تتحرك برفق مع حركة المركب، وبأشكاله الحلزونية المطلية باللون الذهبي التي أخذت تتلألأ في ضوء شمس صباح الشتاء بأشعتها الطويلة المنخفضة. أما داخل القمرة فكانت هناك مائدة مجهزة بأباريق من النبيذ المختمر المتبل، وبطبق من البسكويت الشهي، وأحاطت بالمائدة مقاعد وثيرة مغطاة بأبسطة ووسائد ذات لون أحمر ملكي، وتوسط القمرة موقد صغير تشتعل فيه متوهجةً أخشاب أشجار التفاح والأعشاب العطرية التي ملأت القمرة بعبير دافئ ودود ومرحب.

لكن ما عاد هناك من يُستقبل بترحاب على متن المركب.. ومع اقتراب المركب الملكي من المرسى المهجور، لم يكن البحار ولا الجدافون يدرون أن أسفل عارضة المركب قبع جسد الملكة إيثلدريدا الذي كان يجذبه للأسفل ثقل تنوراتها السوداء الثقيلة، طافيًا بارتفاع لا يزيد على عدة بوصات فوق سطح القاع الموحل للنهر.

43

الباب العظيم العابر للزمن



شق *قط برتقالي صغير طريقه وهو يمشي الهوينَى* في النفق الذي يفتح على المرسى الملكي حتى وصل إلى المتاهة.

شهق نكو قائلًا: «أولر!».

فحذره سبتيموس بقوله: «صه!».

رفع نكو القط، ثم همس في اتجاه النفق قائلًا: «سنوري؟» لكن چينا كانت هي التي بزغت من وسط ظلام النفق وليست سنوري.

* * *

وفي الغرفة العظمى للكيمياء والطب قبع مارسيلوس باي وحده.. كان جالسًا على كرسي عرش الشمس على رأس المائدة، وقد أطرق برأسه بين يديه. ومع سماع مارسيلوس وقع أقدام في المتاهة تقترب، تملكه الهلع. فانتفض واقفًا على قدميه، ثم انطلق جريًا إلى دولاب الأدخنة وأغلق بابه عليه وهو يرتجف؛ فهو لن يستطيع أن يقف في مواجهة والدته، على الأقل في الوقت الحالي.

انتقل همس نكو من النفق إلى الغرفة العظمى وهو يقول: «ماذا تقصدين أنها سقطت فحسب في المياه يا جين؟ ألم تحاول الخروج؟».

«لا، لقد غطست فحسب وخلفت طرطشة ثم اختفت. كان المنظر غريبًا، كأن... كأن الأمر لم يزعجها حتى تحاول أن تفعل شيئًا؛ إذ بدا وكأنها كانت ترى أن الموضوع لا يستحق المحاولة».

قال سبتيموس: «في الحقيقة، إن الموضوع لن يستحق أي محاولة إذا رأى المرء أنه سيعيش إلى الأبد؟».

ومن داخل دولاب الأدخنة، سمع مارسيلوس كل كلمة كانوا يهمسون بها، وبدأ يُدرك أنهم يتحدثون عن والدته.

كانت چينا لا تزال ترتجف من منظر غرق جدة والدة والدتها (وما بينهن من جدات أخريات)، وقالت: «لكني لم أتمنَّ لها الموت، فعلًا، أنا لم...».

شهق مارسيلوس، وتشبث برف يتكئ عليه.. ماتت؟ أمه ماتت؟

ثم انطلقت صرخة من داخل الدولاب فجأة، وانفتح الباب مصطدمًا بالجدار، فانتفض شاغلوه السابقون من فرط الفزع وهم يرون مارسيلوس باي يهرع خارج الدولاب، وبين إبهامه وسبابته أفعى سوداء طويلة يمسكها من خلف رأسها مباشرة. كان فم الأفعى مفتوحًا، ويتساقط من نابه سُم على مقدمة رداء مارسيلوس الأسود. شهق مارسيلوس وقال: «سحقًا! إنها وحش شرير»، وأسرع إلى الطاولة التي كانت تقبع عليها القارورة التي احتوت على صبغته حتى وقت قصير، ثم رفع غطاء برطمان كبير ليلقي الأفعى فيه، وصفق الغطاء.

وبينما راح ينظف بحرص شديد السم الذي علق بردائه - والذي كان له تأثير بالغ على صلصة البرتقال - تفحص مشاهديه المذهولين، وقال: «أرجوك يا سبتيموس، لا تهرب من هنا».

تنهد سبتيموس.. إن مسألة قطع الطريق على مارسيلوس باتت أصعب بكثير الآن. لقد بادر مارسيلوس وقطع هو الطريق عليهم. سحب سبتيموس كرسي عرش الوردة، وأجلس عليه چينا التي بدت شاحبة ويعلو عنقها بعض العلامات الحمراء، أحدثها ذيل كائن الآي أي. رفعت چينا القط، وهي لا تزال مهزوزة، واحتضنته بين ذراعيها سعيًا لأن تهدئ من روعها. أما نكو، والذي كان يشعر بالارتياب تجاه مارسيلوس، فظل منزويًا بعيدًا في الخلف، لكن سبتيموس، وكعادته عندما لا يكون لديه عمل يقوم به في الغرفة، توجه إلى أحد مقاعد الكتبة الخشبية وجلس،

ثم تثاءب.. فما هي إلا ساعات معدودة من الآن وسوف يبدأ يوم عمل جديد في غرفة الكيمياء **والطب**، ويبدأ الكتبة المبكرون في الوصول.

انتقل تثاؤب سبتيموس إلى مارسيلوس، فقد كانت هذه الليلة طويلة وصعبة، ثم جلس على رأس المائدة على كرسيه العظيم ذي المسند العالي، وراح يحملق في چينا وسبتيموس مستغرقًا في التفكير؛ إذ كان هناك موضوع يريد أن يتناقش فيه معهما.

ظل نكو منزويًا في الخلف بعيدًا عن المائدة؛ فهو يأبى أن ينخرط في أيٍّ من هذه الحوارات الدائرة في جو من الدفء والراحة مع هذا الرجل الذي يعتبره خاطف سبتيموس. وبدا له أنه يستطيع بسهولة أن يباغت مارسيلوس ويتغلب عليه، متصورًا أنه بالعضلات التي اكتسبها مؤخرًا بالعمل في ساحة المراكب، يستطيع أن يواجه أي شخص، لا سيما إن كان كيميائيًا ونحيلًا هزيلًا، يبدو عليه كأنه استنشق كميات أكثر من اللازم من دخان الزئبق. كان الشيء الوحيد الذي يمنع نكو هو سنوري.. تُرى، أين هي؟ وما الذي يستطيع أن يفعله الآن؟ فأخذ يحوم في الأنحاء، ومن فرط استغراقه في التفكير، لم تلتقط أذناه العرض الذي قدمه مارسيلوس باي لسبتيموس.

وعند انتهاء الحوار الذي دار بين مارسيلوس وسبتيموس، كان كلاهما يبتسم. وبعد أن تم اتخاذ القرار، رجع مارسيلوس للخلف على كرسيه واستند إلى ظهره.

وفي تلك الأثناء، كان نكو أيضًا قد اتخذ قراره؛ سوف يأخذ **المفتاح**، فإما الآن وإما فلا. وفي لحظة، مستخدمًا المهارات التي تعلمها من روبرت جرينج، كان قد انقض على مارسيلوس من الخلف وأمسكه بقوة من حلقه.

ثم صاح يقول: «خذ **المفتاح** يا سِب.. بسرعة!».

«آآآه!».

غمغم مارسيلوس متألمًا، وهو شبه مختنق، حيث كان نكو يلوي بعنف السلسلة السميكة التي يتدلى منها **المفتاح**.

صاح سبتيموس، وقد بدأ لون مارسيلوس يتحول إلى أرجواني مزعج: «لا يا نكو!».

«لا بد أن نفعل ذلك الآن»، ثم لوى السلسلة مرة أخرى، وواصل قائلًا: «إنها آخر فرصة لنا»، ثم لوى مرة أخرى، وقال: «هيا يا سِب، ساعدني»، ثم لوى بقوة أكبر فبدأت عينا مارسيلوس تجحظان، وبدا منظره أشبه ببعض الضفادع الأرجوانية المحفوظة في الخل على الرف العلوي في دولاب الأدخنة.

هتف سبتيموس: «لا يا نكو!» ثم سحبه بعيدًا، وانهار مارسيلوس لاهثًا، مستندًا إلى ظهر كرسيه.

كان نكو يستشيط غضبًا، وقال لسبتيموس: «لماذا فعلت ذلك أيها الأحمق؟».

رد سبتيموس عليه قائلًا: «لقد عرض **المفتاح** علينا توًا أيها الأبله، وسوف يتركنا نرحل، أو هذا ما كان سيفعله».

صبت چينا كوبًا من الماء لمارسيلوس من إبريق يقبع على المائدة، أخذ مارسيلوس منها الكوب بيد مرتجفة وشربه، ثم قال لها: «أشكرك يا إيزمير... أقصد چينا. أرجوك، تناولي أنتِ أيضًا بعض الماء، أعتقد أنك تحتاجين إلى الماء مثلي تمامًا»، ثم التفت إلى سبتيموس وقال: «والآن أيها التلميذ، أمازلت ترغب في الرحيل عبر الباب العظيم؟ فربما لو بقيت معنا في زماننا سوف يكون لك أصدقاء أقل عنفًا».

رد سبتيموس قائلًا: «نعم، مازلت أرغب في ذلك، كما أنني أرغب في اصطحاب أصدقائي معي».

«حسنًا، إذا كانت هذه هي رغبة أصدقائك - على الرغم من أن هناك خطرًا مجهولًا أن يمضي بك اللوح الزجاجي إلى زمن مستقبلي ليس زمنك، فكل الذين رحلوا لم يعودوا قط بعد ذلك، وهذا هو السبب في أن هذا الباب يتم حراسته في كل الأوقات»، ثم وقف مارسيلوس ونظر إلى سبتيموس نظرة جادة وقال له: «هل اتفقنا؟».

رد سبتيموس قائلًا: «أجل».

قال مارسيلوس: «أنا أثق بشخصك أكثر مما أثق بأي شخص آخر، أكثر حتى من عزيزتي برودا. إن حياتي بين يديك أيها التلميذ».

فأومأ له سبتيموس برأسه.

همس نكو الذي لم يعجبه ذلك قائلًا: «ما الذي يحدث هنا يا سِب؟».

رد سبتيموس عليه قائلًا: «إنه يتحدث عن موضوع اقتران الكواكب السبعة».

«اقتران ماذا؟».

«إن مارسيلوس لا يستطيع أن يصنع صبغة أخرى - صبغة يكون لها مفعول - إلى أن يحدث اقتران الكواكب السبعة».

«إذن، هذا من سوء حظه، لكن ما شأننا نحن بذلك؟».

«إنه سيحدث غدًا».

«هنيئًا له».

«إنه سيحدث غدًا، في زماننا نحن».

هز نكو كتفيه؛ فهو لا يفهم ما علاقة الكواكب برحيلهم.

«لقد وعدته أن أصنع له صبغة في زماننا نحن يا نكو. غدًا في وقت اقتران الكواكب. وأنا في إمكاني أن أصنعها بحيث تجعل مارسيلوس يبدو شابًا في زماننا، وليس في زمنه هو فقط، أنا متأكد أني أستطيع».

فسأله نكو الذي علاه الذهول: «هل سيأتي معنا؟ لكنه خطفك».

«لا، لن يأتي معنا، فهو أساسًا هناك، لكنه مسن هرِم ومريض للغاية. وأنا أحاول أن أصلح الأمر. والآن، كفاك أسئلة، ألا تريد العودة؟».

في حقيقة الأمر، كان نكو يتلهف للعودة - لكن ليس من دون سنوري، ولقد ظل ينظر إلى مدخل الغرفة العظمى؛ آملًا أن يجد سنوري تدخل الغرفة مسرعة، بوجه شاحب، وشعر متطاير، وعينين لامعتين، وحينها سيمكنه أن يبشرها بأنهم سيعودون جميعًا إلى زمنهم.

أخذ مارسيلوس المفتاح من حول عنقه، متفحصًا الحلقات الملتوية التي كاد نكو يكسرها، ثم توجه إلى الباب العظيم، وبدأ يُعد تجهيزات فتحه، ثم أغمد التمثالان سيفيهما، وانحنيا برأسيهما عندما وضع

مارسيلوس **المفتاح** في ثقب يتوسط الباب. وفي أعماق الباب نفسه، سمع سبتيموس صوتًا جعل شعر رأسه يقف، إنه صوت قعقعة القضيب الداخلي المصاحب لتحركه، وكانت آخر مرة سمع فيها هذا الصوت عندما انغلق الباب خلفه منذ مائة وتسعة وستين يومًا.

وببطء وهدوء، انفتح الباب على مصراعيه، يصحبه وميض كتلتيه الذهبيتين في ضوء الشموع مع انفراجهما، مفصحين عن السطح الداكن للوح الزجاجي الذي ينتظر بصبر خلفهما. كان سبتيموس قد نسي مدى العمق الذي بدا عليه اللوح الزجاجي. ومع تحديقه إلى أعماقه، شعر أنه يقف على حافة شديدة الانحدار. وخالجه إحساس مألوف بالدوار جعله يترنح.

قال مارسيلوس: «وداعًا يا سبتيموس، وأشكرك كثيرًا».

رد سبتيموس قائلًا: «أنا أيضًا أشكرك لكل ما تعلمته منك في **الطب**».

قال مارسيلوس لدهش سبتيموس وهو يناوله **المفتاح**: «والآن، خذ هذا معك، لسوف يفتح اللوح الزجاجي الموجود عند أعلى السلم المكسو بأحجار اللازوردي، وهو المكان الذي لا بد أن تخرج منه لتعود إلى زمنك .. **والمفتاح** ملك لك الآن وسأصنع واحدًا آخر لنفسي. لسوف أضع صندوقك **الطبي** أسفل علامة الوردة الموجودة في دولاب المعاطف الذي يكتنف أعلى درجات سلم مدخل برج السحرة. أحسن استخدامه، فلديك الموهبة التي تجعل منك طبيبًا عظيمًا».

رد سبتيموس وهو يعده قائلًا: «سأفعل»، ثم أخذ **المفتاح** ووضعه حول

عنقه. بدا له **المفتاح** ثقيلًا وكان لا يزال دافئًا بفعل حرارة يد مارسيلوس، ثم سأل: «لكن كيف سأجلب لك الصبغة؟».

«لا تخف، فأنا لن أطلب منك أن تجلبها لي من خلال اللوح الزجاجي. إنني أدرك مدى الفزع الذي ينتابك منه. ما عليك إلا أن تضع الصبغة في صندوق ذهبي يحمل علامة الشمس ثم تلقيه بعد ذلك في الخندق المائي بجانب منزلي. ولسوف أعثر عليه».

فسأله سبتيموس: «لكن كيف سأعرف أنك عثرت عليه؟».

«ستعرف ذلك عندما تجد السهم الذهبي **للطيران** الذي رأيته وأنا مسن، فسوف أضعه لك في المقابل في الصندوق الذي ستلقيه. هل أنت صياد؟».

رد سبتيموس بحيرة: «لا».

ضحك مارسيلوس وقال: «أعتقد أنك سوف تكون صيادًا.. سيكون السهم الذهبي **للطيران** تعبيرًا عن امتناني لك، ولسوف يمنحك إحساسًا رائعًا بالحرية».

همهم سبتيموس قائلًا: «لقد كان كذلك قبل أن تأخذه أنت».

لم يسمع مارسيلوس هذه الجملة؛ لقد وجه اهتمامه إلى چينا وكان يقول لها: «لا تخشي أن تواصل والدتي **مطاردتك** في زمنك. **فعلى** الرغم من أنها شربت من صبغتي التي بحالتها هذه غير المكتملة قد تمنح لروحها بعض الوجود الملموس - فإنها لن تثير لك المتاعب، ولسوف أقوم أنا والساحر الأعظم **بإدخالها** إلى لوحتها الزيتية. أعتقد أيضًا أني سوف أصطاد كائن الأي أي، ألم يشرب هو أيضًا من صبغتي.. فهو كائن

سام إلى أقصى حد وينقل بعضته مرض الطاعون، وكانت أمي تستخدمه لإرهاب من لا يروقونها. إن هذا هو ما قررته يا چينا، لسوف **أدخلهما** إلى اللوحة الزيتية وأغلق عليهما **غلقًا محكمًا** في غرفة لن يستطيع أحد العثور عليها».

شهقت چينا قائلة: «لكن أبي **أبطل مفعول الغلق المحكم** للغرفة».

لم يرد مارسيلوس عليها؛ إذ كان هناك شيء في المرأة قد لفت انتباهه.

سألها سبتيموس قائلًا: «أبي فعل ماذا؟».

«هو وجرينچ **أبطلا مفعول الغلق المحكم** للغرفة التي كان فيها بورتريه إيثلدريدا. هل تتذكر هذا البورتريه؛ إنه ذلك البورتريه الذي رأيناه معلقًا في الممشى الطويل ...».

قاطع صوت مارسيلوس چينا، وبنبرة هلع واضحة تمامًا قال لهم: «أرجوكم تعجلوا.. إن اللوح الزجاجي أصبح غير مستقر، وأستطيع أن أرى الآن شروخًا تظهر في الأعماق. أخشى أنه لن يتحمل أكثر من ذلك، إما أن ترحلوا الآن، وإما لن ترحلوا أبدًا».

وفي أعماق اللوح الزجاجي، رأى سبتيموس ما رآه مارسيلوس؛ لقد رأى خلف دوامات الزمن التي كانت تدور ببطء وتمتد إلى أعماق بعيدة – بداية ظهور شروخ حول أطراف اللوح. إذن، إما الآن وإما فلا.

صاح سبتيموس: «لا بد أن نرحل في الحال!»، ثم أمسك چينا بيد ونكو بالأخرى وركض نحو اللوح الزجاجي.

وفي آخر لحظة، ابتعد نكو وقال: «لن أرحل بدون سنوري».

قال سبتيموس باستماتة: «نكو.. لا بد أن تأتي معنا، لا بد».

ثم قال مارسيلوس بنبرة يملؤها القلق: «إن اللوح الزجاجي لن ينتظر. ارحلوا قبل فوات الأوان».

صاح نكو: «ارحلا أنتما الآن! سأراكما لاحقًا، أعدكما بذلك!» وبهذه الكلمات، انطلق نكو من الغرفة العظمى للكيمياء **والطب**».

فصاحت چينا: «لا يا نكو، لا!».

فقال لها سبتيموس: «هيا يا چينا، لا بد أن نرحل الآن».

فأومأت له چينا برأسها، وفي صحبة قط برتقالي صغير، خطت هي وسبتيموس داخل اللوح الزجاجي وسارا في البرودة السائلة للزمن.

44
اللقية



وانغلق *مصراعا الباب العظيم* بصمت خلفهم.

بدأت چينا تنهنه قائلة: «نكو.. نكو!».

قال لها سبتيموس بنبرة مجهدة: «لا فائدة من ذلك يا چين، إنه يبعد عنا الآن بخمسمائة عام».

وهنا نظرت چينا إلى سبتيموس غير مصدقة. لقد توقعت أنها ستخرج من اللوح الزجاجي إلى القلعة مباشرة، لا أن تجد نفسها في نفق قذر مضاء بكرات زجاجية غريبة. فقالت: «ماذا قلت؟ أتقصد أننا عدنا بالفعل.. هل عدنا إلى زماننا؟!».

فأومأ لها برأسه وقال: «لقد عدنا الآن يا چين، هذا هو الطريق القديم. إنه فعلًا قديم جدًا جدًا، وهو يمتد إلى أعماق سحيقة، حتى أسفل الأنفاق الجليدية».

فسألته چينا بنبرة مجهدة: «أين هو إذن مارسيلوس المسن؟ أتعتقد أنه سيكون في انتظارنا بما أنه يعلم أننا قادمان؟».

«إن خمسمائة عام مدة طويلة على أن يتذكر فيها إنسان موعدًا يا چينا. لا أعتقد أنه بات يدرك أي شيء مما يحدث حوله. سيكون في مكان ما هنا. هيا بنا نحن الآن، فلنخرج من هنا».

وبهيئة الرحالة المتمرس، انطلق سبتيموس في الطريق القديم، بينما كانت چينا المتشبثة بأولر تسير مجهدة خلفه. وشقت چينا وسبتيموس طريقهما على امتداد الطريق في صمت، كل منهما مستغرق في أفكاره المتعلقة بنكو.

وبعد فترة تحدثت چينا قائلة: «إذا حدث وعاد نكو **مخترقًا** اللوح الزجاجي، فكيف سيتسنى له أن يجد طريق العودة؟».

رد سبتيموس بنبرة بدا عليها التفاؤل أكثر مما كان يشعر به حقيقة، متذكرًا يومًا ليس ببعيد عندما التبس على نكو الأمر واعتبر نملة مدهوسة على خريطة أنها ممر وضلا الطريق على إثر ذلك في الغابة: «سيعثر نكو على الطريق، فهذا هو ما يفعله دائمًا».

قالت چينا: «وستوري.. لقد أحببتها فعلًا».

رد سبتيموس: «نعم، ونكو أحبها أيضًا، وهذه هي المشكلة».

ظل أولر، طوال ذلك الوقت، ساكنًا لا يُصدر أي صوت. واكتفى القط البرتقالي الصغير ذو الذيل أسود الطرف بالمكوث بهدوء بين ذراعي چينا، بينما روحه في مكان آخر؛ مع سيدته في زمن بعيد.

وبعيدًا عنهم بمسافة زمنية تبلغ خمسمائة عام، كانت سنوري سنوريلسن تجلس على ضفة نهر تائهة وبائسة، لكنها رأت وهي تنظر أمامها إلى مسافة ليست ببعيدة الطريق القديم والصفوف الطويلة لكرات النار الأبدية، ورغم أنها لم تُدرك حقيقة ما تراه، كانت تعلم أن ما تشاهده تراه بعيني أولر.

كان الجو قارسًا في الطريق القديم، وشدت چينا وسبتيموس معطفي مساعدي الطهاة اللذين يرتديانهما ليتلحفا بهما بإحكام، لكن ظل البرد رغم ذلك يتسرب إلى جسديهما ويجعلهما يرتجفان. كانت حواف المعطفين بقماشهما الخشن تحتك بالرصيف العريض الأملس طوال الطريق، وهي تخشخش خشخشة خافتة ملأت الأجواء بأصوات أشبه برفرفة أجنحة الوطاويط وقت الشفق.

كان مارسيلوس ينتظرهما عند نهاية السلم المكسو بأحجار اللازوردي، يستند مسترخي الأطراف إلى الأحجار، ويغمض عينيه الغائرتين. انتفضت چينا فزِعةً من منظر الرجل العتيق، وضغطت على أولر بين أحضانها بشدة.. بشدة جعلت سنوري تشهق في زمن آخر من الألم المفاجئ الذي ألم بقفصها الصدري.

همست چينا قائلة: «إنه ليس ميتًا، أليس كذلك؟».

أجابها صوت مهزوز قائلًا: «ليس بعد، رغم أنه ليس هناك فرق كبير في حقيقة الأمر». ولعق مارسيلوس شفتيه الجافتين، ثم حدق إلى سبتيموس، وكأنه يحاول جاهدًا أن يتذكر شيئًا، ثم قال وهو ينظر إليهما بعينين مترشحتين: «أأنت الفتى الذي معه الصبغة؟» ووجد سبتيموس وهو ينظر إلى هذا المسن أنه لا يزال يرى في عينيه لمحة من تعبيرات مارسيلوس الشاب.

رد عليه سبتيموس قائلًا: «سوف أصنعها غدًا في موعد اقتران الكواكب السبعة ألا تتذكر؟ لقد قلت لي أن أُسقطها في الخندق المائي داخل صندوق ذهبي يحمل علامة الشمس؟».

زمجر المسن قائلًا: «وما لي أنا والشمس؟».

قال سبتيموس متحليًا بالصبر: «سوف أضعها في الصندوق كما اتفقنا و... أتتذكر؟ وسوف أعلم أنك أخذتها عندما تضع مكانها **الوصفة السحرية للطيران** لتعيدها إليّ!».

ابتسم مارسيلوس، وبرقت سنه الأثرية بلون أحمر وسط ضوء شعلات الكرات الزجاجية، ثم قال: «لقد تذكرت الآن يا سبتيموس، فأنا لا أنسى وعودي. وبالمناسبة، هل أصبحت صيادًا للسمك؟».

هز سبتيموس رأسه.

ضحك مارسيلوس وقال: «أعتقد أنك سوف تصبح صيادًا».

ثم قال له سبتيموس: «وداعًا يا مارسيلوس».

«الوداع يا سبتيموس، لقد كنت تلميذًا مجتهدًا. الوداع أيتها العزيزة.. إيزميرالدا». ومرة أخرى، أغمض الرجل العتيق عينيه.

وقالت له چينا: «الوداع يا مارسيلوس».

وأخيرًا، وصلا إلى أعلى السلم الطويل الحلزوني المكسو بأحجار اللازوردي، وأصبحا وجهًا لوجه مع اللوح الزجاجي. تذكر سبتيموس المرة السابقة عندما وقف أمامه، وكان من الصعب عليه الآن أن يصدق أنه سيستطيع هذه المرة أن ينفذ منه. نظر إلى اللوح الزجاجي، وهو بالكاد يجرؤ على وضع **المفتاح** في الثقب الذي يعلوه، ثم أدرك أن هذا اللوح يختلف عن اللوح الزجاجي الحقيقي العابر للزمن؛ فهو لا يوحي بهذا الإحساس بالدوار الذي يثيره منظر الأعماق التي تظهر على سطح اللوح الزجاجي الآخر، ولا تظهر عليه الأشكال المعقدة للزمن التي تواصل دورانها كالدوامة - بل بدا هذا اللوح الزجاجي كئيبًا وخاويًا، لا يعدو أكثر من كونه بوحًا زجاجيًا مفضضًا تفضيضًا وضيعًا.

همس سبتيموس قائلًا: «حان الوقت للعودة إلى القلعة».

فسألته چينا قائلة: «إذن.. هل كل ما علينا أن نفعله الآن هو أن ننفذ من خلال هذا اللوح ثم نجد أنفسنا بعد ذلك في غرفة الملابس؟».

«أعتقد ذلك. هيا بنا»، ثم أمسك سبتيموس يد چينا، لكنها قاومته، وأخذت تنظر خلفها. فقال لها سبتيموس بهدوء: «إن نكو لم ينفذ من خلال اللوح الزجاجي الآخر عند مارسيلوس يا چينا. لقد كنت أسترق السمع بحثًا عن صوته طوال الطريق، وهو ليس في النفق. ليس هناك أي صوت لدقات قلب بشري في الطريق القديم فيما عدا صوت قلبي وقلبك، وكل نحو خمس دقائق، صوت دقات قلب مارسيلوس».

ثم وضع سبتيموس يده بحذر على اللوح الزجاجي، فاخترقته بسهولة كما لو كانت تخترق ماءً مثلجًا في إناء، ثم قال برفق: «هيا بنا يا چين».

أمسكت چينا يده، وتابعت خطاه وهو يدخل في المرآة، ثم خرجا أخيرًا إلى عالمهما الذي ينتميان إليه.

واستقبلتهما صرخة تخرق الآذان انطلقت من مارشا التي قفزت من مكانها بعد أن كانت تجلس إلى المائدة في الغرفة الهرمسية، وسقط من يدها كتاب ضخم به جداول حسابية مصطدمًا بقدمها. وعلى الفور، كانت چيلي دچين قد أتت جريًا إلى الغرفة، وقالت لاهثة، وهي تبرز من الممر ذي اللفات السبع وتدخل الغرفة الهرمسية: «ما الأمر يا مارشا؟ إن الصياد أمسك الجرذان كلها أمس، لقد وعدني بذلك، لا يمكن أن يكون هناك أيٌّ منها.. ياه! بحق السماء، اللوح الزجاجي!».

صاحت مارشا قائلة، وهي تركل جداول الحسابات بعيدًا وتهرع إلى اللوح: «سبتيموس! يا إلهي! سبتيموس! سبتيموس!»، ثم احتضنت سبتيموس المنبثق من اللوح الزجاجي وأخذت تتأرجح به وهو بين ذراعيها، وسط اندهاشه التام، فمارشا لا تعانق أحدًا أبدًا.

راقبت چينا المشهد، وقد أسعدها أنها تمكنت أخيرًا من إصلاح الضرر الذي ألحقته بسبتيموس، ثم تذكرت نكو فأجهشت بالبكاء.

رفـع واحـد وعشـرون وجـهًا أبـصارهم في المكتب الداخلي لدار المخطوطات، ونظروا إلى الأميرة وهي تسير بعينين غارقتين في الدموع، حاملة قطًا برتقاليًا هزيلًا، وإلى فتى مشعث، أقرب الشبه بتلميذ الساحرة العظمى - رغم استحالة أن يكون هو؛ لعلم الجميع أن الساحرة العظمى

لا يمكن أن تسمح له بأن يترك شعره بهذا الشكل - وهما يخرجان بهدوء من الغرفة الهرمسية مع الساحرة العظمى. لم يكن أحد قد رآهما أثناء دخولهما، لكن بعض الكتبة القدامى تعودوا مثل هذه الأمور. فليس كل من يدخلون الغرفة الهرمسية يخرجون منها، وليس كل من يخرجون منها كانوا قد دخلوها أساسًا. ولاحظ الكتبة أيضًا أن الساحرة العظمى كانت مبتسمة، وهذا بكل تأكيد لم يكن حالها أمس عندما دخلت الغرفة، فمعظم الكتبة في واقع الأمر يعتقدون أن الساحرة العظمي، كجزء من عملها، غير مسموح لها بالتبسم، وهو ما أصابهم جميعًا بالذهول عندما رأوها مبتسمة. لكن أيًا كان هذا الذي كان يفكر فيه كل كاتب منهم في تلك اللحظة، فقد كفوا جميعهم فجأة عن تفكيرهم في ابتسامة مارشا مع سماعهم صوت اصطدام قوي، كسر ذلك الصمت المعتاد الذي يُسمع فيه دبة النملة في المكتب الداخلي - وكسر أيضًا الزجاج الأمامي لنافذة مكتب الاستقبال.

وإذا بفوكسي الذي حل مكان بيتل، بعد أن نُقل الأخير على الفور إلى المستشفى إثر إصابته بالمرض الغامض، يندفع من الباب الهزيل الذي يفصل مكتب الاستقبال والمكتب الداخلي الذي يضم صالة مكاتب الكتبة، بوجه شاحب وهو يصرخ قائلًا: «النجدة، النجدة! هناك تنين في مكتب الاستقبال!»، ثم سقط الرجل مغشيًا عليه.

كان هناك بالفعل تنين في مكتب الاستقبال، يكاد يشغل الفراغ بأسره. ولقد تحطمت النافذة إلى ملايين القطع، وتحول المكتب الذي يجلس إليه فوكسي إلى كومة من الأخشاب باتت لا تصلح إلا لإشعال

النار فيها، أما أكوام المنشورات والأوراق والكتيبات والمخطوطات التي كانت مكدسة عاليًا في صورة رزم متأرجحة، فجزء منها ملقى الآن على الأرض ومغطى بآثار أرجل التنين الموحلة، وجزء آخر تطاير بعيدًا في طريق السحرة مع هبوب نسمات الصباح فجأة.

لهث سبتيموس من فرط دهشه، وأخذ يفرك أنف التنين، وقال له: «لافظ اللهب! كيف عرفت أني سأكون هنا؟».

قالت چينا بسعادة: «لقد قمنا **بمهمة بحث**، ولقد نجحت، بشكل أو بآخر».

تفحصت چيلي دچين حطام المكتب ولم يسعدها ذلك، ثم قالت لمارشا: «كنت سأطلب منك الآن يا مارشا أن تتحكمي في تنينك هذا، لكن من الواضح أني تأخرت وفات الأوان».

قالت مارشا بنبرة حادة، مع تبخر ابتسامتها على الفور: «إنه ليس تنيني يا آنسة، إنه تنين تلميذي هذا، وهو حارس تنين يتسم بالمهارة والحرص».

زمجرت چيلي دچين وقالت في سخرية: «من الواضح أنه ليس ماهرًا بالقدر الكافي. وسوف أرسل لك فاتورة حساب بالخسائر التي لحقت بالنافذة وكل هذه الأغراض والأوراق».

«يمكنك أن ترسلي كل الفواتير التي تريدينها يا آنسة دچين؛ فالليل اقترب، وسوف يسعدني كثيرًا أن أشعل نار المدفأة بها. تصبحين على خير. هيا بنا يا چينا، هيا بنا يا سبتيموس، لقد حان الوقت للعودة».
وسارت مارشا وهي تدوس باحتقار على هذه الفوضى العارمة، ثم خرجت

مـن البـاب. ومـا إن أصبحـت فـي أمـان طريق السحرة حتى طقطقت بأصابعها للافظ اللهب الذي قفز بانصيـاع مـن خـلال النافذة المحطمة، فحتى الآن ما زال لافظ اللهب يرى في مارشا لمحة تجعله يشعر بأنها أمه.

ومع إحساسه أنه لا يكاد يصدق أن حلمه قد تحقق، أخذ سبتيموس يجوب ببصره في طريق السحرة؛ طريق السحرة الذي يخصه هو، ثم توقف وأخذ يستنشق الهواء؛ الهواء الذي يخص زمنه هو، والذي انبعث منه رائحة دخان الخشب والفطائر المخبوزة مع اقتراب عربة فطائر اللحم والمقانق من دار المخطوطات بالتزامن مع وقت راحة منتصف النهار. نظر سبتيموس عبر الطريق العريض، ورأى على مسافة ليست ببعيدة مبنى القصر - قصر چينا - بواجهته العريضة وارتفاعه المحدود وكان من المستحيل أن يمنع نفسه من الابتسام، ثم قال في سره: هذا هو المكان الذي أنتمي إليه.

لكن في الوقت الذي كان سبتيموس يشعر فيه بسعادة غامرة لأنه ما زال حيًّا، ولا يستطيع بعد ستة أشهر من الصمت شبه التام أن يكف الآن عن الكلام، كانت چينا تشعر بالإرهاق، وقالت لها مارشا: «ستأتين معنا الآن لتأخذي قسطًا من الراحة والنوم، سوف أرسل رسالة إلى القصر».

مر ثلاثتهم عبر القوس العظيم، بينما كان سبتيموس يتبعه لافظ اللهب عن قرب، وقد أخذ التنين يتشمم بريبة رداءه الذي انبعثت منه

رائحة غريبة لبرتقال. ثم صاح سبتيموس متألمًا بعد أن داس التنين على كعب حذائه، في محاولة منه أن يظل أقرب ما يكون من **صاحب البصمة**.

وهنـا قالت مارشـا: «بحق السـماء! ما هذا الذي تلبسـه في قدميك يا سبتيموس؟».

شـعر سـبتيموس بالحرج من منظـره الغبي، لكنه لم يفسـر ذلك، وبسـرعة غير الموضـوع وقال: «كنت أتمنى لو أن بيتل رأى لافظ اللهب يخترق النافذة. سيندم كثيرًا أن فاته هذا المشهد. تُرى، أين هو؟».

تنهدت مارشا وقالت: «بيتل! يا إلهي! سبتيموس، هناك أمر لا بد أن تعرفه».

45

الصندوق الطبي



قالت *مارشا محاولةً أن تكسو صوتها بأقصى درجات الحزم الممكنة،* بينما كانت هي وسبتيموس يراقبان كاتشبول وهو يستخدم عتلة بيد غير خبيرة، يحاول جاهدًا أن يرفع لوحًا خشبيًا متربًا من بين الألواح الخشبية التي تكسو أرض دولاب المكانس: «وهناك أمر آخر يا سبتيموس، أنت غير مسموح لك أبدًا بعد ذلك أن تبقى في الخارج في المساء بمفردك».

رفع سبتيموس رأسه، ورأى الابتسامة التي كانت تعلو عيني مارشا، فجازف وقال: «ماذا تقولين؟ غير مسموح لي أبدًا؟ حتى عندما أصبح كبيرًا جدًا.. في الثلاثين من عمري مثلًا؟».

«ليس وأنت تلميذي - بحق السماء يا كاتشبول! ناولني هذه العتلة وسوف أقوم أنا بذلك - ولا تظن أيضًا أنه مسموح لك بالخروج مع ذلك الشبح المسن غير المسئول. على أية حال - أف! إن الذي ثبت هذا اللوح بالمسامير، أيًا كان هو، ثبته بغاية الإتقان - وعلى أية حال، أتمنى من كل قلبي عندما تصل إلى سن الثلاثين - عظيم، أعتقد أنه بدأ يتحرك - أن يكون لك تلميذ خاص بك، وسوف يأتي دورك حينها أن تقلق». تلاشت ابتسامة مارشا وهي تتذكر، ثم اعتدلت ونظرت إلى سبتيموس في عينيه، وقالت له: «لكن أتمنى ألا تجد حينها رسالة كتبها لك منذ خمسمائة عام، كما عثرت أنا على رسالتك. أتمنى ألا يحدث لك ذلك أبدًا».

رد سبتيموس بهدوء: «وأنا أيضًا أتمنى ذلك».

ثم واصلت مارشا العمل بالعتلة، وبعد عدة لحظات صدر صوت طقطقة قوية بعد أن استسلمت المسامير أخيرًا أمام إصرار الساحرة العظمى، ثم ساعد سبتيموس مارشا في رفع اللوح.

قالت له مارشا، وهي تتفحص عن قرب الوردة المعقدة المحفورة بعمق في اللوح الخشبي: «ما كنت أدري أن هناك وردة محفورة في المكان هنا». كان اللوح باليًا إلى حد كبير بعد مئات السنين من الدَّوْس عليه - حيث إن دولاب المكانس هذا كان في السابق يُستخدم كغرفة

للمعاطف – لكن رغم ذلك، كانت التعرجات الرقيقة لأوراق الوردة مازالت مرئية بوضوح.

«لقد كانت الوردة هي الرمز المخصص لي»، هكذا قال سبتيموس بنبرة أقرب إلى الفخر. فهو الآن وقد عاد سالمًا إلى زمنه، بدأ يستمتع بالتفكير في الوقت الذي قضاه عند مارسيلوس باي، وواصل قائلًا: «إنها العلامة القديمة للابن السابع. ولقد نحتها مارسيلوس في مائدته قبل أن أذهب أنا هناك بسنوات».

قالت مارشا: «يا له من رجل شرير! كان بودي أن أوبخه بكلمتين أو ثلاث».

جازف سبتيموس قائلًا: «لقد كان بالفعل على خُلق».

ردت مارشا عليه بانزعاج: «سوف نتفاهم في هذا الأمر فيما بعد يا سبتيموس. وأنا إن كنت مستعدة على مضض أن أحفر لاستخراج هذا الصندوق المليء بأغراض الشعوذة والدجل، بما أن هناك أملًا ضعيفًا جدًا يستحق المحاولة لعلاج المرض الغامض، لن تجدني أبدًا أتفق معك على أنه كان على خُلق.. أبدًا».

ثم جثت مارشا وسبتيموس على ركابهما، ونظرا في الفراغ المترب أسفل اللوح الخشبي المخلوع. وبحذر، مد سبتيموس يده داخل الفراغ، وعثر بريق الخاتم التنيني على ضالة سبتيموس في الأعماق.

قال سبتيموس وقد بدا عليه الاندهاش: «أستطيع أن أراه. ها هو، تمامًا كما قال لي مارسيلوس – أسفل الوردة، وهو بالفعل مخفيٌ أسفل الوردة».

قالت مارشا وهي تزفر: «هراء! سحقًا يا كاتشبول، لا تظل مكتوف اليدين هكذا تنظر بغباء، نحن نحتاج ليد تساعدنا في إخراج هذا الشيء من هنا».

واحتاج استخراج الصندوق إلى سواعد أقوى من ساعدي كاتشبول الضعيف، كما احتاج سحبه إلى السلم الحلزوني لاتحاد جهود خمسة من السحرة العاديين – بدون كاتشبول الذي شعر فجأة بدوار.

وبعد وصولهم إلى قمة البرج، سحبت مارشا وسبتيموس والسحرة العاديون الخمسة الصندوق على امتداد منبسط السلم، ثم انفتح الباب الأرجواني الضخم لجناح مارشا على مصراعيه، وأخذ الجميع يدفعون ويسحبون الصندوق الذي كان رغم صغره ثقيلًا على نحو مثير للعجب، وأدخلوه الجناح. بسطت مارشا جسمها متأوهةً وأخذت تدلك ظهرها، ثم قالت: «هل أنت متأكد أن هذا الشيء لن يكون مملوءًا بالطوب فحسب؟ تُرى، ما هذا الذي يجعله ثقيلًا إلى هذا الحد؟».

رد سبتيموس قائلًا: «ذهب. إنه مبطن بقوالب سميكة من الذهب».

فسألته مارشا بسخط: «ولماذا بحق السماء؟».

«لأنه أنقى وأكمل المعادن، **وعلم الطب** جوهره أيضًا النقاء والكمال، إنه أشبه بمحاولة وصول الإنسان إلى الكمال مع نفسه». سكت سبتيموس عن الاسترسال، وقد لاحظ تعبير الضجر على وجه مارشا، وهو ما لم يستثن منه السحرة العاديين أيضًا الذين سرعان ما خرجوا مسرعين.

تنهدت مارشا، ثم نظرت للأسفل إلى الصندوق القديم المسود، ذي الأركان المذهبة المخدوشة، والشرائط الذهبية التي تحيط به وتوثقه والتي كانت سليمة، وعلمت يقينًا أن عملية فتح الصندوق حتمًا ستكون مصحوبة بالمصاعب، هذا عدا حقيقة التلفيات البشعة التي يحدثها الصندوق في أفضل سجادة «شينوا» لديها. فقالت بتذمر: «كل ذلك لا بأس به يا سبتيموس. لكن، هل لك أن تقول لي الآن كيف ستفتح هذا الشيء؟».

رد سبتيموس قائلًا: «هذا أمر بسيط جدًا»، ثم انحنى بجانب الصندوق، وأخرج **المفتاح** من حول عنقه، راقبته مارشا وهو يضغط **المفتاح** في الشكل المطابق له الذي يعلو واجهة الصندوق. وببطء، انفتح الغطاء بدون صوت.

نظر سبتيموس داخل الصندوق وابتسم؛ فكل شيء كان على حاله كما يتذكره - إذ كانت الأدوات متراصة بدقة ونظام، وتبدو نظيفة ومرتبة. كانت هناك صفوف من الأدوات البراقة المصنوعة من الذهب متراصة في صينية؛ وزجاجات تحتوي على صبغات وخلطات وعلاجات ومواد مذابة.. كل ذلك كان قابعًا في الصندوق تمامًا كما تركه، وفي قاعه وجد سبتيموس ما كان يبحث عنه؛ المعادلة التي كتبها بحرص شديد لعلاج المرض الغامض.

قال سبتيموس بنبرة ملأتها نشوة الانتصار وهو يسحب قطعة بالية من الرق تكرر طيها: «ها هي.. انظري!» وأعطى الورقة لمارشا التي ارتدت نظارتها لتستعين بها. فالساعات الطويلة التي مكثتها في متابعة

جداول التنبؤ والحسابات الخاصة بجيلي دجين أرهقت بصرها، ولقد أخذت تدقق النظر في الخط الأخرق المكتوب بالحبر البني على ورقة الرق. وأخيرًا، أشرق وجهها؛ فعلى الأقل تمكنت من معرفة ماهية هذه الورقة، إنها مثال لنص مكتوب من أواخر عهد إيثلدريدا وأوائل عهد إيزميرالدا بالخط المتعجل المعكوس الذي كان يستخدمه أطباء ذلك الزمن.

قالت مارشا على الفور، وقد أسعدها أخيرًا أن تتولى الأمور من جديد: «حسنًا يا سبتيموس، اذهب إلى دار المخطوطات واجعل الكاتب المختص بالمخطوطات القديمة يكتب لك ترجمة لها في الحال - في الحال، مفهوم. لا تتلكأ في الطريق، ليس هناك وقت نضيعه. هيا انطلق. هيا».

هز سبتيموس رأسه وقال لها: «لا داعي لذلك، لقد كتبتها بنفسي».

شعرت مارشا بإحساس غريب جدًا، واضطرت أن تذهب إلى مقعد وتجلس.

بعد عدة ساعات، كان سبتيموس يسحب مادة رغوية فضية بشفاطة ويسقطها في قارورة ضخمة. وجلست مارشا التي شعرت بأن وجودها كعدمه، وأخذت تراقب تلميذها وهو يتعامل مع الصندوق **الطبي** القديم بسهولة أدهشتها.

وعلى الرغم من أن شعر سبتيموس الطويل المتشابك، وهو أمر لا بد فعلًا أن تلزمه بأن يجد له حلًا، ورغم أنه بات أكثر طولًا ونحولًا - فقد كان من الصعب على مارشا أن تصدق أنه قضى نحو ستة أشهر من حياته

بعيدًا، في حين أن هذه المدة في واقع الأمر لم تستغرق سوى يومين اثنين في القلعة، كما أن هناك شيئًا آخر تغير فيه؛ فقد بدا أكثر ثقة بنفسه، هذا بالإضافة إلى أنه بات الآن - وهذا هو ما استغربته مارشا تمامًا - يعلم أشياء ويؤمن بها لا تعلمها هي ولا تؤمن بها، وهذا سيتطلب منها أن تعتاد هذا الوضع الجديد.

قاطع سبتيموس أفكار مارشا وهو يقول: «هل أضيف الناردين إلى هذا، أم أضيف هذا إلى الناردين؟ ما رأيك؟».

قالت مارشا، وهي تحاول أن تعتاد دورها الجديد: «أنت الخبير يا سبتيموس. لكن بوجه عام، أرى أن الفاتح يُضاف إلى الداكن».

«حسنًا»، وأضاف سبتيموس الزيت المائل للاخضرار لمحتويات القارورة، ثم سألها: «والآن، هل تسمحين وتناولينني الميزان؟» ومع اندماج مارشا في وظيفتها الجديدة كمساعدة معمل، ناولته مجموعة كاملة من الموازين الذهبية بأثقالها المتناهية في الصغر، ثم راقبته وهو يلتقط أصغر الأثقال بملقاط طويل ويضعه على كفة من الميزان، وبعد أن أخرج ملعقة عميقة وصغيرة جدًا من الذهب، اغترف بها المقدار المطلوب من مسحوق أزرق دقيق، وسكبه على الكفة الأخرى، إلى أن اتزنت الكفتان اتزانًا دقيقًا. وهنا، لفت نظره شيء في الملعقة، فنظر إليها عن قرب وقطب جبينه.

فسألته مارشا: «ما خطبك؟».

ناول سبتيموس الملعقة لمارشا، وأشار بأصبعه المكسو باللون الأزرق إلى بعض العلامات على السطح السفلي لمقبضها.

أخرجت مارشا نظارتها من جيبها، ونظرت إلى الخدوش، وقرأت ببطء: «سيب.. تي.. موس».

ثم قال لها سبتيموس: «أتذكر عندما كتبت ذلك. كان في اليوم التالي من وصولي إلى هناك. ولقد اعتدت لفترة أن أكتب اسمي في كل مكان، وكأني أردت أن أكتب رسائل لزماننا الآن».

طوت مارشا نظارتها، ومسحت عينيها بمنديلها الأرجواني الحريري، وهي تقول: «إن هذا المسحوق يلسع العيون، من الأفضل أن تضع الغطاء عليه».

وبعد عدة ساعات، بعد أن بردت المادة الغروانية، عاد سبتيموس ليكمل تحضير المصل، فأزال البللورات الكبيرة التي تكونت، ثم سحقها بمدق وأعاد المسحوق البللوري إلى القارورة، ثم أغلقها بسدادة، ورج الخليط لمدة ثلاث عشرة ثانية إلى أن أصبح صافيًا، ثم سكبه في زجاجة طبية شفافة طويلة. والآن، أضاء سبتيموس شمعة، وأخذ قضيب التقسيم من الصندوق الطبي، ثم غطسه في الخليط، وأداره سبع مرات، ثم رفعه عاليًا فوق الشعلة ليتفحصه.. بدا الخليط مشجعًا.. فوضع قطعة نظيفة من الحرير على سطح فوهة الزجاجة، ثم دفع سدادة في الفوهة، وأصبحت الزجاجة بذلك مغلقة غلقًا محكمًا.

صاح سبتيموس مناديًا من عند السلم: «لقد انتهيت من تحضير التركيبة»، فهرعت مارشا نازلة..

قال لها سبتيموس وهو متوتر بعض الشيء: «والآن، حان وقت الاختبار الأخير»، وراقبت مارشا تلميذها وهو يرفع الزجاجة ويحملها عاليًا في ضوء

النافذة الصغيرة المقنطرة، ويلفها حتى تلتقط شعاعًا من ضوء الشمس، فسقط الضوء على الزجاجة، واخترق السائل، ليخرج في صورة حزمة ضوئية زرقاء تكاد تعمي الأبصار من شدة سطوعها، فصاح سبتيموس: «لقد نجحت التركيبة! لقد نجحت التركيبة!».

ابتسمت مارشا وقالت: «هذا هو ما كنت أتوقعه. والآن، ارتدِ عباءتك يا سبتيموس. لا بد أن نوصل ذلك إلى من يحتاجون إليه. ليس لدينا وقت نضيعه».

وبينما كانت مارشا وتلميذها يعبران فناء برج السحرة بخطوات مسرعة، كان وجار التنين يهتز مع اندفاع لافظ اللهب نحو الباب، فانطلق سبتيموس إلى باب الوجار، وقال للتنين: «سوف أعود في الحال يا لافظ اللهب. صدقني. وحينها سوف تستطيع الخروج. هذا وعد مني. أراك لاحقًا يا لافظ اللهب».

قالت له مارشا: «على چينا أن **تبطل مفعول مهمة البحث**، فلسوف يظل – إلى أن تقوم چينا بذلك – مزعجًا إلى أبعد الحدود، ولن يتركك في حالك».

«أعلم ذلك»، هكذا رد سبتيموس وهو يتشبث بزجاجة الترياق، ويركض للحاق بخطى مارشا وهي تمر من البوابة الجانبية وتخرج إلى حارة ضيقة؛ لقد كانا في طريقهما إلى المستشفى. ولعلم مارشا بكره سبتيموس للارتفاعات، تجاهلت الطريق المختصر الذي يمتد بطول سور القلعة، وأخذت طريق الشوارع الملتفة. شعر سبتيموس بسعادة تغمره لم يشعر بها قط من قبل، باستثناء ربما لحظة عودته من دار المخطوطات

أمس إلى برج السحرة ليجد الأرض مدونًا عليها **مرحبًا بعودتك إلى زمنك أيها التلميذ، لقد افتقدناك**.. لقد كانت لحظة رائعة، بل ما أروعها من لحظة! وأحب سبتيموس وهو يسير في الطريق حقيقة أنه عاد يرتدي مرة أخرى عباءته الخضراء الخاصة بتلامذة السحرة العظماء، بدلًا من تلك العباءة ذات اللونين الأسود والأحمر التي كان يرتديها وهو تلميذ كيميائي، وكان هؤلاء الذين ينادونه الآن هم أصدقاءه هو، يلقون إليه السلام، من دون لهجات شاذة وكلمات غريبة لا بد أن يفكر فيها المرء مرتين ليفهمها.

وسرعان ما وصلا إلى البوابة الشمالية.

قال جرينج وهو يسد الطريق على مارشا: «مساء الخير أيتها الساحرة العظمى».

فردت عليه بنبرة يشوبها شيء من الحدة: «مساء الخير يا جرينج».

ثم قال لها جرينج بينما كانت تحاول أن تلتف حوله محشورة لتمر منه متوجهة إلى الجسر المتحرك: «ترى، أأنت في طريقك إلى مكان لطيف؟».

«لا. أتسمح الآن بأن تفسح الطريق يا جرينج؟».

فتراجع جرينج للخلف واستند وهو مضغوط إلى جدار بيت البوابة كي يسمح لمارشا وسبتيموس بالمرور، وهو يقول لها: «آه! أنا آسف أيتها الساحرة العظمى، بالطبع، تفضلي».

ثم قال بعد أن لاحظ وجود سبتيموس: «مرحبًا أيها الفتى. لقد أفزعت والدك وتسببت في أن هجره النوم لبضعة أيام».

وفجأة، تذكر سبتيموس.. أبي.. جرينج.. بورتريه إيثلدريدا، فقال: «جرينج.. لا بد أن تذهب إلى القصر في الحال، ولا بد أن تقول لأبي أن يعيد الصورة مرة أخرى في نفس المكان بالضبط الذي عثرتما عليها فيه، ثم يعيد إغلاق الغرفة **غلقًا محكمًا**، وعلى النحو الصحيح!».

اتسعت عينا جرينج من فرط دهشه، وقال: «ماذا قلت؟».

«أعيدا البورتريه في نفس المكان بالضبط الذي عثرتما عليه فيه؛ اللوحة التي تصور الملكة إيثلدريدا».

«وإن كان لا يدهشني أن سايلاس لا يحب النظر إليها - فهي بومة عجوز مزعجة بلا أدنى مجال للشك - إلا أني أحب أن ألفت نظرك في حال إن فاتك ذلك، فأنا مسئول هنا عن بوابة وملزم بحراستها، ولا أستطيع أن أتركها متى شئت وأذهب لأغير لهم مكان لوحاتهم في القصر»، ثم التفَّ جرينج بحركة سريعة ليأخذ بنسًا فضيًا من ممرضة عائدة من المستشفى.

رأت مارشا نظرة الإحباط على وجه سبتيموس، وهي إن كانت لا تملك أدنى فكرة عن سبب ذلك، إلا أنها تعلمت ما يكفيها خلال الشهور القليلة الماضية لكي تعرف أنه إذا كان هناك أمرٌ يزعج سبتيموس، فلا بد أن تضعه في الاعتبار. فتوجهت إلى الجسر المتحرك، حيث كان جرينج يسرِّي عن نفسه مع عدد من الفتية عائدين من الغابة ويحملون معهم حزمًا من المواد التي تُضرم النار.

وبقامتها فارعة الطول التي ترتفع عن مستوى جرينج بمسافة، وقفت مارشا بجواره وقالت له، بينما كانت عباءتها الشتوية يطيرها النسيم مما جعل

جرينج يعطس لإصابته بالحساسية من الفرو: «جرينج، سوف تفعل ما طلبه منك بالضبط، وفي الحال.. أنت وسايلاس هيب لا بد أن تعيدا البورتريه، ولسوف أحضر إلى القصر لأعيد **غلق الغرفة غلقًا محكمًا**، وتأكد أنك سوف تتعرض للمتاعب لو لم أجد البورتريه في مكانه كما كان بالضبط».

«أتشو! لا أستطيع.. أتشو! أن أترك البوابة.. أتشو.. أتشو.. بدون حراسة».

«السيدة جرينج تستطيع أن تفعل ذلك».

«إن السيدة جرينج تزور أختها في المستشفى، لقد أُصيبت بعضة أمس».

«ياه! يؤسفني ذلك. إذن، لوسي يمكنها أن تحل محلك».

قال جرينج بنبرة حادة: «إن لوسي، في حال عدم علمك، هربت من البيت وذهبت إلى ذلك التافه عديم الجدوى شقيق تلميذك، فلينفعها إذن. لكن إذا كان الأمر بهذه الأهمية، فسوف أذهب بعد غروب الشمس ما إن يُرفع الجسر المتحرك. هل يرضيك هذا؟».

«لا يا جرينج، لا يرضيني هذا، وأنت مضطر الآن لأن تغلق البوابة الشمالية طوال فترة العصر».

بدا الذعر على جرينج وقال معترضًا: «لا أستطيع أن أفعل ذلك. إن هذا لم يحدث قط طوال سنين حراستي للبوابة. أبدًا».

قالت مارشا بنبرة قاسية: «هناك دائمًا مرة أولى لكل شيء يا جرينج، مثلما ستكون هناك المرة الأولى التي يتم فيها إرسال حارس بوابة إلى الزنزانة وهو ما زال في الخدمة».

«ما هذا؟ أنت لن...».

«بل سوف أفعل ذلك.. تأكد من أني سوف أفعل ذلك».

«حسنًا. بعد إذنك لحظة يا سيدة مارشا»، وتوجه جرينج إلى باب بيت البوابة، وصاح جهة غرفة رفع وإنزال الجسر المتحرك: «يا فتى! يا فتى! استيقظ أيها الغبي الكسول!».

فظهر الفتى المسئول عن رفع وإنزال الجسر المتحرك بعينين يملؤهما النعاس، وقال بنبرة متذمرة: «ماذا تريد؟».

قال له جرينج: «ترقية لك. سوف تحرس البوابة إلى أن تعود السيدة جرينج. إياك أن تضع النقود في جيبك، وكن مؤدبًا مع الزبائن، ولا تترك أحدًا يمر دون أن يدفع، لاسيما أصدقاؤك التافهون. أفهمت؟».

أومأ له الفتى برأسه ببطء، وأخذ يحدق إلى الساحرة العظمى وقد فغر فاه، بعد أن رآها تقف على مسافة منه لا تزيد على عدة أقدام.

ثم قال له جرينج بنبرة حادة: «حسنًا. أنا ذاهب الآن في مهمة خاصة للساحرة العظمى، ولا أريد أن أنشغل بالقلق على الجسر أثناء غيابي في مهمة حساسة كهذه»، ثم ناول جرينج كيس النقود إلى الفتى مع التنبيه التالي: «ولعلمك، أنا أعرف بالضبط عدد النقود الموجودة في الكيس، فلا تحاول أن تخدعني». ثم التف وانطلق مبتعدًا عن البوابة الشمالية وهو يتنهد، ثم قال في سره: مزيد من المتاعب التي تأتي دائمًا من تحت رأس أسرة هيب.. أوليس كل ما ناله منهم كافيًا أصلًا؟!

46
المستشفى



يُعد *المستشفى مكانًا بائسًا وكئيبًا* على الرغم من كل المجهودات التي يبذلها المعالجون هناك، وهو عبارة عن بناء خشبي بواجهة عريضة، وارتفاع محدود، ومخفي أسفل الأشجار المرتفعة التي تقع عند أطراف الغابة، تغطيه الطحالب والعفونة بعد أن ظل سطحه يتعرض لسنوات طويلة لتساقط المياه من الأشجار، وتتسرب الرطوبة إلى قاعدته من الخندق المائي. ولا يُستخدم المستشفى كثيرًا، فيما عدا استقباله الحالات المصابة بالمرض الغامض التي يُعتقد أنها معدية، لكن مع تزايد

أعداد المصابين من سكان القلعة الآن بالمرض الغامض، لم يكن هناك مجال للمجازفة.

اقتربت مارشا وسبتيموس من المستشفى وهما يشقان طريقهما على امتداد المسار المتهالك الممتد على الضفة البعيدة من الخندق المائي، بدأ ضوء العصر يخفت، ومع اقترابهما من المبنى كان في وسعهما رؤية الشعلات المترنحة لأوائل الشموع التي تم إضاءتها عند النوافذ الصغيرة جدًا. كان باب المستشفى مفتوحًا، وبشيء من الحذر دخلت مارشا وسبتيموس، فانتفضت سارة وهبت واقفةً، تاركةً العمل الذي كانت منشغلة به، وقالت: «سبتيموس! أهذا أنت؟ ما الذي تفعله هنا؟» وكانت سارة قبل مجيئهما تجلس إلى مائدة صغيرة بجانب الباب، تقوم بوزن جرعات من الأعشاب المطحونة وتضعها في أوانٍ صغيرة جدًا، متراصة بنظام في صفوف أمامها. ومنذ أن حضرت سارة إلى هذا المستشفى مرة، لم تخرج منه، وكان سايلاس قد قرر ألا يقلقها بموضوع غياب سبتيموس، متمنيًا كعادته أن تنتهي الأمور على خير، ولقد اتضح أن سايلاس، ولأول مرة أخيرًا، اتخذ قرارًا صائبًا.

نظرت سارة لابنها الأصغر وقالت له: «ما هذا الذي فعلته في شعرك؟ إن منظره رهيب. هذا كثير يا مارشا، أعلم أنه بات الآن على أعتاب تلك السن الخرقاء، لكن ينبغي عليك مهما يكن الأمر أن تجعليه ولو من حين لآخر يمشط شعره».

ردت عليها مارشا التي أيقنت، ولسعادتها، أن سارة لا تعلم شيئًا عما حدث، وقالت:

«نحن لم نأتِ إلى هنا كي نناقش موضوع شعر سبتيموس، لقد جئنا في مأمورية عاجلة».

لم تلتفت سارة لكلام الساحرة العظمى؛ فقد ظلت تنظر إلى سبتيموس دون أن ترفع بصرها عنه، وكان يكسو وجهها تكشيرة حائرة، وقالت له: «أنت تبدو... تبدو مختلفًا»، ثم سألته وقد بدأت تساورها الهواجس: «هل كنت مريضًا؟ هل هناك شيء لم تخبرني به؟».

وبسرعة مذهلة، كانت مارشا قد ردت قائلة: «لا».

ثم قال لها سبتيموس: «أنا بخير يا أمي، فعلًا أنا بخير. انظري! لقد صنعت دواءً للمرض الغامض».

نظرت سارة إلى سبتيموس نظرة تفيض حبًا وحنانًا، وقالت له: «هذه لفتة لطيفة جدًا منك يا حبيبي، لكنَّ هناك الكثيرين الذين قد حاولوا ولم تُجدِ محاولاتهم، فلا يبدو أن هناك شيئًا يعالج هذا المرض الغامض..».

«لكن ما معي سوف يعالجه يا أمي.. أنا واثق من ذلك».

قالت سارة برفق: «ياه يا سبتيموس! أنا أعلم مدى قلقك على بيتل. فأنا أعلم كم كنت تحبه..».

رد سبتيموس، وقد تملكه الفزع فجأة: «كنت أحبه؟ ماذا تقصدين بأني كنت أحبه؟ أنا مازلت أُحبه.. أُحبه جدًا. إنه.. إنه بخير.. أليس كذلك؟».

علا وجه سارة نظرة جادة، وردت عليه قائلة: «نعم، إنه ليس بخير يا سبتيموس. إنه... يا للهول! إن حالته متدهورة جدًا، ولا نضع آمالًا كبيرة في شفائه. أتحب أن تراه؟».

فأومأ لها سبتيموس برأسه، ثم تابع هو ومارشا خطى سارة ومروا عبر بعض الأبواب المروحية إلى عنبر المستشفى - وهو غرفة طويلة تحتل المبنى بأسره - الذي كان يصطف على كلا جانبيه صف من الأسرّة الضيقة التي كانت مكدسة بجانب بعضها، جميعها يشغلها المرضى. رقد هؤلاء المرضى بلا حراك في أسرّتهم بوجوه شاحبة، بعضهم كانت عيونهم مغمضة، وبعضهم كانوا يُحدقون إلى السقف دون أن يروا شيئًا.

وخيم على العنبر الصمت والسكون، وملأته ظلال أواخر فترة العصر التي كانت تعترضها بخطوات بطيئة مساعدة شابة، تسير على امتداد العنبر حاملة صينية مرصوصة بالشموع، تضع شمعة عند كل نافذة حتى يُبعد ضوءها الظلام لفترة أطول، وأي كائن ضال من كائنات الغابة أيضًا.

اندهش سبتيموس وهو يرى مدى تكدس هذا المكان الصغير بالمرضى، ورغم ذلك لا يكاد يسمع فيه صوتًا؛ بل إن الصوت الوحيد الذي كان في واقع الأمر يسمعه كل حين هو صوت رنة معدنية لقطرة مياه وجدت طريقًا بين الألواح الخشبية المتعفنة التي تكسو السقف، لتسقط بعد ذلك في واحدة من مجموعة متنوعة من الدلاء المعدنية التي تم وضعها في مواقع استراتيجية بالعنبر.

همست سارة قائلة، وهي تضع يدها على كتف ابنها وترشده إلى سرير

قريب: «هذا هو سرير بيتل. إنه بجانب الباب حتى يكون نصب أعيننا بشكل دائم».

ولولا أن سارة أخذت سبتيموس إلى فراش بيتل، ما كان سيستطيع أن يعثر بنفسه على أعز صديق له. كان الشيء الوحيد الذي تعرَّفه سبتيموس في بيتل هو كتلة الشعر السوداء السميكة التي قامت والدته - وكانت قد تركت المكان قبل مجيئهما مباشرة - بتمشيطها وبسطها بكل حب وحنان بالطريقة التي يعلم سبتيموس أن بيتل يكرهها تمامًا. وفيما عدا ذلك، كان بيتل طريح الفراشة بهيئة لا تزيد على خرقة بيضاء شاحبة ذات عينين محدقتين لا ترى شيئًا.

نظرت سارة بقلق إلى سبتيموس، وقالت له: «أنا أسفة يا عزيزي، أتريد أن تجلس معه قليلًا؟ إن والدته ستعود بعد قليل مع والده، لكن يمكنك أن تجلس إلى جواره بعض الوقت قبل أن يعودا»، ثم جلبت سارة كرسيًا إضافيًا لمارشا، وجلست هي وسبتيموس بجوار فراش بيتل، ثم قالت سارة: «لا بد أن أذهب الآن. سوف أعود بعد دقائق».

وجد سبتيموس نفسه فجأة يشعر بخوف شديد خشية ألا ينجح العلاج الذي قام بتحضيره، ثم رمق مارشا بنظرة يملؤها التوتر، فهمست له قائلة: «سينجح يا سبتيموس، لا بد أن تؤمن بذلك».

قال سبتيموس بانزعاج: «إن الطب ليس كالسحر.. ففي الطب، مسألة أن تتوقعي نجاح العلاج أو فشله لا تهم. فالعلاج إما أن ينجح وإما أن يفشل».

ردت مارشا قائلة: «أشك في ذلك كثيرًا. إن قدرًا من الإيمان ولو كان

صغيرًا يفيد دائمًا. على أية حال، أنت تعلم تمامًا أنه سينجع، أليس كذلك؟».

أومأ لها سبتيموس برأسه، ثم وضع الزجاجة على المائدة الصغيرة المتقلقلة المجاورة لسرير بيتل، وأخرج «شفاطًا» من جيبه من داخل عباءة التلامذة التي يرتديها، ثم سحب قدرًا ضئيلًا من الدواء، وقطّر ثلاث قطرات في فم بيتل نصف المفتوح، ثم انتظر هو ومارشا وهما يجلسان بترقب على حافة مقعديهما.

كانت آخر شمعة قد وُضعت على النافذة عندما رمش بيتل بعينيه، ثم رمش مرة أخرى، وقطب جبينه كأنه يتساءل في سره أين هو، وفجأة اعتدل جالسًا، وقد اتسعت عيناه، والتصق شعره على أحد الجوانب بطريقته المعتادة.

وبصوت أجش، قال: «أهلًا يا سِب».

ضحك سبتيموس ورد عليه قائلًا: «أهلًا يا بيتل، بل ألف أهلًا!».

عادت سارة لكي تُسكت سبتيموس وهي تقول له: «صه! إن أسرة بيتل هنا الآن يا سبتيموس. إنهم يريدون أن يقضوا معه وقتًا قبل أن.. يا إلهي!».

ضحك سبتيموس وقال لها: «لقد نجع العلاج يا أمي! تركيبتي نجعت».

وبذهول، غير مصدقة ما تراه، سألته سارة: «هل تقصد أنك.. أنت من فعل هذا؟» فقد كانت سارة، بعلمها الواسع في مجال الأعشاب والمداواة بها، قد جربت علاجات لا حصر لها للمرض الغامض، ولم يأت أيٌّ منها بأدنى تأثير.

ثم قال بيتل متسائلًا وهو ينظر حوله: «أين أنا؟».

رد سبتيموس عليه: «أنت في المستشفى. لقد أصبت بالمرض الغامض، ألا تتذكر؟».

«لا، لا أتذكر أي شيء. أو بالأصح لا أتذكر أي شيء بعد أن جاءتني الأميرة جينا لكي... نعم، أنا أتذكر ذلك، صحيح - أين كنت؟ لقد كانت تبحث عنك».

ابتسم سبتيموس قائلًا: «وكما ترى، لقد عثرت عليَّ يا بيتل، لن تصدق أبدًا أين عثرت عليَّ».

«أين يا سِب؟».

«سوف أحكي لك فيما بعد يا بيتل. لديَّ كميات كبيرة من **المشروب الفوار**، سوف تحتاج إليه. لقد حضرت والدتك».

وبعد أن أسقط سبتيموس ثلاث قطرات في أفواه مرضى العنبر، تبقى قدر من الدواء في الزجاجة، ومن ثم ترك الزجاجة مع سارة لعلاج أي حالات مستجدة تصل إلى المستشفى. ووسط أجواء يملؤها ضجيج وثرثرة مفعمة بالحماس، واحتفال أقارب المرضى الذين وصلوا توًا على متن العبّارة للزيارة المسائية، كتب سبتيموس بحرص شديد ملصقًا - تمامًا كما علمه مارسيلوس - ثم ناوله لسارة كي تلصقه على الزجاجة.

الترياق

الجرعة: ثلاث قطرات

وعلقت سارة قائلة، وهي تأخذ بفخر زجاجة الدواء من ابنها، وتضعها في دولاب خلف المائدة: «إن خطك ازداد سوءًا يا سبتيموس. إنه يبدو مثل خط الأطباء الحقيقيين».

ابتسم سبتيموس؛ فهو في هذه اللحظة شعر بأنه بالفعل طبيب حقيقي.

++ 47 ++

جرذان القصر



كانت *هيلدا جارد في نوبة حراسة لباب* مبنى القصر عندما وصل جرينج لاهثًا ومنهكًا.

قال جرينج: «لقد حضرت في مأمورية مهمة من طرف الساحرة العظمى. وأحتاج أن أقابل سايلاس هيب».

ردت هيلدا جارد معتذرة: «أنا آسفة يا سيد جرينج، فلا أحد يعلم أين هو. والأميرة أيضًا كانت تبحث عنه منذ قليل ولم تعثر عليه».

«سوف تجدينه مع فيشه يا آنسة في الطابق العلوي بالسندرة».

ابتسمت هيلدا جارد، وقالت له: «إذن، تفضل على الرحب والسعة يا سيد جرينج، وجرب حظك».

«أشكرك يا آنسة»، هكذا رد عليها جرينج الذي لا يزال شاعرًا بشيء من الرهبة مع دخوله القصر – مارًا من أمامها بخطوات مسرعة ليختفي بعد ذلك في ظلال الممشى الطويل. بعد عدة دقائق، كان جرينج يسحب ستارًا باليًا في جزء غاطس مظلم من الحائط، وصعد سلمًا طويلًا متربًا، متوجهًا إلى غرفة السندرة. وعند نهاية السلم، دفع جرينج الباب ذا الصرير ونظر في الداخل، ورأى عند الطرف القصي من هذا الطابق البعيد عن سطح الأرض، الممتد طويلًا والمسقف بعوارض خشبية – ضوء شمعة يتراقص يمينًا ويسارًا. ووجد سايلاس في المكان الذي توقعه – في الغرفة التي **تم إبطال مفعول غلقها المحكم**، وكان يرتب مستعمرة فيشه.

كانت الفيش تؤدي عملها كما ينبغي، ومع اقتراب جرينج رفع سايلاس بصره، وأسعده رؤية صديقه، ثم قال له: «انظر إلى هذه الفيشة يا جرينج، ستكون عابرة أنفاق ممتازة. أنا أدربها الآن. أجعلها تعتاد الالتفاف بين العوائق. انظر إليها وهي تنطلق».

«إنها رائعة يا سايلاس، لا يساورني شك في ذلك. لكن أنا لم أحضر إلى هنا كي أشاهد فيشك الثمينة».

لم يرد سايلاس عليه؛ إذ كان قد جثا على ركبتيه ويديه، وأخذ ينظر بعينين شبه مغمضتين أسفل الألواح الخشبية للأرض، وهو يقول: «يا للإزعاج! لقد اختفت الفيشة، لقد خرجت عن مسارها في النفق».

«نعم، هذه هي مشكلة الفيش عابرة الأنفاق يا سايلاس. اسمع الآن، لقد جاءتني الساحرة العظمى واضطررت أن أترك البوابة في حراسة ذلك الفتى التافه – ويا ويلي من السيدة جرينج عندما تكتشف ذلك، سوف أتلقى منها عقابًا مريرًا، هذا أمر لا جدال فيه – المهم أننا لا بد أن نعيد الآن تلك اللوحة الزيتية إلى مكانها، ولا بد أن **تغلق الغرفة غلقًا محكمًا** مرة أخرى، حسنًا».

«ما هذا الكلام الذي تهذي به يا جرينج؟ أية لوحة تتحدث عنها؟ هيا أيها الفتى، هيا، رائع، هيا، أخ! لقد رحل مرة أخرى. يا للإزعاج!».

«تلك اللوحة الزيتية للشخصية المزعجة ذات التاج. اللوحة الزيتية للوجه ذي الأنف المدبب الذي ينظر نظرات مخيفة».

«أنا لن أعيد ذلك الشيء إلى المكان هنا، إنه يزعج الفيش ويجعلها غير مستقرة. يمكنهم أن يضعوه في أي مكان آخر غير السندرة إذا كانوا لا يريدونه في الطابق السفلي».

هز جرينج رأسه وقال: «لا بد أن تعود اللوحة، تعود إلى حيث كانت من قبل. ولا بد أن **تغلق عليها غلقًا محكمًا** كما كانت. إنها مسألة حياة أو موت كما قال ابنك».

رفع سايلاس بصره، وقد استرعى جرينج الآن انتباهه بالكامل، ثم سأله، وهو لا يكاد يجرؤ على أن يمني نفسه: «أي ابن فيهم؟».

«ابنك التلميذ، سبتيموس».

«سبتيموس؟ متى قال لك ذلك؟».

«منذ نحو نصف ساعة. لقد كان مع الساحرة العظمى. إنها تنظر نظرات مخيفة، وهي كلها مخيفة، أليس كذلك؟».

هب سايلاس واقفًا تصحبه سحب من الأتربة، وقال: «لقد عاد سبتيموس.. عاد! أهو بخير يا جرينج؟».

هز جرينج كتفيه وقال: «يبدو لي كذلك. وإن كان منظره بدا لي وضيعًا بعض الشيء على ما أظن».

«وجينا، هل عادت هي أيضًا؟».

رد جرينج متذمرًا: «لا أعلم يا سايلاس، وكيف لي أن أعرف؟ فلا أحد يقول لي شيئًا - كل ما قيل لي هو أن أنقل اللوحة وإلا سيُلقى بي في الزنزانة».

«إذن، لا بد أن أذهب إلى برج السحرة كي أراه»، هكذا قال سايلاس، وهو يجمع عباءته التي يرتديها السحرة العاديون والتي كان يكسوها التراب، ثم رفع الشمعة عاليًا، وانطلق إلى الباب الصغير في الطرف البعيد من السندرة.

قال له جرينج منطلقًا خلفه: «إنه ليس هناك يا سايلاس. لقد ذهب إلى المستشفى. كان معه علاج ما للمرض الغامض أو شيء من هذا القبيل. سايلاس، لا بد أن نفعل شيئًا في أمر اللوحة، وإلا سأجد نفسي في أزمة لا قِبل لي بمواجهتها».

تجاهل سايلاس كلام جرينج، وهمَّ بالخروج مسرعًا، وهو يتعثر مع سيره على الأرض غير المستوية. وفجأة قال جرينج كلمة لم يسمعها منه سايلاس من قبل.

فقد قال: «لا بد أن تهتم بأمر هذه اللوحة يا سايلاس.. أرجوك».

توقف سايلاس وقال: «ماذا قلت يا جرينج؟».

«لقد سمعتني».

«لا بد أن الموضوع جد خطير إذن. حسنًا، هيا بنا يا جرينج، فلنسوِّ أمر اللوحة».

تطلب إنزال لوحة إيثلدريدا من على الحائط الخوض في صراع مرير، وخُيل إلى سايلاس أن اللوحة لها ذهن تفكر به، ولا تريد أن تتحرك من مكانها. وفي نهاية المطاف، بعد جذب شديد وعنيف قام به جرينج، انخلعت اللوحة، مصطحبة معها كتلة كبيرة من الطلاء ومسمار اللوحة، وطيرت معها جرينج بعيدًا، ثم بدأ سايلاس وجرينج، مستخدميْن ما تطلق عليه سارة (اللغة البذيئة) في تنفيذ هذه المهمة الخرقاء التي تقتضي حمل البورتريه المستنكر والصعود به على سلم السندرة.

همهم جرينج، وهو يحشر نفسه في منطقة ضيقة على وجه الخصوص من السلم، قائلًا: «أتعتقد أن هذا الشيء له أذرع، إنه يبدو وكأنه يمسك في درابزين السلم ولا يريد أن يتحرك».

ثم قال سايلاس فجأة: «أوه! كفاك ركلًا في قصبة ساقي يا جرينج، أنت تؤلمني».

«أنا لم أفعل ذلك يا سايلاس. بل في واقع الأمر، كفاك أنت ركلًا في كاحلي».

«كفاك حمقًا يا جرينج، فلديَّ ما هو أهم من أن أضيع الوقت في ركل كاحليك الصغيرين البدينين. كفى يا جرينج! هذه ركبتي التي تركلها. جرب أن تفعل ذلك مرة أخرى يا جرينج وسوف...».

«ماذا ستفعل يا سايلاس؟ هيا، كن شجاعًا وقل ماذا ستفعل».

ولدى وصولهما إلى منبسط السلم خارج باب السندرة، كان كل منهما قد أشبع ضربًا وأصيب بكدمات وعلى وشك الانفجار في وجه الآخر. وأخيرًا، أسند الرجلان اللوحة إلى الجدار، ثم حدق كل منهما في الآخر، بينما كان البورتريه يحدق بهما.

وبعد قليل، همهم جرينج قائلًا: «إنها هي التي تفعل ذلك، أليس كذلك؟ أنا لا أعلم كيف، لكنها هي التي كانت تركلنا».

رد عليه سايلاس مرحبًا بعرض جرينج للسلام، وقال: «لن يدهشني ذلك. هيا يا جرينج، فلنسترح قليلًا ونواصل فيما بعد. ما رأيك؟ أتحب أن نلعب مباراة الآن؟».

سأله جرينج: «النسخة الفاخرة؟».

«النسخة الفاخرة».

«بدون تماسيح؟».

«بدون تماسيح».

وفي الطابق الذي تعلوه السندرة، كانت چينا والسير هيروارد يسمعان الدق والطرق فوق رأسيهما. كانت چينا قد عادت إلى القصر، وبعد أن فشلت في العثور على أيٍّ من سايلاس أو سارة، ذهبت لتقابل السير

هيروارد، والذي كان يقوم بدوره المعتاد، شبه مختبئ في الظلال، ومستندًا إلى لوحة مطرزة طويلة معلقة بجانب الباب حافتها السفلية قريبة من الأرض.. قال لها الفارس، وهو يشير لأعلى بسيفه المكسور جهة السقف، حيث كانت قدم سايلاس قد انحشرت فوقهم مباشرة بين لوحين خشبيين متعفنين من الألواح الخشبية التي تكسو أرض السندرة: «صباح الخير أيتها الأميرة الحسناء. أنا أحذركم، إن جرذان القصر آخذة في التزايد».

ردت چينا التي اعتادت سماع أصوات من السندرة منذ بدأ سايلاس ينمي مستعمرته، وقالت: «صباح الخير يا سير هيروارد. إنها تبدو لي جرذانًا بأقدام وترتدي أحذية طويلة».

نظر السير هيروارد إلى چينا، وكأنه يبحث عن إجابة لمسألة كانت تزعجه، ثم قال لها: «أخيرًا عدتِ بسلام بعد غيبتك حسبما أتذكر، لقد تغيبت عن القصر ليلة أمس، وقبل أمس - ليلتين طويلتين بالفعل، ولا أحد كان يعلم أين يمكن العثور عليك. لقد سررتُ برؤيتك، ولقد جلبت معك أيضًا سجادة صغيرة برتقالية كتذكار من رحلتك. ما أروعها!».

قالت چينا وهي ترفع أولر لتريه للفارس: «إنه قط يا سير هيروارد».

دقق النظر في قطعة الفرو البرتقالية الصغيرة. فحدق أولر في الشبح بنظرة تخلو منها أي تعبير، عيناه لا تريان إلا زمنًا ماضيًا يبعد عنه بخمسمائة عام، ثم علق الفارس قائلًا: «يبدو قطًا بائسًا».

ردت چينا قائلة: «أعلم ذلك، وكأنه ما عاد هنا الآن».

قال السير هيروارد: «ربما أُصيب قطك بالمرض الغامض..».

ردت چينا: «لا، أعتقد أنه يفتقد شخصًا ما، مثلي أنا أيضًا».

«أخ! أراك حزينة على نحو غريب هذا الصباح أيتها الأميرة، إليك إذن ما سيرفع من روحك المعنوية. ما الفارق بين الفيل واليوسفي؟».

«أحدهما رمادي اللون وله خرطوم، والآخر صغير ولونه برتقالي».

بدا الإحباط على السير هيروارد وقال: «أخ!».

«كنت أمزح معك فحسب. لا أعرف، قل لي أنت ما الفارق بين الفيل واليوسفي؟».

«إذا كنت لا تعرفين الفارق، فلن أستطيع أن أرسلك لتتسوقي لي.. ها ها!».

«ها ها! سير هيروارد.. لقد كنت تعلم أين كنت، أليس كذلك؟».

بدا على الفارس أنه غير راغب في الرد عليها فغرز سيفه عند قدميه، وأخذ يعبث بقطعة سائبة من درعه، ثم قال: «أنت فقط من تستطيعين معرفة ذلك أيتها الأميرة. أين كنت إذن؟ هل أطمع في إجابة منك عن ذلك؟».

«لقد كنت هنا يا سير هيروارد، وأنت كذلك».

«باه!».

«لقد كنت هنا في الليلتين السابقتين لكن في زمن مضى منذ خمسمائة عام».

وعلى الفور، كادت هيئة السير هيروارد - وهو شبح قديم وبات الآن أقرب لأن يكون شفافًا -تتلاشى تمامًا. لكنه تعافى من صدمته بالقدر الذي سمح له بأن يرد عليها قائلًا: «ولقد عُدت.. بسلام.. وكل ذلك في

يومين اثنين فقط. إنها معجزة أيتها الأميرة چينا، ولقد رفعت عودتك عن كاهلي عبئًا ثقيلًا. فمنذ أن قلت لي إن اسمك چينا وأنا أعيش في قلق دائم أن يأتي يوم تختفين فيه ولا نراك بعد ذلك أبدًا».

«لكنك لم تذكر لي شيئًا عن ذلك».

«رأيت أنه موضوع لن يروقك معرفته أيتها الأميرة. فخير لنا ألا نعرف ما يخبئه لنا المستقبل». وتبادر إلى ذهن چينا مارسيلوس باي وهو يعلم أن أمامه على الأقل خمسمائة عام سيقضيها وحده في البرد والظلام في الطريق القديم، فأومأت للشبح برأسها.

«إن لديَّ أسئلة كثيرة جدًا أريد أن أسألك فيها عما حدث في الماضي يا سير هيروارد».

«سؤال واحد في كل مرة أيتها الأميرة، فأنا الآن شبح مسن، وذاكرتي تخونني بسهولة».

«حسنًا، سؤال هذه المرة: هل وصل هيوجو بأمان إلى بيته؟».

بدت الحيرة على السير هيروارد، وسألها: «هيوجو، من هو هيوجو؟».

ردت چينا قائلة: «هيوجو، ألا تتذكره. لقد كان معنا. أو بالأصح مع سبتيموس. كان يرتدي زي خدم القصر وكان الزي أكبر منه بكثير».

ابتسم السير هيروارد وقال لها: «نعم نعم، تذكرته. لقد فرحت والدته كثيرًا بعودته».

«لقد أسعدتني، فهيوجو كان فتًى لطيفًا».

«نعم. ولقد أصبح طبيبًا فيما بعد بفضل سبتيموس هيب، هذا هو ما كان دائمًا يردده. ولكني لا أريد أن أعطلك أكثر من ذلك. لا بد أنك تريدين أن تذهبي إلى غرفتك وتأخذي قسطًا من الراحة».

هزت چينا رأسها، فصوت الأميرتين الصغيرتين وهما تبكيان خلف بطانة الحائط لا يزال حاضرًا في ذاكرتها، ثم قالت له: «ليس بعد يا سير هيروارد، أشكرك. سوف أذهب لأجلس بجانب النهر».

كانت شمس الخريف قد أرسلت دفئًا إلى الألواح الخشبية القديمة التي تكسو المرسى، وجلست چينا - باسترخاء في عكس اتجاه رائحة أكوام روث التنين الخاصة ببيلي بوت - بينما كان أولر يجلس على «حجرها»، وأخذت تؤرجح قدميها في المياه الموحلة التي كانت لدهشتها دافئة. وكان بجانبها سلطانية مملوءة بذرة مهروسة، يأكل منها فرخ بط صغير منزوع الريش. وبينما كانت چينا تراقب اختفاء الذرة رويدًا رويدًا، بدأت تشعر بثقل في جفونها مع تسلل النوم إليها، وبدت لها البطاطين والوسائد التي جلبتها من غرفة جلوس سارة مغرية جدًّا؛ ولذلك عندما اقترب الزورق البخاري لرئيسة موظفي الجمارك على امتداد مرسى القصر، وجدت أليس نيتلز وألثر ميلا كومة من البطاطين الكروشيه تتنفس بانتظام، وينام فوقها قط برتقالي بذيل أسود الطرف، وفرخ بط صغير بدين.

شهقت أليس ثم قالت، وقد تعرفت شعر چينا الأسود وطوقها الذهبي: «إنها چينا! كيف جاءت إلى هنا؟».

فسألها الشبح، لا يكاد يجرؤ أن يصدق ذلك: «هل أنت متأكدة؟» وكان ألثر وأليس قد توجها إلى القصر لينقلا إلى أسرة هيب النبأ الكارثي باختفاء چينا ونكو. وكان ألثر يستعد للانطلاق محلقًا إلى القصر وحده، لكن أليس أصرت على أن تذهب معه، ومن ثم تابع ألثر الزورق البخاري في رحلته الطويلة في عكس التيار، وظل طوال ذلك الوقت مهمومًا، يخشى اللحظة التي سيضطر فيها لأن ينقل هذه الأنباء إلى سارة وسايلاس.

ابتسمت أليس وقالت له: «انظر بنفسك، إنها تغط في سبات عميق».

وبرفق، نفخ ألثر في الغطاء ليبعده عن وجه چينا، فانكشف وجهها، ورآها بنفسه. تقلبت چينا مع لمسة الشبح الدافئة، لكنها واصلت النوم من فرط الإجهاد.

قالت أليس: «خير لنا أن نتركها نائمة. إن طقس عصر اليوم دافئ، ولن يضرها ذلك».

ثم قال ألثر بينما كان هو وأليس يعبران البساتين التي تضيئها الشمس، ويتوجهان نحو مبنى القصر: «إنهم يربون أنواعًا غريبة من أفراخ البط هنا، يبدو أنها على ما أظن سلالة غريبة!».

48

عملية الإرسال



كانت *الظلال الممتدة عبر البساتين* تزداد طولا، ومازالت چينا مستغرقة في نومها، وهي متقوقعة أسفل بطاطينها. وعلى مسافة منها، جلس ألشر وأليس على نجيل البساتين، بعد أن بحثا في القصر عن سايلاس وسارة، دون أن يعثرا عليهما، وأخذا يراقبان النهر من على بعد، وهما يثرثران معًا بهدوء.

وعلى الجانب الآخر من القصر، كانت مارشا وسبتيموس يسيران مسرعيْن على امتداد الطريق العريض الذي يتوسط القصر، يتبعهما عن قرب لافظ اللهب. ولقد جلب سبتيموس معه التنين حتى **تبطل** چينا

مفعول مهمة البحث. أخذ التنين يلاحق سبتيموس في كل خطوة يخطوها، وبدأ ذلك يصيب سبتيموس بتوتر شديد.

كانت مارشا تقول: «الذي لا أفهمه يا سبتيموس كيف أن ثمة شبح كائنٍ جرذاني...».

صحح لها سبتيموس قائلًا: «إنه كائن الآي آي. أرجوك يا لافظ اللهب، كُف عن التنفس في عنقي هكذا».

«آي آي، جُرذ، فيل، أيًا كان ذلك، الفكرة أنه سيظل في نهاية الأمر مجرد شبح. والأشباح لا تعض. إنها قد **تتسبب** أحيانًا في فتح نافذة، أو غلق باب، لكنها لا تعض. ابتعد عن عباءتي أيها التنين الأحمق».

«أوه! هذا كعبي يا لافظ اللهب. أعلم ذلك، لكن هذا الكائن ليس مجرد شبح، إنه روح حقيقية ملموسة».

ردت مارشا قائلة: «هذه أمور لا وجود لها يا سبتيموس. أنت عاودت القراءة من جديد في التقويم المتنبئ بظهور أرواح الساحرات، أليس كذلك؟».

«لم أفعل ذلك لكنني أعلم أنه روح ملموسة؛ لأن مارسيلوس قال...».

قاطعته مارشا بنبرة حادة: «لقد بدأت بالفعل أسأم من سماع ما كان يقوله مارسيلوس».

«الفكرة أن كائن الآي آي شرب من نفس التركيبة التي شربت منها إيثلدريدا. إنها الصبغة التي حضَّرها مارسيلوس..». زفرت مارشا بصوت مسموع على ذكر اسم مارسيلوس مرة أخرى، لكنها لم تعلق.

ثم واصل سبتيموس كلامه قائلًا: «كان من المفترض أن مارسيلوس هو الذي كان سيشربه، لكن الصبغة لم تكن جاهزة، ثم خطفتها إيثلدريدا وشربتها. وكان مارسيلوس منزعجًا جدًا، ثم قامت إيثلدريدا بخطف چين وأخذتها إلى النهر، لكن الجو كان قارسًا، وسقطت - أقصد إيثلدريدا - وغرقت، ولقد نالت ما كانت تستحقه، وبعد ذلك قال مارسيلوس إنه **سيُدخل** شبحها في البورتريه الرسمي الخاص بها **ويحكم الغلق عليها** في غرفة؛ لعلمه أنها قد تصبح روحًا ملموسة، وسرعان ما يصبح الأمر وكأنها إنسان حي، فيما عدا أنها ستعيش إلى الأبد، وهذا هو السبب الأساسي الذي جعلها...».

قاطعته مارشا قائلة: «كفى! لقد داهمني الصداع مرة أخرى».

فأكمل سبتيموس جملته على عَجلٍ قبل أن يتسنى لمارشا أن توقفه، وقال: «ولذلك، فإن كائن الآي آي روح ملموسة ويستطيع أن يعض الناس».

وفي ذلك الوقت، كانت مارشا وسبتيموس قد وصلا إلى الجسر الصغير الذي يعبر الخندق المائي الممتد أمام مبنى القصر. توقفت مارشا للحظة، تسترجع فيها أفكارها؛ فهي - عكس ما بدا عليها - كانت تنصت لكل كلمة من حديث سبتيموس، ثم همهمت قائلة: «لا أحد يعلم الآن ما الذي يمكن أن تفعله الروح الملموسة لإيثلدريدا.. لا بد أن **نحكم الغلق** عليها بسرعة يا سبتيموس».

انخفض الجسر الخشبي الذي يعبر من فوق الخندق المائي الضحل بشكل خطير من جراء ثقل وزن لافظ اللهب مع اقترابهم من باب مبنى

القصر. وبدا القلق على هيلدا جارد؛ الساحرة العادية التي تقف في حراسة الباب.

قالت مارشا بنبرة حادة: «أريد سايلاس هيب يا هيلدا جارد، وفي الحال».

«أعتقد أنه في السندرة يا سيدة مارشا»، هكذا ردت هيلدا جارد، وهي تنظر إلى لافظ اللهب بقلق. فهيلدا جارد لا تحب الزواحف، والقصر أساسًا يعج بها للأسف، هذا عدا السلاحف النهاشة وسحالي البساتين العديدة الخاصة ببيلي بوت.

قالت مارشا: «عظيم. ربما أنه بدأ أخيرًا ولو لمرة واحدة في حياته يتصرف على النحو السليم، رغم أنني أشك في ذلك بشكل أو بآخر».. ولسعادة هيلدا جارد التفتت مارشا إلى سبتيموس وقالت له: «سبتيموس، لا تجعل هذا التنين يدخل هنا. خذه إلى الخلف. أنا واثقة من أن السيد بوت سيسعده ذلك». ومع هذه الكلمات، هرعت مارشا في اتجاه ظلال الممشى الطويل، ثم سُمع صوتٌ مدوٍّ إثر اصطدام مارشا بخادم التنظيف وانقلاب دلوه، فتركها سبتيموس توبخ خادم التنظيف سيئ الحظ وتعلمه أين يضع دلوه في المستقبل، وأخذ طريق الممر الذي سيلتف به إلى الجهة الخلفية من القصر، بينما ظل لافظ اللهب يهرول خلفه كأنه مربوط به بحبل خفي قصير جدًا.

وبعد أن ضلت مارشا الطريق عدة مرات، نجحت أخيرًا في الوصول إلى غرفة السندرة، ووصلت على صوت جدال.

«اسمع يا جرينج، أنا لست مسئولًا عن أنك لا تستطيع التحكم في فيشك. إن فيشتي الركالة لا يمكن أبدًا أن تركل كل شيء من على اللوح».

همهم جرينج قائلًا: «إنها فيشتك الركالة هي التي فعلت ذلك؛ لأن فيشتي كانت على وشك أن تقوم بمهمتها ثم طارت عبر الغرفة. وأنا لا أعلم أين هي الآن».

قال سايلاس متذمرًا، بينما كان يجثو على يديه وركبتيه وينظر بين الألواح الخشبية للأرض: «وأنا أيضًا لا أعلم أين اختفت هاتان الفيشتان. ربما أننا لن نراهما بعد ذلك أبدًا. هيه».

وإذا بصوت مارشا يرن فجأة في السندرة الطويلة والخالية مع دخولها بخطوات سريعة، متوجهة نحو اللاعبيْن الجالسيْن عند الطرف البعيد، وهي تقول: «سايلاس هيب، ما هذا الذي تفعله؟» انتفض سايلاس، وبه إحساس بالذنب، فاصطدم رأسه بعارضة منخفضة.

«أوه!».

أما جرينج فما إن رأى الساحرة العظمى تقترب منهما، وعباءتها تطير خلفها، وعيناها ينطلق منهما شرر، ويكسو وجهها نظرة غاضبة – حتى ابيض وجهه من فرط الذعر. وعلى الفور قال لها: «لقد كنا على وشك إعادة اللوحة الزيتية إلى مكانها، صدقيني».

قالت مارشا بنبرة حادة، واتهام لا يشوبه مثقال ذرة من الظلم: «إن الصدق ليس من الصفات التي أربطها بك تلقائيًا يا جرينج».

قال سايلاس: «اهدئي يا مارشا. لا تبالغي، فنحن بالفعل نقوم بالمهمة، وأنا لا أرى أي داعٍ لكل هذا».

«وهذا يا سايلاس هو السبب الذي يجعلك مجرد ساحر عادي. إن هذه الغرفة كانت **محكمة الغلق** لسبب، وهو أن يظل شبح الملكة إيثلدريدا **محكم الغلق عليه** داخل الغرفة – مع حيوانها المقزز الذي تربيه، أيًا كان هو، والذي انطلق في القلعة يشبع الناس عضًا وينشر المرض الغامض..».

قال سايلاس معترضًا: «ما هذا الهراء يا مارشا؟ أنت لا تستطيعين أن تلقي عليّ باللوم وتتهميني بأني المسئول أيضًا عن انتشار المرض الغامض..».

«أنت الذي أخرجت اللوحة من هنا، لا أحد غيرك فعل ذلك. فمنذ أن أبطلت بحمقك **مفعول الغلق المحكم** على البورتريه، تصادف ظهور المرض الغامض. والأسوأ من ذلك، أصبحت الملكة إيثلدريدا حرة طليقة».

رد سايلاس معترضًا: «إنها ليست سوى شبح يا مارشا. ليس هناك داعٍ لتأجيج المشاعر حول هذا الموضوع. فهناك العديد والعديد من الأشباح هنا في القلعة، وبعضها مزعج جدًا – وبعضها أسوأ من ذلك.. أقصد أن هناك مثلًا ذلك الشبح المزعج الذي يصفر، وهناك...».

«كفى يا سايلاس. إن إيثلدريدا ليست شبحًا عاديًا. إنها خطيرة يا سايلاس. إن ابنها هو الذي **أغلق عليها غلقًا محكمًا** – ابنها شخصيًا والذي كان يعلم تمامًا ما الذي تستطيع أن تفعله والدته».

سألها سايلاس، وقد بدأ يخالجه إحساس مزعج حول موضوع البورتريه برمته: «ماذا تقصدين بقولك أنه يعلم ما الذي تستطيع أن تفعله والدته؟».

«أن تقتل ابنتيها الأميرتين. وريثتيها الشرعيتين للقلعة. والآن، تم إطلاق سراحها وأصبحت حرة طليقة في زماننا، وهي تنوي على شيء ما».

فسألها سايلاس: «ماذا؟ أنت تقصدين... چينا؟».

«هذا بالتحديد ما أقصده: والآن بعد عودة چينا...».

شهق سايلاس وقال: «چينا عادت! أهي بخير؟».

«حتى الآن. إنها هي وسبتيموس...».

«سبتيموس. إذن، صحيح أنه عاد، أهما بخير؟» وبعد أن بدا لسايلاس وكأن همًّا ثقيلًا قد زال عن كاهله، شعر فجأة بفتور في رغبته في الجدال مع مارشا. وقال لها: «ساعدينا إذن يا مارشا. وسوف نعيد **إحكام الغلق** على اللوحة في التو واللحظة، أليس كذلك يا جرينج؟».

هز جرينج كتفيه. فكل ما كان يعنيه في الموضوع الآن هو أن مباراة أخرى من مباريات الفيش المتحركة انتهت نهاية مفتوحة بسبب سايلاس هيب.

وبينما كان البورتريه يتم نقله ببطء إلى غرفة السندرة، كان المركب الملكي الخاص بالملكة إيثلدريدا **يخترق** الحصار الذي أقيم بعد صخرة رافن بهدف منع انتشار المرض. وانتاب الصيادين الذين تم تجهيز المراكب بهم عند الحصار - رجفة مع هبوب ريح باردة مرت بحبال

أشرعة السفن وصواريها فجعلت الحبال تهتز بصوت مخيف. كانت الملكة إيثلدريدا جالسة بمفردها على مقعدها الشبحي - فكائن الأي أي كان عند دار المخطوطات يتحرك خلسة، مترقبًا خروج بعض الكتبة من ذوي الجلد اللين بعد ساعات العمل كي يعضهم. ومع تقدم المركب الملكي في طريقه مخترقًا الحصار، وتوجهه مبحرًا في اتجاه تيار النهر إلى مرسى القصر، كانت الابتسامة التي ترتسم على شفتي الملكة الرفيعتين تزداد اتساعًا؛ إذ كانت تحمل مسدس چينا الفضي وقد أخذت تهدهده بين يديها.

كان المسدس الفضي جاهزًا للإطلاق، بعد أن عمرته بالرصاصة المسماة باسم چينا، المحفور عليها حرفا (أ. ط)؛ اختصارًا للأميرة الطفلة.

وفي السندرة، كان بورتريه الملكة إيثلدريدا يرفض العودة إلى مكانه في هدوء. وكان سايلاس لا يساوره شك في أن البورتريه عضهُ، وبدا لجرينج وكأن ذراعيه قرصتهما كابوريا ضخمة، وذلك أثناء خوضهما في معركة عبور السندرة بالبورتريه، وتوجههما نحو الغرفة التي **أُبطل مفعول غلقها**. وفي منتصف الطريق، أطلق جرينج صرخة حادة وأسقط اللوحة الزيتية، فحطت على أصبع قدم سايلاس، وكانت مارشا في نهاية الأمر قد نفد صبرها تمامًا وطفح بها الكيل، فصاحت قائلة: «تراجعا أنتما الاثنان للخلف! فسوف أقوم أنا **بإرسال** اللوحة إلى الغرفة».

فتملك سايلاس الذعر وقال لها: «لا يمكنك أن تفعلي ذلك، فما يدريك إلى أين سينتهي بها الأمر بهذه الطريقة».

قالت مارشا بنبرة حادة: «أنت لن تعلمني عملي يا سايلاس هيب. لسوف يذهب إلى حيث أرسله».

همهم سايلاس قائلًا: «لا تعولي على ذلك يا مارشا».

لم ترد عليه؛ فقد بدأت تستدعي **السحر** الذي تحتاج إليه لعملية **الإرسال** – ولقد كانت تحتاج منه قدرًا كبيرًا. راقب سايلاس السديم **السحري** الذي ظهر حول مارشا – وقد ظهر في صورة سحب أرجوانية تتراقص يمينًا ويسارًا، إلى أن بات من الصعب تحديد الحدود الفاصلة بين كتلة مارشا وفراغ السَّندرة. أما جرينج الذي فغر فاه، فقد وقف يراقب مارشا فحسب وهي تبدأ في الترتيل بصوت بطيء، مع التحديق بإمعان إلى البورتريه، وتقول:

«اذهبي إلى حيث أرسلك
لا تتأخري حتى نهايتك
ابقي في المكان الذي أذكره لك
وتذكري الآتي: بكل كيانك
اذهبي إلى غرفتك!».

وعلى الفور، خالج مارشا إحساس بأنها أخطأت في شيء ما. وتذكرت كلمات ألثر الحكيمة – كوني محددة يا مارشا، اذكري ما تقصدينه بالضبط – لكنها أدركت ذلك بعد فوات الأوان. فقد غلف البورتريه ضباب **سحري**، كما كان مقصودًا. وارتفع بورتريه الملكة إيثلدريدا كما

كان مقصودًا، ثم انطلق مندفعًا خارج النافذة، وهو ما لم يكن بكل تأكيد مقصودًا.

انحنت مارشا تطل برأسها من النافذة لترى ما الذي حدث، وراقبته وهو يطير في الهواء ويختفي في جدار البرج الصغير – ليدخل مباشرة في غرفة الملكة.

انتظرت مارشا سماع تعليقات سايلاس اللاذعة، لكنها لم تسمع منه شيئًا؛ إذ كان قد اختفى.

ولأن المراكب الشبحية لا تصدر أصواتًا أثناء إبحارها، لم تسمع چينا مركب إيثلدريدا مع اقترابه من مرسى القصر. وواصلت النوم في سلام، لكن فرخ البط استيقظ من نومه. لقد وجد شيئًا في الأجواء ذكره بمكان رهيب؛ مكان تنبعث منه رائحة البرتقال.

وفي زمن بعيد، كانت سنوري سنوريلسن التي لم تعد وحدها الآن، جالسة عند المنزلق الثعباني مع تكو هيب يراقبان المياه تتدفق أمامهما. وبينما كانت تنظر بذهن شارد في الخندق المائي، رأت مرة أخرى – من خلال عيني أولر – المركب الملكي يتوقف عند المرسى، ورأت الملكة إيثلدريدا تقف والمسدس في يدها، ورأت المسدس الفضي اللامع يتلألأ في ضوء شمس الشتاء عندما كانت إيثلدريدا ترفعه وتصوبه نحو چينا التي كانت نائمة.

* * *

وعلى الرغم من أن سنوري يفصل بينها وبين أولر خمسمائة عام فمازال أولر هو قطها، ومازال يفعل ما تطلبه منه سيدته. وهو ما جعل أولر فجأة تدب فيه الحياة ويندفع نحو الشبح. لكن هذه المرة، وقد أصبحت إيثلدريدا هيئة حقيقية ملموسة بشكل أكبر، قاومت القط البرتقالي الصغير وضربته بالمسدس ضربة طيرته بعيدًا فطُرح أرضًا، لكن بعد أن أطلق صرخة أيقظت چينا من نومها.

انتفضت چينا فزعة وجلست بعينين مازال يملؤهما النعاس، ولم تجد أي منطق فيما يحدث حولها؛ إذ كان أولر يزحف على امتداد سطح المرسى، وكان فرخ بط بدون ريش يلف ركضًا في حلقات، ويزقزق كجرس المنبه.

وكانت أليس، والتي كانت جالسة على تجيل البساتين، قد سمعت صرخة أولر، ورأت وميضًا مع سقوط ضوء الشمس على المسدس فقالت لألثر الذي كان يغفو: «هذا غريب، هناك شيء ما يحدث عند المرسى».

فتح ألثر عينيه، ورأى ما لا تستطيع أليس أن تراه. وبهلع، انطلق الشبح عبر البساتين متجهًا نحو النهر.

قالت أليس وهي تتبع خطاه: «ألثر! ألثر، ما الأمر؟».

ومع نزول الملكة إيثلدريدا مبتهجة من على متن المركب الملكي، شعرت چينا ببرد قارس يحيط بها، وكأن دلوًا مملوءة بالماء البارد سُكبت عليها. فعادت فجأة إلى اليقظة والانتباه. كان هناك مسدس يحوم في

الهواء.. إنه مسدسها.. المسدس الذي كان يستخدمه الصياد ويطاردها به. ذلك المسدس الذي كانت العمة زيلدا تحتفظ لها به في أمان. فما الذي يفعله هنا الآن وهو موجه إليها هكذا؟

رفعت الملكة إيثلدريدا المسدس الفضي، وصوبته نحو چينا في اللحظة التي وصل فيها ألثر كأنه ريح دوامة. وصاح يقول لچينا: «ابتعدي!»، ثم ألقى نفسه على إيثلدريدا، لكنها اخترقته مثلما تخترق السكين قالب الزبد. وانهار ألثر مذهولًا من كم الحقد الذي تحمله هذه الروح الملموسة.

ترددت چينا.

وجذبت إيثلدريدا الزناد.. ثم انطلقت الطلقة من المسدس بصوت مدوٍّ، فألقت أليس نيتلز بنفسها على چينا، وأصابت الرصاصة هدفها.

وهكذا، اخترقت الرصاصة قلب أليس ولم تخرج. إنها رصاصة فضية صغيرة، محفور عليها حرفا (أ. ط) فأليس نيتلز – والتي أطلقت عليها والدتها – بيتي طبق – اسم أيونا يوم مولدها – نشأت عند عمتها ماري نيتلز التي دائمًا ما كان اسم أليس بروقها، فلا أحد يستطيع أن يخدع الرصاصة الفضية.

49
نيران الهواء الطلق



لم يكن هناك أمل في إنقاذ أليس. كانت ممددة على سطح المرسى، في شحوب وسكون، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة مسالمة. كان حولها سايلاس ومارشا اللذان جثوا على ركابهما بجوارها بعد أن وصلا جريًا مع سماع صوت الطلقة، كما كان إلى جوارها ألثر، وچينا التي كانت تحمل بين ذراعيها أولر المغشي عليه.

وكان يقبع بجوار ألثر على الأرض المسدس الفضي الذي ألقته إيثلدريدا باشمئزاز ونفور.

وبينما كان ألثر يربت برفق على شعر

أليس، بدأ يدرك أنه هو وأليس أخيرًا - بعد طول انتظار - التأم شملهما. وكان من المستحيل عليه ألا يتساءل في سره عما إذا كانت أليس فكرت في ذلك وهي تلقي بنفسها في طريق الرصاصة - وإذا ما كان ذلك هو السبب الذي يجعلها الآن تبدو مسالمة إلى هذا الحد.

كسرت مارشا صمت الذهول الذي كان يحيط بأليس، وقالت: «چينا، أريدك من الآن فصاعدًا أن تلازميني. أنتِ لست في مأمن مادامت إيثلدريدا طليقة وغير مغلق عليها بإحكام. والآن، أين ذلك التنين البائس؟ أعتقد أننا نستطيع ولو لمرة واحدة أن نستفيد منه».

فأومأت لها چينا برأسها، ثم نظرت حولها بحثًا عن إيثلدريدا، وتمنت لو أن سنوري كانت موجودة لتساعدها. لم تر أي أثر لها، لكنها أدركت أن هذا هو ما تريده الملكة. وبقلق، قامت ومددت أولر على بطاطينها. تقلب القط البرتقالي وفتح عينيه، ثم حدق إلى چينا بنظرته الشاردة بعيدًا، والتي تخلو من التركيز.

رفعت چينا فرخ البط الذي كان يرتجف، ووضعته بين أرجل أولر ليستدفئ، ثم ذهبت هي ومارشا تبحثان عن لافظ اللهب. كان التنين في حديقة المطبخ يبتلع تفاح الفطائر وأنفه ينخر بمرح وحماس، وكان سبتيموس قد سمع صوت الطلقة النارية، لكنه اعتبره جزءًا من عملية هضم التنين. وكان ينتظر بنفاد صبر بينما كان لافظ اللهب يلتهم آخر ما أسقطته الرياح المفاجئة، ولم يلحظ وصول مارشا وچينا، ولم يلحظ أيضًا أن الملكة إيثلدريدا كانت تتربص خلف چينا، رغم أنه لو كان نظر بتمعن،

لربما كان سيرى غشاوة معتمة في الأجواء؛ حيث بدأت إيثلدريدا تزداد قربًا إلى **الهيئة الحقيقية الملموسة**.

ومن خلال عيني أولر، رأت سنوري إيثلدريدا وهي تتربص بجينا كما يتربص النمر بفريسته.

سارت مارشا نحو سبتيموس، وقالت له: «جهز التنين، فنحن نحتاج إلى نار في الحال».

قال سبتيموس: «إنه لا يستطيع أن يلفظ نارًا».

قالت جينا مصححة: «بل يستطيع».

«لا، لا يستطيع».

«بل يستطيع. انظر إلى عينيه، سوف ترى فيهما حلقة النار الحمراء».

وقف سبتيموس على أطراف أصابعه، ونظر في عيني لافظ اللهب اللتين لا ترمشان، ورأى بكل تأكيد أن قزحيتي عينيه تحيط بهما حلقة رقيقة حمراء. فسأل جينا بريبة: «كيف اكتسب ذلك؟».

قالت جينا تشرح له: «لقد كنت مضطرة لأن أقوم بعملية إضرام نار».

قال سبتيموس، وقد أزعجه أنه لم يكن موجودًا في مثل هذه اللحظة المهمة: «لكنه تنيني أنا».

فتدخلت مارشا قائلة: «دعكما من هذا الهراء الآن، لا يهم الآن من هو صاحب التنين.. اتبعاني»، ثم خرجت من حديقة المطبخ بخطوات واسعة. وعندما رأى لافظ اللهب الشخص الذي كان يبحث عنه يتوارى

عن الأنظار بسرعة، تجرع آخر ثمار تفاح الفطائر، وتجشأ جشأة برائحة عصير التفاح، ثم هرع خلف سبتيموس. وكاد يدوس على الملكة إيثلدريدا، لكن ما أحبط سنوري أنها استطاعت أن تتجنبه في التوقيت المناسب، وواصلت تربصها بجينا.

لم تكن إيثلدريدا مستعدة للاستسلام؛ فهي وإن كانت قد فشلت في استغلال فرصتها بالمسدس، إلا أنه لا أحد سيستطيع أن يحبط خطتها الآن – فهي من الآن فصاعدًا سوف تتبع جينا أينما ذهبت. والوقت متسع تمامًا أمامها، والفرصة بلا شك سوف تأتي. وما عليها سوى انتظار اقتراب جينا قربًا شديدًا من حافة درابزين مثلًا، أو وقوفها في مسار حصان منطلق سريعًا، أو وجودها بجانب نار متوهجة تدفئ يديها.. وحينها سوف تكون هي – الملكة الشرعية إيثلدريدا – بجوار جينا مستعدة.

وبينما كانت جينا تتبع خطوات مارشا عبر البساتين، شعرت برجفة تسري في جسدها، فدلكت مؤخرة عنقها الذي بدا باردًا على نحو غريب، ثم نظرت خلفها، إلا أنها لم تر شيئًا.

توقفت مارشا وسط البساتين، بين مبنى القصر والنهر، وقالت: «سوف نفعل ذلك هنا. سبتيموس، أحتاج إلى نار فورًا».

رد سبتيموس بتذمر: «لا أعرف كيف أفعل ذلك».

قالت جينا وهي تُخرج صفيحة الملاح من جيب ردائها: «سوف أريك كيف تفعل ذلك»، وحاولت جاهدة إلى أن فتحتها، ثم ناولته قطعة الجلد الخاصة **بعملية الإضرام**. لم يبد على سبتيموس الانبهار، لكنه أخذ قطعة

جلد التنين وتفحصها بإمعان، ثم قال: «أهذا هو كل ما عليك أن تقوليه؟ اضرم».

فأومأت له چينا برأسها.

«أنتِ متأكدة أنه ليس هناك شيء آخر يا چين؟».

تنهدت چينا، وقالت وهي تكظم في نفسها شعورها برجفة أخرى: «بالطبع متأكدة. لقد فعلت ذلك بالفعل كما تعلم».

لم يبدُ على سبتيموس الاقتناع، لكنه رغم ذلك أخذ نفسًا عميقًا، ونظر في عيني التنين بحلقتيهما الحمراوين، ثم قال بصوت مرتفع: «اضرم!».

ولأن لافظ اللهب كان لديه مخزون كبير من الوقود - حيث مازالت معدته يثقل عليها بشكل غير مريح قطيع سارن المقدس - غمرته السعادة وأطاع الأمر. وبدأ الزئير في أعماق معدته النارية، وازداد أكثر فأكثر، وقد أخذ يرج الأرض ويملأ الأجواء بهزات قصيرة غير مستقرة مع تراكم الغازات في جوفه، إلى أن وصل ضغط الغازات إلى الحد الأقصى - وانفتح صمام النار. وباندفاع شديد أذهل لافظ اللهب نفسه قبل أن يُذهل الآخرين كلهم، انطلقت الغازات من فتحتي أنفه المتوهجتين، وضربت الهواء فاضرم الهواء في صورة تيار متدفق من اللهب الذي أخذ يزأر زئيرًا مدويًا.

قفز الجميع على الفور إلى الخلف، وفركت الملكة إيثلدريدا يديها من السعادة؛ فما كانت تتوقع أن الفرصة سوف تأتيها بهذه السرعة. فهل هناك ما هو أفضل من دحرجة سريعة في طريق نار التنين؟ ولن يتمكن

أحد حينها من أن ينقذ چينا في الوقت المناسب. ليس مع نار بهذا الشكل. ومن كان يتصور أن تلك المرأة المتطفلة، مارشا أوفرستراند، سوف توفر لها بنفسها بكل هذه العناية فرصة سريعة هكذا؟! أخذت إيثلدريدا تحوم، تنتظر بفارغ الصبر اقتراب چينا أكثر - بالقدر الذي لا يحتاج إلا لدفعة بسيطة..

وبعيدًا عبر الزمن، كانت سنوري في حالة من الهلع. لقد رأت إيثلدريدا، ورأت النار، فنادت أولر، لكن القط البرتقالي الذي كان مازال مصدومًا، لم يفعل شيئًا.

صاحت مارشا بصوت أعلى من زئير الغازات والشعلات: «واصل إضرام النار يا سبتيموس! والآن، حان الوقت لنيران الهواء الطلق.. تراجعوا للخلف جميعًا».

مرة أخرى، أحاط بمارشا سديم سحري، وعندما تأكدت الساحرة العظمى أن سحرها اكتمل، وأنها محمية تمامًا، ذهبت إلى لافظ اللهب الذي مازالت النار تتدفق من ثقبي أنفه. نظر إليها التنين قلقًا بعينين تتوسط كل منهما الحلقة الحمراء، لكن دون أن يتحرك، ثم مدت مارشا يدها في النار المتدفقة منه، وسط دهش سبتيموس وچينا، وأخذت نارًا بملء يدها، ثم كورتها في يدها إلى أن بدت كأنها عجينة ضخمة مكورة ومتوهجة، وأخيرًا، ألقتها عاليًا في الهواء، وهي ترتل قائلة:

أيتها النار النقية

اشتعلي عالية

تحولي إلى لهب محرق

تحولي إلى نيران الهواء الطلق

انفجرت نار مارشا وتحولت إلى كرة نارية هائلة الحجم. وبأقصى درجة من التركيز أنزلت مارشا الكرة التي أخذت تزأر، إلى أن باتت تطفو فوق سطح الأرض بعدة أقدام. وهنا، أخذت الكرة تحوم وهي تشتعل بلهب برتقالي ساطع له نواة باللون الأرجواني العميق، يلقي بظلال طويلة راقصة عبر البساتين. وهكذا، باتت **نيران الهواء الطلق** جاهزة.

وتوقف التنين عن لفظ النار التي كان يُشعلها بعد أن أرهقت معدته النارية. ومع استقرار صوت زئير **نيران الهواء الطلق** وهدوئها، اقترب سبتيموس وجينا من النيران، ليراقبا مارشا وهي تبدأ الجزء الثاني من خطتها – عملية **البحث والجلب**. وهنا، أشرقت ملامح إيثلدريدا المدببة من فرط الحماس، دون أن يراها أحد، ولا حتى ألثر الذي كان لا يزال مصدومًا لما حدث لحبيبته أليس. توجهت إيثلدريدا خلف جينا، ويدها الشريرة تحوم على بعد لا يزيد على بوصة من ظهر جينا، منتظرة اللحظة المناسبة لهذه الدفعة الأخيرة.

سنوري فقط هي التي رأت هذا الخطر المحدق بجينا، وقالت لنكو: «إن أولر لن ***يسمعني****، لكن ربما أن هناك فرصة أخيرة.. لا أعلم إذا كنت*

أستطيع أن أقوم بها، لكن لا بد أن أحاول»، ثم قامت سنوري بما لم تجرؤ قط أن تقوم به من قبل؛ *لقد* **استدعت** *روحًا عبر الزمن*. وفي حانة فجوة السور، وجد شبح أولاف سنوريلسن نفسه، ولدهشه، مرفوعًا، ومسحوبًا من وسط حشد الأشباح، وكاسرًا كل قواعد عالم الأشباح، اندفع أولاف إلى القصر. وهنا، رأت سنوري ولأول مرة في حياتها والدها.

والآن، وكما قررت إيثلدريدا، حان الوقت لكي تدفع جينا وسط لهيب النار في الحال.. مدت إيثلدريدا يدها – فإذا بأولاف سنوريلسن يمسكها من خصرها. وهو إن كان لا يدري السبب الذي جعله يفعل ذلك، لكن هذا هو ما فعله على أية حال.

فصاحت إيثلدريدا تقول: «ابعد يديك عني أيها الشرير الأحمق!» ما كان هناك شيء يمكن أن يسعد أولاف في هذه اللحظة أكثر من أن يترك هذه الروح الحادة المعظمة، ولكن ما كان ذلك في وسعه؛ إذ كان هناك شيء يمنعه عن ذلك. شعرت جينا بوخزات خلف ظهرها. ومرة أخرى نظرت حولها، لكنها لم تر شيئًا من المعركة التي كانت مندلعة بين الشبحين فوقها. وعلى الرغم من حرارة لهيب النار، كانت جينا ترتجف، ثم التفت وعادت لتراقب مارشا.

كانت مارشا الآن في غمار مهمة **البحث والجلب**، رأت جينا من بين الضوء الأرجواني للهيب النار والسديم **السحري**، بورتريه الملكة إيثلدريدا والآي آي ينبثق من خلال جدار البرج الصغير. وبينما كانت مارشا

تسحبه كما تسحب الصنارة السمكة التي تقاوم الصياد – وهو يرفرف ويضرب في الهواء – وواصلت سحبه بإصرار تام نحو **نيران الهواء الطلق**.

رأت إيثلدريدا أيضًا هذا المشهد، وهي تدرك يقينًا ما سيلي ذلك، فضاعفت من جهدها؛ حتى تتخلص من قبضة أولاف سنوريلسن. فهي إن كانت ستدخل **نيران الهواء الطلق**، فلن تدخلها وحدها – بل ستأخذ جينا معها أيضًا. لكن أولاف سنوريلسن الذي كان في حياته رجلًا قويًا ونحيلًا، تشبث بذراعي الملكة إيثلدريدا، ولم يُتح لها الفرصة ولو لمرة واحدة أن تقوم بدفع جينا تلك الدفعة القوية التي تشتاق إليها.

أصبح البورتريه الآن يحوم فوق لهيب النار، يقاوم لآخر لحظة. وازداد عمق السديم الأرجواني الذي يحيط بمارشا، وفجأة انطلق صوت فرقعة مدوية تردد صداها حول جدران القصر – وانتهت المعركة بانتصار مارشا. واستسلم البورتريه وكفّ عن المقاومة، وبصوت صفير مدوٍّ، ابتلعته **نيران الهواء الطلق**، وانفجر البورتريه في صحية دخان أسود. وبصرخة رهيبة، دخلت إيثلدريدا في لوحتها، وأكلتها **النيران**.

وهكذا، انتهت إيثلدريدا البشعة.

ضحكت سنوري بعد أن غمرها شعور بالسعادة والارتياح. وعلى مضض – حيث كانت تود أن ترى والدها لمدة أطول – تركته يعود إلى أمان حانة فجوة السور، حيث جلس هناك مذهولًا لعدة ساعات، يتجرع جعته، ويتساءل في سره لماذا تلوح في ذهنه بإصرار صورة لفتاة شابة تشبه كثيرًا عزيزته ألفرون.

لكن مهمة **البحث والجلب** لم تكن قد انتهت بعد؛ فقد ظهرت نقطة صغيرة في السماء فوق القصر، وانطلق صراخ رهيب في الأجواء يخرق الآذان «أي أي أي أي!» واندفع كائن الأي أي الذي تربيه إيثلدريدا مطلقًا صرخة بشعة نحو **نيران الهواء الطلق** وهو يتلوّى ويقاوم، مع رفرفة ذيله الثعباني حوله، وجحوظ عينيه الحمراوين المستديرتين من فرط الهلع، ثم انضم إلى سيدته ودخل في لهيب النار.

وفي أعماق **نيران الهواء الطلق**، كان هناك شيء ما يأخذ مجراه. كان يُرى في مركز اللهيب الأرجواني بريق ذهبي قوي. وفي ذهول، أخذت جينا وسبتيموس يراقبان المنظر إلى أن سطع هذا البريق الذهبي بالدرجة التي استحال عليهما مواصلة النظر إليه. وبينما كانا يلتفتان للنظر بعيدًا، تدحرج شيء من وسط النيران، وحط على النجيل مرتطمًا بصوت خافت، ولدهشتهما رأيا تاج إيثلدريدا وقد أخذ يرتد على امتداد النجيل المحروق ويتدحرج على المنحدر نحو النهر. هرعت جينا خلفه، ومدت يدها لتمسكه لكنها أخفقت – وسقط التاج في النهر مع انبعاث هسيس قوي لبخار. وعلى الفور ألقت جينا نفسها على ضفة النهر، وهي تُغطس ذراعيها في المياه الباردة كالثلج، والتقطت التاج الذي كان يغوص ببطء في المياه.

وبهذا الانتصار، ذهبت جينا والمياه تتساقط منها، وبين يديها التاج الحقيقي تمسكه لأول مرة، وجلست بجوار سايلاس، وألثر، وأليس الممددة في شحوب وسلام على سطح المرسى. همهمت جينا قائلة، وهي تعالج

التاج الذي بدا لدهشها ثقيلًا جدًا بين يديها: «أشكرك يا أليس. أشكرك لأنك أنقذت حياتي. سوف أتذكرك دائمًا كلما ارتديت التاج».

قال سايلاس الذي كان لايزال مهزوزًا مما حدث: «لقد قامت أليس بعمل رائع. لكن ربما من الأفضل ألا نخبر والدتك بشيء الآن؟».

قال ألثر: «إنها سرعان ما ستكتشف الأمر. فبحلول الصباح ستكون الأخبار قد انتشرت في أنحاء القلعة».

قال سايلاس بنبرة مكتئبة: «هذا هو ما يقلقني»، ثم ابتسم لچينا وقال: «لكنك عُدتِ سالمةً،وهذا هو المهم عندي».

لم تنطق چينا بكلمة، وأدركت فجأة شعور سايلاس. إنها لن تستطيع أن تخبره الآن، خاصة عن نكو، فالوقت لم يحن بعد.

أخمدت مارشا **نيران الهواء الطلق**، وانطفأ البريق الأرجواني للهيب، ليحل محله ضوء الشفق، ثم انضمت مارشا وسبتيموس ولافظ اللهب إلى المجموعة المحتشدة بحزن عند المرسى. خلعت مارشا عباءتها الشتوية الثقيلة المبطنة بفرو بذنجاني، ثم طوتها ووضعتها أسفل رأس أليس. ثم سألت ألثر: «كيف حالك الآن؟».

هز ألثر رأسه، ولم يرد.

جلست چينا في هدوء تنظر إلى التاج الحقيقي، وعلى الرغم من أنه ظل على رأس الملكة المستنكرة إيثلدريدا لسنوات طويلة، بدا بهيجًا بين يديها - وبينما كانت تمسكه، سقط آخر شعاع غروب الشمس على الذهب الخالص، وبرق التاج كما لم يبرق من قبل عندما كان يتوج الرأس الغاصب للملكة إيثلدريدا.

قالت لها مارشا: «إنه ملكك الآن يا چينا. إن التاج الحقيقي أصبح معك، التاج الذي سرقته إيثلدريدا من ذريتها».

* * *

سقط الظلام دون أن يلحظ أحد، وانتشر سواد طرف ذيل أولر النهاري ببطء، عبر جسمه البرتقالي، وتحول إلى الكائن الليلي الذي هو كذلك في حقيقته. جلس أولر الليلي كأبي الهول، وعيناه الخضراوان لا تريان شيئًا سوى الذي تطلبه منه سنوري.

وبعيدًا في زمن آخر، **رأت** سنوري چينا وهي تحمل تاجها، وعلمت أن كل شيء بات على ما يُرام. فأطلقت سراح أولر، وقالت له: «اذهب يا أولر، اذهب مع چينا إلى أن أعود».

نهض أولر الليلي، وتحسس طريقه، ثم أخذ مكانه بجوار چينا التي قالت له: «مرحبًا يا أولر. مرحبًا بعودتك».

وابتسمت چينا، وهي تربت على ظهر النمر الأسود وتخربش أذنيه، ثم قالت له: «تعال معي، ثمة شيء أريدك أن تراه».

بينما كانت ساعة القصر تدق منتصف الليل، وقد أنار ظلامَ الليل ضوء مائة شمعة وشمعة - بعد أن وضعت چينا شمعة مضيئة عند كل نافذة من نوافذ القصر - وقفوا جميعًا عند المرسى يودعون أليس وهم يلوحون لها، بعد أن وُضع جثمانها في مركبها الذي كان يبتعد منجرفًا ببطء. جلس ألثر بهدوء إلى جوار الشبح المستجد لأليس، وهو الأمر الذي سيداوم عليه على مدار السنة التالية واليوم الواحد في هذه البقعة

بالتحديد – فحسب قوانين عالم الأشباح، لا بد أن يمكث الشبح سنة ويومًا واحدًا في المكان الذي دخل فيه إلى عالم الأشباح، وألثر لا ينوي أن يترك أليس تقضي وحدها هذه الفترة.

تنهدت مارشا مع اختفاء المركب الذي يحمل جثمان أليس وسط ظلام الليل، لتبدأ أليس رحلتها الطويلة إلى العالم الآخر، وقالت: «يا له من يوم! أتمنى ألا يكون لديك خطط مثيرة للغد يا سبتيموس».

هز سبتيموس رأسه نافيًا، رغم أن نفيه ذلك لم يكن صحيحًا تمامًا؛ فقد خطط لشيء مثير للغد،لكنه تصور أن مارشا لن تُقدر كثيرًا لو أخبرها بتفاصيل الطريقة التي سينقذ بها مارسيلوس باي من قدره الأسوأ من الموت، ويستعيد هو وصفته السحرية للطيران.

ولأنـه آثر تبسـيط الأمور، ابتسـم لمارشـا وقـال لها: «سـوف أذهب لأصطاد سمكًا».

أمور قد تود أن تعلم عنها...

الملكة إيثلدريدا والبورتريه الموجود في السندرة

بعد أن سقطت الملكة إيثلدريدا في النهر، لم تكترث بأن تنقذ نفسها – فما الداعي إذا كانت هي أساسًا متحمسة لأن تبدأ رحلة الإبحار إلى الحياة الأبدية مباشرة؟! فظلت تحدق إلى سطح الماء فوقها وهي قابعة في القاع، لكن سرعان ما بدأت تتساءل في سرها ما سبب إحساسها الغريب هذا؛ إحساس كأنها جوفاء وغير موجودة إلى حد ما.. وبنفاد صبر، أخذت تراقب قاع المركب الملكي أثناء الساعات التي انتظرها البحار الذي لم يجرؤ على الرحيل؛ خشية أن يرحل بدونها.

وفجأة، بدأ ينمو لدى إيثلدريدا شعور بأن جرعة مارسيلوس لم تنجع – وأنـهـا بـاتت لا تـزيـد على أي شبح عادي.. ولعدم علمها بأن الجرعة

نجعت إلى حد ما، وأنها أصبحت بالفعل **روحًا حقيقية ملموسة** - لصعوبة تمييز ذلك في بادئ الأمر - ظلت إيثلدريدا قابعة في القاع، تراقب سطح المياه المتحرك، وهي تستشيط غضبًا أكثر فأكثر.

ووصل مزاجها إلى حالة الغليان عندما توصل أخيرًا مارسيلوس باي إلى مكانها. وهكذا، وبعد مرور ثلاثة عشر يومًا منذ لحظة انزلاقها في النهر وغرقها، **استدعاها** ابنها في منتصف الليل، وانطلقت إيثلدريدا من المياه الداكنة للنهر كما تنطلق السدادة من فوهة زجاجتها، وبينما كانت تصرخ وتركل، سُحبت وهي تحلق في جو قارس، مع **اختراق** رقائق عملاقة من الثلوج، وتحول محتواها السائل إلى جليد. ورغم اعتراضها المتواصل، تم سحبها إلى الغرفة الصغيرة المخفية أسفل الإفريز عند الطرف البعيد من سندرة القلعة؛ حيث كان مارسيلوس باي وجوليوس بايك - الساحر الأعظم - ينتظرانها. وبين العباءة ذات اللونين الأسود والأحمر التي يرتديها الكيميائي، والعباءة الأرجوانية التي يرتديها الساحر، رأت هناك البورتريه الذي يصورها بالحجم الطبيعي مع كائن الأي أي.

وكانت إيثلدريدا تعلم عن **السحر** ما يكفي حتى تعرف ماذا كانا يضمران لها، ولكن لم يكن في وسعها أن تمنع ذلك. وعلى الرغم من ركلاتها وعضاتها، ولكماتها وخربشتها، سحب جوليوس بايك ومارسيلوس باي **الروح الملموسة** لإيثلدريدا إلى صورتها المرسومة في اللوحة الزيتية؛ حيث انضمت إلى كائن الأي أي الذي كان مارسيلوس قد قبض عليه في اليوم السابق وقتله.

ثم أسند الرجلان البورتريه إلى الحائط، **وأحكما غلق** الغرفة، وظلت إيثلدريدا قابعة هناك هي وكائن الأي أي، إلى أن قام سايلاس **بإبطال مفعول الغلق المحكم** بعد خمسمائة عام.

الأميرة إيزميرالدا

بعد أن قام مارسيلوس **بإحكام الغلق** على إيثلدريدا في البورتريه، وتأكد من أن روحها لن تستطيع أن تؤذي إيزميرالدا، غادر عبر طريق الملكة، وأخبر إيزميرالدا بالأنباء. في بادئ الأمر، فرحت إيزميرالدا بعد أن زال عنها خطر والدتها، حتى بدأت تدرك أنها بالفعل ماتت. فقضت إيزميرالدا بعد ذلك فترة طويلة تجوب فيها مستنقعات مرام، وهي تفكر في والدتها وأختيها التائهتين. ورفضت أن تعود إلى القلعة، وعاشت سنوات المراهقة مع برودا، لكن عندما حان الوقت عادت بالفعل إلى القصر وتولت منصبها الشرعي كملكة.

وكانت إيزميرالدا تبذل كل ما في وسعها كي تحكم حكمًا صالحًا، على الرغم من أنها لم تتخلص قطُّ من طبعها العصبي بحكم أن الملكة إيثلدريدا والدتها. وفيما بعد، تزوجت من مزارع وسيم يتسم بالرزانة يعمل في مزارع التفاح التي تقع بعد الجسر ذي الاتجاه الواحد مباشرة، وأنجبت طفلتين، ديزي وبو، وأصبحت كل منهما ملكة بدورها؛ لأن ديزي أنجبت خمسة أبناء، ولم تنجب بناتٍ.

وبعد الكارثة الكيميائية العظمى - بعدما قضت سبعة أيام متواصلة تساعد مارسيلوس في إغلاق الأنفاق الجليدية **غلقًا محكمًا** - أصيبت بصداع مزمن وقضت معظم وقتها بعد ذلك في غرفة الجلوس الصغيرة التي تقع على واجهة القصر، بالستائر مسدلة، بينما خلفتها الأميرة ديزي المقتدرة عن جدارة وآل إليها القصر.

التيجان

منذ كانت هناك ملكات في القلعة، ظل التاج الحقيقي يتوج بجلالةٍ رءوسهن. وكان يُقال إن التاج الحقيقي صُنع من أنقى أنواع الذهب وأكثرها تمتعًا بقدرات **سحرية**؛ من الخيوط الذهبية التي غزلتها عناكب أوروم. وكان ذلك بكل تأكيد في زمن سابق لزمن حتب رع الذي أسس برج السحرة. لكن مع موت إيثلدريدا، فُقد التاج الحقيقي، وصح تنبؤ إيثلدريدا بأن إيزميرالدا لن ترتدي أبدًا التاج الحقيقي.

لكن إيزميرالدا لم تكترث بذلك. فإذا كان التاج الحقيقي قد فُقد، فليذهب إلى الجحيم. وأرادت إيزميرالدا أن يكون لها تاج جديد يتلألأ ويُصنع خصيصًا لها وعلى أحدث صيحات ذلك الزمن، والذي بدا مزخرفًا بشكل مبالغ فيه. لكنها ابنة أمها، فما تريده إيزميرالدا لا بد أن تحصل عليه إيزميرالدا. ولقد تم تتويجها في غرفة عرش القصر في يوم ممطر في عيد منتصف الصيف، وبعد أن توج رأسها بالتاج الجديد، ذهبت بتألق لزيارة المركب التنينية. رفعت المركب التنينية حاجبًا وهي

ترى كل هذا الكم من الألماس والأحجار الكريمة، لكنها لم تعلق. ولفترة، لم تفترق إيزميرالدا عن التاج، وكانت ترتديه في كل مكان، إلى أن أصيبت بتيبس في فقرات العنق، وكانت تخلعه على مضض عندما تخلد إلى النوم.

وكان هذا التاج هو نفسه الذي - بعد مئات السنين - هرب به الأمين الأعلى، تاركًا جينا بدون تاج - إلى أن تدحرج التاج الحقيقي من وسط **نيران الهواء الطلق**، وعثر على ملكته الشرعية.

كائن الآي آي

عثرت إيثلدريدا على كائن الآي آي في حديقة القصر عندما كانت فتاة صغيرة، وكان الكائن قد قفز من على متن سفينة بعد أن أدرك أن طاهي السفينة يخطط لطهوه لوجبة العشاء انتقامًا من عضة شريرة في كاحله تلقاها منه صباح ذلك اليوم. وفيما بعد مساء ذلك اليوم، كان الطاهي قد أصيب بهلوسة، وواصل طاقم السفينة يومهم بدون عشاء. وبعد ثلاثة أسابيع مات الطاهي؛ إذ إن كائن الآي آي ينقل المرض الغامض عن طريق العض.

لكن إيثلدريدا سرعان ما أدركت أن الآي آي يُعد سلاحًا من أمضى الأسلحة. وكانت والدتها يفزعها حيوان ابنتها الذي تربيه، لكنها لم تجرؤ على اتخاذ أي إجراء حاسم في الموضوع؛ لأن إيثلدريدا (أو إيثيل

المرعبة، كما اشتُهرت) أرادت الأي آي، وما تريده إيثلدريدا - حتى عندما كانت في التاسعة من عمرها - لا بد أن تحصل عليه.

وظل كائن الأي آي على قيد الحياة لسنوات طويلة على الرغم من كل محاولات خدم القصر التي كانت تتم خلسةً للتخلص منه. وكان يُقال إن إيثلدريدا كانت تهتم به أكثر من بناتها - وهو ما كان بالطبع صحيحًا.

برميل الدهن المتكبر

على الرغم من أن برميل الدهن المتكبر لم يكن هذا اسمه وهو طفل صغير، فإن اسمه الحقيقي لم يكن أفضل من ذلك بكثير، وهو ألوزيوس الشمسية! تيرزيوس دوبان. ولقد جاء الاسم (الشمسية) نتيجة خطأ من الكاتب الذي كان يقوم بتسجيل الأسماء في حفل التسمية، بسبب صيحة انطلقت من والد الطفل لزوجته عندما كان يأمرها بأن ترفع (الشمسية) من على قدمه.

وكان الشاب ألوزيوس الشمسية! طفلًا فريدًا يعرف كل شيء دائمًا. وعندما كان في العاشرة من عمره تمكنت والدته التي سئمت من تكرار التنبيه عليه بأن يرفو جواربه بالشكل الصحيح - من أن تضمن له وظيفة في القصر كمساعد لرسول السكرتير الرابع لحارس الأبواب الملكية.. ومنذ ذلك الحين انطلق ألوزيوس الشمسية! في مسيرته بطموحات لا حدود لها، وأخذ يتدرج في السلم الوظيفي بالقصر، إلى أن أصبح هو نفسه حارس الأبواب الملكية وهو في سن صغيرة لا تزيد على الرابعة عشرة.

وفي سن العشرين، ترقى ألوزيوس الشمسية! وأصبح نائب ياور الملكة إيثلدريدا، بعد أن اضطر الياور الحالي لأن يلزم الفراش إثر إصابته بوعكة صحية غامضة نتيجة تسمم غذائي - كانت إحدى الوعكات العديدة التي أصيب بها منذ أن بدأ ألوزيوس الشمسية! يجلس بجواره أثناء العشاء الأسبوعي الذي يقام للخدم. ولم يتعاف الياور بعد ذلك، وعُرض على ألوزيوس الشمسية! الوظيفة بصفة دائمة. وعلى الرغم من أن ألوزيوس الشمسية! كان مشهورًا حينها باسم المتكبر فلم يكتسب كنيته الكاملة إلا بعد أن قضى ثلاث سنوات أخرى يفرط فيها في تناول طعام القصر.

وبعد أن فر هاربًا من القصر إثر صفع الملكة إيثلدريدا، أخذ المركب الليلي إلى الميناء، وترك البلاد مع أول سفينة، ثم قضى بقية أيام حياته بعد ذلك في بلدة صغيرة في إحدى البلدات البعيدة الحارة جدًا، حيث عمل مفتش صرف في النهار، بينما كان يقضي الليالي في كي البقايا البالية من شرائط القصر التي كان يتقلدها.

اللوح الزجاجي الحقيقي العابر للزمن

كانت هناك في العصور القديمة العديد من الألواح الزجاجية الحقيقية العابرة للزمن، لكن على مر القرون فُقد بعضها، وبعضها الآخر تحطم، وبعضها - مثل لوح مارسيلوس - تحلل تحت تأثير القوى المعاكسة للزمن. وبحلول الوقت الذي أصبح فيه مارسيلوس باي كيميائيًا واعدًا في ريعان شبابه، كانت جميع هذه الألواح قد ضاعت.

ظل مارسيلوس يقرأ كل ما يمكن أن يعثر عليه عن الألواح الزجاجية العابرة للزمن، واكتشف العديد من الأمور، منها أن المرء يحتاج لزوج متوافق من الألواح الزجاجية يعمل بشكل مترابط معًا، وأن أيًا كان الذي يطرأ على أحدهما، سيطرأ على اللوح الآخر. كما أنه اكتشف أن المرء عندما **يخترق** أحد هذين اللوحين الزجاجيين يجد نفسه في مكان حر من عنصر زمن، ولكي يصل إلى مكان له زمن لا بد أن **يخترق** اللوح الآخر. لكن رغم كل جهوده لم يتمكن من العثور على تركيبة الزمن في أي مكان.

وبات مارسيلوس مهووسًا بفكرة الوصول إلى اكتشاف التركيبة، وبعد ثلاث سنوات من البحث، حالفه الحظ عصر يوم من أيام الشتاء، عندما كان من المفترض أن يقوم بزيارة لوالدته، ووقعت يده على نص قديم مـدفون أسـفل رزمـة قـذرة مـن الـكتـب في الجزء الخلفي من دار المخطوطات. حفظ مارسيلوس التركيبة، وعلى الفور أحرقها في شعلة الشمعة التي كان يحملها؛ لأنه لم يرد أن يكتشف أحد سواه هذا السر. لكن سرعان ما ندم على ذلك؛ لأن أول لوحين زجاجيين صنعهما لم ينجحا بالشكل المرجو؛ إذ نقلاه بالكاد عبر حائط صلب، ورغم روعة ذلك في حد ذاته، لم يكن هذا الإنجاز مرضيًا بالنسبة له، والذي كان يطمح لأن يتحرك بحُرية عبر الزمن.

ثم استقر به الرأي بعد ذلك على أن هذين اللوحين قد يكونان رغم ذلك مجديين. وأغلق تشغيل كل لوح منهما **بالمفتاح**، بحيث لا يتحكم فيهما غير **مفتاحه** هو فقط، ووضعهما في إطار مذهب ومزخرف، ثم أهدى

والدته أحد هذين اللوحين؛ ليتصالح معها بعد أحد شجاراتهما المتكررة. لم تهتم إيثلدريدا باللوح الزجاجي فوضعته في غرفة الملابس، وسرعان ما نسيت أمره. وكان من خلال هذا اللوح قد تم سحب سبتيموس.

أما اللوح الآخر فقد أهداه مارسيلوس إلى رئيس الكتبة في دار المخطوطات، والذي كان رجلًا مغرورًا عديم الجدوى، وسحرته فكرة امتلاك مرآة خاصة به هو شخصيًا؛ حيث كانت المرايا في ذلك الزمن تُعد سلعة باهظة الثمن إلى حد لا يتصوره عقل، ولم يدرك أن مارسيلوس كان يستخدمه كي يدخل سرًّا إلى غرفة النصوص الهرمسية، وكان هذا اللوح الزجاجي هو اللوح الذي عادت منه چينا وأولر وسبتيموس إلى زمنهم.

بعد هذه التجربة الفاشلة، حبس مارسيلوس نفسه في غرفته، وقام بتنويم نفسه مغناطيسيًا؛ حتى يتذكر كل الفوارق الدقيقة التي لم يحفظها من التركيبة الخاصة باللوح الزجاجي الحقيقي العابر للزمن - أو هكذا ظن. وفي عملية تحديث جريئة للفكرة، أذاب مارسيلوس زوجين من الألواح معًا، ونجحت التجربة. كان اللوح الزجاجي الحقيقي العابر للزمن ضخمًا وقابلًا للكسر بمنتهى السهولة - كما كان خطيرًا. فبعد أن قام مارسيلوس بتركيبه في الغرفة العظمى للكيمياء **والطب**، أرسل من خلاله عددًا من الكتبة، لكن لم يعد منهم أحد. وبعد أن اختفى من خلال اللوح أعز أصدقائه، قرر ألا يخاطر بنفسه ويستخدمه، **وأغلق** عليه الباب.

ازدادت ثقة مارسيلوس بنفسه بعد ذلك، وبدأ يجري تجارب عملية. فقد أراد شيئًا خفيفًا وقابلًا للتنقل يستطيع أن يستخدمه ليجمع أسرارًا من الكيميائيين الممارسين **للسحر الأسود** في بلاد الليالي الطويلة. وبعد مرور

عدد يُتفاءل به من الأيام – مائة وتسعة وستين يومًا (حاصل ضرب ثلاثة عشر في ثلاثة عشر) – صنع مارسيلوس بنجاح زوجًا متوافقًا من الألواح الزجاجية. احتفظ بأحدهما في القلعة، وأرسل الآخر سرًا إلى زوجته برودا باي عبر طريق الملكة، كي يأخذه إلى الميناء. وسافر مارسيلوس إلى الميناء، وباشر عملية شحن اللوح الزجاجي على متن سفينته – لكن أثناء نومه، في أول ليلة له على متن السفينة، قام قبطان بدين عديم الضمير بنقل اللوح الزجاجي وباعه إلى دراجو ميلز باعتباره لوحًا زجاجيًا ترفيًا مبتكرًا. وسافر مارسيلوس باي، غير مدرك أنه خُدع، ووصل إلى بلاد الليالي الطويلة، ولم يكتشف هذه الخدعة إلا عندما أفرغ مخزن السفينة. فأبحر عائدًا إلى الميناء وهو يستشيط غضبًا، وفي نيته أن يطالب باستعادة ما كان ملكًا له، ليجد أن المخزن رقم 9 بات محجوزًا عليه. ورغم كل محاولاته، لم يتمكن من استعادة اللوح. وكان هذا اللوح هو الذي نفذت منه جينا ونكو وسنوري وأولر – ثم حطمه لافظ اللهب.

أما اللوح الزجاجي الآخر من هذا الزوج، والذي احتفظ به مارسيلوس في الغرفة العظمى للكيمياء والطب، والذي كان جاهزًا لنقله في أي وقت إلى بلاد الليالي الطويلة، فلم يعد له نفع الآن. ومن ثم، وضعه مارسيلوس على مضض في دولاب. بعد سنوات، وجد الدولاب طريقه إلى القصر، حيث استخدم هناك كدولاب لمعاطف مساعدي الطهاة. وكان هذا اللوح هو الذي نفذت منه جينا ونكو وسنوري وأولر، ووصلوا إلى زمن مارسيلوس.

بعد هذه التجارب، لم يصنع مارسيلوس أية ألواح زجاجية أخرى، وقرر في سره أنه يفضل الذهب – فعلى الأقل، يستطيع المرء مع الذهب أن يعرف «رأسه من رجليه».

هيوجو تندرفوت

لم ينس هيوجو سبتيموس قط، ولا الأوقات التي قضاها سبتيموس معه يعلمه بصبر كل ما تعلمه عن **الطب**. ولقد أدرك هيوجو، بعد أن أوصله السير هيروارد إلى بيته، ورأى السعادة والارتياح الشديدين على والدته مع عودته سالمًا، أن أسرته في نهاية الأمر يعنيها أمره، فزادت ثقته بنفسه كثيرًا. وعندما رآه مارسيلوس باي يقرأ في كتاب في **الطب** في وقت كان من المفترض أن يكون فيه في نوبة حراسة للباب، لم يغضب منه الرجل، بل عينه تلميذًا لديه. ولقد أصبح هيوجو بالفعل طبيبًا ماهرًا – رغم أنه لم يتمكن قطُ من علاج الصداع المزمن الذي أصاب إيزميرالدا.

والدة سنوري

تنحدر ألفرون سنوريلسن من عائلة يعمل أفرادها منذ زمن بعيد في التجارة، ومن ثم كانت تعتاد خروج السفن والتجار سنويًا إلى ذلك البلد الصغير الممطر الذي يقع على الجانب الآخر من البحر. وفي كل عام،

بعد الصقيع الأول – والذي يحل في وقت مبكر في هذه المناطق المظلمة من شمال العالم – تنطلق المراكب محملةً بالفراء، والبهارات، والصوف، والقطران، بالإضافة إلى الحلي والبضائع البسيطة.. وكانت هذه المراكب لا تعود إلا بعد يوم عيد منتصف الشتاء. وكانت ألفرون سنوريلسن تعلم دائمًا متى سيعود زوجها العزيز أولاف، ومع اقتراب موعد عودته كان الأصدقاء يلحون عليها ويقولون لها: «ألفرون، ألفرون، هل بات في وسعك الآن أن ترى سفنهم؟» وكانت ألفرون تستطيع ذلك دائمًا. لكن في العام الذي خرج فيه أولاف في آخر رحلة له، عندما سألها الأصدقاء (ألفرون، ألفرون، هل بات في وسعك الآن أن ترى سفنهم؟) هزت ألفرون رأسها. وحتى بعد أن ظهر أسطول المراكب في الأفق الشتوي الرمادي، ظلت هي تهز رأسها، لكن هذه المرة كانت تهزه من فرط اليأس؛ لعلمها بأن زوجها العزيز أولاف لن يعود أبدًا.

أطلقت ألفرون على ابنتها الرضيعة الاسم الذي اختاره أولاف ووضعه في أوراق إثبات عضويته. وعلى الرغم من أنه فعل ذلك لاقتناعه بأن مولوده سيكون ولدًا، حققت له ألفرون أمنيته وأطلقت على ابنتها اسم سنوري.

ولقد نشأت سنوري وحولها العديد من أخوات والديها، وأولاد كل هؤلاء، فضلًا عن الجدات والأجداد. وكانت سنوري طفلة سعيدة ومرحة، ولم تشعر بالاستياء إلا عندما عثرت على أوراق إثبات العضوية، وكانت حينها في الثالثة عشرة من عمرها. وعلى الرغم من أن والدها ما كان يخطر على بالها كثيرًا من قبل، فقد اشتاقت الآن لأن تبحر في نفس

الطريق الذي كان يبحر فيه، وأن تتبع خطاه وتدخل القلعة الموجودة في البلد الصغير الممطر في الجهة المقابلة من البحر، وأن تشرب مشروب الربيع الخاص في مقهى سالي مولن ذائع الصيت. وباعتبارها أيضًا رائية للأرواح، فقد كانت تشتاق أيضًا لأن ترى شبح والدها من خلال هذه الرحلة.

عندما أخبرت سنوري والدتها بنيتها في السفر بحرًا للتجارة في الموسم القادم، أصابها الذهول، ثم ذكرت لابنتها مخاطر البحار، وقالت لها إنها أصغر بكثير من أن تبحر للتجارة بنفسها، وإنها فتاة، والفتيات لا يبحرن للتجارة، وفوق كل ذلك ما الذي تعرفه سنوري عن أثمان الفراء وأنواع الأقمشة الصوفية.

إنها بالفعل لا تعلم شيئًا عن ذلك، لكنها تستطيع أن تتعلم. وعندما عثرت والدتها ذات يوم على أوراق دليل التجار التي جمعتها سنوري مدسوسة أسفل سريرها، وألقتها في الموقد المكسو بالبلاط، أخذت سنوري أولر وانطلقت من بيتهم الخشبي الصغير الذي يطل على الميناء وهي تستشيط غضبًا، وتوجهت إلى الألفرون. تكهنت والدتها أين ذهبت وتركتها، اعتقادًا منها أن قضاء سنوري ليلة باردة غير مريحة على متن المركب سوف يجعلها تعود إلى صوابها في صباح اليوم التالي. لكن في صباح اليوم التالي، كانت سنوري قد انطلقت مع حركة المد، والتقط المركب الرياح الجنوبية، وسرعان ما كانت سنوري متوجهة إلى الساحل لتجمع أول شحنة لها كتاجرة. أما والدتها ألفرون فقد كانت في حالة انهيار، وأرسلت خلف ابنتها زورق تجديف سريعًا من تلك الزوارق

الخفيفة الطويلة، لكن هبت ريح فجائية ذلك الصباح، ورغم أن مجدفي الزورق لمحوا المركب، فقد كان من المستحيل اللحاق به.

وهكذا رحلت ابنتها بعيدًا، لكن ألفرون لم تلم أحدًا إلا نفسها.

والد سنوري

عندما علم أولاف سنوريلسن أن زوجته العزيزة تنتظر مولودهما الأول، تحمس بشدة. فأخذ أوراق إثبات عضويته إلى مكتب الرابطة، وأصر على تسمية طفله الأول سنوري كوريث له. وبعد أن وعد ألفرون بأن هذه الرحلة ستكون الأخيرة إلى أن يشب سنوري ويستطيع أن يبحر معه، انطلق أولاف بقلب مثقل إلى رحلته التجارية.

وصل أولاف إلى قلعة البلد الصغير الممطر في وقت متأخر، ولم يجد المناخ مشجعًا في سوق التجار. وفي تلك الليلة، ذهب إلى حانة الترسة الممتنة (وهو نزل من النزل التي يفضلها التجار ويقع خارج القلعة مباشرة) كي ينسى همومه بالطريقة التقليدية التي اعتادها تجار الشمال، والتي كان بسببها يُحرمون من دخول معظم نزل القلعة. وفي طريق عودته وحيدًا عبر الجسر ذي الاتجاه الواحد، تعثر أولاف واصطدم رأسه بالسور الجانبي للجسر، ثم عثر عليه مزارع كان في طريقه إلى السوق صباح اليوم التالي ميتًا ومتجمدًا.

مكث شبح أولاف سنة ويومًا واحدًا عند الجسر، كما لا بد أن يمكث كل شبح في الموقع الذي دخل منه إلى عالم الأشباح، واختار أولاف

ألا يظهر لأحد، لكن الجسر استقر حوله برد شرير، وادعى الكثيرون أنهم بعد عبور الجسر يجتاحهم إحساس كئيب. وكاد حال الحانة أن يتوقف بما أن الكثيرين باتوا لا يعبرون الجسر في المساء إلا على مضض. وما إن انتهت فترة السنة واليوم الواحد حتى انطلق أولاف سنوريلسن إلى حانة فجوة السور، ولم يترك المكان منذ ذلك الحين.

الألفرون

ظل المركب محجوزًا عليه عند رصيف الحجر الصحي مع تدهور حاله طوال شهور الشتاء الطويلة، حتى علاه جو بائس ورائحة الرطوبة التي تميز المراكب المهملة. عندما اكتشفت جينا مكان المركب، طلبت من جانيت مارتن أن تسحبه إلى ساحة مراكب القلعة، لكن قبل أن تصل جانيت إلى الألفرون، كان المركب قد اختفى.

الفتى الذئبي

بعد أن ترك الفتى الذئبي الألفرون، جدف عبر النهر ووجد سام هيب يضحك من منظره وهو يجدف بمجاديف الزورق الوردي. ولقد رحب به أفراد معسكر هيب - وهو المعسكر الذي يعيش فيه الإخوة هيب الآخرون - وعلى الرغم من كل الدعابات الساخرة التي كان يتلقاها منهم عن ذوقه الرديء في المراكب، كان الفتى الذئبي سعيدًا بعودته إلى

المعسكر. إلا أنه أحبط بعد أن فشل في إقناع أيٍّ من الإخوة بأن يساعدوه في العثور على سبتيموس. ولعلمه أن مهاراته في التعقب لن تجدي في العثور عليه؛ لانعدام أي أثر له يستطيع أن يلتقطه - قرر الفتى الذئبي أن الإجابة ستكون لدى العمة زيلدا. فأخذ الزورق الوردي الذي بسببه نال ما ناله من سخرية، وأبحر به في النهر إلى الميناء، ثم انطلق في طريقه من خلال الممر الصاعد الذي يؤدي إلى مستنقعات مرام. وهنا، أفادته مهاراته في التعقب؛ إذ تتبع أثر الغول ووصل بأمان إلى كوخ العمة زيلدا، ليجد چينا هناك، والتي كانت قد حضرت توًّا عبر طريق الملكة لتعيد المسدس الفضي إلى العمة زيلدا.

وهكذا، مكث الفتى الذئبي مع العمة زيلدا التي يئست من محاولة تعليمه القراءة، وبدأت تعلمه الأمور التي يحتاج بالفعل أن يعرفها - وهي أمور عن القمر والنجوم، والأعشاب والجرعات، وما إلى ذلك من العلوم المرتبطة بالساحرات البيضاوات. وكان الفتى الذئبي تلميذًا محبًّا للعلم وموهوبًا، ولم يمض وقت طويل حتى بدأت العمة زيلدا تتساءل في سرها عما إذا كان من الممكن كسر القاعدة وتعيين الفتى الذئبي حارسًا.

لوسي جرينچ

وصلت لوسي جرينچ بسلام إلى الميناء في زورق نكو. كان الوقت منتصف الليل تقريبًا، وربطت لوسي الزورق في جدار الرصيف، ثم تقوقعت في عباءة سايمون وحاولت أن تنام.

في صباح اليوم التالي، اشترت لوسي فطيرة من محل فطائر الميناء والرصيف. لاحظت مورين، مالكة المتجر، مدى شحوب لوسي، وإحساسها بالبرد، فعرضت عليها مكانًا بجانب النار في المطبخ كي تجلس وتتناول فطيرتها. التهمت لوسي الفطيرة بنهم، واشترت على الفور فطيرتين أخريين واحدة تلو أخرى، وثلاثة أكواب من الشيكولاتة الساخنة، وبعد أن أجهزت على كل ذلك استسلمت للنوم بجانب النار. تركتها مورين نائمة، وفي وقت متأخر من هذا اليوم ردت لوسي الجميل بأن غسلت صحون الفطائر وصحون التقديم في المحل. ولأن مورين أحبت لوسي، وكانت ممتنة لما قدمته لها من مساعدة، عرضت عليها أن تنام في سرير في ركن من المطبخ في مقابل أن تساعدها في المحل. وافقت لوسي، وقد أسعدها أن تجد مكانًا للإقامة دافئًا وودودًا، يتوافد عليه زبائن يوفرون لها موردًا ثابتًا تستطيع أن تستفسر منه عما إذا كانوا قد قابلوا سايمون أم لا.

ولكن خابت آمال لوسي، فلا أحد من الزبائن قابله.. وفي إحدى الليالي، وكان الوقت متأخرًا، لمحت لوسي جُرذًا في الركن يقرض فتافيت لم تلمحها مكنستها. ولأن لوسي تحب الجرذان فلم تطرده كما كانت مورين ستجعلها تفعل.

أخذت لوسي تراقب الجُرذ لعدة دقائق، ثم همست قائلة: «أنت ستانلي؟».

بدا الذهول على الجُرذ ورد قائلًا: «نعم!».

فسألته لوسي: «أنت ستانلي، أليس كذلك؟ ألا تتذكرني، أنا كنت أُطعمك البسكويت عندما حبسني أبي - أنت تبدو أكثر امتلاءً الآن».

رد ستانلي معلقًا: «وأنت أيضًا يا لوسي تبدين أكثر امتلاءً». ولقد كان محقًا؛ إذ إن لوسي كان يستحيل عليها الكف عن تناول الفطائر.

وهكذا، عثرت لوسي أخيرًا على طريقها إلى سايمون هيب. فستانلي، وهو جُرذ رسول سابق وعضو سابق في جهاز مخابرات الجرذان، كان يعلم مكان سايمون - رغم أن ذلك اقتضى الكثير من الشجار والإنصات لساعات عن ذكريات ستانلي قبل أن تكتشف لوسي ما الذي يعرفه. كان موعد الصقيع العظيم قد حل عندما وافق ستانلي أخيرًا على فكرة أن يأخذ لوسي إلى بلاد الأشرار، ولم ينطلقا إلا في ربيع العام التالي.. وأخيرًا جمع الشمل بين لوسي وسايمون من جديد.